واسيني الأعرج

كِتَابُ الأمير

مَسَالِك أبوَابِ الحَدِيد

رواية

دار الآداب

واسيني الأعرج

كتاب الأمير

دار الآداب - بيروت

كتاب الأمير

واسيني الأعرج/روائي جزائري

الطبعة الثانية عام 2008
ISBN 978-9953-89-059-3

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

« في انتظار القيام بما هو أهمّ، أعتقد أنّه صار اليوم من واجبي الإنساني أن أجتهد باستماتة في نصرة الحقّ تجاه هذا الرجل و تبرئته من تهم خطيرة ألصقت به زوراً و ربما التسريع بإزالة الغموض و انقشاع الدكنة التي غلّفت وجه الحقيقة مدة طويلة » .

Monseigneur Dupuch ***مونسينيور ديبوش*** *

Si tous les trésors du monde étaient déposés à mes pieds et s'il m'était donné de choisir entre eux et ma liberté, je choisirai la liberté.

L'Emir Abdelkader ***الأمير عبد القادر***

- I -

بابُ المِحن الأولى

الأميرالية (١)

٢٨ جويليه ١٨٦٤ فجراً. الرطوبة الثقيلة والحرارة التي تبدأ في وقت مبكر. الساعة تحاذي الخامسة. لا شيء إلاّ الصمت والظلمة ورائحة القهوة القادمة من الجهة الأخرى من الميناء، ممزوجة بهبات آخر موجة تكسرت على حافة الأميرالية، التي كانت تبدو كظلال داكنة هاربة نحو ساحل البحر ليغيب جزؤها الأمامي تحت كتل الضباب التي بدأت تلفّ المكان شيئًا فشيئًا

لا شيء إلاّ الصمت والتموجات الهادئة لبحر مثقل بالسفن والأحداث.

أضواء خافتة، تكاد لا تُرى من وراء الجبل العالي، ما تزال تقاوم سواداً كثيفاً بدأت تخترقه بعض الهالات الذهبيَّة التي كانت تندفن وراء ظلمة لا تكاد تُظهِر إلاّ خطوط القمم الفاصلة بين الجبل

والسماء. عندما رأى جون موبي[1] زورق الصيَّاد المالطي يقترب من حافة الأميرالية، لوح له بالقنديل الزيتي الذي كان بيده، مرات عديدة، قبل أن يطفئه ويضعه بمحاذاة الحائط القديم الذي يفصل البحر عن اليابسة. أخذ جون موبي كيسه. دفع بالأكاليل الثلاثة نحو القارب، ثم مدَّ يده نحو الإكليل الرابع الذي كان أكبرها. ساعده المالطي على وضعه في الجهة الأخرى من القارب حتى لا ينفرط. مدَّ جون موبي رجله اليمنى بحذر، وبمساعدة الصيَّاد، ألحق الرجل اليسرى حتى صارت كلها داخل القارب. جلس قليلاً وهو يتنفس بصعوبة. رتّب أشياءه وهندامه بحذر شديد ثم تنفس عميقًا. أغمض عينيه قليلاً ثم همهم خوفًا من أن يسمعه آخرون:

ـ حركاتي صارت اليوم ثقيلة جدًا. بدأنا نكبر ولم يعد الجسد يسعفنا مثلما كان. عذراً يا أخي، كلُّ شيء تكاتف ضدنا: الشيخوخة والأمراض وقسوة الحياة.

ـ لا تهتم يا سيِّدي جون. ما تزال البركة. نمشي؟

ردَّ جون موبي بآلية:

ـ يا اللّه. نمشي.

عندما فتح جون موبي عينيه على وقع هسهسة المجذافين وهما يشقّان عمق البحر، كان الزورق قد ابتعد قليلاً عن الميناء وزيت السفن والأميرالية. فتح الحقيبة الجلديَّة القديمة، ثم أخرج بوقالات الأتربة التي كان خائفًا عليها من الانكسار.

---

١ ـ Jean Maubet

ـ أنت تعرف قيمتها. لقد حملت هذه التربة من بوردو، وأخاف عليها أن تتبعثر قبل وقتها في مكان غير المكان الذي حدّده مونسينيور ديبوش.

ـ المؤكد أنّك كنت تعرفه جيّداً؟ تساءل الصيّاد المالطي.

ـ مونسينيور أنطوان ديبوش[1]؟ كان أبي وأخي. كان كل شيء في حياتي. خدمته أكثر من عشرين سنة، جئت معه إلى هذه الأرض عندما عُيِّن أسقفاً على الجزائر وصاحبته في كل منافيه إلى أن مات.

ـ تأخرتم كثيراً في نقل رفاته، ثماني سنوات بعد موته؟ كثير. ألم يكن ممكناً نقله مباشرة بعد وفاته؟ ربما أسعده ذلك وأراحه على الأقل في قبره.

ـ وماذا يستطيع خادم مثلي أن يفعل سوى أن يذكِّر ذوي الشأن من حين لآخر. وصيّته ظلّت عالقة في القلب. اشكر اللّه أنّها وجدت مسلكها اليوم، وأنّ مونسينيور دو بافي[2] توصل إلى إقناع العائلة وسكان بوردو كذلك الذين منحوه كل محبتهم بضرورة تنفيذ الوصية. يجب أن لا ننسى هذا Mieux vaut tard que jamais. هكذا يقول الذين اختبروا الحياة.

ـ معك حقّ.

كان قارب الصيّاد المالطي ينزلق بهدوء على سطح الماء، مخلفاً وراءه بياضات وفقاعات صغيرة. لا شيء كان يُسمع من بعيد وسط

---

١ ـ Monseigneur Antoine Dupuch

٢ ـ Monseigneur de Pavy

هذه السكينة وهذا الصمت الكنسي إلاّ صوت الماء وهو ينكسر تحت وطأة المجذافين وهما يغوصان عميقًا في البحر مخلّفين وراءهما خطًا مستقيمًا مثل الذي يحرث في الماء.

ـ هل يريد سيّدي أن نتوغل أكثر نحو العمق؟

ـ نحو أبعد وأنظف نقطة حيث لا زيوت ولا نفايات. حيث لا شيء سوى الصفاء والنور والحياة الصامتة للأشياء كما في بدء الخليقة. مونسينيور ديبوش كان يحب الماء والصفاء والنور والسكينة على الرغم من الظروف القاسية التي لم تمنحه إلاّ المنفى والجري وراء سعادة الآخرين حتى نسي نفسه. لقد منح كل شيء للدنيا ونسي أنّه هو كذلك كائن بشري، في حاجة لمن يأخذه من الكتف بشوق ومحبة ويحسّسه بوجوده.

ـ الناس الكبار دائما هكذا لا نعرف قيمتهم إلاّ عندما ينطفئون مخلّفين وراءهم ظلمة كبيرة وحيرة وخسارة لا تعوض وأسئلة تجرح الحلق والذاكرة.

عاود الصيّاد المالطي تجذيفه باتجاه الأعماق حيث تنتفي الأشكال وتتداخل لتصير شيئًا واحداً. واصل حركاته الآلية قبل أن يترك القارب يتحرّك من تلقاء نفسه نحو شمس، كان يستعصي عليها الخروج النهائي من دكنة السواد التي بدأت تنسحب شيئًا فشيئًا مخلّفة وراءها هالة ذهبيّة كان جزؤها السفلي ينزلق على سطح الماء.

ـ سنميل عقدة نحو الشمال حتى نبتعد قليلاً عن طريق السفن التي تدخل الميناء. هكذا نكون على الأقل في مأمن.

ـ السفينة التي تقلّ مونسينيور ديبوش ستصل بعد الظهر. أنا متأكّد اليوم أنّ مونسينيور ديبوش سيكون أسعد إنسان حتى وهو في تابوته. تربته ستنشر على هذه المياه، تماماً في الموقع الصافي الذي عندما ضاقت عليه سبل الدنيا، خرج منه ولم يلتفت وراءه مخافة أن يموت بالشهقة. عظامه ستجد أخيراً مأواها الطبيعي على هذه الأرض التي أحبها، خرج منها تحت ضغط الجشعين وهو يشعر بجوع لا يوصف نحوها

بهدوء كبير، حرّك الصيّاد من جديد المجذافين ليندفن الزورق فجأة في عمق البياض الذي خلّفته الأشعة الشمسيّة الأولى وقد خرجت من وراء الجبل الذي يطوّق المدينة. كانت مفرطة النور، متوغّلة في الضباب الذي بدأ يتصاعد من البحر ويغلف القارب الصغير الشعاع الذي تسرّب مثل الشلال، أعطى لمعاناً خاصاً للأتربة التي نثرها جون موبي مثلما تنثر حبات اللؤلؤ في فضاء واسع.

ـ هذه الأتربة التي وطئها مونسينيور أو نام عليها للمرة الأخيرة. إنّها ترابه الذي أحبّه وانتهى إليه باستكانة. هكذا أوصاني، أن أزرع تربة رفاته مثل الذي يزرع حبوباً في فضاء واسع، ستنبت يوماً خيراً وطيبة.

لم يردّ الصيّاد المالطي ولكنّه واصل توغله في عمق البحر، وسط ضباب حليبي ازدادت كثافته كلّما توغّل الزورق أكثر. لم يكن هناك أيّ أثر لأيّة موجة أو حركة باستثناء وقوقات النوارس التي بدأت تملأ الأمكنة بأعدادها الهائلة ويشعران بها على رأسيهما. كلّما رمى جون موبي حفنة تراب، تجمّعت بقوة ثم غطست بمناقيرها الدقيقة في سطح البحر محدثة صوتاً ناعماً وحاداً.

انحنى جون موبي مرة أخرى. تلمس الماء الدافئ. بان صفاؤه الكبير عندما تلألأت حباته المتسربة من بين أصابعه. أخذ الإكليل الأول ثم حطَّه بهدوء على سطح البحر بحذر كبير، كأنَّه كان خائفًا من تلاشيه. في لحظة من اللحظات رأى جون موبي البحر كعروس تستقبل إكليل الزفاف وتكتم بصعوبة سعادتها القصوى التي ارتسمت في عينيها المنكسرتين قليلاً

استقام جون مرة أخرى في جلسته بعد أن شعر بآلام الظهر، وهو يحاول أن يفهم هذا اللون النيلي الذي كان يتدحرج داخله القارب القديم ويتحسس الرائحة التي تسرَّبت قوية إلى أنفه مثل العطر مانحة إيَّاه شهوة التنفس عميقًا

أخذ حفنة أخرى من التربة وطوَّح بها بعيداً حيث ذابت في بياض الضباب، ثم استرق السمع إليها وهي تتساقط الواحدة تلو الأخرى على سطح البحر مثل رشاش المطر الربيعي الذي يسمِّيه سكان البلاد سلم ـ نام.

ـ الآن صار مونسينيور ديبوش في عمق البحر. لم يكن يحلم بعرس أفضل من هذا. أنا سعيد من أجله وأنَّه تخطَّى أخيراً عتبات المنفى القاسي الذي عاشه.

كانت الأشعة قد اخترقت جزئيًّا الضباب الكثيف مخلّفة وراءها إشعاعًا قويًّا غطى على الظلال الفجريَّة الأخيرة، وكسا البحر بغلاف يشبه في لمعانه انعكاسات المرايا العملاقة.

ـ ارتبط بهذه الأرض فدافع عنها باستماتة ودافع عن رجلها الكبير، الأمير، مثل الذي يدافع عن كتاب مقدَّس. استمات في

الدفاع عنه حتى جعل حياته كلّها رهن إطلاق سراحه. البارحة قضيت الليلة بكاملها أفلي كلماته الأخيرة التي كنت أظن عبثًا أنّي أعرفها عن ظهر قلب، لأفهم عميقًا سر هذا الحب. الأمير كان وسيلته للوصول إلى المحبة العليا.

ـ الحقّ أحيانًا فوق الأديان.

ـ الرجل الحقّ هو الذي يجعل من الحقّ ضالته. مونسينيور لم يفعل أكثر من ذلك طوال عمره، وكان يظنّ نفسه دائمًا مقصرًا في حقّ الذين يطلبون عطفه وحنانه.

هدأت أصوات النوارس ولم تعد تسمع وقوقاتها التي كانت تملأ المكان قبل قليل بعد أن يئست من صيدها. وضع الإكليل الثاني بهدوء كبير مثلما فعل مع الأول ثم قام بكل استقامة وطوّح بعيداً مرة أخرى بحفنة من الأتربة التي ذابت في عمق السماء تحت شعاع منعه تمامًا من النظر إليها وهي تسقط واحدة واحدة. عندما وضع يده على جبهته لكي يقي عينيه من حدّة النور، رأى البحر وقد مال لونه نحو خضرة زيتيّة باردة هي نفسها التي رآها عندما دخل هذه الأرض لأول مرة بصحبة مونسينيور ديبوش في سنة ١٨٣٨ وأثار وقتها انتباه مونسينيور ديبوش.

ـ مونسينيور، هل رأيت؟ بحرهم أخضر وليس أزرق مثل بحرنا؟

ـ كل بحار الدنيا متشابهة يا عزيزي جون. اذا أردت أن تعرف أسرار الماء أدخل البحر فجراً وسترى كل عبقرية الله في الألوان والتوليف.

لم يكن مونسينيور ساعتها يعرف وهو يرمي بكلماته في عرض البحر أنّه كان يفتح عيني على عالم لم أكن أسمع به إلاّ في الكتب والقصص العجيبة.

عندما أخرج جون موبي كفَّه للمرة الثالثة من البوقال الرخامي ممتلئة بالتربة، رأى وجه مونسينيور مكسواً بالنور وعلى رأسه هالة من الألوان. كان قلبه حزيناً وكئيباً. أول مرة ينزل في أرض الحرب وهو الذي تعلَّم في سيمينار باريس أن يجتهد في إقناع الناس بحب بعضهم بعضاً العالم كان يتغيَّر بسرعة كبيرة. رآه وهو يستلم تمثال العذراء السوداء البرونزي من يد مونسينيور دي كيلين De Quéléne أسقف باريس في سنة ١٨٣٨ كهدية من داخلية الساكري ـ كور بالقرب من مدينة ليون. ثم رآه وهو يقاوم دمعته المنكسرة ويكتب باستماتة رسالته إلى الأمير يُناشده فيها إطلاق سراح زوج المرأة التي جاءته في ليلة عاصفة تطلب منه أن يتدخَّل لإنقاذ زوجها

ـ مونسينيور كان يعرف جيِّداً ما معنى أن يفقد الإنسان حريَّته. نشعر بالعطش نفسه نحو هذه الأرض. قال لي ذات مرة وهو طريح الفراش: أتمنَّى أن يمدَّني اللَّه بعمر آخر لأخدم هذه الأرض التي حرمت منها في وقت مبكِّر سأعطيها رفاة الجسد إذا كان رماد تربتي يسكت الأحقاد ويوقظ حواس النور والحب في قلوب الناس. لم يكن مونسينيور يدري أنَّه كان يقطع وعداً على نفسه سيكبّله حتى موته.

ـ عندما يكون الضباب على سطح البحر، أشعة الشمس الفجريَّة تزداد بياضاً ونصاعة ويزداد اللون النيلي عمقاً مونسينيور لا يمكنه أن يحلم بيوم أفضل من هذا لرؤية المدينة للمرة الأخيرة قبل أن يرتاح نهائيًّا على هذه التربة التي اختارها مأوى له.

ـ هكذا كان سيِّدي يشتهي أن يبعثر رماد تربته في كل الأطراف علَّه يطفئ النيران المشتعلة في أعماق الناس. منذ أن غادرْنا

هذه الأرض، أنا وهو، في ذلك الفجر، حدثت حالة بياض في الذهن سرعان ما امتلأت من جديد عندما وجد نفسه في مواجهة الأمير الذي حاوره وأحبّه حتى قبل أن يراه.

كانت خيوط الشمس الأولى قد اتضحت تمامًا واختلطت ألوانها بلمعان سطح البحر والنسيم الخفيف الذي تسرَّب إلى أنفه. تنفس جون موبي عميقًا قبل أن يترك نَفَسه يتهاوى تحت دوخة المكان. أغمض عينيه وترك نَفَسه يتهاوى ثم غرق وسط كتلة الضباب التي غمرت القارب بكامله.

زادت سكينة الماء أكثر على الرغم من تسارع المجذافين بيد الصياد الذي دفع بقاربه إلى أقصى نقطة في عمق الساحل لوضع الإكليل الأخير. عندما التفت جون إلى الوراء، لم ير شيئًا غاب الميناء والأميرالية التي لم تظهر إلاّ بعض أعاليها. وانطفأت القصبة ببناياتها البيضاء التي تعودت أن تتسلّق الجبل الذي يعطي ظهره للبحر.

جنح القارب مرة أخرى قليلاً نحو اليمين تحت هزات عنيفة للماء، متفاديًا كثافة الضباب وصوت السفينة التي لم تمر بعيدًا عنهما، لم يرها ولكنّه سمعها وهي تقترب من الميناء، تمخر الأمواج وتشقّ صدر البحر الأملس كمرآة. ثم مرة أخرى عاد الصفاء إلى المكان وعاد الماء إلى وضعه الأول. تدحرج القارب أكثر نحو اليمين، بعيدًا عن الأميرالية التي غابت هذه المرة نهائيًا وتحوّلت إلى مجرد ظلّ هارب نحو فضاء غير محدّد، ظلت الأنوار تتكسر عليه بقوة لتدفع به نحو التلاشي. فجأة، يفتح جون عينيه على معالي قلعة ماتيفو[١]

---

١ - Matifou

التي أطلت بأعناقها المتعددة عاليًا عاليًا نحو شمس زادها الضباب الكثيف نصاعة وصفاء.

فجأة توقف المركب وكأنَّه وجد أخيراً مركز الأرض الذي ظلّ مدة طويلة يحوم حوله.

ـ أعتقد أنَّنا لا نستطيع التوغُّل أكثر. ممنوع. وإلاَّ صرنا في مرمى البوارج الحربيَّة. حدود الصيد تتوقف عند هذه الحافة. في الأسبوع الماضي سُجن أحد الصيَّادين المالطيِّين لهذا السبب.

تمتم الصيَّاد وهو يحاول أن يدور برأس الزورق تجاه قلعة ماتيفو مرة أخرى، صوب أقصى درجات النور الفجريّ، في أجلى صوره النقيّة قبل أن يلامس زيوت البواخر الوافدة من بعيد والوجوه المتكلّسة التي تملأ الميناء.

ـ الآن إذن؟

ـ نعم الآن.

انحنى الرجلان عميقًا على حافة الزورق الذي مال قليلاً على جنبه الأيمن، ثم حملا، كل واحد من جهة، الإكليل الكبير المرصَّع بالنوار والأقحوان والنباتات الحيَّة ثم انحنيا في وقت واحد ووضعاه على وجه البحر في النقطة التي حدّدا أنَّها الأكثر صفاءً. تدحرج الأكليل في مكانه قليلاً ثم غاب في غمرة النور والضباب.

ـ الآن انتهى كل شيء وهدأت الروح قليلاً أشعر بثقل انزاح نهائيًا من على صدري. مونسينيور ديبوش يستحقّ أن نتعب من أجل روحه.

ـ الوعد دين.

ـ لقد وعدته وهو على فراش الموت أن أفعل ما أفعله اليوم قبل نقل جثمانه إلى الجزائر. لم يطلب الشيء الكثير. كم كنت أخاف أن أموت وأن لا أقوم بما يجب القيام به. الوعد على الرقبة صعب. ومع مونسينيور أكثر صعوبة.

ـ ها قد منحك الله ما كنت تنتظره.

ـ الآن يحقّ لي أن أصطف مع الناس الذين غادرتهم منذ أكثر من ثلاثين سنة وأنتظر مع القادمين وصول رفاته إلى هذه الأرض، وإذا منحني مونسينيور بافي بعض بركاته سأكون من الوفد الذي سيحمل رفاته ويضعه مؤقتًا في الأميرالية في انتظار الانتهاء من إنجاز القبر في الكاتدرائيَّة.

ـ هل كلمت مونسينيور بافي عن الأمر.

ـ مباشرة لا ولكنَّه يعرف كل شيء ولم يمانع في أيّ شيء ما دام ذاك يدخل في وصيّة مونسينيور ديبوش. لقد بذل مجهوداً كبيراً لنقله إلى هذه الأرض.

كان البحر مثل المرآة. لونه تغير من زرقة حادّة في مثل هذا الموسم إلى لون نيلي يميل نحو البنفسجي الغارق في بياض ناصع رغم بياض الفجر. شيء نادر في هذا الصيف. يزداد ثقل الرطوبة. البارحة كان البحر عاصفًا ومجنونًا على غير عادته في مثل هذا الفصل، اليوم، الوضع تغيَّر كثيراً. الضباب الكثيف والبخار المتصاعد من كل مكان لم يمنعا الزورق من الدخول في عمق البحر.

تمدَّد جون موبي في القارب القديم، رأى الأشعة التي كانت قد بدأت تدفئ المكان والنهار الذي أصبحت كل ملامحه واضحة. أخرج كتاباً من تحت لباسه الفضفاض الذي يشبه لباس الرهبان وفتحه على الصفحة الأولى وبدأ يقرأ بالتدرج. رأى العنوان الذي كان يرتسم بخطوط عريضة وواضحة جداً:

عبدالقادر في قصر أمبواز.

مهدى إلى السيّد لويس نابليون بونابرت، رئيس الجمهورية الفرنسية.

بقلم مونسينيور أنطوان ـ أدولف ديبوش أسقف الجزائر السابق.

ثم في أسفل الصفحة كلمة بوردو مكتوبة بخط بارز وتحتها:

الطبع والليتوغرافيا ل: ح. فاي. شارع سان كاترين، ١٣٩ أفريل ١٨٤٩

ورقّه قليلاً بين يديه قبل أن يفتحه على أوراق البداية.

لا يعرف جون بالضبط ما هو الداعي لكل هذه التفاصيل ولكنَّه أحسَّ أنَّ كل ما كان يلمسه كانت له قيمة ما. ليلة البارحة قضاها في إعادة قراءته. كلَّما فتحه عرف لماذا اختار مونسينيور أرض الجزائر كمأواه الأخير. عندما قلب الصفحة بانت صورة ليتوغرافيَّة لمونسينيور ديبوش بالحبر الصيني الغامق هي نفسها التي كان يعلّقها الأمير في البهو المؤدي إلى الصالون الذي كان يستقبل فيه ضيوفه في سجن قصر أمبواز يبدو مونسينيور في الليتوغرافيا هادئًا وقريباً من مصوره، ينظر نحو أفق غامض بعيداً عمّا كان يحيط به، بلحيته

السـوداء المنسـدلة على صـدره والتي تكاد تغطي الجانب العلوي من الصليب الذي كان يتدلّى بارزاً من عنقه. اللباس الفضفاض الأسود الذي كان يرتديه أعطاه سمنة غير حقيقيَّة. أما قبضة يده اليمنى التي كانت تنام على ركبته فقد برز على سبابتها خاتم خشن لم يتركه مونسينيور ديبوش حتى مات. بينما اليد اليسرى، كانت تحتضن الإنجيل وتقبض عليه بلهفة كبيرة مخافة ضياعه.

قلَّب جون موبي الصفحة التالية، تمتم وهو يقرأ افتتاحية الكتاب قبل أن يغرق في تفاصيل الخطوط وضباب الكلمات وصراخات مونسينيور ديبوش التي كانت تأتي من بعيد مكتومة وكأنَّها كانت تأتي من بئر عميقة:

«أعود للتو من قصر أمبواز، قضيت أيامًا عديدة تحت سقفه المضياف، في حميميَّة نادرة مع ألمع سجين عرفه القصر أعتقد أنَّني أكثر معرفة من غيري بعبد القادر وأستطيع اليوم أن أشهد بالحقّ من يكون هذا الرجل. للأسف، أثناء عودتي إلى بوردو، صادفت أناسا كثيرين أهلاً لكل ثقة، لديهم فكرة غير دقيقة وناقصة عن هذا الرجل مما سيتسبب حتمًا في تأخير تجلي الحقيقة إلى يوم غير معلوم. وأظن صادقًا لو أنَّ كل الفرنسيين عرفوا عبدالقادر مثلما أعرفه اليوم، لأنصفوه في أقرب وقت. لهذا أتصور أنَّه من واجبي الإنساني أن أفعل شيئًا في انتظار القيام بما هو أهم...»

كان الضباب قد غمر المركبة ولفّها كمن يغطي جسداً هشًّا يخاف عليه الانكسار ذاكرة جون موبي، على الرغم من مشقة السفر، ازدادت حدّة وصفاء وسط كومة غير محدودة من التفاصيل التي تزاحمت دفعة واحدة في رأسه.

* * *



الوقفة الأولى

مرايا الأوهام الضائعة



- ١ -

١٧ جانفيه ١٨٤٨ نزع مونسينيور ديبوش الورقة من الرزنامة بنوع من الانفعال وهم برميها، ثم عدل عن الفكرة بشكل آلي قبل أن يدفنها بين بقية الأوراق التي كانت تملأ الطاولة. غمس قلمه في الحبر فشعر بخشونة ما.

- جون، قليل من الماء الساخن من فضلك. هذا الحبر ثقيل ويعطّل حركة القلم.

- أمرك سيِّدي.

- هل تعرف يا جون هذا اليوم؟

- كيف لا وأنا أرى يوميًا سيدي يعدّ الأيام بقلق كبير؟

- معك حقّ. عندما ندافع عن قضية نصير مرضى بها.

وضع مونسينيور ديبوش قليلاً من الماء الذي قلّل من سواد الحبر وتخثره، ثم انحنى من جديد على الورقة التي كانت بين يديه.

رفع رأسه نحو السقف للمرة الأخيرة بحثًا عن جملة كانت على رأس الذاكرة قبل أن تذوب داخل فيض الكلمات المتزاحمة. تحسس قليلاً الريشة التي كانت تدور بين أصابعه ثم تركها تنزلق على الورقة مع تمتمات لم يستطع كتمها:

«الأحقاد أحيانًا تعمي البشر. الحلّ الوحيد المتبقي بين يدي هو أن أبدأ في كتابة هذه الرسالة إلى رئيس الجمهورية لويس ـ نابليون بونابرت. رسالة لا شيء فيها إلاّ ما رأته العين أو أملاه القلب. الأوضاع تغيَّرت، ولا بدَّ أن يكون لويس ـ نابليون بونابرت الذي عرف المنفى يدرك اليوم قسوة الظلم والضراوة التي يشعر بها الإنسان وهو بعيد عن التربة التي نبت فيها، بعيد عن الوجوه التي يصادفها يوميًا قبل أن تنطفئ في انشغالات الدنيا الصعبة، وعن الأرض التي كلَّما شمَّ ترابها ازداد قربًا من آلامها».

منذ البارحة ومونسينيور يهيئ أقلامه وحبره مثل طفل صغير لكي يكون حرفه واضحًا وكلماته مسموعة. توقف قليلاً عن الكتابة وفتح القصاصات الصحفيَّة لجريدة المونيتور[١] التي يحتفظ بها بشكل مرضي خوفًا من أن يضيع منه أيّ تفصيل من تفاصيلها سطَّر على بعض التواريخ والكلمات قبل أن يعود من جديد إلى الكتابة.

عندما سمع مونسينيور أنطوان ديبوش[٢] دقة الجرس الثالثة كان قد لملم الرسائل والأوراق التي سهر ليلة البارحة على ترتيبها واحدة واحدة. دقق للمرة الأخيرة في نسخ جريدة المونيتور الموضوعة على الطاولة الخشبيَّة القديمة بعد أن قام بفليها حرفًا حرفًا وجملة

١ ـ Le Moniteur

٢ ـ Antoine Adolphe Dupuch

جملة. وضع على رأسه معطفه القديم ليقي نفسه من الأمطار الغزيرة وخرج بسرعة:

- Oui ! j'ai entendu, le monde ne va pas s'écrouler.[١]

- Monseigneur, je suis à l'heure comme prévu.[٢]

ردَّ سائق العربة الذي كان ينتظر عند الباب بعد أن سمع احتجاجات مونسينيور.

انطلقت العربة بسرعة مخترقة الدروب الباريسيَّة الضيِّقة قبل أن تدخل في عمق الشارع الرئيسي. الحصان كان ثقيلاً قليلاً، لكن ثقله في مثل هذه الأمطار يساعده على الثبات ومقاومة الانزلاقات الكثيرة على الطرقات الحجريَّة والخروج من الأماكن الموحلة والبرك المائيَّة التي كانت تصادفهما من حين لآخر في الأماكن المبعوجة. لا شيء يسمع إلاَّ وقع الأمطار وصوت حدوتي الحصان وهو يعبر الشارع بخطوات منتظمة.

تمتم مونسينيور ديبوش وهو يرتب قليلاً من هندامه الأسود ويمسح لحيته الكثَّة من المياه التي علقت بها:

ـ أتعجَّب من هؤلاء الباريسيِّين كيف يتحمَّلون هذه المدينة المتعبة. أقمت بها سنوات ولم أتعوَّد عليها ضخامتها تخيفني. ناسها ينفلتون من كل منطق وينقلبون بسرعة. من الصعب أن تثق بمزاج الباريسي.

١ ـ نعم، سمعتك والعالم لن ينهار.
٢ ـ سيِّدي، أنا في الموعد كما اتفقنا.

ـ العادة يا مونسينيور، العادة تعلّم الناس تحمُّل كل شيء. ردَّ سائق العربة وهو يحاول أن يوجِّه الحصان باتجاه الشارع الرئيسي، حتى الموت يا سيدي لم يعد يثير أحداً.

ـ الحياة نفسها لم تعد تعني الشيء الكثير يا ابني. يبدو أنَّنا على حافة زمن كل شيء فيه تبدَّل أو هو بصدد التبدّل.

اختلط وقع الأمطار بنقرات حدوتي الحصان وهي تنكسر على الأحجار الزرقاء التي تعبد الطريق المؤدّي إلى المجلس الوطني.

رأى مونسينيور ديبوش باريس في هذا الفجر كما رآها في المرة الأولى، مدينة بها الكثير من العطش إلى نفسها، جميلة ولكن سرًّا فيها يشتعل في الداخل مثل حبل البارود ولا أحد يعرف متى ينفجر، خصوصاً مع التحرُّكات الشعبيَّة التي صارت تقليداً يوميًّا ينزلون بعد الظهر وفي الليل. لا تسمع إلاَّ رشقات الرصاص وصوت البارود الذي تكتم أصواته الشوارع الضيِّقة وأخبار عدد الموتى أو الذين سيقوا إلى السجن.

هو لا يريد أن يتذكَّر متاعب المسافة التي قطعها ولا مصاعب الطريق من بوردو إلى هذا المكان. المهم أنَّه وصل ليلتين قبل انعقاد جلسة ١٧ جانفييه. القضايا الكبرى تسقط أمامها المتاعب وتُذلِّل كل المصاعب، تمتم في خاطره.

تبدو باريس بأحيائها الخلفيَّة هادئة. لا شيء تغيَّر. منذ أسبوع لم تتوقف الأمطار عن الهطول. السماء التي صفت قليلاً ليلة البارحة سرعان ما عادت واسودَّت من جديد هذا الصباح، لا تسمع إلاَّ الخشخشات والصوت الجاف للعربات وأصداء حدوات الأحصنة التي تردِّدها الشوارع الخلفيَّة التي ما تزال فارغة. الفوضى التي حدثت ليلة

البارحة ومقتل الشاب عند مدخل السوق لم تغيِّر في عادات الباريسيِّين والبانكي[١] Le banquet الذي رفضت الحكومة السماح به جعل الوضعية تزدادُ تعقيداً

تصطف العربة الصغيرة التي يجرها حصان واحد ليس بعيداً عن بناية القصر حيث غرفة النواب التي جعلت الأشعة التي كانت تخترق الغيوم تشعّ قليلاً على الرخامات اللامعة. يدخل مونسينيور ديبوش إلى البناية وفي يده محفظته الجلديَّة. رجل يندفع برأسه إلى الأمام بلحية كثة. الناس هنا يعرفونه جيِّداً من كثرة تردُّده على المكان.

ـ صباح الخير مونسينيور ديبوش. هل تحتاج إلى مساعدة.

ـ لا داعي. ما زلت قادراً على تحمُّل تبعات الحياة. هل وصلوا؟

ـ أغلبهم. الجنرال دو لامورسيار[٢] وصل كذلك. أنت تعرف في مثل هذه الحالات يتسابق الناس للوصول مبكراً لتسجيل أسمائهم حتى يتمكَّنوا من التدخُّل مبكرًا. بعضهم يقضي الليل هنا ليكون من أوائل المتدخلين.

ـ جيد.

أخيراً اقتنعوا؟ أتمنَّى ألاّ يحدث ما يغيِّر الدنيا رأسًا على عقب، تمتم مونسينيور ديبوش في أعماقه وهو يعبر الساحة الشرفية تحت وقع الأمطار التي زادت حدَّتها ليختفي نهائيًا داخل البهو المؤدِّي إلى قاعة المناقشات.

* * *

---

١ ـ جلسة برلمانيَّة مفتوحة يحضرها المواطنون البسطاء وممثِّلو الشعب وتناقش فيها قضايا الساعة بديموقراطية.

٢ ـ Le Général de Lamoricière

ـ ٢ ـ

كانت الساعة تشير إلى الواحدة عندما افتتح النقاش مع أنَّ العادة أن تفتتح نقاشات الغرفة على الساعة الثانية عشرة والنصف. كانت الملفات بين يدي رئيس المجلس غيزو[1] التفت نحو الحضور وهو يحاول أن يتفرس أعينهم. فتح الورقة التي وُضعت بين يديه. بعد محاولات مضنية استطاع مونسينيور ديبوش بمساعدة دو لاموريسيير ومساندة صاحب السمو الملكي، حاكم الجزائر الدوق دومال[2] وبعض النواب، أن يقنع المجلس بفتح ملف سلطان الجزائر عبد القادر.

افتتح رئيس الغرفة النيابيَّة الدورة الخاصة:

ـ الجميع هنا. يمكننا أن نبدأ هذه الدورة. نجيب عن التساؤلات الخاصة بوضعيَّة عبد القادر. لديَّ الكثير من التدخلات.

---

١ ـ Guizot

٢ ـ S.A.R le Duc d'Aumale

لنبدأ بحسب قائمة المسجلين. السيِّد بيلي دو لالوزيير[١] تفضلوا.

ـ شكراً سيدي الرئيس.

تململ الكثيرون في أماكنهم لحظة وهم ينظرون إلى الأماكن الخلفيَّة باتجاه الضيفين اللذين طُلب منهما الحضور للشهادة. تدخل بيلي دو لالوزيير.

ـ سيدي الرئيس، لقد خسرنا الصمت الشيء الكثير. فهمنا الوضعية ولكن الآن ماذا سنفعل؟ هل سنبقى صامتين. فرنسا قطعت وعدها وعليها أن تجد حلاً الأمر يتعلق بشرف الأمة والسلطان. هذا الرجل أُعطي وعداً مكتوبًا وموجوداً ضمن الملف الذي قدَّمه مونسينيور ديبوش والجنرال دولاموريسيير، شخصيَّتان لا يمكن تجاوزهما في هذه القضية.

ـ تعرف يا سيِّد بيلي، المشكلة ليست بسيطة وهي أكثر تعقيداً مما تتصورون. هناك مصلحتان يجب أن تتصالحا: الأولى، المصلحة العليا للدولة، والثانية الوفاء بالكلمة التي أُعطيت. أنا على ثقة أنَّ حكومة جلالة الملك ستجد تصالحًا بين المصلحتين. وستفي بكل تعهداتها.

تدخل ميريّو[٢] في السياق نفسه:

ـ كان لديَّ مشروع بهذا الاتجاه وهو مساءلة الحكومة عن نيَّتها حول الوفاء بالتعهدات والضمانات التي سمعنا أن ولي العهد، الحاكم

---

١ ـ Pelet de la Lozière

٢ ـ Mérillou

العام للجزائر قدَّمها للأمير. المعلومات التي قدَّمها وزير الخارجية يجب أن تحدِّد جيِّداً ما الذي يجب فعله في هذا الإطار. من الحكمة بمكان أن تدقق الحكومة في هذه الوعود وتحديد الإجراءات الواجب اتخاذها فرنسا احترمت دائماً وبعمق تعهداتها أمام أصدقائها وأعدائها. إذا ثبت ذلك فعلى الحكومة أن تنفِّذ ما وعدت به خصوصاً عندما يسلِّم العدو سلاحه على أساس وعد مسبق.

يتدخل البرانس دولا موسكوفا[١] بشكل أكثر وضوحاً ودقة وثقة كبيرة:

ـ أقولها صراحة على حكومتنا أن لا تتردَّد في ترسيم الوعد الذي قدَّمته لعبد القادر. لنتذكر قليلاً كيف تمت الوقائع: عبد القادر عندما عرف إخفاق مفاوضاته مع سلطان المغرب وحبس خليفته البوحميدي عرف أنَّ عليه أن يبحث عن مخرج مع الفرنسيِّين. لذلك قطع بكل شجاعة مسالك الملوية على الرغم من قوة مياهها والأوحال والأمطار، هو والستة آلاف شخص والجمال والأحصنة وعدد هائل من الأغنام والعتاد الحربي. واستطاعت دائرته بكاملها أن تعبر بدون أن يبقى رأس غنم واحد على الضفة الأخرى. حنكة عسكريَّة عالية تستحقّ كل التقدير والاحترام. وعندما عرف بانسداد كل المنافذ المؤدِّية إلى الجنوب، سلَّم نفسه ووضع سيفه بين يدي الجنرال دو لامورسيير. هذا الأخير استقبله هو والثمانين فارساً الذين كانوا يحيطون به. ثم اقترح عليه شروط الاستسلام التي تعرفونها جميعاً الآن، هناك حلان لا ثالث لهما: إما اعتبار عبد القادر مجرم حرب وقرصاناً تافهاً وفي هذه الحالة يجب شنقه على الفور، أو اعتباره قائداً

---

١ ـ Le prince de la Moskowa

ومقاتلاً سلّم نفسه وفق وعد مكتوب في هذه الحالة يجب أن يعامل باحترام.

من آخر القاعة، من الجهة اليمنى، ينهض الجنرال ماربو[1] وقد احمرّ وجهه وعلت حاجبيه الكثيفين سحابة ظاهرة وغموض مربك مقاطعًا المتدخل الذي لم يكن قد أنهى بعد كلامه ببرودة كبيرة:

ـ يجب أن لا ننسى أبدًا أنّ هذا الرجل الذي تدافع عنه اليوم، ذبح أكثر من ٣٠٠ سجين فرنسي في يوم واحد إذا كنتم تعتبرون هذه الجريمة أمرًا هيّنًا، فاطلقوا سراحه ومرّغوا شرف هذه البلاد في الأوحال.

ـ قد يكون. ولكنّي لست مقتنعًا أنّ رجلاً بمثل شهامته يعطي أمرًا مجرمًا مثل هذا توجد في التاريخ تجارب احترمت فيها معاهدات الاستسلام وأخرى اخترقت. ليس في الأمر أيّ جدة. فقد استسلم سينترا وبشروط لم تعجب الإنجليز في النهاية. رفضها البرلمان الإنجليزي مثله مثل الرأي العام، ولكن في النهاية تمّ تنفيذ بنود اتفاقيّة الاستسلام وسمح لجيشنا أن يعود بعتاده وأسلحته. في إنجلترا يا سادتي تم التأسف على الاتفاقية المجحفة ولكن نفذوها، ما الذي يمنعنا اليوم من فعل الشيء نفسه مع اتفاقية سيدي إبراهيم.

ـ لم تجبني عن جريمة عبد القادر ضدّ مساجيننا

ـ أنت قاطعتني. ليس في نيّتي التهرب. يمكن أن نذكر الآن كل سلبيات عبد القادر وهي كثيرة جنرال ماربو لا أملك الدليل القاطع على براءته، ولكن على الأقل أستند على ما وصلنا من خلفائه

١ ـ Le Général Marbot

وطبيعة عبد القادر وما سمعته من مونسينيور ديبوش الذي هو على اتصال دائم به ويمكنكم أن تسألوه، ثم إنَّ حدسي يدفعني لأقول لا أظنّ أنَّ العملية تمت بدون دراية منه. لكن مادام عبد القادر قد سلَّم نفسه بشكل علني فنحن مجبرون على احترام الاتفاقية. هل تريدون أن تتصرف حكومتنا مثلما تصرَّف الجنرال الإسباني الذي وقَّع وثيقة استسلام بايلن؟ مهزلة ستبقى في ذاكرة التاريخ وصمة عار ضدّ الذي لم يحترم وعده. فكِّروا قليلاً وبتجرد تام.

تململت الغرفة قليلاً، همهمات من الجهة اليمنى، قبل أن تواصل الاستماع إلى دو لاموسكوفا الذي واصل حديثه بمزيد من الحماس والثقة.

ـ احترامنا لهذا الجنرال العظيم دو لاموريسيير يمر عبر احترامنا لبنود الاتفاقية التي عقدها مع عبد القادر. من يستطيع اليوم أن ينكر على عبد القادر أنَّه قاوم من أجل وطنه ودينه ويستحقّ كل تقدير من جيشنا لا نبالغ في تحويل الأمير إلى بلد مسلم. هذا شيء ثانوي أمام وعودنا. للضمانة على صدق النوايا فقد بادل الجنرال الفرنسي سيفه بسيف الأمير، وهذا وحده يكفي للقول إنَّ الضمانات المقدَّمة لعبد القادر كانت جادَّة.

ـ يجب أن لا نقلِّل من خطر هذا الرجل حتى وهو في بلد آخر. سيفكِّر حتماً في العودة وتأجيج نيران الأحقاد بمجرد توفر فرصة الرجوع.

من على نفس المنصة يتدخَّل الليوتنانت ـ جنرال فافيي[١]:

١ ـ Le lieutenant général Fabvier

ـ أيُّها السادة، من العبث الحديث في هذه الغرفة عن المخاطر المحدقة بفرنسا بسبب هذا الرجل ووضعها في الميزان نفسه مع شرف فرنسا أفترض أنَّ الحكومة عندما عينت حكاما عامين في الجزائر منحتهم التعليمات وخوَّلت لهم الصلاحيات. عندما سافر الدوق دومال إلى الجزائر كان يعرف جيِّداً أنَّه سيواجه لا محالة مشكلة عبد القادر وإذا رأى أنَّ ما اتخذه دو لاموريسيير لا يخالف التعليمات الحكوميَّة، فلنزكه ونوقف هذا النقاش العقيم وأعفونا من هذه البهدلة التي تصرُّون على جدواها

تعالت بعض الاحتجاجات من هنا وهناك

ـ رئيس المجلس السيد غيزو، يقول لنا إنَّه يجب الحفاظ على المصلحة الفرنسيَّة والوفاء بالوعود. المشكل أن شرف فرنسا رهين بالتوقيع النهائي على الاتفاقية عبد القادر الآن بين أيديكم وتستطيعون أن تفعلوا به ما تشاؤون! ولكن تذكَّروا قبل ذلك ملوككم: الملك جون، فرانسوا الأول، هنري الرابع، ولا تمسوا شرفهم وشرف هذه البلاد.

وبدأ النقاش ينسحب باتجاه المحاكمة. شيئًا فشيئا تكاثرت الأسئلة التي تمس مباشرة الاتفاقية. كان وجه لاموريسيير قد اصفر وبدأت علامات التعب تملأ عينيه الجاحظتين وملامحه العسكريَّة الباردة عندما نودي باسمه، كانت سحابة وجه الأمير قد ملأته ولم يعد يرى إلاَّ ذلك اليوم البارد والممطر وصهيل الأحصنة والممرات الجبليَّة الضيِّقة:

ـ سمعت الكثير منكم أيُّها السادة وآن لكم أن تسمعوني قليلاً سمعت في هذه القاعة وفي غيرها تساؤلات مثل: تقاريركم تقول إنَّ الأمير كان مجبراً على المرور من المضيق الجبلي القربوس ولا طريق آخر له؟ لماذا لم تلقوا عليه القبض وغيرها من الأقاويل السهلة؟ أنتم تعرفون أنَّ رسائل الضبّاط العامين تكتب في مكان المعارك وبسرعة ولا وقت لدينا للشرح والتفصيل. اسمحوا لي أن أعود إلى تفاصيل ذلك اليوم وما هي حظوظ إلقاء القبض على الأمير ليلة ٢١ ـ ٢٢ ديسمبر قطع الملوية وتوغل أكثر في جبال امسيردا الأمطار الغزيرة والظلمة عقّدت من مهمته ولكنَّه كان مصمماً على العبور. عرفت كل تحرُّكاته وأنَّه يعمل على الانزلاق نحو الجنوب. أخوه الذي سلَّم نفسه قبل يوم أبلغني بذلك، وكذلك حاكم وجدة الذي كنت معه في اتصال دائم أعطاني مخطط حركته وأنَّه سيمرّ إجباريًّا عبر قبائل وجبال بني ازناسن. حدَّدت كل المواقع الممكنة على الخريطة كما يفعل أيّ عسكري في الميدان. تساءلت، هل يجب أن أسبقه وأغلق عليه كل الممرات أم أطوقه؟

ـ ولماذا لم تفعلوا؟ ردَّد أحد النواب الذي بدا صوته عنيفا ومنكسراً تحت الضجة التي همهمت وهي تريد أن تسمع بقية الحديث.

ـ سهل يا سيدي الفاضل. سهل جداًّ أن نحلّ الأمور بواسطة الكلام ومن على كرسي وثير، ولكن يجب أن تضعوا أنفسكم في ذلك الوضع. عبد القادر كان محاصراً من الشمال من طرف ملك المغرب وكنَّا نسدّ عليه أبواب الجنوب. الأمير كان مثقلاً بدائرته.

لكن في مثل هذه الحالات، لمن يعرف تضاريس الأمكنة، لم يكن بإمكانه أن يمرّ من هناك هو وقافلته ولكنّي متأكّد أنّه كان سيمرّ عبر المضايق المختلفة هو وفرسانه. ومع ذلك على الساعة الثانية فجراً خرجت من معسكري لملاقاة الأمير، وما كدت أصل حتى عرفت من خلال رجالاتي انَّ مفاوضات قد تمت، البقية تعرفونها جيِّداً.

ـ كان يجب أن تواصلوا محاصرته بدل المفاوضات، فقد كان مهزوماً

ـ أقول لكم ماذا كان يمكن أن آخذ لو سلكت هذا الطريق الذي تقترحه عليَّ؟ كنت سأقوم بغارة أخرى وأخبركم بعدها بأنِّي حجزت خيمة الأمير، سجادته، ربما واحدة من نسائه ومع بعض الحظ، خليفة من خلفائه.

تضحك القاعة محدثة همهمات تقاطعت فيما بينها في شكل نقاش غير واضح.

ـ ولكن هو، عبد القادر مع خيالته، سيكون قد فلت منَّا باتجاه الصحراء.

ـ إذن، لم يكن أمام الأمير سوى الهرب مع بعض خيَّالته وربما وصل وحيداً أو منقوصاً إلى الصحراء. الأمير بدون دائرته لا يخيف وبقاؤه في الصحراء منعزلاً أفضل من بعثه إلى الإسكندرية

ـ طيِّب. ليكن. إذا كان وجوده في الصحراء أفضل لنا من وجوده في الإسكندرية، ابعثوا به إلى الصحراء فأنتم تسدون له خدمة جليلة، وهو لا يطلب سوى ذلك.

ساد صمت خفيف قبل أن يتدخل لاروشجاكلان[1]

ـ الكثير من الناس يتساءلون عن الهوة الفاصلة بين الالتزامات التي اتخذها حاكم الجزائر صاحب السمو الملكي الدوق دومال وردّ فعل الحكومة اليوم؟ التزام شرف اتخذه الجنرال دو لاموريسيير ووافق عليه السيِّد الدوق دومال، فكيف نقبل اليوم أن نسجن عبد القادر؟ قد تكون هناك ظروف مرتبطة بسر من أسرار الدولة لا نعرفها ولكن، هل هناك حكم حقيقي عن الشرف أحسن من الوفاء؟

في نهاية الجلسة يصعد غيزو، رئيس المجلس، مرة أخرى إلى المنصة ويقدم حوصلة الإجابات عن الأسئلة التي طرحت والنقاشات التي تمت، لم يخرج عن العموميات التي دخل بها الغرفة في البداية.

ـ ما قيل في هذه الجلسة كثير. أشكر السادة على ملاحظاتهم القيمة سنرى فيما بعد، من خلال كل هذه التدخلات المتناقضة جداً وما وصلنا من وثائق وشهادات كيف نحسم الموقف باتجاه يضمن المصلحتين: مصلحة الدولة والوفاء بالتعهدات المقطوعة. هناك مشاورات مفتوحة بيننا وبين باشا مصر لكي يقبل أولاً عبد القادر، لا نستطيع إجباره على ذلك. ثم عندما يقبل بالمبدأ سنتناقش حول الضمانات وشروط المراقبة التي لا أستطيع الإفصاح عنها هنا ولكن سأرتّبها بحيث نضمن أمنًا كاملاً لبلدنا

*

١ ـ Larochejacquelin

- ٣ -

مـر مونسـينيـور للمـرة الأخـيـرة عـلى نزل لاتراس La Terrasse حيث كـان يقـيـم مؤقـتًـا لملم أوراق جريدة المونيتـور التي كـانـت تملأ طاولتـه وسريره المتـواضع، والرسائل الكثيرة التي وصلته من الأمير أو من الناس القـريبين منه. فتح عينيه والنافذة المطلة على الحديقـة ونظر إلى السـمـاء. لـم يـر إلاّ سـقـفًـا ازداد انحناء أكـثـر ممـا كـان عليـه وسمـاء يابسـة. القـصـاصـات الصـغيـرة التي كتبهـا طوال هذه المدة سمحت له بالتعرُّف على الأمير بعمق. دفن أغراضه داخل حقيبة قديمة ثـم استعدّ للخروج.

ـ مونسينيور! كأنَّك تحمل الرصاص في هذه الحقيبة.

ـ عزيـزي جون أنـت سيِّـد العارفين، تـدرك جيِّداً أنَّ لا شيء بـهـا إلاّ الأوراق والقصاصات الصحفيَّة وآلام الناس المحرومين من كل شيء.

ـ لو كان كل الناس مثلك يا مونسينيور لتغير وجه العالم البئيس. ولكن.

ـ ومع ذلك فأنا أسعد مخلوق في الدنيا بكسر حاجز الصمت على الأمير.

ـ المصالح الصغيرة تعمي الناس يا مونسينيور. الكثير من الضبّاط مرتاحون ولا يريدون تشويشاً على ترقياتهم. ولهذا فهم في الكثير من الأحيان يظهرون غير ما يخفون.

عندما وجد مونسينيور ديبوش نفسه في الشارع، كان المطر قد توقف نهائيًّا وبدأ الليل يهبط على المدينة والغيوم السوداء قد غطّت الشوارع بكاملها معلنة عن عاصفة محتملة. شعر في فمه ببعض المرارة ولكنّه حاول أن يطمئن نفسه. صحيح أنّ الشيء الكثير لم يقل أو بقي عالقًا، ولكن على الأقل الحديث وصل إلى غرفة المنتخبين وتم فتح ملف الأمير الذي ظلّ يخيف الغرفة والحكام وضباط الجيش الذين لم يغفروا للأمير صمته على سجناء سيدي إبراهيم وعين تموشنت

كانت شوارع باريس مغلقة مثل نفق الأموات. الباريسيون ينامون باكراً منذ أن بدأت القلاقل في المدينة. لا أحد في الطرقات سوى بعض المارة الذين يسرعون الخطى للوصول إلى مقاصدهم وبعض الكلاب والقطط الضالّة التي تتقاتل في المزابل التي لم يترك فيها جياع باريس الشيء الكثير.

كان يعرف جيِّداً وهو ذاهب نحو محطة القطار الرابط بين باريس وأورليان ثم الذهاب إلى بوردو، أن عليه أن يتحمَّل مشقة

أكثر من ٤٠ كلم ما بين السكك الحديديَّة والعوامات الثقيلة والعربات المجرورة. بدت له بوردو مدينة ناعمة وأقل خشونة من باريس. في المدار المؤدِّي إلى محطة القطار، سمع البارود والرشقات الجافَّة وبعض الصرخات هنا وهناك، ورأى الخيالة الذين يملأون الأماكن بوجوههم الباردة وأحصنتهم الخشنة.

وضع باريس لم يكن على ما يرام.

ـ الأحسن يا جون أن نسرع الخطى قبل أن يقلع قطار أورليان.

قالها مونسينيور ديبوش قبل أن يندفن في لباسه الفضفاض.

شعرت كأنَّ خوفًا ما قد غطى عينيه فجأة. شعر بسرعة بحيرتي.

ـ لا تهتم يا عزيزي جون. ليس الموت برصاصة طائشة هو الذي يخيف، ولكن الموت قبل الانتهاء من تحقيق ما نصبو إليه من خير للناس. كم أتمنَّى أن يمنحني اللَّه قليلاً من العمر لأرى الأمير خارج أسوار سجنه.

ـ أنت لا تسعى إلاَّ للخير واللَّه لا يحب إلاَّ سعادة البشر

عندما صفر القطار للمرة الأخيرة قبل الإقلاع، انسحب كل شيء من عينيه وحاول أن يسترجع صفاءه قبل أن ينام قليلاً لم يتذكَّر مونسينيور ديبوش شيئًا مهما سوى تفاصيل صغيرة من حياته. وهو يستمع إلى ضجيج القطار البخاري الذي كان يمسح الأراضي الواسعة بسرعته غير المعتادة، مرت بذهنه بعض تفاصيل الجلسة الأخيرة التي حاول عبثًا أن ينساها بسرعة، هبطت الظلمة

على الضياع التي بدأت تسودّ قبل أن تندثر تفاصيلها نهائيًّا فجأة، اختلطت عليه أوجه الذين عرفهم عن قرب، أساقفة ورهبان ويتامى وفقراء ومرضى ومساجين، وجه الأمير بكل صفائه وتلك المرأة التي لمعت كرأس سيف اصطدم بشيء حادّ في عمق الظلمة القاسية. رآها وهي ترجوه أن ينقذ زوجها وتضع بين يديه رضيعها وهي ترتعد من شدّة البرد ومن الخوف على زوجها فقد وصلها أنّ العرب عندما يلقون القبض على ضحيَّتهم لا يفكِّرون في حلّ آخر إلاّ قطع الرؤوس وبعثها إلى الخليفة ليأخذوا مقابلها قطعًا ذهبيَّة وأحيانًا يكتفون بقطع الآذان بدل الرؤوس للتخفيف من مهمة الإرسالية عندما يكون عدد المقتولين كبيراً وقد وصلها أنّ بعضهم كان، في الكثير من الأوقات، لا يتوانى عن قتل ذويه من البيض، ممن تشبه آذانهم آذان الروميِّين في صغر حجمها ويملأ زوادته ويذهب بها نحو الخليفة قائلاً إنَّه قتلهم في مكان ما من الأمكنة ليأخذ حقوق صيده كاملة. كانت الزوجة شبه عارية وترتعد، عندما وقفت فجأة على رأس مونسينيور الذي أدرك في وقت متأخِّر أنَّها كانت هي السبب الأول أو الوسيلة التي وضعها اللَّه في طريقه ليتعرَّف على الأمير ويذهب نحوه من خلال مبعوثيه قبل أن يلتقي به وجهًا لوجه في سجنه. عاد إلى تلك السنة بالضبط التي بعث له فيها برسالته الأولى، عندما كان أسقفًا على الجزائر العاصمة. كانت الدنيا مظلمة والأحقاد كثيرة.. ولكن لا شيء كان يمنع من أن يصغي إلى ذلك الصوت الآتي من بعيد، صوت القلب الذي تنحني أمامه الحروب والموت والمظالم.

* * *

الوقفة الثانية

منزلة الإبتلاء الكبير



ـ ١ ـ

نوفمبر ١٨٤٨ هذا هو بالضبط وقت العواصف التي تكنس أحياء المدن العتيقة وتغطي مياه الأنهر بغلاف شفاف من أوراق الأشجار الصفراء. الخريف هذه السنة جاء مبكراً. كانت رياح البدايات قويَّة ممَّا اضطرّ مونسينيور ديبوش أن يطلب مني أن أساعده على لملمة لباسه على رأسه الذي تعرى بفعل الرياح القوية.

ـ ساعدني يا جون، رياح الخريف تغلبني، لا أدري هل هو التعب أو الإنهاك الشديد.

ـ أنت متعب من كثرة العمل ولكن رياح الخريف مزعجة بعنفها وأتربتها وأوراقها التي تعمي الناس والطرقات.

عند مدخل قصر هنري الرابع في بو Pau أو القلعة كما يسمِّيها الأمير وبعض أصدقائه. رأى مونسينيور ديبوش الكولونيل

أوجين دوما[1] باستقامته المعهودة، وهو يحاول بدوره أن يتقي أوراق الصفصافة العالية التي التصقت بوجهه ولباسه. عندما رآه هبَّ نحوه بعناق كبير وبلا تردّد:

ـ مونسينيور، كيف أنت، لولا الأمير لما التقينا؟

ـ أنت تعرف أنَّ أوضاعنا لا تبشر بخير. أحداث شهر فبراير كنست كل شيء بما في ذلك الملك وحلَّ محلّه النظام الجمهوري. ماذا تريد، انشغالات الدنيا ثم إن وضعية الدين غامضة في القانون الجمهوري! المهم كيف وجدت الأمير؟

ـ لا تهتم، سيصلح كل شيء مع الوقت. الجمهورية ما تزال فتية، مونسينيور الأمير في وضع صعب لكن صحته جيدة. وجودكم سيخفِّف عنه المتاعب الكثيرة.

ـ في نيَّتي أن أبقى معه خمسة أيام، أتمنّى أن يقبل بي.

ـ أعتقد أنَّه سيسعد بوجودك. مونسينيور، ستزور الشخصيَّة الاستثنائيَّة، ولن تندم على مشقة السفر التي بذلتها لزيارته. عرفت عبد القادر في أيام عزّه وقت كانت الجزائر كلُّها تحت سطوة سلطانه وقوانينه، ستجده اليوم أكبر وأكثر إدهاشا في نقاشاته، لا يطلب الشيء الكثير من الدنيا ولا يتشكى أبداً ويجد الأعذار حتى لخصومه في الميدان ولا يسمح لأحد بأن يمسهم بسوء.

ـ ما قام به تجاه الآخرين لا يمكن أن يقوم به إلاَّ رجل عظيم.

---

١ ـ Le colonel Eugène Daumas

ـ ستجده ساكنًا في خلوته، يعذر حتى الذين تسببوا في عذابه الكبير، مسلمين كانوا أم مسيحيِّين. ويعزو كل ذلك إلى الظروف القاسية التي تتسلَّط فجأة على الأفراد والجماعات. بزيارتكم لهذا الرجل النبيل والاستثنائي الشخصيَّة ستضيفون عملاً إنسانيًّا جديداً إلى ما زخرت به حياتكم.

ـ يا كولونيل، أنا لم أقم إلاَّ بواجبي أمام الآخرين لا أكثر.

ـ أملاً أن تجد بلادنا حلاًّ يرضي الجميع، الأمير يعرف أنَّه انتهى عسكريًّا، ولكنَّه يريد أن يظلّ عمله شاهداً على فعله المقاوم الجدير بالرجال العظماء، كان بإمكانه أن يترك كل شيء وينجو بجلده، ولكنَّه لم يفعل. تحمَّل مضايقات سلطان المغرب وحصار القبائل والوديان المتدفِّقة قبل أن يحصل على الضمانات التي طلبها والتي لم نحترمها يجب أن نملك الجرأة لقول كل هذا

شعر مونسينيور ديبوش بامتعاض كبير قبل أن يدخل إلى الدهليز الضيِّق المؤدِّي إلى الحجرات التي يُحتجز فيها الأمير وعائلته، الحجرات المليئة برائحة الرطوبة والعفن الذي يشبه الرائحة التي تخلِّفها الفئران عندما تعبر مكانًا تاركة وراءها شعرها ورائحة بولها القوية التي تجرح خياشيم الأنف بحدَّة.

عندما تجاوز العتبة، رأى صفاء خاصا يشبه صفاء الإنسان المقهور والمنكسر. انتابه إحساس يشبه الإحساس الذي يخترق صمت الميت وهو يرتعش في مواجهة شيء حتمي لا سلطان له عليه.

عندما دخل عليه، أشرق وجه الأمير وصار صافيًا فجأة. من أين يأتيه كل ذلك النور، تساءل مونسينيور وهو يحاول أن يفتِّش

عن الغيمة التي كانت تتخفى وراء ابتسامات الأمير الهاربة ووقاره المتجلي عميقًا.

الأمير عندما عرف بمجيء مونسينيور، وكرمز على احترامه، لبس الجوارب ونعلاً جلديًّا لاستقبال ضيفه. عانقه طويلاً قبل أن يسحبه من يديه باتجاه عمق الزاوية، في المكان الذي تعوَّد الأمير أن يجلس فيه.

ـ أتمنَّى أن يأتي الخير على يديك، مونسينيور

قال الأمير وهو يجد صعوبة كبيرة في كتم سعادته.

ـ أتمنى من كل قلبي أن يسمع اللَّه دعوانا، وهو لا يخيب أبداً طالبيه.

ـ قلبي يحدِّثني أن زيارتك هذه حاملة لبشرى خير

ـ لا يوجد، للأسف شيء ملموس يمكن أن يفك كربتك، ولكنِّي جئتك بيدين فارغتين وقلب مليء بالخير والدعوات وبرجلين لم تكلا أبداً من الركض بين مكاتب الإدارات لكي يلتفتوا إلى قضيتك.

ـ لو تعلم يا مونسينيور! فأنا أفضِّل أن أراك فارغ اليدين ممتلئ القلب على أن أراك مليء اليدين وفارغ القلب. اطمئن، فأنا لا أعني من كلامي إلاَّ الخير الروحي، ما عداه، اللَّه وحده يملك الإجابات عنه.

ـ أتمنَّى أن يسمع اللَّه دعواك، فأنا مثلك، لا أتمنَّى إلاَّ ذلك.

ـ كل هذا لا يمنع الإنسان من أن يبث شكواه ومظالمه ولكن بهدوء وسكينة، بصدق وأمان، بحسب مقامات الناس الذين

يحاوروننا كم أشتهي أن أحدِّثك عن كل ما يجمعنا بدأت أقرأ كتابكم، الإنجيل. وفي فترة إقامتك بجانبي، أتمنَّى أن تسمح لي بمساءلتك عن بعض القضايا الغامضة. لم تُتح لي الحروب والتنقلات المستمرة إلاَّ قراءة شذرات صغيرة هنا وهناك، ولكنِّي هذه المرة مصمِّم على قراءته كاملاً، وفهمه إن أمكن. سادتنا القدماء فعلوا مثل هذا الأمر بدون أن يختلَّ إيمانهم.

ـ الإيمان في القلب، وما في القلب لا يعلمه إلاَّ اللّه. أنا مستعدّ من كل قلبي لأسئلتك.

ـ متيقن أنَّ قلبك لن يتوقف عن فعل الخير. حدِّثني إذن كأخ ولا تقلق من أخطائي، فالنيَّة الطيِّبة هي سيدة السؤال والمقصد

ـ لك كل المحبة التي تقرب أحدَنا من الآخر، حتى ولو اختلفنا، لتستقرّ روحانا داخل الحقيقة الإلهيَّة الكبيرة نفسها

كان مونسينيور مندهشاً من سماحة الأمير الذي لا شيء كان يجعله يختلف عن كبار الناس الطيِّبين الذين قضوا العمر في عزلة الرهبان بحثًا عن طريق يقرِّبهم أكثر إلى اللّه. كانت حيطان القلعة فارغة من كل شيء وباردة، فيها شيء من الموت الذي رآه مونسينيور ديبوش يتسلَّق الحجارة كالثعبان.

الأمير كان يخاف الصمت على الرغم من حبه للتأمل. التفت نحو ضيفه:

ـ قرأت في قصصكم القديم: أن مسافراً ذهب ليزور أحد أصدقائه المحزونين، التقى في طريقه ملاكًا، سأله هذا الأخير، إلى أين

أنت ذاهب؟ فردَّ عليه الرجل وهو يسابق الملاك: سأزور صديقًا في حاجة ماسَّة إلي. فردَّ الملاك: وماذا تنتظر منه. هل هو غنيّ أو صاحب جاه وسلطان؟ فأجاب الرجل: لا هو في حاجة إلى مساعدتي، وسأمنحه كل ما أملكه وأستطيعه من خير وودّ ومساعدة. فختم الملاك: واصل طريقك، فكل خطواتك ستحسب لك. وكل كلماتك ستلقى جزاءها

ـ أنت تعرف يا سيدي أنَّها درس رمزي، يُقصد من ورائه التفاني في حب الآخرين. القصص أحيانًا لا تهم بقدر ما تهم مؤدياتها والاعتبارات التي تخلِّفها

ـ سعيد أن أسمع مثل هذا الكلام منك.

في المساء، قبل أن ينسحب مونسينيور للنوم والإخلاد للراحة من متاعب السفر كان ممتلئًا بالوجه الذي رآه لأول مرة ولكنَّه كأنَّما رآه منذ سنوات كثيرة. تحادثا طويلاً عن اتفاقية السجناء وطيبة الأمير وعن المرأة التي جاءته تطلب من مونسينيور إنقاذ زوجها من محنة الموت المؤكّد

الخمسة الأيام التي عاشاها معًا، فتحت لهما شهية الحوار.

قال مونسينيور ديبوش:

ـ لا أدري من أين جاءني كل هذا، ولكني أحبك أكثر ممَّا يمكنك أن تتصور لك في قلبي مكان واسع وفي ديني متسع لا يفنى ولا يموت.

ـ روحك أنت غالية علي، ومستعد أن أمنح دمي لإنقاذها امنحني من وقتك قليلاً لأتعرَّف على دينك وإذا اقتنعت به، سرت نحوه.

اندهش مونسينيور ديبوش من كلام الأمير. فقد شعر كأنَّ شيئًا كان يعتمل في داخله. منذ أن فاوضه في السجناء تأكَّد له أنَّ هذا الرجل لو امتلكته الكنيسة في صفّها لتحوَّل إلى قوَّة كبيرة لمواجهة كل الخيبات والانتكاسات.

طلب من مونسينيور أن يساعده للحصول على كتب متخصِّصة في الدين وإلى كاهن معرِّب يشرح له تفاصيل المسيحيَّة في صفائها الأول.

ـ وجود هذا الكاهن بجانبي يجعلني لا أرجئ الأسئلة الحيويَّة. سأتركه معك الوقت الذي تشتهي فهو رهن تصرفك.

في تلك اللحظة رأى مونسينيور ديبوش الأمير وهو يركب بصحبته القطار المتَّجه إلى روما ليتلقى التعميد من يدي البابا الأكبر فكل النقاشات التي دارت بينهما كانت معطرة بآمال كبيرة وبعطر شرقي تصعب مقاومته.

في اليوم الأخير أكَّد مونسينيور للأمير وهو يشرب شايًا من يد لالة زهرة أم الأمير:

ـ أنا متأكِّد أنَّ سجنك لن يطول أكثر

ـ لا أدري. بعد كل ما حدث لست متأكِّداً لقد ذهب الملك وأبناؤه، ومعه انتفت المعاهدات التي قطعها الرجال على أنفسهم.

لقــد قلت هـذا للكولونيل أوجين دومـا: سلطان أقــامَ الدنيــا ولم يقعدها، عقد معاهدات مع ملوك كثيرين على هذه الأرض، يسترشد القريب والبعيد بتجربته، ثلاثة أيام كانت كافية لقلب سلطانه، هذه الأرض بنت كلب وخادعة. تأكدت أنْ لا سلطان على هذه الأرض إلاّ سلطان اللّه.

ـ لست أنا من يقول العكس أيُّها السلطان الكريم.

عندما هم مونسينيور بالمغادرة اقترب منه الأمير:

ـ قل لكل من تلقاه من القديسين النصرانيِّين، أن يدعوا لي لكي يغمرني اللّه بنوره ويفك كربتي وأسري.

ـ سأفعل.

عانقه طويلاً ثم خرج مونسينيور وقلبه ممتلئ بنور غريب ظلَّ يشع في أعماقه.

* * *

ـ ٢ ـ

كانت الشمعات قد بدأت تحترق الواحدة بعد الأخرى.

تنفس مونسينيور ديبوش عميقًا وهو يجلس في الحجرة المواجهة للحديقة. شعر بالبرودة. كانت رياح الخريف في أوج أنينها. وكانت شجرة اللوز التي تعرَّت من كل شيء قد انحنت أكثر ممَّا يتحمَّله جذعها النحيل. مسحت الريح والليل كل ظلال الأشجار التي كانت تتسلَّق الحائط كلَّما تسربت أشعة القمر التي تتوغل من وراء النوافذ القديمة المنفتحة على ساحة البيت. حتى التينة الخشنة ازدادت قصراً أمام شطحات شجرة اللوز وظلالها الكبيرة.

في البيت لم ير شيئًا إلاَّ وجه الأمير وهو يرتعش تحت أشعة الشمعة اليتيمة التي كانت ترقص على الطاولة، التي تعوَّد أن يأكل عليها وعندما ينتهي يحوّلها إلى مكتب للكتابة. فجأة شعر ببرودة تعبر جسده بقوة ذكّرته ببرودة تنام بين تجاويف الذاكرة. وضع الغطاء

الصوفي على ظهره. تدثّر قليلاً حاول أن يغمض عينيه. بانت له ليلة ٢١ مايو ١٨٤١ أكثر قربًا من كأس الماء التي حاول أن يصرف بها جفاف حلقه. امرأة لم تكن كسائر النساء. كأنَّها خرجت من مغارة بدائيَّة. كانت ترتعش كالورقة الضائعة. تحاول جاهدة أن توقف الدمعات التي تلألأت تحت ضوء القنديل الزيتي الباهت. في يدها صبي قد مال وجهه نحو زرقة تشبه زرقة الموت. نصف جسدها العلوي كان عاريًا تذكَّر أنَّه قام من مكانه مثل المذعور. نزع الغطاء الذي كان يتدلَّى من على كتفيه ورأسه ثم وضعه على الصبي وغطى بجزئه الآخر صدر المرأة. أرادت أن تتكلَّم. وضع يده على شفتيها وتمتم بهدوء:

ـ لا تعتذري. ارتاحي أولاً، أنت في بيتك. أعرف أنَّ مصابك كبير وإلاَّ ما قطعت كل هذه المسافات بهذه الوضعية القاسية ووسط هذه العواصف.

ـ نعم يا مونسينيور. أنا زوجة ماسو[١] نائب المتصرف المالي العسكري الذي سجن بالقرب من الدويرة. إنِّي خائفة على حياته من عناد بوجو[٢] الذي رفض أي حوار مع عبد القادر، فهو سجين لدى العرب وأخشى أن يقتل زوجي وهو لم ير ابنته التي ولدت بعده. زوجي لم يكن محاربًا فهو مجرد متصرِّف مالي جئت نحو اللَّه، لأنَّ كل سبل البشر انسدت في وجهي.

ـ ما سمعته عن هذا الأمير يؤهله لرتبة قائد وليس حراميًا، ولا أعتقد أنَّه سيقتل زوجك ما دام سجينًا لديه. الذين هربوا أو الذين أطلق سراحهم يؤكِّدون على قوام أخلاقه العالية.

---

١ ـ Massot, sous-intendant militaire

٢ ـ Bugeaud

ـ الأخبار يا سيدي تقول إنَّ العرب يقتلون سجناءهم ويبعثون آذانهم ورؤوسهم لمسؤوليهم لكي ينالوا حقوقهم بحسب عدد الرؤوس والآذان التي يقطعونها

ـ في الأمر بعض المبالغة. هوني على نفسك وسأرى ما يمكن فعله. سأوجه له رسالة للتفاوض على زوجك وسأخبر بوجو عمَّا يمكن فعله، ربما استطعت تغيير تعنّته.

وضعها في فراشه وغطاها بالغطائين الموجودين على الطاولة القديمة، ثم انسحب يكتب رسالة للأمير. أغمض عينيه طويلاً قبل أن ينسحب من ذهنه صدرها العاري ويستحضر جمله الشحيحة. التفت وراءه، كانت تغطّ في نوم عميق، هي وابنها الذي التوى بين يديها كقطعة قماش بالية مرت عليها أياد كثيرة، ثم عاد إلى قلمه تحت قصف الرعد والبروق التي كانت تشقّ سماء العاصمة بعنف كبير: **سيدي السلطان.. أنت لا تعرفني ولكنّي رجل مؤمن متفانٍ في خدمة الله مثلك تماماً لو كنت أملك القوة للركوب على ظهر حصان الآن، لجئتك للتو ولن تثني عزمي لا دكنة الظلمة ولا هدير الرياح. وسأقف عند مدخل خيمتك وأقول لك بصوت لن يخيب إذا كان ظنّي فيك صادقًا أعد لي أخي الذي وقع أسيراً بين أيديكم. قد لا أستطيع المجيء إليك، ولكن اقبل منّي من ينوب عنّي في هذه المهمة محملاً برسالة منّي أتمنّى أن يباركها الله. فأنا لا أملك لا ذهباً ولا فضة ولا أستطيع أن أمنحك بالمقابل إلاّ صلوات روح صادقة واعتراف العائلة التي أكاتبكم باسمها، بخيرك الكبير**

شعر مونسينيور بقلبه ينكمش. ذلك الزمن صار الآن بعيداً، ومع ذلك ما يزال ههنا أمامه مثل المرآة العاكسة لحياة انسحبت بسرعة

كبيرة ولكن علاماتها ما تزال متبدية على سطح الروح. يدرك جيداً أنّه لم يخطئ في الأمير. الإجابة لم تطل كثيراً. قلّب أوراقه واحدة واحدة، قفز في وجهه ردّ الأمير على الرسالة. رسالة عرفها من انكسارات حروفها واعوجاجها كالثعابين والترجمة الملصقة في ظهرها: **مونسينيور أنطوان ـ أدولف ديبوش... لقد بلغني مكتوبك وفهمت القصد ولم يفاجئني مطلقًا في سخائه وطيبته لما سمعته عنكم. ومع ذلك اعذرني أن أسجل ملاحظتي لك بوصفك خادما للّه وصديقًا للإنسان: كان من واجبك أن تطلب مني إطلاق سراح كل المساجين المسيحيِّين الذين حبسناهم منذ عودة الحرب بعد فسخ معاهدة تافنة وليس سجينًا واحداً، كائنًا من يكون. وكان لفعلك هذا أن يزداد عظمة لو مس كذلك السجناء المسلمين الذين ينطفئون في سجونكم. أحب لأخيك ما تحبه لنفسك...**

شعر مونسينيور ديبوش بامتعاض في بطنه. كيف غابت عنه تلك الأفكار وهو يفتح قلبه للأمير؟ عاودته الصور القديمة مثقلة بمرضه الذي لم يعد يسعفه كثيراً لبذل مجهودات كبيرة. امتلأت عيناه بالدموع. رأى سجن قلعة القصبة الذي امتلأ بالسجناء العرب المكدسين، رجالاً ونساء، شبه عراة، تتسلّق على صدورهم كائنات صغيرة مثل الدود المرتخي. تمتم وهو يمر بين وجوههم المندهشة فيه: كيف يستقيم الكلام بين صرخات وبكاء هذه المئات من الوجوه المنكسرة من النساء والأطفال التي تتدافع نحونا بدون أن تفهم لغتنا؟ إحداهنّ لم تتجاوز الخامسة عشر من سنِّها، أكلتها الحمى، تحاول أن تطعم ابنها من ثدي جاف، وهي لا تجد ما تأكله. لن أنزل من هذه الهضبة إلاّ إذا تأكدت بضمان إطلاق سراحهم.

يومها، طلب مونسينيور، أثناء صلواته بكاتدرائيَّة سانت ـ فيليب[١]، من كل ذوي البر والإحسان، مساعدة السجناء بالألبسة والأغطية ومكَّن الجميع من تقديم مساعداتهم لقس سانت ـ فيليب أو لأخوات سانت ـ جوزيف أو لرئيسة الجمعيَّة الخيريَّة للجزائر العاصمة، قبل أن يقنع السلطات العسكريَّة بضرورة إطلاق سراح السجناء العرب في مضيق موزايا الذي حدّد كمكان لتبادل الأسرى.

وقع كلمات مونسينيور كان قويًّا في نفسيَّة الأمير، فكلَّف خليفته سيدي محمد بن علال للإشراف على مبادلة السجناء في إحدى ضيعات موزايا استطاع مئة وثلاثون أسيراً عربيًّا، رافقوا مونسينيور باتجاه الضيعة، أن يجدوا حريَّتهم. كادت العملية أن تنتهي إلى مجزرة بسبب سوء تفاهم صغير لولا حكمة ابن علال ومونسينيور. فانتهى الخلاف في عربة مونسينيور الذي تحاور طويلاً مع ابن علال الذي ظل مشدوداً إلى طيبة هذا الأخير حين قال له بعد أن أهداه بندولة بخيطين:

ـ ليس أهم من وجهك وقلبك الطيب. قل للأمير بأنِّي أحفظ له هذا الخير ما دمت حيًّا. وأتمنى أن يمنحني اللّه مزيداً من القوة لإشاعة المحبة بين الناس.

على مشارف دالي إبراهيم ركضت أم أحد السجناء صوب ابنها الذي لم تتأكَّد منه حقيقة إلاَّ عندما عرفت أنَّ وراء الرجل الذي كان يرتدي لباساً عربيًّا كان يتخبأ ابنها عانقته ثم قبلت بحرارة يد مونسينيور ديبوش الذي دعاهما للركوب في سيَّارته.

١ ـ La cathédrale de Saint-Philippe

لم يستطع مونسينيور أن يكتم سعادته، عندما تذكر سخاء الأمير الذي بعث له، من أجل شكره على مساعدته للسجناء العرب، بالعديد من الزرابي التي أثث بها دار اليتامى سانت ـ سيبريان[1] وبأربعين عنزة مالطية ترعاها امرأة وطفلة صغيرة:

«بهذه المعاز ذات الضروع المدلاة يمكنك إطعام الأطفال الذين تبنيتهم والذين فقدوا أمهاتهم».

ـ الحرب أحيانًا تعمي الأبصار، كل الأبصار يا جون.

التفت مونسينيور وراءه، متناسيًا قليلاً شجرة اللوز التي كانت ما تزال تقاوم رياح الخريف في الحديقة.

ـ الحرب شر مهما كانت المبررات التي تتخفّى من ورائها

ـ وماذا يمكننا أن نفعل يا سيدي سوى مقاومة هذه الحالة من العمى.

ـ أرأيت ماذا فعل هذا الرجل من أجل الجميع؟ يجب أن يخرج من هذا السجن المفروض عليه في هذا القصر المفرغ من كل حياة. لقد وعدوه وما عليهم إلاَّ أن يفوا بوعودهم. الأمر لا يتعلق بشرف الأفراد ولكن بشرف أمة بكاملها.

ـ ولكن يا سيدي هون على نفسك قليلاً أنا متأكِّد من أنَّ الحكومة الجديدة ستجد حلاً يرضي الجميع. هذا العناء يضر بصحتك.

---

١ ـ Saint-Cyprien

ـ أيَّة صحة يا جون عندما يموت الآخرون بسبب ثقة وضعوها في قادتنا ثم جاء من يقرِّر غير ذلك. لا يجب أن يجد الأمير الطريق الذي يريد أن يسلكه نحو الشرق

ثم صوّب القنديل نحوه بعد أن نزع الجزء العلوي من الفتيلة التي تكاثر دخانها أعاد ترتيب كل الأوراق التي كانت أمامه لإعادة قراءتها واحدة واحدة. شعر كأنَّ فصل الخريف الذي يظهر بتجليات رياحه وقسوتها هو دعوة ضامرة للعودة إلى خفايا الذات والكتابة. تمتم قليلاً قبل أن ينكفئ على أوراقه:

«لم يبق أمامي إلاّ هذا الحل وإلاّ فلا معنى لما نقوم به. أمامي نابليون وأنا على يقين أنَّه سيقبل أن يتدخل لصالح هذا الرجل. المجلس عاجز عن اتخاذ قرار صارم ونهائي. غيزو، رئيس المجلس، دار حول نفسه ثم أنهى الدورة بدون قرار حقيقي. سأكتب لنابليون وأظهر له من هو هذا الرجل».

* *

- ٣ -

الرياح الباردة جمدت كل شيء وضيَّقت كل المساحات. سنة أخرى تمر بسرعة.

انهمك مونسينيور طويلاً في عمق الرسائل والوثائق، ولم يمنعه ضيق التنفس وآلام الرقبة من الاندفان في أعماقها لفترات طويلة.

السنة الجديدة جاءت كما تجيء الأيام العادية، لا تحمل أيّ جديد حاملة في أثرها كل الارتباكات التي لا تفضي إلاّ إلى مزيد من الخوف والخيبة. لا شيء في الأفق، وما كان يبدو مجرد سوء تفاهم صار حقيقة ثابتة وتيقن الأمير أنّ الزمن الفاصل بينه وبين حريته زاد اتساعا وقسوة. لا شيء أمامه إلاّ التأمل والتفكير في مراسلة الذين وعدوه خيراً بمناسبة حلول السنة الجديدة.

فتح مونسينيور ديبوش الرسالة التي تلقاها بمناسبة رأس السنة. كانت مدفونة بين الوثائق الكثيرة. تأمَّلها طويلاً قبل أن يعيد قراءتها ويحاول من جديد فكّ سرّ الكبرياء ورعشة الحزن التي كانت تتخبَّأ بين الحروف:

باسم اللَّه الرحمن الرحيم

من الخادم البسيط، لسيد الأكوان الذي لا يدخر جهداً للخير، ولمساعدة الآخرين. الذي يطلب التضحية بالنفس والنفيس والذي لا تُردُّ ودائعه. ليباركنا بمغفرته ورحمته لنا ولكل عباده. سيدي ديبوش، السلام عليك وليسدّد اللَّه كل خطواتك وخطوات من تحب. في بداية هذه السنة نرجو من اللَّه تعالى أن يعمم الخير وأن يرضى على كل من نحب وكل من يحبنا ويلبي دعواتنا جميعًا.

نتمنى أن يلهمك اللَّه بعض الوقت لتعودنا وتزورنا نرجوك أن لا تتأخَّر حضورك بيننا يمنحنا كل الرضا والسعادة كما تعلم ذلك جيّداً. وإذا لم تستطع سنعلم أنَّها إرادة اللَّه الذي نجله ونحبه بصدق وإليه نوكل المصائر ولكنَّنا لا نتوقف عن تمني مجيئك إلينا وجودك بيننا سيجعل أيامنا سعيدة، رفاقي، إخوتي وأنا أكثر منهم جميعًا. كلُّنا نتمنى رؤيتك قريبًا ونرجوك أن تأتينا في أقرب وقت إذا سمحت لك الظروف.

وداعًا يا سيدي الأعظم، من عبد القادر بن محي الدين.

اليوم ٢٤ من صفر من سنة ١٢٦٥ هجرية.

كلَّما تأمل هذه الرسالة شعر بالتقصير تجاه الأمير وهو الذي قطع الكثير من أعماله من أجل التفاني في خدمته. فقد رأى في

الخريف الماضي نساءه وأطفاله وتحسس قوة البرد الذي كان يدخل من شقوق القصر التي لم ترمم.

البرد والصقيع وغشاوة الضباب التي تملأ الأمكنة وساحة البيت. دوّر مونسينيور القلم بين يديه كعادته عندما تهرب منه العبارة. وضع كفّه على جبهته قليلاً بحثًا عن شيء ما لم يكن قادراً على تحديده، فرأى الأمير طفلاً يركض على حافة وادي الحمام ثم وهو يقطع البحار والقفار مع والده باتجاه القيام بمناسك الحج وزيارة علماء القاهرة، والتوقف في مقام سيدي عبد القادر الجيلاني ببغداد، ودمشق والبقاء قليلاً بمقام ابن عربي الذي كان مريدوه يتحلّقون حول قبره وينتظرون بركاته، ثم العودة وركوب الأحصنة ومتاعب السلطان في سنواته الأولى. لم يكن يعرف أنَّ هذه السنوات ستسرق منه كتبه وأشواقه وتدخله في بطولة لم يحضِّر نفسه لها، هو الأكثر رهافة من كل إخوته.

ـ مونسينيور

نبهته قليلاً في ساعة متأخِّرة من الليل. كنت أريد أن أسأله إذا كان يريد زهورات. لم يرد علي، لم يلتفت نحوي كعادته وهو يقول: أنت تعرف يا جون ماذا أريد في مثل هذه الحالات، فلماذا تسألني؟

ـ لأتأكَّد يا سيِّدي،

أقولها بدوري من باب العادة

ـ كل المحيط مغشوش أو خائف على مصالحه ولم يبق أمامي إلاَّ الرئيس، وكل الذين سألتهم أكَّدوا لي أنَّ نابليون يعرف جيداً ما

معنى أن يعيش الإنسان منفيًا ويدرك بعمق آلام الإنسان وهو يواجه الكذبة القاسية، مثلما فعل الإنجليز مع نابليون عندما قادوه سجيناً على متن سفينة كان يظنّها مركبة النجاة. التاريخ يا عزيزي جون يدرك أصحابه إن آجلاً أو عاجلاً ولهذا يجب أن أكاتب نابليون ليطلق سراح الأمير وأن أضع الحقيقة بين يديه مجردة من أي كذب أو زيف.

ـ ولم لا يا سيِّدي. كل الناس يقولون إنَّه متعاطف مع الأمير، ولكن المجلس هو المشكل الكبير الذي لا يسهِّل المهمة.

ـ لم أجد بعد الصيغة المناسبة. ربما سأكتبها في شكل مرافعة. ولهذا عليّ أن أعرف عن الأمير أكثر مما أعرفه عنه اليوم. هناك عقد كثيرة لا حل لها إلاَّ المعرفة الدقيقة للدخول إلى قلب لويس ـ نابليون بونابرت

سألني، بالكاد سمعته:

ـ هل تعرف عام الجراد؟

عندما أجبته بلا، لم ينتبه إلى إجابتي، ولكنِّي رأيت بأم عيني كيف غرق ليلتها مونسينيور ديبوش في مداده. كان على حافة البدايات..

* * *

- ٤ -

١٨٣٢ عام الجراد الأصفر. هكذا يسميه العارفون ورجال البلاد والصالحون وزوار الزاوية القادرية الآتون من بعيد منذ الصباح، تبدأ فلول الجراد الأولى تسقط على سهل اغريس مشكلة مظلة سوداء على الحقول والمزارع. حتى حوافي وادي الحمّام الساخن تصير صفراء من كثرة الجراد العالق بالأطراف وبشجيرات الديس والمارمان التي تكسو أطراف الوادي. حتى الرياح الجنوبيّة التي هبت ليلة البارحة لم تجلب معها إلاّ مزيداً من الرمال والأتربة وأسراباً لا تحد من الجراد.

لا شيء في الأفق، تمتم الرجل المسنّ الذي كان يقي رأسه بمظل قديم يغطي نصف وجهه، وهو يضع كفّه على عينيه اتقاء لشر الأشعة الحارقة. سنة أخرى تمرّ من الحر والأمراض والجفاف وتشقق الأرض، ولا شيء في الأفق سوى عواء الذئاب الذي لم يعد يتوقف

ليلاً وجزءاً كبيراً من الصباح، والموت جوعًا أو بالأمراض التي كثيراً ما تعجل بموت المنهكين، وأزيز الحشرات عندما يشتدّ منتصف النهار، معلنًا عن صيف آخر لا خير فيه سوى المزيد من البؤس واليأس.

لا حياة في السهل إلاّ بعض الحيوانات وهي تبحث عن الظل درءاً للحر والعطش أو بعض الوجوه المحروقة التي تسرق عند شجرة الخروب الوحيدة بعض الرطوبة، وتتأمّل من بعيد أسراب الجراد بيأس وهي تستعد لغزو ما تبقى من أماكن تدب فيها الحياة.

هو عام الجراد الأصفر، عام الموت والخراب حيث جفّ الماء ونضبت العيون وكثر القتال والحروب بين الأشقاء حول أتفه الأشياء والأسباب.

عندما انكشحت الأدخنة المتصاعدة في سهل اغريس بسبب رياح الجنوب، تجلّت حيطان المسجد الوحيد في المنطقة حيث تجمع السكان بعد خروجهم من أداء الصلاة وهم يلوّحون بأياديهم إلى السماء ويصرخون بأعالي أصواتهم والزبد يتطاير من بين شفاههم اليابسه:

ـ الموت والسحق للخونة. الموت للقاضي أحمد بن طاهر الذي باع دينه وعرضه ووطنه للكفّار وتعامل مع النصرانيّين الغزاة. المشنقة. اللّه أكبر اللّه أكبر.

لم يرفع الشيخ محي الدين يده ولا هز رأسه، نحو الحشود ولا نحو الرجل الذي كان ينتظر شدّ الحبل حول عنق المتهم بعد أن أُوثقت يداه على ظهره. كانت الأصوات تتكاثر وتتداخل فيما بينها قبل أن تتجلى للشيخ محي الدين حالة الصفاء ويرفع رأسه نحو

السماء متمتماً: اللّهم أعني على إعلاء كلمة الحقّ. اختلطت تمتماته بكلمات القاضي أحمد بن طاهر الذي ظلَّ يتساءل في عزلة:

ـ إذا كانت هذه هي إرادة اللّه، فليكن. لقد علمت ابنك يا الشيخ محي الدين حب هذا الدين وهذه البلاد. تحاكمونني على جرم ارتكبته تحت الضغط العسكري الفرنسي وكنت مكرها وأنا أكفِّر عن ذنبي بطلب الصفح. لم تكن في حاجة لاختطافي، كان يمكنك أن تطلبني وأجيئك بدون تردُّد. فأنت قدوتنا في الحقّ.

ـ لقد حذرناك وطلبناك ولكنَّك تماديت. أنت تعرف أنَّنا منعنا التعامل مع الفرنسيين وحرّمنا بيع المواشي والبغال والخيول والتبن والعلف لهم.

ردَّد الشيخ محي الدين.

ـ لا علم لي بذلك. لابد أن يكون هناك سوء تفاهم يا سيِّدي. أنا تاجر وعندما رفضت البيع للنصرانيِّين، دخلوا المخزن ولم يطلبوا إذنًا منِّي أبداً

ـ سمعت هذا الكلام. أنت تعرف أنَّ أحكام اللّه نافذة.

ـ عندما تكون على حقّ، فأين هو الحقّ هنا؟

ـ ما قاله قضاة اغريس فيك لا شك فيه.

ـ قضاة اغريس حكموا على حالة افترضوها لم يُسمح لي بالدفاع عن نفسي ولا بمساجلتهم. دمي في عنقك يا شيخ محي الدين.

ثم هزَّ الشيخ محي الدين رأسه هذه المرة بدون تردُّد نحو الرجل البدين الذي كان ينتظر إشارته حيث لوَّح بيده اليسرى، إيذانًا ببدء تنفيذ حكم الإعدام في حقّ أحمد بن طاهر، قاضي أرزيو الذي ارتعدت فرائصه أكثر عندما رأى يد الشيخ محي الدين اليمنى تلوح بالمصحف. شهد ثم أغمض عينيه.

ـ اللّهم اغفر لي ولهم يا رب، إنَّك سميع مجيب.

فجأة نزل الصمت مثل ضربة سيف وانتهت الصرخات وتحجرت العيون نحو الرجل البدين المكلَّف بتنفيذ الإعدام. لم يُسمع شيء إلاَّ صوت الحبل وهو ينعقد وينشدُّ على رقبة قاضي آرْزيو بقوة والجسد الثقيل الذي كان يتدحرج على شجرة الزيتون الوحيدة، المقاومة للزمن والحر والأثقال. انتفض الشيخ محي الدين في مكانه كمن يريد أن يصرخ ولكنَّه لم يستطع أن يتفوَّه بأيَّة كلمة. كان كل شيء قد انتهى.

تمايل الجسد الثقيل قليلاً قبل أن يستقرّ على وضع ثابت شيئًا فشيئًا

كانت السماء قد امتلأت بالغربان والجوارح القادمة من الصحراء بعد أن سحقها الجوع. تعالت وقوقاتها الآتية من بعيد ثم بدأت تحوم في شكل حلقات ودوائر فوق رأس الجثة التي همدت واستقرت بشكل عمودي.

عندما بدأت الكواسر أولى هجومها، كان صوت حوافر الخيل قد ملأ فجاة المكان، فهربت الكواسر مؤقتًا لتحلّق بعيداً عن ساحة الزيتونة والمسجد الصغير، قبل أن تعود للهجوم مرة أخرى. بدأ

الحاضرون يهتفون من جديد بحياة عبد القادر القادم من ساحة الحرب ونسوا الجثة تماماً. حتى الرجل البدين الذي كان ينش الكواسر التي عادت بكثافة، التحق بالجماعة الضخمة التي ظلت طويلاً تهتف بدون توقف، وسط الغبار المتصاعد من تحت حوافر الخيل:

ـ سيدي عبد القادر، سيدي عبد القادر، اللّه ينصر سلطان الحقّ.

أحنى القيم، الذي وثق الإعدام والحكم في كراسته، رأسه مائلاً باتجاه الشيخ محي الدين وتمتم في أذنه وهو يحاول أن يجمع كلماته:

ـ لا شيء يا سيدي. يبدو أنَّ سيدي عبد القادر قد عاد من غزوته ضد النصارى مظفراً بالغنائم والنصر والخير.

ـ كنت أتمنَّى أن أعفيه من رؤية هذا المشهد ولكن ليكن، هذا سيعجِّل من بيعته. أتمنَّى أن يكونوا قد استعادوا وهران التي سلمها الباي لأسياده وقبل بمنفى الإسكندرية. ربما فعل خيراً في نفسه. أحسن لنا وله وإلاّ لكان مصيره مشابهاً لمصير قاضي آرزيو لم يعد قادراً على حماية البلاد من غزو الأعداء. سيرتدّ علينا الكثيرون ويقولون لماذا لم تحموه عندما طلب الحماية منكم، كانوا سيأكلون رأسه ويحسبون خيانته علينا

ـ سيدي عبد القادر وخيالته سيسترجعون وهران في أقل من لمح البصر

ـ عبد القادر واحد من هذا الشباب الغاضب، كم تمنَّى أن يتفرَّغ لكتبه ومعارفه. لكن عندما تحترق البلاد يصير العلم جبناً والتهاون خيانة.

ـ حاشا، سيدي عبد القادر ليس من هذا الصنف. رجل لغته السيف وكلام اللّه.

عندما ارتفعت الأعلام والخرق الملونة والزغاريد عاليًا، كانت جثة القاضي أحمد بن الطاهر قد غطتها الكواسر وتحلّقت حولها الكلاب التي بدأت تقترب منها وتتشممها. عندما سار عبد القادر باتجاه الجثة وقف والده بينه وبينها. كان الرجل البدين قد بدأ في فك الحبل عن عنقها، وتركها تسقط على الأرض قليلاً قبل أن يساعد المرأة الملحفة والصامتة على وضعها على ظهر الحمار. عندما أراد أن يشدّها بالحبل نفسه الذي شُنقت به، مدت المرأة يدها وتمتمت:

ـ خلوا الحبل عندكم، ينفعكم باش تشنقوا به واحد آخر. اللّه يكثر خيركم.

ثم انسحبت بصمت وسط الحرّ ورائحة الجراد. أراد عبد القادر أن يتبعها بحصانه ويستفسر عن الأمر لكن والده شدّ أَزِمَّة الحصان ودفع به بهدوء إلى الوراء.

ـ لا داعي. إنَّها زوجة القاضي أحمد بن الطاهر، قاضي آرزيو رفضت أن يدفن في سهل اغريس، فلم أمانع. قلت لها هنا أو هناك فأرض اللّه واسعة. قالت: أرض اللّه ضاقت ولم تعد واسعة. اسمحوا لي أن أذهب به نحو تربة أكثر رحمة. هذا ما قالته زوجة القاضي أحمد بن الطاهر.

ـ ما يدهشني في هذه المرأة هو قطعها لكل هذا القفر لإنقاذ زوجها فعادت بجثة.

ـ كانت تريد أن تتقرَّب منك لإقناعك ولكنَّها لم تستطع الوصول إليك.

ـ اللَّه يغفر لنا جميعًا ويسدِّد خطانا إذا زاغت أرجلنا عن المسلك القويم.

ثم التفت الشيخ محي الدين نحو ابنه الذي ظلَّ متسمِّرًا فوق حصانه، على مشهد المرأة وهي تدفع بدابتها في سهل اغريس.

رفع عبد القادر لحاف برنسه ومسح عينيه.

ـ تبكي يا ابني؟

ـ لا، أمسح الغبار من على وجهي. كان اللَّه يرحمه، أستاذي ومرجعي في الفقه. خسارة كبيرة. ألم يكن هناك حلّ شرعي أقل سوءاً من الإعدام؟

ـ المرجع عندما يخطئ، يخطئ معه الغير. عقوبته غير مغتفرة.

ـ اللَّه رحيم. لا توجد فقط حلول الإعدام، التعزير مثلاً يمكن أن يعلِّم الناس.

ـ عزرناه وأنت تعرف ذلك، أخفناه ولكنَّه استمر في تعاملاته مع القوات الغازيَّة التي لم يكن أمامنا من أجل مقاومتها إلاَّ محاصرتها لإجبارها على المغادرة.

ـ كان أستاذي. يا اللَّه.

ثم وضع يده على فمه ونظر إلى السماء وأغمض عينيه طويلاً.

عندما خلت الساحة، كانت الكواسر تحلق فوقها، مشكلة هالة على ظهر الدابة التي كانت تبدو عليها مظاهر الإرهاق والتعب والعطش. لم يبق أحد بالساحة إلاّ العجوز خناتة التي كانت تنش الطيور كعادتها بعد كل إعدام وتكنِّس المكان وترش قليلاً من الماء المعطر برائحة القار وعود النوار لدفن رائحة الموت والدم. العسل الكحلاء تمحو بقايا الموت كما تقول دائماً العجوز خناتة عندما تُسأل عن فعلها

في الجهة المقابلة للزيتونة حيث تم نصب خيمة كبيرة، تفطنت النساء اللواتي يحضرن الدواء لأحصنة عبد القادر بن محي الدين وجيشه، أخرجن رؤوسهن فجأة من أكوام التبن والمارمان والخزامى والحلحال ورائحة العرعار المحروق لغلق جروح الخيول العائدة من الحروب. تعالت زغاريدهم عاليًا وتجارين نحو الخيول لتحسس جراحاتها

ترجَّل عبد القادر تاركًا حصانه للسايس وللمرأة التي كانت تتحسس كافة نقاط جسده وصدره. سلَّم على رأس والده وقبل يده واعتذر عمَّا صدر منه، ثم طلب أن ينسحب نحو الخيمة بينما بقيت نظرته مرتشقة على الزيتونة والدابة التي غابت في أفق سهل اغريس الجاف، مغطاة بأسراب الكواسر والغربان ومتبوعة بعدد من الكلاب الضالة.

في الخيمة التحق الشيخ محي الدين ببعض القادة العائدين من غزوة وهران. كان الصمت والحرّ وكان الحديث محدوداً تمتم الشيخ محي الدين وهو يلتفت نحو ابنه:

ـ الحاكم يعطي العبرة، قاضي آرزيو خان فكان عليه أن يدفع الثمن. لو كان ابني عبد القادر هو من فعل ذلك، ما أعتقته. لا حقّ للحاكم أن يلعب بسلطان ليس ملكه بل ملك للذين وثقوا فيه. لو لم أفعل لارتدت كل القبائل ضدنا ولما اعترفت بسلطاننا

بعد صمت طويل تمتم عبد القادر بكلمات تكاد تكون غير مفهومة:

ـ يا والدي الكريم، ألم يكن من الأفضل الانتظار قليلاً حتى تنجلي كل الملابسات؟ كنت قد بدأت التفاوض مع وجهاء آرزيو وتجار الأسلحة على مئة بندقية وثلاثة آلاف طلقة، وكان القاضي موافقاً على المساعدة وعلى كل طلباتي. الآن سيتغير كلّ شيء.

ـ الحكم واضح وهو حكم اللّه. الخيانة لا جزاء لها إلاّ القتل وأي انتظار هو تشكيك في أهليتنا لحماية هذه الأرض.

ـ لا أدري إذا كان يحقّ لي في مثل هذه الظروف الصعبة أن أكرِّر ما قلته من قبل، بأنَّ اللّه غفور رحيم يا والدي الكريم. وأنت سيِّد العارفين.

ـ ولكنَّه شديد العقاب أيضًا يجب أن لا تسمح للخيانة أن تنبت في دارك وأنت في بداية مشوارك. لو تخاذل أخوك البكر لوضعت سكيني في عنقه بيدي، هنا وأمام الجميع. تذكر كلام أستاذك ابن خلدون جيّداً، العصبية هي التوفيق بين العشائر بالشعور العضوي. دعني أسألك عمًّا هو مهم وعمًّا فعلتموه في مواجهة النصارى.

اعتدل عبد القادر في مكانه بعد أن شعر بأنّ والده قد وضع حدًّا للمناظرة. تربَّع جيِّداً بقية الخلفاء الذين صاحبوه في المعركة. أغمض عينيه قليلاً حيث غابت كل المشاهد السابقة ولم يبق أمامه إلاّ ضجيج الحرب والخيالة وهم يلقون بأنفسهم في أتون النار

ـ كانت المعركة قاسية وخسرنا العديد من رجالاتنا الميامين. بوبكر الزكري قاوم كثيراً ولم يترك لأعدائه إلاّ جسداً ممزَّقًا الحمد للّه، فقد دحرناهم باتجاه المدينة. القبائل تشدّد من حصارها والأمراض التي تفشت بينهم بدأت تأكلهم والمجاعات تطحن ما تبقى كانوا يظنون الحرب مجرد نزهة.

بعد أن استمع محي الدين ورجاله إلى تفاصيل التقرير الحربي الذي قدَّمه القادة والخلفاء وبعض رؤساء القبائل بحماس كبير، أخذ الكلمة في الأخير، فهدأ الضجيج والحديث عن تفاصيل المعارك الأخيرة:

ـ أنتم تعرفون أنَّه لا حلَّ لنا اليوم إلاَّ الاتكال على أنفسنا الأتراك باعوا وهران بالرخيص وحسين الطباخ لم يطلب شيئًا إلاَّ النجاة بجلده بعد أن ترك وراءه أمة ممزقة. سلطان المغرب، مولاي عبد الرحمن لم نعد نعثر له على أثر ومراسلاته قلت. مرابطو المنطقة الوهرانية الذين استقبلهم السلطان، والخمسون فارساً وقافلة البغال المحمَّلة بالهدايا التي بعثت بها له لنصرتنا ونصرة دين اللّه لم تقدم ولم تؤخر في شيء. منذ أن بعث أحد أبنائه على رأس خمسة آلاف فارس وبطاريتي مدفعية، وأقام مركز قيادته في تلمسان ورفع الدعاء له ولآل هاشم، وشاركت أنا وعبد القادر في هذا المجلس لإخباره بتفاصيل الوضع المستجد، لم نعد نسمع صوته منذ أن انسحب نحو مراكش.

انتظرنا أن يساعدنا، فاقترح علينا إلحاق المنطقة الوهرانيَّة بالمملكة الشريفيَّة المراكشيَّة. أشم رائحة الطمع الكبير في كلام أبنائه وقادته.

ـ هذه حرب طويلة الأمد يا أبي، ردَّ عبد القادر، وتحتاج إلى صبر كبير وما ينتظرنا أكثر قسوة. نحتاج إلى كثير من الحكمة والكثير من التبصر وسننتصر بإذن اللّه.

ـ يجب أن تنقى دار الإسلام من الغزاة.

عندما انسحب الأمير نحو مكتبة والده، كانت الرطوبة القادمة من وادي الحمام المجاور قد عمَّت المكان ورياح الشهلي الذي ينشِّف الشفاه والألسن، قد توقفت نهائيًّا وبدأت الشمس تنزل شيئًا فشيئًا على سهل اغريس بعد أن غطته بغلالة من الصفرة اللامعة غيبت كل التضاريس التي تنبت على ظهر السهل الواسع.

مدَّ عبد القادر يده نحو مصنف المقدمة لابن خلدون. المخطوطة التي دوّن على صفحاتها ملاحظاته الكثيرة. جاءته من بلاد المغرب من تاجر وراق رآه مرة واحدة عندما دخل عليه في خيمته لحظة القيلولة ووضعها في حجره وهو يردِّد: اقرأها وترحم عليّ أو إلعني إذا لم تجد فيها ما يشفي الغليل، ثم انسحب ولم يأخذ حتى ثمنها

تمتم عبد القادر وهو يفتح الكتاب في منتصفه حيث تركه في المرة الأخيرة:

ـ هل كان ابن خلدون غبيًّا إلى هذا الحدّ الذي يعمى فيه بصره وبصيرته؟ لا أعتقد. هناك شيء في المجتمع الذي درسه ما يبرِّر موقفه.

* * *

ـ ٥ ـ

من بعيد، تبدو مدينة معسكر ببناياتها الجيريَّة غير المنتظمة، كومة من الحجارة ذات ألوان بيضاء وترابيَّة حائلة، تتراص ثم تنفتح مخلِّفة بين الكومة والكومة فضاءات وهواءات من الخضرة أو التربة الحمراء. تنام على حافة السلسلة الجبليَّة التي تحيط شمالاً بسهل اغريس الذي يمتدّ على مرمى البصر، ووادي تودمان الذي يتبدَّد عند مخارج المدينة في شكل سواق صغيرة حتى يتضاءل نهائيًّا لينطفئ داخل الحدائق والمزارع الكثيرة التي تحيط بالمدينة.

منذ الهجمات القديمة على المدينة ومعسكر تطوق نفسها بسور قديم بعرض خمسة أقدام وعلو يصل إلى تسعة أمتار، وبحصن مثلث الجوانب في المرتفعات المحيطة بالمدينة، مجهَّز بثلاثة مدافع من البرونز، تتكئ على عجلات قديمة صارت ملتصقة بالأرضيَّة المثبتة عليها بسبب قلّة الاستعمال والصيانة، تحتها قذائف كثيرة صارت

تشبه الحجارة في لونها الخارجي، ثم القلعة أو البرج كما يسمِّيه سكان المدينة، والذي يواجه من إحدى جهاته ساحة المدينة ذات الأبواب الثلاثة: الباب الشرقي المحروس بمدفعين، وباب علي الذي ينفتح على طريق تلمسان ووهران والمحروس بثلاثة مدافع، وهو الباب الذي تعلَّق فيه الرؤوس للعبرة وتتم فيه الإعدامات، وأخيراً باب الإنقاذ الذي ينتهي بمنحدرات وادي تودمان، مجهَّز بمدفعين من جهة الجنوب الغربي للمدينة. خمسة عشر مدفعاً تحرس أسوار المدينة. البنايات مبنيَّة بالطين والحجارة والقلة القليلة مشيَّدة بالآجر. ثم دار البايلك الواسعة والجميلة التي بناها الحاكم التركي له ولعائلته متأثِّراً بهندسة دار باي وهران. الجانب التحتي منها، مخصَّص للاستقبالات، بأعمدة رخاميَّة بيضاء عالية أقرب إلى النموذج الموريسكي القديم والسقف صنع بذوق رفيع، تتوسطه أوانٍ ورسومٌ أقرب إلى المنمنمات والتلوينات النباتيَّة التي تبتعد عن الرسم التشبيهي. الطابق الأول نزع منه عبد القادر كل ما يحيل إلى الوجاهة الزائفة ليصبح مكاناً متواضعاً جداً، يستقبل فيه الشيخ محي الدين ضيوفه وزوَّاره الخاصين جداً. لا يوجد بالمدينة إلاَّ مسجد واحد ترتفع مئذنته عالياً في الساحة بالقرب من دار البايلك ومسجد آخر على الأطراف لا تظهر منه إلاَّ مئذنته من بعيد أربعة جسور صغيرة من الحجارة تربط الضفاف المحيطة بالنهر ذي المياه المتدفقة التي يضيع جزء منها في العيون القريبة والسواقي.

أيام الجمعة والسبت والأحد ينشغل الناس بالسوق في باب علي. سوق متنوعة، تباع فيها أشياء كثيرة. بارود الحرب، جذور النباتات المتسلقة التي تستعمل للتزيين، قشور الرمان لتلوين الجلود

بالأصفر واللون الآجوري، أدوات الخياطة، بياعو الخضر والفواكه. وفي الضفة الأخرى للمجرى، توجد دكاكين الجزارين وفندقان، واحد منهما مخصَّص لمسافري تلمسان والمغرب، الفندق الثالث حُوِّل بعد سقوط المدينة بين أيدي المقاومة إلى ثكنة عسكريَّة للأحصنة وتخزين الأسلحة. بينما الطريق الذي ينطلق من الساحة باتجاه باب علي، تتزاحم حوله الدكاكين الصغيرة للموريسكيين واليهود، وسوق الحبوب المغطاة المواجهة للبرج وسوق الصوف والزرابي والكتان والحياك البيض التي يلبسها السكان والبرانس التي تصنع في المكان نفسه وعلى مرأى من حركة المارة. في الجهة الخلفيَّة من السوق يوجد الكثير من المشتغلين على الأسلحة، الذين لا يصنعون الأسلحة الناريَّة ولا السيوف ولكنَّهم يقومون بإصلاحها. في المدينة عشرة آلاف ساكن يتوزَّعون بين الموريسكيِّين المهجرين واليهود والكوروغلي الكوليرا التي استمرت ١٨ يومًا في أكتوبر ١٨٣٤ أكلت أكثر من ألف وخمسمئة ساكن. على حوافي السوق توجد مقاهٍ ضيِّقة ومتَّسخة، لا تقدّم إلاَّ القهوة التركيَّة بخمسة سنتيمات والشيشة التي تقلِّل بعطرها من رائحة الأرجل النتنة والحشيش للزبائن الخاصين. كل من جلس يشرب لا يقوم إلاَّ إذا جاء من يقوّمه. فهي أمكنة للاستراحة من متاعب السوق ومشاكل الأسبوع الثقيلة. ولهذا كثيراً ما يأتي البراح ويوقظ الناس من غفوتهم لكي يستمعوا إلى خبر مهم عن هجوم أو عن زواج أو عن إعدام سيعلق فيه شخص على بوابة المدينة.

كثرة الجنانات تغطي قليلاً بؤس المدينة وفوضى السوق. الجير ينزع من محجر يقع فوق جنان الباي، ليس بعيداً عن البوابات الخلفيَّة للمدينة.

بعد أن شربا قهوة الصباح لفلف الفلاح الأول برنسه الأسود الذي غطى به حائكًا ناصع البياض، واتجه نحو القوال وهو يقهقه في وجه صديقه الذي كان مايزال مسطولاً بكمية الحشيش التي تناولها:

ـ يا اللّه يا سيدي نسمع له، يقولون إنَّه انتهى من قصة السيِّد علي وراس الغول وبدأ هذه الأيام يروي قصصاً غريبة عن رجل سيأتي وسيملأ صيته الدنيا قاطبة. رجل لا ريب فيه. رجل يشبه المسيح ابن مريم وهو ليس مسيحًا هو مولى الساعة كما يقولون وكما يقول القوّال في السوق.

ـ نسمع شوية وبعدها نسير مع الجميع في صلاة الاستسقاء.

على الرغم من الجفاف والأمطار الشحيحة والأوضاع المرتبكة وحالة الحرب، كانت سوق معسكر تمتلئ في ليلة الخميس. المزارعون الآتون من بعيد وبائعو الشعير والصوف والبهائم، الحدّادون والمصلحون لحوافر الخيل والنحّاسون والبرادعيون والخيّاطون والطرّازون والبرّاحون الذين يذيعون الأخبار في وسط الأسواق ويشيعون الصفقات الكبرى وأخبار الأعراس والاجتماعات وغيرها، كلُّهم ينتظرون أيام السوق المتعاقبة لتنشيط أعمالهم وحركتهم. لكنَّ أطراف السوق التي تصير صفراء كلَّما هبت الرياح الآتية من الجنوب، يحتلها القوالون. فهم أول من يصل وآخر من يغادر المكان. البرَّاح هو الوحيد الذي يُسمح له بالعمل في مكانهم نفسه. منذ الصباح وهو يجوب السوق مردّداً الخبرين الأساسيين: صلاة الاستسقاء واجتماع البيعة، ويحذر الناس بضرورة تفادي العمل مع النصارى الذين يتربصون بالمدن والمزارع ونقاط الماء. القوال الأعمى

وابنته وقرده لم يولوا أيّ اهتمام للبرَّاح، فهم يعرفونه من صوته الأبح. لثاني سوق على التوالي يغير القوال قصته. لم يعد يحكي عن السيِّد علي وراس الغول، ولكن عن قصة الشاب الذي خرج من صلب الأرض بعد رؤيا رآها والده وسيدي لعرج وعلماء أرض الحجاز

«عوده يقطع لبحور والوديان ولجراف العامرة وسيفه بتار يفلق الجبال واحجار الصوان. رجل شرب العلم في الكيسان وجاي من بلاد برانية. يقول الذين عرفوه أو سمعوا به، أنَّه بسلطانه، سيغلق أبواب البحر في وجه النصارى والكفَّار الذين ظنُّوا أنَّ كل الأبواب مفتوحة يدير فيهم واش دار السيد علي في الكفار

ـ واش دار فيهم أنا خوك؟

سأل الرجل المحشش وصاحبه، القوال الأعمى.

ـ تسولني يا وحد الجاهل. احلف باش ما يوقفش الحرب حتى يشوف الدم وصل ركاب الخيل. ربي سمعه وأغرق الدنيا بالماء والأوحال فاختلط الكل بدم الجرحى لتعلو المياه إلى ركاب الخيل. ولم يحنث السيد علي ونجت رؤوس كثيرة تابت إلى اللّه تعالى. الشاب هذا يا سادة يا كرام، عليه بركة سيدي عبد القادر الجيلاني والأولياء الصالحين. عوده مثل البراق، ويطير حصانه للسماء عندما يحاصره الأعداء سيفه البتار يطفئ البرق من حدة لمعانه. القرآن في القلب وفي يده اليمنى سيفه الذي لا ينزل إلى الأرض ولا ينام. وساسبو ما يخونه أبداً. ناره ما تروح في الفراغ. في موقعة وهران خلاص له البارود، رفد عصاه وحفنة تراب وقال ربي أعني ونوشن صوب عدوه وفتح يده، فتت العدو اللي كان قبالته.

ثم التفت القوال نحو قرده وبدأ يراقصه ويغني له:

ـ اشطح يا ولد المخازنية، جدودك الأتراك باعونا بفلس وطيز رومية. اشطح يا ولد التالفة وقل في هذا الدوار الخالي، راح اللي بنى وعلاّ، ويلك يا اللي تثق في الدونية. قل لهم لو كانت الدنيا تدوم، كانت دامت للي سبقوكم. اشطح يا ولد المخازنية وازها وخاطيك. وفرح قلبك وسرح مسجونك وقل هواك، اللي دار على راسك شاشية السلطان راح ونساك وباعك بالرخيص.

ثم ناولته ابنته آلة الربابة من جديد وبدأ يعزف والقرد يرقص وبنت القوال تغني له بصوت شجي كلمات والدها نفسها: « **اشطح يا ولد المخازنية، باباك ما هو عربي وأمك ما هي رومية؟ شكون جابك لترابنا يا ولد التركية**».

كان القوال على عداوة دائمة مع الشاويش لطرش إبان سلطان الباي. كان الشاويش يستمع بدقة إلى قصصه وكلّما سمعه ينتقد الأوضاع، طرده خارج السوق، ليفرش حوائجه في الجهة الخلفيَّة من السوق قبل أن يعثر عليه الشاويش لطرش من جديد القط والفأر. عادات الشاويش لم تتغير إلى اليوم. كلّما رأته ابنة القوال قادمًا بعصاه الخشنة، أخبرت والدها بالأمر فيغير حديثه تمامًا بشكل يرضي سماع الشاويش: **ولد العصملي يا سادة يا كرام، بنى وعلّى حتى وصل السماء، خيره كبير وبركته نورت الدنيا**   وبمجرد ابتعاده يعود إلى انتقاداته القاسية: ولد العصملي جبر لمطامير واجده وامسح الأرض وأكل الأخضر واليابس. الرجال ما ماتوش. علق ونسى، الحقد كما النار، لما تنفخ فيها تزيد تشعل.   ولد العصملي...يا قردي يا

الزين، سرح مسجونك وقل هواك، اللي دار على راسك شاشية السلطان راح ونساك وباعك بالرخيص.

ثم ينزع القرد الشاشية المطرزة من على رأسه ويقلبها ويمر وسط الجموع، يجمع النقود وعندما ينتهي، يضع الشاشية عند رجل سيِّده. يحك رجله ليحسسه بوجوده، فيضع القوال الأعمى بين يديه برتقالة أو حلوى تركية ويتركه يتلهى بها في انتظار جمع حوائجه مع ابنته قبل مغادرة المكان.

بينما يكون الشاويش قد انسحب وهو يبرم شواربه بفخر:

ـ هكذا، على الأقل اعترفوا بولي النعمة. سيدي الباي يمنحكم الخير والأمان.

ثم يبتعد حتى يغيب نهائيًّا راضيًا على عمله الصالح. وعندما يؤذن الظهر، يلتقي الرجلان وجهًا لوجه من جديد عند بوابة المسجد، لا أحد يحادث الآخر بنت البراح تمتم في أذن والدها

ـ الشاويش هنا، راه قدامك ويشوف فيك، عرفك

يقول بصوت مسموع:

ـ هذاك المهبول اللي ما يعرفش بأن الباي انتاعه كلاه حمار قدامه الحيطان ويفلق راسه إذا حب، هنا ما عندو ما يدير رانا في بيت اللّه.

يصلي صلاته ويعود إلى موقعه حتى إذا لم يبق أحد انسحب نهائيًّا وطوى حوائجه وركب دابته باتجاه سوق آخر في المنطقة. يعرف الجهة بكاملها يقول إنَّه يستطيع أن يصفها ركنًا ركنًا.

ـ مادامت عيون رقية حية، فأنا أقدر على الرؤية من أي واحد، نهار اللي تتزوج رقية نشد في اللّه وبركة الأولياء الصالحين وسيدي عبد القادر الجيلاني الذي يستقبلني كلّما ضاقت سبل العيش واشتد شطط الأسفار.

بعد صلاة الظهر. وقف الإمام في المقدمة وخطب في الناس تحت أمطار ثقيلة قلّما تسقط بهذه القوة في نهايات الخريف:

ـ إن اللّه يسمع من المؤمنين آلامهم. الحمد للّه الخير بدأ ينزل علينا أبشركم أنَّ هاتفًا وقف على سيدي الأعرج وسيدي محي الدين وبشرهم بسلطان سينزل من لحمهم، فارس لا شيء يشبهه، فيه من روح اللّه واستماتة المجاهد وسمة الأنبياء. اليوم ستتم مبايعة هذا السلطان الذي سيحارب فلول الغزاة الذين سرقوا البلاد وكرامة العباد والكفّار والمرتدين في السهول حتى حدود وهران. سنذهب كلُّنا إلى مقام سيدي عبد القادر. انصروه ينصركم اللّه.

تردّدت كلمة آمين مختلطة بالأسئلة التي لم يعرفوا مصدرها ولا جواب لها عبر الوديان التي بدأ ماؤها ينز وريحها تشتدّ.

ثم طلب من كل المصلين أن يقلبوا ألبستهم وأن يرفعوا الأعلام الملونة، وسار الجميع نحو سهل اغريس. امتلأت الضياع بالكبار والصغار الذين التحقوا بالمتسوقين. الشيوخ على الدواب والنساء في المؤخرة والأطفال في الخراج وفي المعابر والطرقات كانوا يطلبون الرحمة والماء. صلاة الاستسقاء واجتماع البيعة جمعا هذه المرة الآلاف من الناس الذين التحقوا بمقام سيدي عبد القادر الجيلاني شاء اللّه به.

* * *

ـ ٦ ـ

أمطار أيام الخريف الأخيرة التي سقطت بكثافة جعلت سهل غريس يخرج من الموت والعطش. مياه وادي الحمام التي غادرت الجنبات منذ الصباح الباكر تدفقت على التربة الجافة، فدفعت ببعض النباتات الخضراء إلى الخروج من بين الشقوق والأرض المتصلبة والجافة.

تبدو معسكر من بعيد كمجموعة من البنايات المتراصة المتداخلة بدون انتظام، غارقة وسط مجموعة من الحقول التي تغطي كل مداخلها لم تكن أكثر من حامية تركية ومركز عبور وسوق يلتقي فيها الخضّارون والباعة اليهود والمسلمون مرات قليلة في الأسبوع حيث تتحوّل إلى ملتقى لكل أطراف المدينة.

ـ بشرى خير هذه الأمطار. الناس ينتظروننا في المسجد.

قال محيي الدين لابنه الذي كان منهمكًا في تصفح حوافر حصانه والحدوتين الجديدتين ويتحسس عيني وصدر حصانه عند مدخل المدينة.

ـ أنت تعرف أنَّ عود حميان لا يخدع صاحبه، شرط أن تكون الصفايح مليحة.

لكنَّ الشيخ محيي الدين كان غارقًا في موضوعه الأثير الذي فاتح فيه ابنه طوال أيام الأسبوع وصباح هذا اليوم، قبل أن ينصاع له بصعوبة وبدون قناعة كبيرة.

ـ هل تتذكر الرؤيا البغدادية؟

ـ نعم. تحدَّثنا فيها كثيراً. أتذكرها جيّداً وبغداد ما تزال ماثلة في ذهني منذ زيارتنا لها في تلك الأيام التي صارت اليوم بعيدة، بمساجدها وزواياها وساحاتها الواسعة.

ـ لقد عاودتني الرؤيا نفسها من جديد بشكل ضاغط. عاد الهاتف نحوي وهو يصر ويضغط عليّ: ماذا تنتظر لكي يصير عبد القادر سلطان الغرب؟ أنت تمارس معصية ضدّ نفسك وضدّ ربك. الرؤيا يجب أن تجد طريقها ومسالكها

هز عبد القادر رأسه ولم يعلّق إلاّ بكلمات محدودة.

ـ علينا أولاً أن نعرف رأي القبائل القريبة منّا لقد خلقنا قوة كبيرة لمحاربة الغزاة ولا أريدها أن تتفرق بسبب حسابات صغيرة. المهمّ ليست الخلافة ولكن من يقود الحرب حتى النصر؟ إلى اليوم لا يوجد غيرك من يستطيع أن يحقق إجماعاً

ـ للعمر شروطه يا ابني ولم أعد قادراً على أداء ديني تجاه هذه الأرض. وكل الأنظار تتّجه اليوم نحوك. شاب ومحارب من الطراز الرفيع.

ـ ربي يجيب الخير.

ظلّ عبد القادر صامتًا طوال المدة التي عبرت فيها الأحصنة الوادي وجنانات الباي قبل أن تأخذ طريقها نحو المسجد.

رأى عبد القادر من بعيد الأدخنة التي تعالت في عمق السماء. لقد محت كل شيء وطردت بقايا الجراد الذي هجم قبل يومين على السهل كلّه. لا يوجد حلّ لطرده إلاّ الأدخنة وحرق العرعار وقتل اليرقات التي ستجد في رطوبة المطر فرصة ملائمة للتكاثر الهادئ، والجري وراء الأسراب التي حينما تأتي تأكل الأخضر واليابس. في السنوات الماضية وقعت حرب قبليَّة مميتة بسبب الجراد، كل واحد يتّهم الآخر بأنّه كان وراء أسراب الجراد التي تركت حقله وتحولّت نحو حقل خصمه. احتاج المتصارعون إلى كل حكمة الشيخ محيي الدين وحكماء القبائل لكي تتوقف الحروب القاتلة. في السنة الأخيرة أدرك الناس أنّه لا حل إلاّ بالعمل الجماعي وأنّ الجراد أينما حلّ فهو خراب وسيجتاح كل الأمكنة المتبقية إن عاجلاً أو آجلاً

زادت الرياح قوة في هذا الصباح على غير عادتها ومع ذلك استمر طلاب الزاوية وخدام المقام في تعليق الأعلام الملونة بالأبيض والأحمر، على الرغم من طغيان اللون الأخضر، المطرزة بأيدي نساء قبائل غرابة وهشام اللواتي يجدن لذة كبيرة في التفنن. كنست الساحات الكبرى وبدا كأنّ سهل اغريس مقدم على احتفالات

استثنائيَّة. الوشوشات في المقاهي المرمية على الأطراف والمصليات الصغيرة، عن اجتماع كبير، لم تتوقف أبداً منذ أكثر من أسبوع.

ما كاد الشيخ محيي الدين يتربَّع في ساحة المسجد المغطاة بغطاء كبير من الخيش البني الذي يقي المكان من المطر والشمس، منضماً إلى بقية رؤساء القبائل الذين سبقوه إلى الساحة، حتى دخل عليه سيدي الأعرج، مرابط سهل غريس:

ـ يا خويا محي الدين، شفت منامة.

ـ خير وسلامة، أجاب الشيخ محيي الدين آليًا

ـ لقد رأيت حلمًا يشبه ذلك الذي رأيتك فيه تقطع الفيافي للحج.

ـ كلامك يا الشيخ الأعرج لا ينزل إلى الأرض؟

ـ رأيت مولاي عبد القادر الجيلاني شاء اللّه به في لباس أبيض فضفاض. أخذني نحو زاوية خالية وقال لي أغمض عينيك أغمضتهما وعندما فتحتهما، كشف لي عن عرش كبير في الصحراء. قلت سبحان اللّه ثم مدَّ يده نحو سهل غريس وجاء بشاب مليء بالحياة في عمر سيدي عبد القادر ووضعه وصيًّا على العرش.

ـ إن شاء اللّه ربي يتمم بالخير هذا اليوم.

ـ إن شاء اللّه وبسرعة قبل أن ينفرط عرش الصحراء. القبائل تعبت وبعضها ما يزال يرى قدوته في الأتراك الذين باعوا كل شيء، الجزء الآخر منها بدأ ينظر بعين الخوف تجاه النصارى، وما تبقى

يتهاون ولا يرى نفسه معنياً بما يحدث ويخترق الحصار المضروب على الغزاة. يجب أن نتحرك يا الشيخ محيي الدين قبل فوات الأوان.

كانت الشمس قد انسحبت قبل وقتها تحت الغيمات القليلة التي ارتسمت في السماء قبل أن تتمزق إلى أشلاء صغيرة. امتلأت ساحة المسجد وجلست البقية عند المدخل في شكل دائرة واسعة.

كل الأنظار كانت مصوَّبة نحو الشاب الذي كان يجلس مواجهاً لوالده. لقد تحدَّثت عنه الحارات والأسواق الشعبيَّة حتى أنّ الكثير من القوالين يخلط بينه وبين سيدي عبدالقادر الجلاني. رأوه على حوافي مدينة وهران ينظم القبائل ويناوش الفرنسيِّين ويحدِّد المواقع الضعيفة التي يمكنه أن يدخل منها. رجل الغبار المتصاعد والبارود والزغردات وقرع طبول الحرب وحركة الأحصنة وهي تسابق الريح.

انتهى سيدي لعرج وقبائل هاشم وبني عامر والغرابة في ذلك اليوم إلى الاقتناع بأنَّ الظروف الصعبة تحتِّم على سيدي محيي الدين أخذ زمام الأمور بين يديه وإلاَّ ضاع الضرع والزرع. عندما تدخل الشيخ محيي الدين بصوت حكيم كعادته وهادئ لا تكاد تسمع إلاَّ نبراته الأخيرة، كانت كل العيون مصوَّبة نحوه:

ـ أدرك ثقل المسؤولية والشقة. حاربنا من أجل هذه الأرض بكل إخلاص. لقد انسحب بوايي[1] بعد فشله الذريع في تذليلنا، لكن للأسف حلَّ محله ثعلب آخر، أكثر دهاء من سابقه. دوميشال[2] الذي يستعدّ الآن لتعويضه وهذا يحتاج إلى دم جديد

---
١ ـ Boyer

٢ ـ Desmichel

لست قادراً عليه. العمر سلطان. ومع ذلك أضع أمامكم ابن الزهراء، عبد القادر، فإن شئتم توليته سلطاناً على الغرب، فلكم ذلك وإلاّ اقترحوا من ترونه مناسباً لهذه المهمة الكبيرة. لم أعد قادراً على تحملها

ساد الصمت ونظرت الأوجه المتعبة وتبادلت النظّرات. تململ المرابط سيدي لعرج داخل برنسه الرمادي الخشن متّكئاً على عصا الزبوج التي كانت بجانبه. قام بصعوبة من مكانه ثم انحنى على رأس الشيخ محيي الدين وقبله. التفت إلى الحاضرين متّكئاً على عصاه:

ـ تصمتون؟ معكم حقّ. لكن سيدي محيي الدين كبر ولم يعد قادراً. الرؤيا التي رآها في بغداد، رأيت شبيهاً لها هنا، فلا تجبروه على تغيير ما رأى. والهاتف الذي جاءني ألحّ علي بأن أخبر الناس بخصال هذا الشاب الذي سيقود هذه الأرض نحو الخير. كلُّها علامات تقودنا نحو التكاتف حول هذا الرجل الذي تقول الرؤيا إنَّه سيغير الموازين وسترتعش الأرض تحت حوافر خيله. فلا تتركوا العلامة تنطفئ. لا تتركوا العلامة تنطفئ. هذه هي وصيتي الوحيدة.

ثم خرج في ذلك اليوم ولم يعد الناس يعرفون جيداً أنَّ سيدي الأعرج عندما ينطق، لا ينطق عن الهوى، وعندما يقوم من مكانه فهو يأمر الناس أن يسلكوا المسلك الذي اقترح وإلا تنصل عنهم وصام شهراً في بيته، لا يأكل ولا يشرب إلاّ ما يسدّ الرمق حتى لا يموت. في عام الجراد عندما تطاحنت القبائل، لم يأكل حتى حقنت الدماء. ولهذا بمجرد خروجه من المسجد، تصاعدت الأصوات

مهلّلة: اللّه أكبر. اللّه أكبر. عبد القادر سلطاننا عبد القادر سلطاننا

في مساء اليوم نفسه وقبل أن تنطفئ الشمس وراء سهل اغريس، أُعلن عبد القادر سلطانًا وأميرًا للمؤمنين. ولتفادي غضب ملك المغرب اكتفى عبد القادر بلقب الأمير حتى يحافظ على الأواصر على الرغم من بداية تفكُّكها قرأ صكَّ البيعة على ممثلي القبائل الكبيرة الثلاث. بايعه كل من حضر بينما أرسل صكّ البيعة إلى كل أراضي بايلك معسكر ووهران وتلمسان بواسطة موفدين انطلقوا في الليلة نفسها.

وقف الشيخ محيي الدين في الوسط. كانت الأمطار قد عادت إلى السقوط ولا تُسمع إلاّ نقراتها وهي تنكسر على سطح غطاء الخيش البني الذي كان يغطي ساحة المسجد بدأ عبد القادر في قراءة صكّ البيعة بتأن قبل أن يخرج الجميع، كل باتجاه مهمته:

بسم اللّه الرحمن الرحيم وصلى اللّه على سيِّدنا محمد الذي لا نبي بعده.

إلى الشيوخ والعلماء وإليكم يا رجال القبائل وخاصة فرسان السيف والأعيان والتجار وأهل العلم، السلام عليكم.

وفقكم اللّه وسدَّد خطاكم وجمع شملكم وحقَّق لكم النجاح ويسر لكم الخير في جميع أفعالكم وبعد.

فإنَّ أهل مناطق معسكر واغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد بهم وبني شقران وعباس والبرجيَّة واليعقوبيَّة وبني عامر وبني مهاجر

وغيرهم ممن لم ترد أسماؤهم قد أجمعوا على مبايعتي أميراً عليهم وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة اللّه. وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم كما قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين وإزالة النزاع والخصام من بينهم وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو الذي غزا أرضنا وهو يهدف للسيطرة علينا. وكشرط لقبولي فرضت على أولئك الذين عهدوا إلي بالسلطة العليا واجب الامتثال دائماً في جميع أعمالهم إلى تعاليم الشريعة المقدَّسة وكتاب اللّه وأن يقيموا العدل على هدى سيرة رسوله بأمانة وتجرّد على القوي والضعيف والشريف والمشروف وقد ارتضوا بهذا الشرط.

أدعوكم إذن لتحضروا إلينا، لتقدموا بيعتكم وتظهروا طاعتكم، وفقكم اللّه وأرشدكم في الدنيا والآخرة.

إنَّ هدفي الأسمى أن أحقق ما فيه الصلاح والخير واتكالي على اللّه فمنه وحده أنتظر الثواب والفلاح.

حرر بأمر من ناصر الدين، السلطان وأمير المؤمنين عبد القادر ابن محيي الدين أدام اللّه عزّه وحقق نصره، آمين، بتاريخ الثالث من رجب ١٢٤٨ الموافق لـ: ٢٧ نوفمبر ١٨٣٢

انطفأت فجأة كل الصراعات المحتملة. الكثير من القبائل كانت قد جاءت وفي ذيلها أمير كانت تريد اقتراحه أو فرضه بالقوة، لأنَّه تبدى للجميع أنَّ الأخبار التي تسربت عن اعتزال الشيخ محيي الدين كانت حقيقة أو قريبة من الحقيقة. الناس يعرفون جيّداً أنَّ أبناء الشيخ محيي الدين، هم من أصبح يدير تجارته في آرزيو ووهران

وحتى العاصمة وأنَّ حضوره في المعارك لم يصبح إلاَّ رمزيًّا وتوجيهيًّا في النهاية، كل القبائل استسلمت لسطوة الشيخ محيي الدين ولرؤيا سيدي الأعرج التي لا تخيب.

كانت الظلمة قد بدأت تنزل عندما خلت ساحة المسجد وتفرَّق الجميع تحت تمتمات، بعضها كان واضحاً ويهلل بحياة الأمير والشيخ محيي الدين والزاوية القادريَّة وأهل مناطق اغريس والجوار، وبعضها الآخر حمل غموضه وأسئلته المرتبكة وخرج بها نحو بيته أو قبيلته

* * *

- ٧ -

بعد الترميمات الجديدة لطابقي قصر الباي وإعادة طلائهما بالجير لمحو آثار البارود العالقة بالجدران الخشنة التي خلّفتها المقاومة، التي انتهت بهرب الباي باتجاه وهران عندما حاصرته قبائل سهل اغريس، استقرَّ الأمير وعائلته في القصر، في جنان البايلك.

الأيام التي تلت لم تحمل أخباراً جديدة سوى بداية تغير في العادات والنظم. الأمير دخل في حالة صمت وتأمُّل وتعبُّد وعزلة بعد أن منع الغارات على القبائل العربيَّة، وهدَّد بالعقوبات الصارمة ضدّ كل من يخترق القانون. لم يكن يستقبل إلاَّ القادة العسكريِّين القادمين من مختلف الجبهات والعيون المتسربين عبر البايلك الوهراني. كان يعرف جيِّداً أنَّ الوضع كان كل يوم يزداد تعقيداً والتباساً دوميشال، بعد محاولات متعدِّدة، استولى على جزء كبير من البايلك الوهراني، وناسه المقربون لا يتحدَّثون إلاَّ عن خسرانهم

للغنائم التي كانوا يكسبونها من غزواتهم على القبائل المجاورة. عندما دخل عليه أخوه مصطفى في عزلته، كان في الركعة الأخيرة. ولما التفت نحوه، صعب عليه أن يخبئ انزعاجه من قرار أخيه مصطفى الذي لم يتوقف عن إبداء غضبه من وقف الأمير للغارات على القبائل المجاورة المعادية لسهل اغريس.

ـ لقد سدت كل أبواب الخير في وجوهنا، وعندما لا تجد القبائل المتحالفة معنا ما تأكله، ستأكل رؤوسنا جميعًا منذ مدة لم يدخلنا أي شيء من الغنائم بسبب قرار منع الإغارة على القبائل، ماذا نفعل الآن؟

عندما قام من الصلاة، كانت حمرة الغضب بادية على وجهه. نظرته اسودَّت فجأة، وفقدت عيناه لونهما الأزرق الهادئ.

ـ إلى هذا الحدّ ما قدرتش تصبر حتى نكمل الصلاة؟ خلاص. كل شيء لازم يتغير. هذاك العهد اللي كنَّا فيه ناخذ مال الناس بغير حقّ، راح. القبائل صارت منَّا، من لحمنا، ونحن صرنا منها، أخوة في الخير والشر.

ـ هذا الكلام لن يقنع الآخرين الذين ينتظرون إجابات مقنعة. الناس تعبوا

ـ لقد بايعوني وعليهم أن يتحمَّلوا مسؤولية بيعتهم. اللي يمد يديه لغيره بدون أمر منِّي ستقطع ويتحمل مسؤولية فعله، ما عنديش حاجة أخرى أقولها

ثم فجأة لاحظ بأنَّ صدر أخيه مصطفى كان ما يزال مطرزاً بالنياشين الذهبيَّة، على الرغم من أنَّه طلب من العائلة التقليل بعض

الشيء من مظاهر البذخ والتباهي قبل دخوله في عزلة الأسبوع. وبدون تردُّد، مد يده نحو صدر أخيه، فنزع بغضب النياشين واحداً واحداً، تحت دهشة هذا الأخير ورماها أرضاً وهو يردِّد:

ـ ابتداء من اليوم كل شيء سيتغير. لسنا في حاجة إلى هذا البذخ لكي نحارب الآخرين. الانتصار على الغزاة صعب. نحتاج إلى أسلحة حقيقيَّة، إلى الماء، إلى زراعة مغذية. نحتاج إلى تغيير سلوكاتنا اليوميَّة. نفكر كيف نصنع المدافع والأسلحة الخفيفة والسيوف بدل أن نكتفي بالتصليحات. أن نعيد اكتشاف البارود إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وأن نتخلَّص من البارود القبائلي الأخضر الذي لا ينفجر وإذا انفجر أحرق صاحبه قبل أن يحرق العدو المعركة استعداد يومي وإلاَّ سنحني الرؤوس ونقوم بما قامت به بقية القبائل ونعود إلى تصيُّد الغنائم.

ـ ولكنَّك لا تستطيع أن تغير عادات الأجداد وتجعلنا شبيهين لبقية الناس. أولاد الشيخ محيي الدين يصيرون مثل بقية البشر؟

ـ وشكون حنا حتى لا نكون مثل بقية الخلق؟ من نكون نحن إذا فشلنا حقيقة في خدمة الآخرين؟ هل تعرف ماذا فعلت هذه المبايعة في الناس؟ ما راك عارف والو الحاج مصطفى بن باي عثمان، حفيذ محمد الكبير يطالب القبائل الغربية بالولاء للفرنسيين، الغماري، شيخ أنكاد يحاول جرّ أولاد سيد الشيخ من ورائه والصحراويِّين لتعيين سلطان آخر معتمداً على قدور بن المخفي وقبائل الشلف، ومصطفى بن اسماعيل الذي ثار ضدّه سكان تلمسان يتهمنا نحن بالخيانة والأنانية وسرقة السلطان منه. الجيوش الفرنسيَّة

على الأبواب، تهدِّد بتدمير معسكر وحليفنا الكبير، قبائل غرابة، ضُربت فجراً من طرف دوميشال وأخذ مالها وهُتكت أعراضها وسبيت نساؤها، ونُهبت أموالها ومواشيها لأول مرة يتذوق الغزاة في وهران، طعم اللحم. وأنتم هنا تتحدَّثون عن اقتسام الغنائم. يبدو أنَّ الدرس لم يحفظ جيّداً

في اللحظة نفسها دخل الشيخ محيي الدين الذي سمع جزءاً من كلام الأمير:

ـ بالهداوة يا ابني. بالسياسة، ما تتقلقش. اللّه خلق الدنيا في سبعة أيام، وليس حراماً التفكير في الغنائم، الناس تعودوا على هذا النظام.

ـ يا أبي، لا تجعلني أندم على إمارة لم أطلبها حروب المسلمين القدماء لم تعد نافعة الكلام لم يعد كافيًا كنَّا نظنّ أنَّنا الأفضل في كل شيء وبدأنا ندرك أنَّ الآخرين صنعوا أنفسهم من ضجيجنا الفارغ.

ـ معك حقّ. لكن رحمة ربي واسعة واللّه معنا. نحن نخوض حرباً باسمه وباسم السلطان ولو أنَّه نسينا يمكن لأمة فضَّلها اللّه عن غيرها أن تغير الموازين في أيَّة لحظة.

ـ يا شيخي، كلامك كبير ولكن الزمن تبدَّل ومعه تبدلت السبل والوسائل. نحن على حوافي قرن صعب إنَّهم يصنعون المدافع والبنادق والسيوف الحادّة ونحن مازلنا نراوح في أمكنتنا، ونزهو كلما أقمنا مقاماً جديداً في سهل اغريس. سبحان اللّه! لقد وضعتني في مكان لم أختره وأخافه مثل خوفي من ظلم الناس، وقلت لي قل

قولة الحقّ حتى في نفسك. وها أنذا أقولها في وضع أرى فيه البلاد تموت والأراضي تضيق.

فهم محيي الدين جيِّداً أنَّ ابنه بعد أسبوع العزلة خرج مصمماً على خياراته. تمتم ثم لف نفسه داخل برنسه واستعد للخروج:

ـ معك حقّ يا ابني. ربي يتمم بالخير.

كان أخوه مصطفى قد غادر المكان.

ـ يا أبي وشيخي الكبير، قل لأعمامي أن يقللوا من مظاهر البذخ وأن يرتدوا ألبسة أكثر ملاءمة للمعركة. الغزاة يملكون الآلات التي لا نملك ونملك حيلة أبناء الأرض التي تنقص من قوتهم وجبروتهم، إذا عرفنا كيف نستغلها تنظيم البلاد يحتاج إلى وقت وإلى تفكير كبير، لا نملك اليوم لا هذا ولا ذاك، ولكن بالإرادة والنظام نستطيع أن نقاوم ونحرِّر أرضنا

عندما اندفن من جديد في غرفته في آخر الليل، لم ينم أبداً. الحمل ثقيل. عندما كان فارساً كانت شجاعته تقاس بمدى إقدامه، لكن اليوم قدرته رهينة استماتة الآخرين. كيف ينظم مجتمعاً وقبائل لا ترى أكثر من سلطان رئيس القبيلة ولا حياة لها إلاَّ في الغنائم. وإلاَّ تأكل رأس من يحكمها؟ صلّى ثم انزوى وبدأ يورق كتاب المقدمة، حيث تركه في المرة الأخيرة في المنتصف تماماً، والمؤلفات العسكريَّة القديمة والخرائط التي جلبها والده من الحج ومصر وبغداد، ويسجل الملاحظات على الهوامش.

عندما لمعت أشعة الشمس الأولى على وادي الحمام وسهل اغريس وانكسرت بقوة على جدار البنايات المتراصة، ماحية كل ألوان الأتربة العالقة، كان هو واقفًا في شرفة قصر الباي، يتّكئ على الحافة المطلّة على المزارع والحدائق. تنفّس عميقًا روائح النباتات والنوار وشجر الصبّار القادمة من جنان الباي وعرقوب اسماعيل، ثم رأى البنايات الخربة المحيطة بالمدينة التي أُحرقت مع خروج الحكّام الأتراك. رأى حركة الناس وهم يتّجهون نحو السوق ويصعدون جماعات جماعات الطرقات الضيقة قبل أن تبتلعهم الممرات الملتوية والخلجان والأشجار الكثيفة. من الجهة الأخرى، تبدو بقية المدينة كأنّها هاربة صوب السهل أو صوب الوادي الذي كان يحد من امتدادها لتقفز فوقه وتبدأ امتداداً آخر من الجهة المقابلة. لم يسمع شيئًا إلاّ الطيور التي كانت تستعد لمغادرة أعشاشها وخوار الأبقار وثغاء الأغنام وهي متجهة نحو المزارع المحيطة. ثم. لا شيء في الأفق إلاّ الحرائق والحروب المدمرة المزيلة لكل عمران.

* * *



الوقفة الثالثة

مدارات اليقين



ـ ١ ـ

انغـمس مـونسـينيـور ديبـوش طويلاً في تأمل الملاحظات وصفحات الجرائد والكتابة قبل أن يرفع رأسه عن الطاولة. لم يسألني عن الساعة كعادته: «جون، قل يا ابني كم الساعة الآن؟» وأجيبه بطريقـة ساخـرة تعوَّدها منّي حتى يقـوم للنوم «مثل البارح تماماً يا سيِّدي، لقد حان وقت نومك»، يجيب بهمهمة «طيب» ويعطيني الانطباع بالذهاب إلى النوم، ولكنَّه سرعان ما يندفن من جديد في أوراقه وينسى نفسه حتى الساعات الأولى من الفجر الذي يأتي بسرعة.

هذه المرة لم يسأل عن أيّ شيء ولكنَّه واصل الكتابة بتدفق كبير حتى انتهى من ترتيب الجملة الأخيرة في الصفحة التي امتلأت وضاقت حروفها

ـ اسمع يا جون وقل لي رأيك:

«في حدود ١٨٣٣ أو بعدها بقليل عقد دوميشال معاهدة مع الأمير، أخطأ أم أصاب فذاك أمر يتجاوزني، في بداية مشواره العسكري المدهش، وكانت بمثابة أول هدنة وبداية سلام ولست مخولاً كما لا يخفى عليكم للحكم عليها من أي جهة من الجهات ولكنّي على الأقل أملك حقّ سردها وحكيها...»

ـ جيِّد هذا الكلام الموجَّه لرئيس الجمهورية، يا سيدي، لكن بشرط أن تردف ذلك بالتفاصيل حتى يتمكَّن سيدي نابليون من فهمك جيّداً.

ـ أعرف يا جون أنَّ كل الكلمات يجب أن تكون محسوبة بدقة متناهية. ولويس نابليون ليس من الناس الذين يقتنعون بسهولة.

ثم فجأة حبس تدفق الجمل. ليس من السهل التوجُّه إلى رئيس دولة بكلام يصل إلى العقل والقلب معاً توقف مونسينيور ديبوش عن الكتابة متأمِّلاً مصدر البرودة القاسية، فقد كانت الكوة الصغيرة مفتوحة وأدخلت خيطاً رقيقاً من البرد، يستقر مباشرة في الظهر كالإبر. البرد في هذا الشتاء قاس وفي بوردو أكثر خصوصاً المسترال الذي يهب عادة في مثل هذا الوقت، شاقًّا داخل الإنسان في عمقه.

ـ هل يريد سيدي غطاء. يبدو أنَّ المسترال وجد طريقه عندنا

ـ وقته. اعطني القطنيَّة الموضوعة في حجرة نومي.

وضعت القطنيَّة على ظهره لف نفسه مثل المومياء بحيث لم يظهر إلاَّ رأسه ووجهه وعينيه البراقتين وأصابعه التي لم تترك القلم ولا

كأس الشاي الذي كنت قد وضعته بالقرب منه عندما كان منهمكًا في الكتابة. كان بخاره ما يزال صاعداً ورائحة النعناع المنبعثة منه تملأ المكان. مونسينيور كان يحب هذه الطقوس التي جاء بها من الجزائر. الثماني السنوات التي قضاها هناك صارت جزءاً مهمًا من ذاكرته إن لم تكن كلّها

ـ تُشكر يا عزيزي جون، لولاك لا أدري ماذا كنت سأفعل.

ـ ولكن يا سيدي يجب أن ترحم نفسك وترحمنا معك.

ـ هذه البطانيّة عزيزة علي. تصور يا جون درجة الحب، كلّما وضعتها على ظهري شعرت بدفء الجزائر كلّه يغطيني من رأسي حتى أخمص قدمي. يبدو أنّنا لا نغادر أرضًا إلاّ لنترسخ فيها أكثر، وكل البلدان التي نرتادها ليست إلاّ منافٍ تعيدنا إلى الأرض الأولى التي تظلّ عالقة بكلامنا وألبستنا ورائحة أجسادنا

ـ مونسينيور؟ من أين تأتي بكل هذا الكلام الجميل؟ ما تقوم به جيِّد، ولكن يا سيدي أنت لم ترتح منذ عودتك من عند الأمير في بو ارتح قليلاً لتجد القوة أكثر. صحتك أولاً

ـ أنا الآن بصدد الانتهاء من الفصل الخاص بالمعاهدة مع دوميشال، وما سمعته من الأمير جعله يكبر في عيني أكثر هناك ملاحظات بقيت عالقة سأسأله عنها في زيارتي القادمة. ليس من السهل أن تتحدَّث عن عدوك بتسامح واحترام. يبدو أنَّ الأمير من صنف آخر.

ـ كل الذين اقتربوا منه يقولون الكلام نفسه.

لم يردّ على ملاحظتي الأخيرة، ولكنّه التفت لقلمه وحاول أن يجد جمله المستعصية. كان نقيق الضفادع الذي يكرهه قد زاد حدة. بذل مجهوداً كبيراً لكي يلغيها من ذهنه ولكنّه لم يفلح بسهولة. توقف عن الكتابة ثم ذهب نحو القصاصات الكثيرة التي كانت تملأ الطاولة الكبيرة وبدأ يتفحّصها واحدة واحدة، ثم يفتح جريدة المونيتور وجرائد أخرى ويحاول أن يقارن بين هذا العدد وذاك.

تذكّر مونسينيور أنَّ زيارته الأخيرة لقصر هنري الرابع في بو Pau لم تزده إلاّ يقيناً أنَّ الأمير مظلوم ومخذول بعمق ومع ذلك فقد ظلَّ متزناً. لم يكن يبدو عليه أيّ قلق عندما حادثه عن الحرب والهدنة وبنودها. كانت المسافة بين ما كان يرويه وما كان يعيشه تزداد اتساعاً. الذي أدهش مونسينيور وهو يتابع حركات الأمير وهو يتكلّم، هو أنَّ بريق عينيه ظلَّ متقداً بقوة ومليئاً بالحياة. لم يكن يبدو عليهما أيّ ارتباك أو أيَّة رغبة في إخفاء الحقيقة المرَّة.

ـ أرأيت كيف كانت عيناه وهو يحدِّثنا يا عزيزي جون؟

الجملة التي لم يتوقف مونسينيور عن تكرارها كلَّما فتحنا حديث الأمير.

عندما وضعت كأساً ساخنة من الزهورات هذه المرة، بدل كأس الشاي التي صارت باردة جداً، قال مونسينيور وهو يرشف رشفة طويلة كعادة أهل الصحراء:

ـ تعرف يا عزيزي جون، الناس الكبار عندما يصلون إلى درجة عليا من نكران الذات تنتفي تماماً أنانيتهم. أرأيت كيف كان الأمير يحكي عن دوميشال؟

ـ طبيعي. لم تعد بينهما حرب، لقد انتهى كل شيء.

ـ لا يا جون، الأحقاد تشتعل أكثر خصوصًا عندما تنتهي الحروب بمنتصر ومنهزم. ومع ذلك، الأمير يملك القدرة الكبيرة على تأمّل كل شيء بتبصر وبعد نظر.

ـ وهل ستقول كل هذا الكلام في الرسالة إلى السيد لويس نابليون؟

ـ ولمَ لا؟ صحيح أنَّنا أمام مسؤولية كبيرة. ولكنِّي مرتاح الضمير، فقد قطعت وعداً خاصًا على نفسي، أن أقف عاريًا أمام ضميري وأمام اللّه وإلاّ فلا معنى لرسالتي.

ـ العالم يا سيدي صعب وأخشى أن لا يسمع نداءاتك العميقة.

ـ أنا متأكِّد من أنَّه سيسمعها، وإذا لم يفعل نكون على الأقل قد حاولنا وسيأتي يوم نجد من يردّ الأشياء إلى أوضاعها الطبيعيَّة.

ثم أخذ رشفة أخرى من كأس الزهورات، وعاد إلى أرشيفه. نقيق الضفادع زاد قوة. كان يطن في رأسه بعنف شديد كجرس كنيسة قديم، غير مثبت بشكل جيِّد وحركته ثقيلة ورنته خشنة، ومع ذلك فقد أهمله بكثرة التناسي.

بدا له وجه دوميشال كبيراً وخاليًا من الندوب وهو يحاول بحماس أن يقنع الضباط الكبار بما نوى عليه بصعوبة، والأمير ينزل من حصانه وينفض برنسه من البارود والأتربة العالقة ويتوجَّه نحو المكان الخفي في ملتقى جبلين كبيرين ليقنع القبائل أنَّه لم يبع أرضه

للغـزاة، وأنَّ آلتـهـم صـعـبـة وأنَّـهـم يعـتـرفـون لـهـم بحقّ الـسـيـادة في أرضهم. لـكـن بدا له الوجهان في أقصى درجات الارتباك. في كل الحروب، هناك من يجنح نحو السلم بحثا عن أرقى السبل للحفاظ على قـدر من الكرامـة والمال والعـبـاد، وهنـاك من يذهب إلى أقـصـى درجـات التطرف. وراء الأمـيـر كـانـت القـبـائـل التي تـعـودت عـلى الغزوات والغنائم، ووراء دوميشـال، كانت هناك آلة غير مرئيَّة تبحث كيف تستفيد من الحرب ومكاسبها في الاشتعال الدائم، وهي لا تدري أنَّها تنسج أحقاداً جديدة لا توقف الحرب بل تقويها وتعطيها كل مبررات الاستمرار.

- Pauvres gens! deux nobles Don Quichotte sans grandes issues.

تمتم مونسينيور بعد أن وضع النظارتين ثم عاد إلى أوراقه التي كان يفليها ورقة ورقة.

* * *

- ٢ -

٧ ماي ١٨٣٣ الربيع لا يحمل دائما الأخبار السارة. رائحة البارود التي كانت تملأ كلّ البايلك الوهراني، سرقت من الربيع زهره ونوّاره وعطره

بعد أن انتهى من الاطلاع على خريطة التضاريس الخاصة بالمنطقة المحيطة بوهران، خرج الجنرال دوميشال باتجاه الفيالق التي كانت تنتظره في الساحة استعداداً للتحرك

يعرف جيِّداً أنَّ فصل الربيع مناسب لقواته التي لا تتحمَّل البرد ولا التضاريس الصعبة للمنطقة ولا حتى السبخات التي تحيط بوهران والكرمة، والتي تجعل أيَّة حركة خارج المدينة صعبة، قاسية ومحسوبة.

كانت الفيالق في الساحة العامة منتظمة بشكل صارم. الخيالة والمدفعيَّة الخفيفة والمشاة الذين كان عددهم كبير، مجهزين

بأسلحتهم وبنادقهم وجرابهم الظهرية. شعر الجنرال دوميشال أنَّ أقلّ من شهر كان كافياً لإعطائه صورة واضحة عمَّا يجب فعله لفك الحصار الكبير على المدينة، التي لم تعد قادرة على تحمُّل الجوع والأمراض التي بدأت تتفشّى وتتسع. لقد قلَّت الفئران والقطط والكلاب، ولكن مع غيابها بدأت الأمراض تزداد بروزاً في المدينة.

بعد ساعة من التحرك، وجدت قوات الجنرال دوميشال صعوبات كبيرة في قطع سبخات الكرمة وبركها الآسنة. الناموس يلتصق بأوجه الأحصنة والعساكر مخلِّفاً وراءه أمراضه الكثيرة وإرهاقات حمى المستنقعات. الكثير من الوحدات المدفعيَّة احتاجت إلى مساعدة لكي تتقدَّم ليلاً الليل وحده كان قادراً على شلٍّ ردّة فعل القبائل المحاذية لوهران التي تحاصر القوات الفرنسيَّة وتمنعها من التقدم. أصعبها، قبيلة غرابة، من أشدّ القبائل وفاء للأمير ولسيدي محيي الدين.

لم يعد هناك ما يعيق المسالك. بوايبي[١] ذهب حاملاً معه مشاريعه وخوفه. لم يكن يعرف ما يجب فعله وحلَّ محلَّه دوميشال بصرامته المعهودة وهو من أنصار تحريك المعركة في أرض العدو أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم.

ـ يجب أن نصل إلى موقع الهجوم قبل انبلاج الفجر، يجب أن ناخذهم عل حين غرّة وإلاَّ فهم متعودون على صعوبة التضاريس.

قال الجنرال دوميشال لقائد المعسكر وللكابتن كافينياك[٢] الذي بدأ يعد الأحصنة والخيَّالة ووحدات المدفعيَّة بعد أن قطع

١ ـ Boyer

٢ ـ Le capitaine Cavaignac

المنحدرات والوهاد والفراغات التي التهمت عدة أحصنة اضطرّ إلى تركها وراءه. عندما أراد العسكري أن يطلق عليها رصاصة الرحمة، قبض قائد المعسكر على يد الجندي الذي لم يفهم حركة قائده:

ـ أنت مجنون؟ ليسوا إلاّ على مسافة قليلة من هنا سمعهم مثل الذئاب. سنجد أنفسنا محصورين بين رصاصهم والسبخة.

التفت الخيّال نحو الحصان:

ـ لكنَّه يغرق يا سيدي ويتألم.

ـ لا أريد أن تغرق البقية. خذ حصانًا آخر والتحق بمجموعتك.

لم يعلِّق، والتحق مباشرة ببقية الركب قبل أن يُسلِّم حصانًا جديداً، بينما ترك الحصان يغرق وكان كلّما تخبط في مكانه زاد غوصًا في السبخة.

عندما نصب المعسكر الخفيف والتأم كل شيء وتجمع العسكر، سأل الجنرال دوميشال الكابتن كافينياك عن الخسائر:

ـ تقريبًا لا شيء. فقدنا حصانين واحداً غرق والثاني كُسرت رجلاه، ولم يكن لدينا الوقت الكافي لإنقاذهما، وبعض البنادق التي فضلنا إنقاذ أصحابها من ورطة السبخة، وعجلات مدفع حركي صغير، وهذا حملناه مع عتاد آخر يمكن تصليحه بسهولة.

ـ سيرتاح الجند قليلاً ومع البدايات الأولى للفجر، سنهجم على قبيلة الغرابة.

ثم انزوى مع قادته في إحدى الخيام لوضع الترتيبات الأخيرة لهجوم الفجر. لم يدم الوقت طويلاً حتى التحق بهم المبعوثون الذين ذهبوا يتقصون الأمكنة ومواقع الدفاع لدى قبائل الغرابة مما سهَّل تحديد المراكز الدفاعيَّة الصغيرة المبثوثة هنا وهناك من غير تنظيم كبير. الأغلبية كانت متمركزة خلف الهضبة التي تتخبَّأ وراءها خيام الغرابة وأغنامهم وحميرهم وأحصنتهم.

ليس بعيداً تبدو واضحة النيران المشتعلة عند أقدام خيام الغرابة. عادة تظلّ هكذا حتى الصباح وهي دليل الرحالة وعابري السبيل ليلاً

عندما بدأت الملامح الأولى للفجر تتضح، بدأت قوات الجنرال دوميشال تزحف نحو أهدافها التي كانت قد حُددت. في البداية تحركت ككتلة واحدة ثم انفصلت فرقة القنَّاصين والمدفعيين الجبليين وفرق المشاة العشر كان الهجوم كاسحًا، فقد تمَّ تدمير المراكز المتقدمة التي لم تكن تملك أكثر من بعض البنادق التي لم تستعمل، وبعض السيوف التي لم تخرج من أغمادها بينما هجمت بقية قوات القنَّاصين باتجاه الخيام ففاجأتها في نومها كان الناس يتجارون ويتخبطون في كل الاتجاهات، الكثير منهم كانوا عراة تلتهم النيران أجسادهم. فقد رميت ألسنة اللهب على خيامهم وهم في عز نومهم. لم يكن الناس يعرفون ما كان يحدث لهم. الدفاعات المحدودة لم يكن لديها فرصة صد الهجمات المتتالية. فقبل أن تنتظم من جديد، كانت قوات المشاة قد ملأت كل الأمكنة واحتلَّت الخيام وأضرمت النيران في المحاصيل الزراعيَّة، بينما الأغنام كلّها سحبت

نحو الجهات الخلفيَّة قبل أن تُقاد نحو المعسكر ثم إلى مدينة وهران، ليلحق بها فيما بعد الكثير من السجناء والنساء والأطفال من أجل تبادلهم عند الضرورة. لم تكن حربًا كبيرة كما توقعها الجنرال دوميشال والكابتن كافينياك اللذان كانا ينتظران ردة فعل قريبة مما يفعله الأمير عادة، ولهذا كان الانسحاب من المكان سريعًا

عندما كان الجنرال دوميشال على مشارف وهران، كان الأمير وسيدي محيي الدين ينظمان القوات ويحاولان أن يدخلا وهران بعد تخطي السبخات التي عاقت سبيلهما الأمطار التي بدأت تتساقط لم تساعد العسكر على التحرك بحرية أكثر

فضل الجنرال دوميشال عدم الدخول إلى وهران، وأرسل كل الغنائم والسجناء صوب المدينة حتى يخفف على قواته عبء المسؤولية. ثم توقف بقواته عند مدخلها، بقلعة سانت ـ أندري[1]، على مرتفعات المدينة التي تطل على كل السهول والتفاصيل المحيطة بوهران بعد التحاق القوات المساندة التي طلبها، بدأ يعمل لتكوين وسائط دفاعية للمدينة، تحت حراسة عشر فرق من المشاة وفيلق من الخيَّالة ومدفعين جبليين. من جهته ظلَّ كافينياك يشتغل بدون توقف من أجل إنجاز حائط دفاعي بالأتربة والحجارة. وعندما بدأ زحف قوات الأمير لم تنتبه في البداية لجدوى هذا الحائط الترابي العالي الذي يشبه تحصينًا قديمًا، فأرسلوا من يتفحص المكان فأُردي قتيلاً أدرك الأمير أنَّ ما كان يبدو كومة عالية من التراب، كانت تختبئ وراءه قوات فرنسيَّة مدجَّجة بأحدث الأسلحة.

---

١ ـ Fort Saint-André

الأمطار التي تساقطت بغزارة لم تسمح لقوات الأمير بالهجوم على القلعة بتحصيناتها الجديدة. فقد توحَّلت الأرض وصار أي هجوم هو مغامرة غير مأمونة النتائج. جاء الأمير إلى وهران وفي رأسه إعادة حصار المدينة وإغلاق كل منافذها حتى انصياع دوميشال لكل شروطه.

عندما توقفت الأمطار، رفع الأمير الرايات البيضاء المختومة بيد مفتوحة كُتب حولها بخط واضح: **نصر من اللّه قريب** عند الساعة الثانية صباحًا بدأ هجومه بهدف المباغتة. كان يتقدَّم القوات، مدفع محدود المدى وآخر جبلي، تمَّ تصليحه قبل بدء الهجوم بقليل. بعد مجهود كبير وقذائف عديدة ذهبت في الفراغ، أصيبت تحصينات القلعة بقذيفة واحدة لم تحدث أيّ شيء في الحائط باستثناء ثقب صغير لا يكاد يظهر ردّ الفعل كان عنيفًا، فقد ووجهت قوات الأمير بوابل قوي من النيران من على أطراف التحصينات

في الصباح، عندما أشرقت الشمس، كان الأمير قد اتخذ قرار العودة إلى معسكر بعدما تأكّد أنَّ أسلحته لم تكن قوية بالشكل الذي يجعله يواجه القوات الفرنسيَّة. تأمَّل قليلاً المدفع الصغير والمدفع الجبلي الذي انفلق إثر ثالث رمية، فكَّر أن يترك كل شيء في مكانه ولكنَّه سرعان ما غير رأيه، فأمر باش طبجي بتهييء حصانين لجرهما إلى مركز التصليح لإعادة استخدامهما

ـ ليست صالحة ولكن ليس لنا غيرها مدفع مخنفر خير من والو إن شاء اللّه هذه المرة سيصلح بطريقة تضمن على الأقل سلامتنا ولا ينفجر في وجوهنا كما حدث للمدفع الجبلي الكبير.

ـ إنَّنا يا سيدي نستعمل مواد تلحيم غير جيِّدة. لقد طلبنا غيرها من الشبكة اليهوديَّة في إسبانيا ونتمنى أن تصلنا قريباً

ـ ربما يجب علينا التفكير في ما هو أهم من مجرد التصليح.

ـ شراء مدافع جديدة؟

ـ لا

قالها الأمير جافة وباردة ثم التحق بسرعة برأس الخيَّالة، بينما ظلَّ الباش طبجي ومساعدوه يربطون الأحبال بصدور الأحصنة لجر المدفعين.

تأكد للإثنين، أنَّ دوميشال لا يملك الوسائل الكافية لشن حرب شاملة للخروج من ضيق الحصار وحماية جنده الذين يغامرون بالخروج خارج المدينة. فالوضع لم يكن مؤمناً إلاَّ بحراسة مشدَّدة. وتأكَّد للأمير أنَّ الحرب التي يخوضها تحتاج إلى وسائل أخرى، الزمن تغير، وأنَّه كان على حافة عصر انتهى وآخر لا أحد يعرف ملامحه سوى أنَّ الموازين تغيرت بشكل صارخ.

* * *

ـ ٣ ـ

« نحتاج إلى وقت كبير لكي ندرك أنّنا من أرض واحدة ولو كنّا من قبائل شتى وأنَّ مستقبلنا الكبير في تكاتفنا وتعاضدنا وليس في تقاتلنا »

تمتم الأمير في خاطره بدون أن يترك سبحته.

كان ينتظر وصول ابن دوران وابن عراش قبل الذهاب ظهراً لصلاة الجمعة. منذ البارحة وهو يفكّر فيما يقوله للقبائل التي تنتظر خطبته بحيرة.

بدا للأمير أنَّ سقف صالة الضيوف قد نزل قليلاً وأنَّ السماء لم تعد بالارتفاع الذي عهده فيها. منذ الفجر وهو يدقّق في الوثائق التي وصلته في الأشهر الأخيرة بصحبة كاتبه برويلة وصهره مصطفى ابن التهامي. أعاد قراءة بنود الاتفاقية مع دوميشال كثيراً ولم يجد ما

يثير الجدل. كان متألمًا من الحرب التي بدأ يخوضها ضدّ القبائل التي تنكرت لسلطانه ورفضت دفع الضرائب، ومالت إما لسلطان فرنسا أو لحاكم فرض نفسه بالقوة على الجميع. كان يدرك جيِّداً أن إخراج الناس من دائرة القبيلة، من منطقها ولغتها، يحتاج إلى زمن وإلى تجربة في الساحة. لقد كلَّفته الحروب القبلية جراحات لم يُشف منها، ولكنَّه لا يمكنه أن يوقف المسألة عند هذه الحدود أي وقت يضيع يصب في مصلحة الذين يريدون الحرب. ومع ذلك ظلّ يشعر بسعادة غامرة. الكثير من القبائل ارتدَّت، ولكن الكثير منها كذلك أصبحت تطالب بانضمامها تحت الراية السلطانيَّة للأمير، مما أقلق بعض الضباط الفرنسيِّين. بنو مناد وبنو مناصر وشنوا وسومترا ومورايا، قبائل تقع خارج القطاع الوهراني زادت حدّة تمرُّدها للانضمام إلى قوات الأمير على الرغم من أنَّ الاتفاقيَّة تضعها خارج سلطان هذا الأخير مما جعل سولت[1]، رئيس الأركان يشكك في جدية الاتفاقية بين الأمير ودوميشال:

« Je suis bien décidé d'exclure l'émir de toute participation à nos affaires et à restreindre autant que possible l'influence qu'il pourrait exercer et dont il ne ferait usage que pour y donner une extension et un caractère de stabilité que nous aurions ensuite à combattre ».

الرسالة الأخيرة التي بعث بها ابن دوران وأوصلها ابن عراش لم تكن توحي بأنَّ العقليات تغيرت. في باريس، وبعد ترددات كثيرة، وملاسنات، تخطت الغرفة الأولى خطوة جديدة حققت فيما يتعلق

---

١ - Soult

بالوضع في الجزائر. اللجنة العليا المسماة أيضا لجنة إفريقيا جاءت بعد لجنة تقصي الأوضاع، التي أنهت عملها في الجزائر، وصلت إلى خلاصة ضرورة الانتقال في المرحلة القادمة إلى العمل الاستيطاني. فهي ترى أنَّ شرف فرنسا ومصلحتها يحتمان عليها الاحتفاظ بممتلكاتها[١] على الساحل الإفريقي. وتعيين حاكم عام على الجزائر تحت رعاية سلطة ملك فرنسا. عُيِّن مباشرة بمرسوم ملكي مؤرخ: ٢٢ جويليه ١٨٣٤ الكونت دروي ديرلون[٢] الذي يعتبره الجميع من بقايا معركة واترلو

قلب الأمير من جديد الوثائق التي كانت بين يديه. خصوصاً كلام الحاكم الجديد. لم يلحظ شيئًا جديداً سوى أنَّها كانت تؤكِّد على الشكوك التي ظلت تنتابه في صدق النوايا:

« Je ne connais pas le texte du traité passé entre le général Desmichels et Abd el-kader mais d'après ce qu'on m'en a dit, je ne l'éprouverai pas dans toutes dispositions ».

عندما واجهته وثيقة فوارول[٣] متبوعة بترجمتها، سلمها لصهره ومرشده في الظروف الصعبة مصطفى بن التهامي وهو يردِّد ببحَّة في صوته:

ـ أنظر. إقرأ يا السي مصطفى ماذا يقول فوارول في تقريره.

فتح مصطفى بن التهامي الورقة الكبيرة مهملاً الترجمة الملصقة بها، وبدأ يقرأ بعينيه ويتمتم كمن يخاف أن يُسمع صوته:

---

١ ـ Possessions africaines، هكذا كانت تسمى المستعمرات.

٢ ـ Drouet d'Erlon

٣ ـ Voirol

«Ce chef est aussi entreprenant qu'ambitieux mérite toute l'attention du gouverneur général qui doit s'en méfier puisqu'il est visible que cette arabe veut établir sa puissance aux dépends de la notre. Les relations qui existent entre le général Desmichels et Abdelkader rendent la position de cet officier français général assez bonne, mais il est à craindre qu'Abdelkader ne l'ait pas placé dans une fausse sécurité. J'ai déjà parlé de l'ambition de ce chef arabe sur lequel on ne saurait trop avoir les yeux ouverts ».

ـ وماذا ينتظر سيدي منهم. أنت تعرفهم جيّداً، ثقتهم فينا تكاد تكون معدومة وثقتنا فيهم ليست أقل. في رؤوسهم شيء آخر ولهذا فمحاربتهم هي المسلك الوحيد والله ينصرنا على أعدائه.

ـ نحن في مرحلة أخرى غير هذه. أنت تعرف أنّنا بدأنا نخوض معارك طاحنة ضدّ القبائل لفرض الاتفاقية وقد نترك أرواحنا وراءنا، حادثة الحنايا ما هي إلاّ البداية ومع ذلك يجب أن نفكر مليًّا فيما يجب فعله. تربية شعب تعوَّد على الغزوة والنهب والتفكير في الحصول على مال جاره، ليس أمراً هيِّناً قد نموت ويأتي من يخلفنا ولا يتغير الأمر إلاّ قليلاً هذا النمط متأصل في النفس كما يقول ابن خلدون ويحتاج للانتفاء إلى تدمير أسسه الأساسيَّة: الطمع والجشع وغياب الاستقرار.

ـ وماذا نفعل إذا كانت العودة إلى الحرب ضرورة؟

ـ وقَّعْنا على معاهدة وسنحترمها المهم أنّ دوميشال ما يزال على عهده. وأعتقد أنّها رجولة كبيرة من طرفه. اسمع ماذا يقول الوثائق التي بين أيدينا تؤكّد على قناعته بما فعل على الرغم من نقد

الحاكم العسكري له بأنَّه تنازل عن حقوق فرنسا للعرب، وأنَّه كان عليه أن لا يقبل الاتفاقية بالبنود الملحقة بها والتي تضعف من موقف فرنسا وهذا وحده كاف لأن يجعلنا نثق في كلمته. إقرأ:

« quand au traité qu'il ne soit qu'un acte imparfait, il n'est pas moins constant qu'il a déjà produit des économies pour l'état, qu'il a été très profitable au commerce et que, sous ces rapports, c'est je crois, le premier résultat avantageux obtenu dans nos possessions en Afrique... sa majesté apprécira le résultat inespéré des efforts de la division d'Oran et prévoit dans sa haute sagesse les avantages que la France retirerait de ce premier acheminement de la prospérité future de la colonie ».

ـ القادة الحقيقيُّون يعرفون في الأزمات الكبرى وليس في حالات السلم. ودوميشال قائد كبير أحرق المحاصيل وسجن سكان الغرابة ولكنَّه لم يخن أخلاق القائد منذ أن وقع الاتفاقية معنا

ـ وإذا عادوا إلى الحرب من جديد؟

ـ علينا أن نحذر كثيراً يا السي مصطفى. لم يقبلوا بمبادرته. ونحن لن نترك لهم فرصة التراجع بسبب أنَّنا كنَّا أول من اخترق الهدنة. حتى موقف وزير الحربيَّة الماريشال مورتيي[1] ليس أحسن من ممثليه في الجزائر، فقد بعث برسالة ساخنة لحاكم الجزائر يفتح أمامه السبل لاختراق اتفاقية الهدنة الموقع عليها بالتراضي

ثم فتح ابن التهامي الوثيقة التي كانت بين يديه وقرأها بصوت مسموع بلغتها، قبل أن يدفع بالترجمة إلى الأمير الذي لم يغادر

١ ـ Le Maréchal Mortier

القلق وجهه منذ الفجر الأول:

«Nous ne pourrions, sans compromettre les intérêts politiques de la France, laisser prendre un libre cours à l'ambition d'Abdelkader. Nous ne devons pas souffrir qu'il sorte de la province d'Oran.»

صمت الأمير طويلاً وهو يستمع إلى كلام السي مصطفى، ويلاحظ حيرة كاتبه الخاص محمد برويلة الذي لا يترك لا شاردة ولا واردة من ملاحظات الأمير إلاَّ ويسجلها.

ـ في مثل هذه الظروف، اللهم اجعلني معتدى عليه ولا معتديًا، تمتم الأمير، فالكلمة مثل الرصاصة، عندما تخرج لا تعود وسأظل على عهدي. لم يعد هناك ما يثير الدهشة. أعرف ذلك جيداً. الكثير من القادة الجدد الفرنسيِّين يرفضون اتفاقية السلام وما تبعها من تقسيمات المنطقة الوهرانيَّة وسيجتهدون لتدميرها

عندما خرجت الشمس من غمدها الثقيل، بدأ الأمير يفكر في لقائه مع قواده الأساسيين في المسجد الذين سبق أن وضع معهم الترتيبات الأخيرة للتقسيمات الجديدة التي ألحقها بالجيوش والمناطق. عندما عاد إلى معسكر بعد تأديب القبائل الرافضة لدفع الضرائب، قسم المقاطعة الوهرانية إلى ولايتين خلافة معسكر وعلى رأسها مصطفى بن التهامي، صهره وابن عمه، العالم والخطيب والمكلف بالمراسلات مع سلطان المغرب والمسيِّر لشؤون الدولة، وخلافة تلمسان وعلى رأسها البوحميدي الولهاصي من جبال طرارة، وله تأثير كبير على القبائل البربريَّة، يحب الخيل والكتب والأسلحة مثل الأمير وعين في كل ولاية مجموعة من الأغاليك، وعلى رأس كل واحدة

منها، آغا يشرف على مجموعة من القبائل هي بدورها تقع تحت وصاية القايد الذي يتولى التسيير بالعودة إلى الآغا المرتبط بدوره بالخليفة لإعطاء نوع من الحرية والحركة والمبادرة عند الضرورة الحربيَّة. ومشروع خلافة التيطري شرقًا والمكونة من المدينتين الأساسيتين: مليانة والمدية والتي يسيرها مؤقتًا سيدي علي الخلاطي المنحدر من عائلة مرابطيَّة ويحكم باسم الأمير في انتظار ترتيب وضعها الإداري.

ـ كل الخوف هو أن يتم اختراق الاتفاق وينكسر كل شيء قبل أوانه. لسنا مهيئين لحرب قد لا تكون مثل شبيهاتها ترتيب الدولة يحتاج إلى قليل من الاستقرار

قال الأمير موجهاً كلامه لابن التهامي الذي كان يستعد بدوره لتحضير وثائق الاجتماع.

ثم فتح الأمير كتاب حمدان خوجة المرآة، بدأ يقرأ بصوت مسموع:

ـ كم نحن بعيدون؟ اسمع ماذا يقول هذا الرجل الذي تربى في العز التركي والأرستقراطية في وقت يخون فيه أبناء هذه التربة وهذه الأرض: *أتساءل لماذا وجب أن تتعرَّض بلادي لزعزعة جميع أساساتها وتُحرم من جميع قواها الحيوية، بينما ألاحظ من تفحص أوضاع الدول الأخرى المجاورة أن ما من واحدة منها تعرضت لعواقب مماثلة لتلك التي حلَّت بنا. أرى اليونان تُساعد وتكون على أسس متينة بعد أن اقتُطعت من السلطة العثمانيَّة وأرى الشعب البلجيكي قد فصل عن هولندا... وعندما أرتد بنظري إلى بلاد الجزائر، أرى سكانها التعساء قد وضعوا تحت نير الاستبداد والإبادة وجميع ويلات الحرب...*

ـ حمدان خوجة رجل أصيل. قالها مصطفى بن التهامي بشكل آلي قبل أن يعود إلى تحضير وثائق الاجتماع مع الخلفاء وبعض قادة القبائل.

عدَّل الأمير من هندامه بعد أن وضع برنسه الرمادي على ظهره. ثم استقام في جلسته على السداري الموجود في ركن قاعة الاستقبال. عندما قيل له إنَّ ابن دوران وابن عراش قد وصلا وهما ينتظران في الطابق السُفلي، أمر الحاجب بالسماح لهما بالدخول. كان الأمير ما يزال متعبًا من الجراحات التي تلقاها وكادت تودي بحياته في موقعة الحنايا الأخيرة. هو يعرف جيّدًا أنَّ المشكلة ليست في توقيع معاهدة أو اتفاقية ولكن في كيفية إقناع الناس بالمحافظة عليها ودفع الضرائب. عندما دعته قبائل بني عامر لنجدتها لم يفكر لما يمكن أن يحصل له ولاتفاقية دوميشال. غطرسة مصطفى بن اسماعيل كانت كبيرة ولم تعد القبائل قادرة على تحملها رأى في تلك اللحظات حيث تتضاءل المسافات الفاصلة بين الموت والحياة، السيف وهو يهوي عليه بعدما قتل حصانه الثاني ولولا ابن عمه الميلود بن بوطالب الذي انتزعه من ضربة السيف لقطع رأسه. تساءل في خاطره لحظتها إذا لم يكن مخطئًا عندما قرب منه أناسا لم يتخلَّصوا من عقليَّة المخزن التركيَّة ومن عقليَّة الغنائم والإغارة وحرب القبائل. الكثير من القبائل لم تفهم فحوى الاتفاقية واعتبرتها خيانة من الأمير ودفاعًا عن مصالحه التجاريَّة.

هل هو انتصار. الأمير اتخذ قراره النهائي واضعًا كل ثقته في الميلود بن عراش، الذي تعب من التطواف بين معسكر وبوابات وهران

حتى تحصل على الصياغة النهائيَّة للمعاهدة مع الجنرال دوميشال والأمير.

ـ أعتقد يا سيدي أنَّها الصورة الختاميَّة للاتفاقيَّة مع شروط الهدنة. كل شيء واضح وهي مشابهة تماماً للنسخة التي تملكها

قال الميلود بن عراش وهو يحاول إخراج الأمير من غفوته وهو ينظر إلى الوثيقة الجديدة الموقعة من ابن عراش ومردوخي عمار. دقق الأمير جيّداً في الوثائق التي كانت بين يديه. لم يلحظ عليها أي شيء يستحقّ الذكر سوى ختمه الكبير الذي تخترقه نجمة داود وختم دوميشال والتاريخ الذي خط بشكل أنيق: ٢٥ فبراير ١٨٣٤

ـ الأمور بدأت تتغير، المعاهدة خطوة نحو البناء. ويجب أن نلتزم بها لقد أقنعت الفرنسيِّين بضرورة الاستماتة في الدفاع عن الاتفاقية بكل الوسائل ويجب أن نقوم بالشيء نفسه.

قال ابن دوران الذي ظلَّ صامتًا، ينظر إلى حركات الأمير التي لم تكن متزنة كعادتها. يعرف جيّداً أنَّ الأمير ليس على ما يرام من عينيه ومن لون بشرته. عندما يكون غير مرتاح لشيء، ينكسر صفاء العينين ويتمادى لون البشرة في صفرة داكنة.

ـ ليس من السهل. الكثير من الأجواد يحتجون ويرفضون دفع الضرائب بحجة أنَّنا أوقفنا الجهاد، لاحظ الأمير، ابن عامر يرفضون دفع الخراج وهم حلفاؤنا، فهم يعتقدون أنَّ الخراج يخصّ الجهاد والجهاد أوقف ضدّ النصارى. هددت مصطفى بن اسماعيل آغا الدواير والزمالة وأبطلت العمليَّة ضدّهم عندما عادوا إلى جادة الصواب بعد خطبة الجمعة، لكن مصطفى كعادة أجداده الأتراك عاد

وغزا كل من ليس معه، الغنيمة والطمع. وعندما ساندنا بني عامر في الحناية، كان هو ينتظرنا هناك وكدت أموت. حركة سيدي العريبي ما تعجبنيش، من عائلة تعودت على السيطرة الدائمة على جزء كبير على الشلف في الفترة التركية. حتى المزاري الذي اتكلت على شبابه، تبع طريق جده مصطفى بن اسماعيل. الغريب، بعدما وجدنا سلمًا مع النصارى صرنا نتقاتل فيما بيننا نحتاج إلى وقت كبير لكي لا نخطئ في أنفسنا وفي الآخرين.

ـ لقد كدت تخسر عمرك لحماية هذا الاتفاق وعليهم أن يبذلوا الجهد نفسه من طرفهم. هناك صراعات كبيرة في الجزائر ولكنِّي على يقين أن جناح السلم سينتصر. بعض عساكرهم يرفضون الاتفاقيَّة لأنَّ الجزائر صارت مكانا للترقيات في الرتب العسكريَّة والإداريَّة. كل من يدخل الجزائر ضابطًا صغيراً سيعود إلى أرضه كولونيلاً أو جنرالاً

ـ أنت يا ابن دوران أصيل وملاحظاتك تنور كل الالتباسات. أنت وكيل يستحقّ كل التقدير والاحترام. لقد ورثت عن عائلتك اليهوديَّة حرفة التجارة والشطارة. كنت بيننا وبين حسين داي وظللت وفيًّا في عملك على الرغم من الصعوبات القاسية وأنت اليوم بيننا وبين الفرنسيِّين ولم نر منك إلاَّ الخير. هذه الأرض أرضك وأنت سيِّدها مثلي ومثل أي واحد هنا في البايلك الوهراني.

ـ دوميشال ليس في وضع أحسن من وضعك كما تعرف ذلك جيِّدًا يا سيِّدي. اقرأ يا سيِّدي. قال ابن دوران مقدِّمًا وثيقة مخطوطة وضعها بين يدي الأمير. فإذا كان دوميشال قد وافق على الهدنة،

فقواده وحاكم الجزائر وبعض الضباط ليسوا على الرأي نفسه. اسمع ماذا يقول حرفيًّا الحاكم العام إلى وزير الحربيَّة:

«كل هذا يبدو لي غاية في الحساسية. وأقترح إرسال الجنرال تريزل، رئيس أركان جيشي للمعاينة بعين المكان، ليدقق كل الوقائع المثارة وجمع المعلومات اللازمة... فإذا بقي دوميشيل بوهران من الصعب إقناعه فيما يتعلق بعبد القادر[١]».

ـ وماذا يجب أن نفعل إذن يا السي ابن دوران؟ هل نتوقف عند هذا الحدّ. كل يوم نفقد العشرات ونحتاج إلى قليل من الاستقرار لكي نفكّر في أوضاع البلاد. الفرنسيُّون ليسوا كما تصورناهم وإيماننا وحده ليس قادراً على تدميرهم. ولهذا يجب أن ندافع عن اتفاق الهدنة بكل الوسائل.

ـ يجب أن ندافع عن اتفاق الهدنة بكل الوسائل، من مصلحة بلادنا وتجارتنا الاتفاق يعطينا حقّ السيادة على جزء كبير من البايلك الوهراني، وحقّ الإشراف على حركة السفن والتجارة في مرسى آرزيو. رجالنا يتحكّمون في حركة تجارة القمح وغيرها نحن من يمون أسواق وهران وإلاَّ سيموت سكان المدينة جوعاً. أرسلنا باخرة L'Assomption مملوءة بالقمح من آرزيو إلى جبل طارق في ٢١ أفريل لصالح اعمر وشركائه، ورجعت مدججة بالبنادق والبارود

١ ـ Tout ceci me paraît tellement serieux que je me propose d'envoyer sur les lieux le général Trézel, mon chef d'état major, pour vérifier les faits dénoncés et prendre tous les renseignements nécessaires... si le général Desmichels continue à rester à Oran, il n'y a pas moyen de lui faire entendre raison au sujet d'Abdelkader.

الرفيع و ٦٠٠ كيس من الكبريت. أعتقد أنَّ كل شيء يسير على ما يرام.

ـ بدأوا هم كذلك يدركون أنَّ الاتفاقية لم تكن في صالحهم.

ـ إنَّهم يبحثون عن كل أسباب التراجع. عندما تقدمنا للحاكم العام بطلب حق سك عملتنا الخاصة، وُوجهنا بالرفض. ومنعت دار لوسي[1] من توريد ١٠٠٠ قنطار من البارود و ١٠٠٠ بندقية و ١٠٠٠ خيمة من القماش المصري مقابل القمح والشعير الذي أعددناه لتزويدها به. المشكل هو أنَّهم يرفضون ملحقات الاتفاقية التي تعطينا كل هذه الحقوق التي فاوضنا عليها بتعب واستماتة.

ـ وحال دوميشال أمام هذه الوضعية؟

ـ دافع عن نفسه دفاع الأقليات الخائفة. رفض الاعتراف أمام اللجنة التي واجهها أن يكون قد وقع معكم على كل هذه البنود التي تعطينا حرية الحركة والاتجار. أعتقد أنَّ دوميشال يشعر بنفسه وحيدا أمام آلة عسكريَّة لا تعرف ماذا تريد من احتلالها للجزائر.

ـ أنا أفهم تردده ولكنَّه لا يستطيع أن يتنكر لما قام به أمام قادته. نحن نتعامل مع دولة وليس مع أفراد. وإلاَّ لن يكون الأمر جديًا. كدت أموت بسبب هذه المعاهدة، عليه إذن أن يتحمل قليلاً خياراته. وعلينا أن نقنع القبائل التي تنتظر في المسجد، وإلاَّ على الدنيا السلام، فلا يمكن أن نعيش بالكلام. الدولة تحتاج إلى ضرائب.

* * *

---

١ ـ Maison Luce

- ٤ -

تكاتف المطر والبرد ليجعلا من صباح الجمعة هذا صباحًا قاسيًا وصعب التحمل. يبدو أنَّ الصلوات وصلت إلى اللَّه على الرغم من أنَّ القلوب زادت انغلاقًا منذ التوقيع على معاهدة دوميشال.

كان الناس يتوجهون إلى مسجد معسكر جماعات جماعات على الرغم من وابل الأمطار التي لم تتوقف منذ الصباح الباكر. ساعده ابن التهامي وكاتبه برويلة على القيام وابن عراش. وسار الجميع نحو المسجد لتأدية صلاة الجمعة. كان الإنهاك باديًا على وجه الأمير. الكثير نصحوه بتأجيل التحرُّك ولكنَّه لم يستطع خصوصًا وأنَّ خلفاءه وضبَّاطه كانوا قد نظموا كل شيء. عند مدخل المسجد ودع ابن دوران الذي سار إلى العاصمة بينما دخل الأمير مع ابن عراش وابن التهامي وبرويلة وسط سيل من الناس كانوا في انتظاره.

فجأة اكتظَّ المسجد الصغير المطلّ على جنان الباي. ساد الصمت برهة ممزوجا بأسئلة محيرة. حاول الأمير أن يستقيم في

جلسته بصعوبة، ساعده كاتبه قدور بن محمد برويلة. عدَّل قليلاً من ظهره حتى شعر بآلام جرح موقعة الحنايا قد خفت قليلاً

لم يقل شيئًا جديداً في خطبة الجمعة سوى التركيز على المناسبة التي قادته إلى استدعاء الجميع للتداول حول وضع البلاد والعباد قبل أن يُطلق العنان لقلبه. *«اللهم أعني، لقد فرضت الحرب عليَّ ولم أفرضها على أحد. اللّه يعلم ما تسرون وما تعلنون. أنتم أول من دعاني إلى المهمة التي أشغلها؟ أتكونون أول من يدعم المؤامرات ضدّ هذه الحكومة التي طالبتم بها لقمع الفساد؟ كيف يمكن لحكومة أن تستمر بدون ضرائب؟ كيف يمكن أن تصمد دون تفاهم مخلص ودعم من الجميع؟ هل تعتقدون أن أيّ جزء مهما صغر من الضريبة التي أطالب بها مخصَّص لنفقاتي الشخصيَّة أو لنفقات عائلتي؟ إن ما أطالب به يمثل ما يلزمكم به شرع النبي وما يجب عليكم تقديمه كمسلمين صالحين وهو بين يدي أمانة مقدَّسة لنصرة الإيمان والحقّ».*

عندما سلَّم معلنًا نهاية الصلاة، التفت صوب الحضور، خلفاء وعساكر ورؤساء قبائل فاتحًا النقاش على مصراعيه:

ـ أتمنَّى أن يرزقنا اللّه وقتًا لتغيير كل شيء. أعرف أنَّ الزمن الذي عشناه مع أوليائنا وأجدادنا، قد ولَّى نهائيًّا وعلينا أن نقنع أنفسنا بأنَّه ذهب وإلى الأبد وحلَّ محله زمن آخر أسلحتهم فتّاكة وأسلحتنا لم تعد كافية للدفاع عن أرضنا موقعة وهران بيّنت لنا نقائصنا وقوتنا ويجب أن لا نتوهم، دوميشال ليس بوايه[1] دوميشال أكثر ذكاء وحساباته أدقّ. حطَّم الغرابة، وحصن مداخل

---

١ ـ Boyer

وهران وأصبح يدافع عن المدينة من خارجها. ولهذا أقلقناهم في مخططاتهم وأثقلنا فاتورة حروبهم. ومع ذلك، لم نهزمهم ولم نستطع منع كافينياك من بناء التحصينات.

ـ أمطار الربيع كانت عائقًا بيننا وبينهم، نطق أحد الخلفاء من الزاوية الخلفيَّة.

ـ صحيح، ولكن الأمطار كانت علينا وعليهم. القذائف التي أطلقناها في ٣٠ ماي ١٨٣٣ لم تحدث إلاَّ ثقبًا صغيرًا في تحصينات أورليان والبقية تعرفها جيّداً، مدافعنا انفجرت في مواقعنا قبل أن تهددهم.

ـ لأنَّنا لم نكن نملك العتاد اللازم لذلك.

ـ ولهذا أقول إذا قبلوا بالسلم، فنحن له وإذا عادوا للحرب نكون قد جهزنا ما يكفي للمقاومة. الحروب كما ترون تغيرت كثيراً. نحن كذلك كنَّا نظنّ أنَّنا سنأكلهم في ساعة، وأنهم جبناء وأجسادهم النسائيَّة الرخوة لن تصمد أمام سيوفنا لكن كل يوم يؤكِّد لي، أنَّه عندما كان الناس يعدون للحروب كنَّا نتغنى بمجد لم يعد له أيّ وجود.

ـ يا أمير المؤمنين وكيف لنا أن نصدِّق روميًا جاء يحاربنا؟ حرق زرعنا ونهب أموالنا وسبى نساءنا واليوم يقترح علينا سلمًا خسرنا فيه أكثر مما ربحنا؟

قال ممثل الغرابة الذي كان متدثراً بالسواد.

ـ الناس بأفعالهم. يبدو أنَّ الجنرال دومشال صادق في معاهدته. فقد أطلق سراح محبوسيه كما وعدنا، أعاد مسجد الباشا إلى المسلمين. سرَّح سجناء بوايبي بمرسى الكبير وسكان الغرابة الذين غزاهم في نومهم وردَّ بعض أموالهم وأغنامهم. أليست هذه دلائل كافية للثقة فيه.

ـ لكنَّه زحف على مرسى أرزيو واستولى عليه بمساعدة قاضي المدينة الجديد وبدأ يشيد وسائط الدفاع لحامياته العسكريَّة الموجودة في المكان عينه.

ـ لكنَّه لم يمنعنا من إرسال بضائعنا من هذا الميناء واستقبال أسلحتنا. من حقِّه أن يحمي الحامية وهذا في الاتفاق بالمقابل أعاد لنا مدينة تلمسان وتخلصنا من بنونة الذي لم يعترف إلاَّ بسلطان مولاي عبد الرحمن، فقد ذهب إلى ولي نعمته في مراكش. كروغلي المشور ساعدونا على سحقه. وأعدنا تسيير شؤون المدينة إلى الخليفة حميد السقال، فهو أولى بشؤون ذويه على الرغم من انغلاق أبواب المشور في وجهه.

ـ ومستغانم سقطت بين أيديهم.

ـ في الحرب خسارة وربح. لا يمكن أن نربح كل شيء في يوم واحد هذا كلُّه جزء من ضعفنا الذي لم نفهمه جيّداً. رحنا نحفر من تحت التحصينات بالفؤوس؟ الحرب لا تُربح بهذه الطريقة. الحرب نظام وإدراك لنقاط الضعف وإلاَّ سنظل نحارب المدافع والجيوش المنظمة بالعربات، بالفؤوس والسيوف والمداري، نستطيع أن نقاوم ولكن لن نربح المعركة ومآلنا الاستسلام على الأمد المتوسط أو

الطويل. ملك فرنسا نفسه في حيرة كبيرة. لا يعرف ماذا يفعل بالممتلكات الإفريقيَّة كما يسمُّونها لجان المراقبة المبعوثة من الملك تبيِّن ذلك. هل تكتفي بكسر شوكة السكان وتأمين تجارتها أم استعمارها نهائيًّا والاستقرار بأراضيها الخصبة التي تحتاج إلى قليل من العمل لكي تصير منتجة بشكل كامل؟

بجوار الأمير، كان **قدور بن محمد برويلة** كاتبه يدوِّن كل ملاحظاته في أوراق صفراء ويحاول أن يتتبع كل ما كان يدور في الجلسة، ويعرف بحسِّه أنَّ الأمير كان مقدمًا على تغييرات جذريَّة في الحياة والمحيط والتسيير في الأيام القليلة الماضية، أكَّد لبعض المقربين أنَّ الوظائف نفسها ستتغير بعد مجيء بعض الأجانب والأتراك الصنائعيين واليهود الذين يستعدون لتسيير مصانع البارود والجلود وتربية الخيل والأسلحة والمدافع وطرق التموين. ويفكر في تحويل مصانع تصليح الأسلحة إلى مصانع حقيقيَّة للأسلحة، وسيوقف مصانع إنتاج البارود الأخضر الذي لم يعد نافعًا وقد دخل ممثلوه في الجزائر وجبل طارق في حوارات مع مختصين للمجيء إلى معسكر من أجل بناء المصانع والتعليم. المواجهات اليوميَّة والغارات بينت أنَّ الفرنسيِّين مجهَّزون لحرب طويلة الأمد سيِّدها الأسلحة الحديثة والبارود والعربات النقَّالة التي لا يملك الأمير منها أي شيء.

ـ الإيمان أيُّها الاخوة لم يعد وحده كافيًا، يحتاج إلى دعامة أخرى أكثر صلابة وأكثر جدوى. الكثير من الأمم القوية ذهبت مع الريح عندما دخلتها الفرقة والحسابات الصغيرة والأنانيات الكبرى.

لم يكن كلام الأمير مرضيًا لكل السامعين.

ـ نحن نملك ما لا يملكون. نملك الإيمان باللّه ورسوله واليوم الآخر.

ـ ومن قال غير هذا الكلام؟ صحيح أنَّنا نملك إيمانًا مخلصًا بهذه الأرض ولكنَّنا لا ننسى أنَّنا نشتري أكثر من تسعين بالمئة من حاجتنا من الأسلحة من الخارج، وإذا لا قدر اللّه أُغلقت كل الموانئ فسنختنق. يجب أن نفكر للبعيد مرفأ رشقون ما يزال في حوزتنا والإنجليز راضون علينا لأنَّنا نحارب أعداءهم الذين سبقوهم إلى هذه البلاد. سنُمحى إذا لم نبنِ مصانعنا الخاصة؛ ولهذا نحتاج إلى بعض الوقت، والاتفاقية إذا كانت صادقة، فهي تمنحنا الوقت الكافي لإعادة ترتيب بيتنا

قام شيخ من وسط القاعة وصرخ بأعلى صوته حتى يسمعه الجميع، كان صوته منكسرًا وأبح وجافًا:

ـ ثقتنا فيك كبيرة لأنَّك من ذرية الحسن والحسين. وسنقضي عليهم ببركة اللّه والأولياء الصالحين. سيدي عبد القادر سيجعلهم كعصف مأكول في يسار سيدي النار وفي يمناه السلام ولهم أن يختاروا

تعالت أصوات كثيرة في القاعة اللّه أكبر، اللّه أكبر لكن الأمير أحنى رأسه وكاد أن يدخل في غيبوبة من كثرة التعب لولا برويلة الذي أسنده قليلاً في جلسته. الألم لم يمنعه من الابتسام قليلاً:

ـ يا شيخي الفاضل، في الوقت الحاضر العصف المأكول هو نحن. أتمنَّى أن يكون جنرال النصارى صادقًا وأن لا يفاجئنا بخيانة

جديدة. لست مرتاحًا للمملوك السوري عبد اللّه العصبوني الذي اشتغل في الحرس الأميري قبل أن يغادر العسكريَّة ويعود كترجمان لدى الفرنسيِّين. هؤلاء الناس يلعبون على الكلمات. ومع ذلك على دوميشال أن يعرف والقبائل العربيَّة التي تناصرني أنِّي **سأضع حياتي في الميزان وأراهن برأسي للبقاء وفيًا لتعهداتنا. أعرف حقوق الصداقة وهذا دين سيظل على ظهري، فالبادئ بالخير أسبق دائمًا من المتخلف عنه، لكن إذا جنحوا لغير ذلك فلا خيار لنا. اللّه غالب.**

بعد نقاشات طويلة ومعقدة، التفت الأمير صوب الحضور موجهًا كلامه الأخير داعيًا لهم بالنجاح في هذه المهمة التي لا شيء من ورائها إلاَّ مرضاة اللّه والوطن. كانت عيونهم منهكة ومنكسرة من كثرة المتاعب والبرد والأمطار التي بدأت تخف في الخارج.

بعد الصلاة امتطى الجميع أحصنتهم وتفرَّقت الفرق وعلى رأس كل فرقة خليفتها أو من ينوب عنه من الأغوات والقواد، بينما جُزِّئت الجيوش إلى وحدات صغرى متخصصة كالعيون والقضاة والخيالة والمشاة ورجالات المدفعيَّة على الرغم من محدوديَّة أعدادهم. هجوم قلعة سانت ـ أندري بمداخل وهران علَّمهم أنَّ الحرب تُربح ليس فقط بالشجاعة والحيلة ولكن كذلك بالوسائل. ثم انطلق جيش الأمير الذي بدا عدده كالنمل باتجاه سهل اغريس وعلى رأسه الأمير، لأداء الزيارة وتوديع بقية العائلة وطلب الرحمة من أولياء اللّه الصالحين لوالده الذي لم يفرح إلاَّ باسترجاع تلمسان وتولية عبد الحميد السقال عليها خلفًا لبنونة الذي هرب إلى المغرب قبل أن يموت والأمير ما يزال في طريق العودة إلى معسكر. عندما سمع الخبر

من أحد قواده أنَّ والده قد انطفأ، كان ما يزال تحت وقع موقعة سهل المهراز التي لُقِّب فيها بالفتى صاحب السبحة. عندما أعادت قواته المكوَّنة من أكثر من ٥٠٠٠ رجل، القبائل المستعصية إلى طريق دفع الضرائب. وقف قليلاً على قبره وقبور الأجداد. قرأ الفاتحة على الجميع هو وخلفاؤه، ثم ساروا غرب مدينة معسكر التي تضاءلت بناياتها حتى غابت عن النظر عندما بدأ الانحدار نحو وادي الحمام حيث ينخرط الجبل عميقًا فينفصل إلى قسمين يشكِّلان ممرًا ضيِّقًا، في وجهة كان الأمير وقادته وحدهم يعرفونها

* * *

ـ ٥ ـ

نهايات الشتاء.

أخيراً جبال زكار أو المرايا كما يسميها البعض. السلسلة التي تمتد حتى مداخل العاصمة. منها ترى كل شيء، مليانة ومنحدراتها وكل الطرقات المؤدية إلى المدية التي تنام وراء المنحدرات والهضاب المكسُوة بالنباتات الموحشة.

كان البرد قاسيا والجياد منهكة من كثرة السير، عندما توقفت على مرتفعات مليانة. كانت الثلوج التي بدأت تذوب في السفوح، ما تزال عالقة بالأشجار والنباتات الغابية الكثيفة، من بعيد تلمع كمرايا عاكسة لشمس صافية الأشعة. لم يدخل الأمير المدينة التي بدت له كمجموعة من الحجارة البيضاء وهي تنزلق من الأعالي باتجاه السفوح حيث المدينة والسوق والمسجد فقد فكر في بعث وفد أولاً يتحرّى الأمر ويعود بالأخبار الأوليَّة. بينما بقية العساكر

بقيت مرابطة في مرتفعات مليانة بعد أن ضربت معسكرها في رأس الجبل وأشعلت النار للتدفئة.

تساءل ابن التهامي وهو يدخل على الأمير عن سر هذا التوقف:

ـ وماذا نفعل الآن يا سيِّدي؟

ـ أنت تعرف يا السي مصطفى أنَّ الأمور معقَّدة وضباط الحرب ينظرون بعين الريبة إلى تنقلنا لهذه المدينة، على الرغم من أنَّنا صرحنا بأنَّ الهدف من وراء حركتنا هو الحفاظ على الاتفاقيَّة وإجبار القبائل العاصية على دفع الضريبة التي تنكرت لها

ـ العسكر منهك يا سيدي ولم يعد قادراً على المواصلة. أغلبية القبائل، الموجودة في أقاليمنا بحسب الاتفاقية، عادت إلى جادة الصواب ووافقت على العودة إلى نظام الضريبة بعد أن دفعت كل متأخرها

ـ ولهذا أفضِّل أن يرتاح العسكر أولاً، وأن ترتاح الأحصنة وتدفأ بالأكل والأغطية، ما يزال الطريق طويلاً نحو المدية. نحن لا نعلم ماذا ينتظرنا هناك. ستنزل أنت ووفد صغير وبعض الخيَّالة ترون الأمر عن قرب. هم على علم بقدومنا ولكن لا أحد يعرف الطريق الذي سنسلكه.

ـ معك حق يا سيدي.

ـ سننزل بالمدينة إذا سارت الأمور على ما يرام، وبعدها ننتقل إلى المدية لتأديب المرتدين ونرى ما يمكن أن نفعله مع أخي مصطفى الذي سار في طريق الدرقاويين.

عندما عاد مصطفى بن التهامي بعد ساعتين من المدينة، كان كل شيء جاهزاً. هو نفسه لم يصدِّق ما حُضِّر للأمير من حفاوة كبيرة وكيف أنَّ الشعب قاطبة كان مجنداً لاستقبال هذا الحدث الاستثنائي. الأمير في هذه المناطق صار أسطورة وما كان يُحكى عنه في الأسواق كان يتجاوز كل منطق وعقل. لقد تقاطعت صورته بصورة المهدي المنتظر.

ـ إنَّهم ينتظرونك يا سيدي بما يليق بمقامك الكبير.

ـ أعرف أنَّ ناس مليانة أصحاب كلمة وخير. رجال حقيقيُّون.

ـ أتعرف يا سيدي ماذا قال لي محمد البركاني والآغا الحاج محيي الدين الصغير بن مبارك؟ نحن سنقاتل بجواره من أجل فرض سلطانه. يريدون نزعنا من سلطانه ولكنَّنا لن نقبل راية أخرى غير رايته العالية.

ـ اللَّه يقدِّرنا ونكون عند حسن ظنّهم.

عندما نزل الأمير استقبل على مشارف المدينة هو وجيشه الكبير من طرف كل أعيان المدينة، على رأسهم الحاج محيي الدين الصغير بن مبارك ومحمد البركاني. الأول كان آغا العرب وكان رافضًا للوجود الفرنسي وساعدته قبائل بني مناد القريبة من الأمير لكي ينتفض ضدهم؛ وأما البركاني، فهو من عائلة مرابطيَّة عريقة. كان قايد شرشال. عاش في وئام مع الفرنسيِّين في البداية، ثم أعلن الحرب ضدّ فرنسا بمساعدة القبيلة نفسها التي وقفت بجانبه.

في الليلة نفسها أُخبر الأمير بكل التفاصيل المتعلقة بوضع المنطقة وذُكِّر بقضية موسى الدرقاوي المتخرِّج من مدارس العسكريَّة

لمحمـد علي، والذي سيطر على مليانة قبل أن يطرد منها بسبب اختراقه قانون منع التعامل مع النصرانيِّين. وطورد إلى أن استقر بلغواط وعمل مؤذنًا أقنع الناس بأنَّه مولى الساعة الذي يرمي كل الكفَّار في عمق البحر. وعمل أتباعه الكثيرَ لفرضه في ذهنية الناس.

ـ كلَّما سمعت أنَّ مجنونًا احتلّ عقليات الناس، أشعر بهول المسافة التي مازالت تفصلنا عن أعدائنا الذين تسيرهم المصلحة والعقل.

ـ لكنَّه من الصعب يا سيدي تغيير الذهنيات. ألم تقل، حجارة الصوان أهون لي من عقل متحجر يعوم في الخرافة؟

قال الحاج محيي الدين الصغير بن مبارك

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لا جديد إلاَّ ما تعرفه يا سيِّدي. هجم على المدية واحتلها. المدية لم تكن تملك إلاَّ مدفعًا واحداً عندما أرادت استعماله، انفجر في وجهها كما هي العادة بالنسبة للمدافع التي صُلِّحت كثيراً. هذه المرة اعتمد على القبائل المرتدَّة وعلى جزء كبير من درقاوة الذين ساعدوه في الإشاعة بأنَّه بصدد بناء جيش كبير يسحقُ به الكفار وأعداء اللَّه.

ـ نرتاح بعض الوقت ريثما يذهب هذا البرد القارس الذي أفقدنا بعض رجالانا والكثير من الأحصنة، ونهاجمه في عقر داره

تململ البركاني في مكانه. انتبه الأمير لحركته.

ـ فهمتك يا السي محمد أنت تتساءل عن وضعية السي مصطفى، أخي، قائد فليتة الذي انضمّ إلى الدرقاويين الذين

يناصبوننا العداء. لن أقول شيئًا، القضاة وحدهم يفتون في أمره. لا عذر لمن خان الإجماع.

أحنى البركاني رأسه مخافة أن يكون قد أحرج الأمير.

عندما خفَّ البرد وبدأ النوار يخرج من أغماده، خرج الأمير باتجاه المدية. في ٢٢ أفريل ١٨٣٥ كانت القوات في عمق مدينة المدية. الأمير والحاج محيي الدين في الواجهة. الرميات المدفعيَّة الأولى أهلكت أكثر من ٢٨٠ من أتباع الدرقاوي. وعندما انطلقت الخيَّالة لم يكن لها أن تتوقف إلاَّ عندما تمَّ حبس حريم الدرقاوي وولده واعتُبروا من غنائم الحرب. وظلَّت الخيالة وراء الدرقاوي حتى البرواقيَّة، وقال عنه مريدوه إنَّه انطفأ لهم وسيعود قريبًا في هيئة أخرى ويبيد أعداءه.

دخل الأمير إلى المدية منتصرًا وعندما جيء له بالمساجين، كان أخوه السي مصطفى على رأسهم. طلب الصفح من الأمير وحاول أن يقبل يده، لكنَّ الأمير التفت نحو الحائط ثم غادر المكان تاركًا الفرصة للمجلس القضائي للحكم بحرية. في الأخير اتخذ المجلس أمرية تخصّ كل المسجونين الذين لم يؤذوا بشكل مباشر السكان ولم يعترضوا سبيل الأمير وكان أخوه من بينهم. فوجئ الأمير بالحكم عندما قال له الحاج محيي الدين:

ـ المفروض أن تسعد بدل أن تحزن. فقد جُرِّد من منصب قائد فليتة وحذَّره القاضي من مغبة العودة إلى الدرقاوي وأن يلتزم بمحاربته أو الإبلاغ عنه ووافق على ذلك. وقَّع على وثيقة تأكيد. وأقسم على المصحف أن لا يعود إلى هذا الرجل.

لم يقل الأمير شيئًا، ولكنَّه ظلّ شاخصًا إلى السماء التي كانت غيومها تتكدَّس مخلّفة وراءها كتلة من اللون الرمادي الثقيل. ثم التفت نحو الحاج محيي الدين:

ـ تعرف يا الحاج، السي مصطفى محظوظ في حضرتكم. خرجت لأنّي كنت أظنّ أنَّهم سيعدمونه أو سيفعلون ما أمر به اللّه في مثل هذه الحالات، لهذا خرجت. ربما لو كنت مكانهم لكنت أكثر قسوة. على ظهري أرواح الذين ماتوا بسبب هبل الدرقاوي وأتباعه الذين ظلُّوا يروِّجون لخرافاته. صحيح أنَّهم كانوا أتباع طريقة أكثر من كونهم أتباع رجل، ولكنَّهم كانوا يعرفون جيِّدًا الضرر الذي يتسببون فيه.

ـ لقد اعتبر من المغرر بهم كل ما فعله هو أنَّه سقط تحت غواية الدرقاوية. يريد أن يراك ليطلب الصفح منك.

ـ يصعب علي ذلك الآن، عليه أن ينتظر حتى تبرد الخواطر. أنت تعرف أنَّ الذي يجبن أمام أعدائه مرة يمكن أن يفعلها العديد من المرات لا أريد أن أكون أخًا لرجل يلتفت صوب الحائط عندما يذبح أخوه أمام عينيه.

ـ هو لم يفعل ذلك.

ـ فعل ما يشبهه. لا أحد يستطيع الهرب من تاريخه.

بقي الأمير عشرين يومًا في المدية التي لم يغادرها إلاَّ عندما تفقد كل شيء ووضع الأمور في مسالكها الصحيحة، ونصب الإدارة الجديدة، واستمع إلى قَسم التعهد والوفاء الذي أداه المنصبون، في مسجد المدينة أمام جميع المصلين.

* * *



الوقفة الرابعة

مسالك الخيبة



- ١ -

قطعت العربة نهر اللوار عابرة الجسر الصغير المؤدي إلى قصر أمبواز قبل أن تتوقَّف نهائيًّا بمحاذاة كنيسة سانت ـ هيبار[١] كعادته، كلَّما زار مونسينيور ديبوش قصر أمبواز، مرَّ أولاً نحو كنيسة سانت ـ هيبار ليقف قليلاً على قبر ليونار دو فانشي، عند الهندسة القوطيَّة المركبة والخشنة المسننة قبل أن يتأمَّل الصفاء الحميمي الذي ينام فيه دو فانشي مستمتعا بالنورالهادئ، الذي يتسرَّب من زجاج النوافذ الملوَّنة والمعشَّقة بمختلف القطع التي تعكس النور مثل الشلالات الضوئيَّة. مشى مونسينيور خطوات وهو يتحسس أوراقه. الملف الذي بين يديه كبير ومرتبك. الخمسون سنة لم تتعبه لكن مظهر السنوات يبدو واضحًا على محياه وكأنَّه عاش أكثر من سنِّه. لحيته المنطلقة حتى صدره وشعره المخفف كثيرًا على

---

١ - La chapelle de Saint-Hubert

الأطراف، ورشمات الشيب التي تبدو واضحة هنا وهناك، ولباسه الفضفاض الذي يشبه لباس الكهنة، وصليبه الكبير الذي لا يغادر صدره، والخاتم الخشن الذي يملأ جزءاً من سبابته. تعطيه أكثر من سنه المعتاد. لا يفتأ كلّما تحدَّث، أن يترك كفَّه اليمنى تنزلق بين شعر لحيته الكثيفة، كمن يتسلّى بشيء في يده ويتركه ينفلت بين أصابعه كحبات الرمل.

الليلة بكاملها أمضاها وهو يحاول أن يفكّ تناقضاتها ولم يستطع. وقف عند باب قصر أمبواز وكأنَّه يكتشفه للمرة الأولى. بدت له بناياته كبيرة ولكنَّها خالية من الحميميَّة. وفي رأسه أسئلة كثيرة كان يحضر نفسه لطرحها على الأمير. لم يخطئ أبداً في الحكم على شخصيتين: دوميشال والأمير البارحة لم ينم جيِّداً فقد استعصت عليه الكلمات في الرسالة، هو الذي لم يحفل كثيراً بالدنيا حلماه الأساسيان هما أن ينقذ الأمير أولاً، وأن يجد ثانياً روحًا سخيَّة تقبل بتنفيذ وصيَّته. الحلم الثاني يمكنه أن ينتظر قليلاً

رآه الحارس. عرفه. فقد تعوَّد على وجهه البشوش دومًا والذي يشرق نوراً على الرغم من التهام اللحية الطويلة لجزء كبير منه.

ـ صباح الخير مونسينيور. ألم تتعب من الجري. لو كان كل القساوسة مثلك يا مونسينيور لتغير وجه الدنيا نحو الأحسن.

ـ متعة أن يركض الإنسان من أجل شيء هو على يقين أنَّه حقّ بين.

ـ طيب الأمير في انتظاركم. دعني أخبره بمجيئكم. هذا اليوم استقبل قادة كثيرين. يبدو أنَّ وضعية البلاد المعقَّدة انعكست

عليه وعلى نفسيَّته. ومع ذلك فهو يناقش بشكل جيِّد ولا ينزعج كثيراً من ردود أفعال الناس ونقدهم. هو الآن يصلِّي. بمجرد الانتهاء سأنبهك. يمكن انتظاره في القاعة الكبيرة. قهوة كالعادة؟

ـ مع هذا البرد لا أطلب أكثر من ذلك.

عندما شرب الرشفة الأولى شعر بالحرارة تسري في الأعماق وتخط طريقًا تحسس مسالكه. نظر من وراء الزجاج، بان القصر على كل اتساعه، تسرَّب قليل من النور لتظهر جليًّا الركائز والأقواس التي لم تكن تبدو إلاَّ كظلال وأشباح متوازية وثابتة. عندما انتهى من الصلاة، وضع الأمير الزربية على الأريكة وخرج عند المدخل حيث صالة الزوَّار لاستقبال ضيفه قال مازحًا، محتضنًا مونسينيور ديبوش:

ـ مونسينيور، جيد أنَّهم يتركوننا نصلِّي على الأقل وإلاَّ لتحوَّل هذا القصر إلى محشرة. أعتقد أنَّ الصلاة لا تؤذي أحداً. فهي ليست بيننا وبينهم ولكنَّها بيننا وبين خالقنا

ـ لا أعتقد أنَّنا وصلنا إلى هذا الحدّ أيُّها السلطان الكريم وإلاَّ فلن نتحدَّث عن كائن اسمه الإنسان الإنسانية يا سيدي عبد القادر، استحقاق وليست إرثًا سهلاً

ـ معك حقّ. الاستحقاق يحتاج إلى مجهودات دائمة للوصول إلى تحقيقه. ديننا يقول ذلك كذلك. يقضي الإنسان العمر كله بحثًا عن تأكيد إنسانيَّته، لأنَّ كل ما يحيطه هو عبارة عن مزالق متعدِّدة، عليه تفاديها بشهامة وعزة نفس.

ردَّ الأمير وهو يجلس بجوار مونسينيور الذي حاول أن يخفِّف عليه وهن العزلة، والخيبات المؤلمة. فقد فهم جيّداً مراميه:

ـ أيُّها السلطان، أنت محظوظ كثيراً في هذا القصر، ترتاح قرب أكبر فنان أنجبته البشريَّة: ليونار دو فانشي. ربما هوَّن هذا قليلاً من حزنك.

ـ الوضع مختلف يا مونسينيور. هو على الأقل جاء بخياره، بدعوة من الملك ليواصل رسومه واكتشافاته على راحته، ورد الخير للذين منحوه له بأن سلَّمهم لوحته الكبيرة: موناليزا مونسينيور، أنت تعرف أنَّ الظلم يبعد عنَّا رؤية الأشياء الجميلة ويقرِّبنا من الخوف والظلام والسواد. كلَّما انزويت وفتحت النافذة نحو الجهة الأخرى من القصر، ولا أفتحها إلاَّ نادراً، رأيت الشرفات التي علَّق عليها أتباع البارون كاستلنو البروتستانت، الذي سلَّم نفسه للكاثوليك وللملك ولكنَّه لم يسلَم هو بدوره من قطع رأسه. الناس عندما يقفون في مواجهة الشرفات لا يتذكرون حماقة الحكام ولكنَّهم يستمتعون بأدوات سياحيَّة، هي في العمق أناس تركوا وراءهم حياتهم وأولادهم وذويهم واندثروا. لا ألوم أحداً، لدينا ما هو أسوأ في تاريخنا الإسلاميّ. معظم خلفائنا مرُّوا على النصل، قُتلوا من ذويهم، كبار علمائنا أُحرقوا وابن المقفع شوي حيًّا، الحلاج مُزِّق قطعة قطعة، ابن رشد كاد أن يُحرق مع كتبه لولا ضربات الحظ، ابن عربي اتهمه الجهلة بالمروق وغيرهم. للأديان، مونسينيور، أوجه أخرى، مظلمة جدًّا، ولكنِّي أقول حبذا لو يتعظ الإنسان وهو يرى هذه الجروح ويحس وقعها. قليلاً ما أفتح هذه النوافذ لأنَّها ترميني نحو تواريخ، هي من القساوة بحيث يصعب عليَّ تحملها أفضِّل أن

أبقى أنا وأهلي في هذه الدائرة لكي لا نشعر بأنَّ هناك خارجا هو أحياناً أسوأ مما نحن فيه.

ـ قصة الشرفات معقَّدة أيُّها السلطان، نجمت عنها كوارث لم توقفها سيول الدماء وكأنَّ قدر البشرية أن تدمي نفسها لكي تدرك بعد نصف قرن أو أكثر أنَّها أخطأت. اليقين بامتلاك الحقيقة يعمي صاحبه ويقوده نحو الهلاك.

ـ مونسينيور، أُدرك جيّداً أنَّ هذا النهر العظيم الذي يواجهنا اليوم لو استطاع أن يتكلَّم لصرخ بأعلى صوته. الماريشال فيايفيل[١] يقصّ ذلك في مذكراته بالتفصيل كما ترجمها لي بواسوني الطيب الذي أخذ من وقته الكثير يذكر أنَّ الدم كان يملأ شوارع المدينة. الزبانية المكلَّفون بقطع الرؤوس والشنق،الذين أتوا بهم من كل مكان لأداء هذه المهمَّة، لم يكونوا كافين. بدون محاكمة، كان الرجال يُرمون مكتَّفي الأيدي والأرجل حتى امتلأ نهر اللوار بالجثث التي بقيت هناك حتى تعفنت وهجَّرت الملك وحاشيته من القصر منذ ذلك اليوم اندلعت الحروب الدينيَّة التي دامت أكثر من أربعين سنة. هكذا البشر مونسينيور، لا يعرفون أنَّ اللَّه الذي منح الروح وقدَّسها، لا يمكن مسها إلاَّ بالحقّ. أيَّة قضية تساوي حياة إنسان وعزَّته؟ في كل الأديان شيء من التطرُّف يؤدي إلى هلاكها

اندهش مونسينيور من ملاحظات الأمير الدقيقة الأمير يختار الكتب التي تُقرأ له من لغات أخرى بدقَّة متناهية يتداول عليه كل من صهره ابن التهامي وبواسوني الذي لا يغادره إلاَّ قليلاً، فقد وضع نفسه هو عائلته رهن الأمير.

---

١ ـ Le maréchal Vieilleville

ـ كلامك صحيح تماماً ودقيق جداً.

ـ كنت أقاتل ليس فقط الفرنسيِّين، ولكنِّي كنت أقاتل حالة العمى التي كانت تصيب بعض خلفائي، فيظنُّون أنَّهم ملاّك الحقيقة، فيكفِّرون ويقتلون من يشتهون. صحيح أنَّ الحروب هذه هي، ولكن يمكننا أن نحد من جرائمها وانزلاقاتها حتى عندما تكون هذه الأخيرة عادلة في عمقها، أو على الأقل لها ما يبرِّرها

ـ الحديث معك شيِّق، ولكنِّي هذه المرة جئتك وفي رأسي ما يتعبك فعلاً أسئلتي كثرت هذه الأيام ولكن على الأقل نيَّتي في الدفاع عن الحقّ مخلصة. عرفنا بعضنا في أكثر الظروف حساسية يوم تبادلنا الأسرى. لم أرك ولكن من رسائلك عرفت أنَّني كنت أمام رجل كبير لم يفهمه الفرنسيُّون والعرب معاً. البارحة قضيت الليلة بكاملها أعصر دماغي ووثائقي عبثاً ولم أجد جواباً مقنعاً لقصة النسخة الخفيَّة من معاهدة دوميشال. فهمت من الوثائق التي بحوزتي، أنَّ نسخة ثانية خُبِّئت عن المسؤولين الفرنسيِّين. أنا لم أفهم كيف يمكن لإنسان اؤتمن على منطقة بكاملها أن يفعل ذلك. لقد نفى ذلك، وبعض أتباعه يتهمون التجار اليهود بأنَّهم كانوا وراء هذه النسخة لتسهيل تجارتهم في الأسلحة والقمح والبارود مع مضيق طارق والإنجليز وحتى مع بعض الموانئ الفرنسيَّة. أنت تعرف أنَّهم سادة التجارة والحيلة.

ـ أعرف جيِّداً ما ترمي إليه. ابن دوران كان يتحرَّك باسمي ويستشيرني في الصغيرة والكبيرة. التهمة من هذه الناحية غير مبررة وأتحمَّل مسؤولية كلّ ما حدث. صحيح أنَّه عندما منع من تسويق الحبوب، أظهر ورقة رسميَّة باسمي، تسمح له بالتعامل التجاري في ميناء وهران. وصل الأمر إلى حاكم الجزائر فكبر الأمر وجعل منه

قضية معقدة، مع أنّي شرحت في رسائل عدة حسن المقصد. وتم تعويض دوميشال بتريزل رئيس قيادة الأركان وقتها. يبدو لي أنَّ المسألة في عمقها كانت أكبر من هذه الأشياء الصغيرة. الصراعات بين الضباط الاستيطانيِّين الفرنسيِّين والذين يبحثون فقط عن الساحل لتأمين تجارتهم كانت على أشدّها. الفوضى كانت أولاً في أذهان القادة وربما حتى ملك فرنسا: ماذا يفعلون بهذه الممتلكات التي اكتشفوا فجأة أنَّها ليست صحراء قاحلة لا شيء فيها إلا البحر. دوميشال ذهب ضحية سياسة مهادنة. كان طيِّبًا وإنسانيًّا في عمقه.

ـ عظيم أن تتكلم على خصمك بهذه الطريقة. لم يشكِّك دوميشال في نزاهتك أبداً، ولكنَّه يضيف في دفاعه أنَّ الورقة المقدمة من طرف بن دوران ليست إلاَّ وثيقة مزورة.

ـ الأمور كانت واضحة بالنسبة لنا والأدلة واضحة. عندما اتصل بي الحاكم العام الجنرال دروي ديرلون[1] أكدت له على صدق النوايا هناك شهود منَّا ومنهم، ابن دوران والكابتن دو سان ـ هيبوليت[2] المكلَّف من طرف الحاكم للتأكد بالعين المجردة من صحة الأختام والوثيقة وعاد لقادته بالتأكيدات نفسها. تأسفت على الجنرال دوميشال وما كان يحدث له. الأمر كان يخص فرنسا وحدها ولم يكن لديَّ حقّ التدخل. عندما شعرت بالرغبة في نكث العهود، بعثت برسالة إلى الحاكم العام وقلت له بالحرف: **أعرف قواعد المملكة الفرنسيَّة وأعرف كذلك أنَّه إذا كان الفرنسيُّون أقوى من أمم أخرى فلأنَّهم لا يخالفون عهودهم. من هنا من الصعب تدمير**

---

١ ـ Le gouverneur général Drouet d'Erlon

٢ ـ Le capitaine de Saint-Hippolyte

معاهدة وقعتها شخصيَّة كانت تملك كل الصلاحيات ومعروفة من طرف الجميع.

مدَّ مونسينيور ديبوش يده عميقًا في زوادته الجلديَّة التي تصحبه دائمًا وأخرج منها قصاصة صحفيَّة مطوية عدة طيات ثم التفت من جديد نحو الأمير.

ـ على ذكر الكابتن دو سانت ـ هيبوليت هل تعرف ماذا قال فيك بعد أن أكَّد على صدق كلامك. أقرأ على مسمعك ما كتبه عنك: **الأمير رجل مدهش. هو في وضعية أخلاقيَّة لا نعرفها جيِّداً في أوروبا. رجل زاهد في شؤون الدنيا ويظنّ أنَّه موكل من طرف اللَّه بمهمة حماية رعاياه. حلمه ليس الحصول على مجد والهدف الشخصي ليس من مهامه وحب المال لا يعنيه أبدا. ليس ملتصقًا بالأرض إلاَّ وفق ما يمليه عليه اللَّه فهو أداته.**

ـ شكرًا. صحيح، لم أكن أكثر من أداة طيعة في يد اللَّه. أعود إلى دوميشال مونسينيور لدينا مثل شعبي يقول: الجمل عندما يسقط يكثر ذباحه. مثله مثلي، الذين كانوا ضدّ السلام كثر وكانت تجب مقاومتهم وقمت بما كان علي فعله. وكدت أقتل في الحناية لولا تدخل الميلود بن طالب أحد أبناء عمي وموت حصانين كنت أمتطيهما، فقط لحماية الوعود التي قطعتها على نفسي. المشكل لم يكن في السلام، في الحروب يوجد دائمًا رجال يجنحون نحو الخير، ولكن في ما بعد السلام. وأؤكِّد لك اليوم أنَّه لا توجد إلاَّ نسخة واحدة هي تلك التي وقعنا عليها جميعًا وعملت على تطبيقها حرفيًّا ولم أخرج أبدًا عمَّا تم الاتفاق عليه. أعرف أنَّ الجنرال دوميشال كانت له ظروفه الخاصة ولكنَّها تخصُّه ولا تخصني. الاتفاقية محفوظة ويمكن الاطلاع عليها وموقعة من الطرفين. وهذا الرجل أقدِّره بل وأجلُّه وربما

كان من القلة القليلة التي سبَّقت السلم على الحرب، ولكن في أوضاع قاسية كتلك لم يكن إلاّ قانون السلاح والموت. ولو انتصر دوميشال لتغير كل شيء في البلاد ولاختصرنا سنوات عديدة من الظلمة والدم.

ـ لكن لماذا كذب؟ ألم تضعه أنت في وضعية الضعف بتدقيقاتك؟

ـ كنت أدافع عن شعب احتلَّت أرضه وسلبت خيراته فقط. وكان عليَّ أن أحتاط، أنا لا أعرف دواخل الناس. ثم كيف أقنع قبائل كانت مستعدة لفعل أيّ شيء لاسترداد حقوقها؟ رؤية دوميشال كانت بعيدة وقوية، بينما رؤية تريزل كانت قصيرة ومحدودة لأنَّها استندت على القوة، وهي لا تعرف أنَّ القوة تولد لديّ الآخر الضعيف قوة مضادة أعنف. الضعيف قد لا يربح الحرب ولكنَّه قادر على الأذى والضرر والقسوة. الإنسان عندما يدفع نحو اليأس، يصير أعمى، يقتل بدون تمييز أحياناً أشعر أنَّ دوميشال كان ضحية لعبة أكبر منه ومنِّي. دوميشال أكَّد بنفسه أنَّه في ٢ فبراير تعمق مليًّا في الوثيقة الملحقة بعد أن قدَّم له بن عراش كل وثائق الاتفاق الأصليَّة، وكان ذلك بحضرة المترجم السوري وابن دوران وكيلي في الجزائر ومساعده الكابتن لاقوندي[١] والسو ليوتنان آليقرو[٢] ووضع عليها ختمه. هذه الوثيقة الملحقة تم تدميرها أو ضاعت، اللّه أعلم.

ـ لكنَّها قضية كبرى وخطيرة، لأن عليها ستتأسس الحرب فيما بعد والجراحات الناتجة عن ذلك. يقولون إنَّك اخترقت القواعد المتفق عليها خرجت عن حدود القطاع الوهراني وسرت باتجاه حدود

---

١ ـ Lagondie

٢ ـ Le sous-lieutenant Allegro

التيطري وهذا يقع خارج حدود الاتفاق. نكثت المعاهدة، بشكل أكثر اختصاراً

ـ سادة الحرب يقولون ذلك. مثَلٌ عندنا وعندكم يقول، إذا أردت أن تتخلَّص من عدوك اتهمه بالكلب. الأمر بسيط جداً، اطلعوا على التقسيمات التي قامت بها فرنسا وسترون أنَّ هذه المنطقة تابعة للقطاع الوهراني. لم أتجاوز أبداً حدودي. العسكريُّون كانوا على علم بكل تحركاتي، ومرسى آرزيو لنا حقّ الاتجار فيه بمقتضى المعاهدة ولي ممثلون في المرسى كما لدوميشال كذلك. لكن رجالات الحرب والتوسُّع كانوا الأقوى وذاك قدر اللّه عز وجل. ماذا تستطيع أن تقول عندما تكون كلمة البارود هي المسموعة.

ـ أنا أريد أن أقنع رئيس الجمهورية وأريد أن آخذ كلامك كحجة صادقة. أعرف أنَّ دينك وسيرتك الكبيرة يحتمان عليك الصدق. ولهذا أسأل وأشدِّد على السؤال.

ـ تعرف يا مونسينيور أنَّ مصير الأفراد قد لا يكون مهمًا كثيراً أمام صورة البلدان العظيمة. يحزنني أن يتحوَّل بلد الحرية والانفتاح إلى سجن كبير للآخرين. أنا كنت في حاجة إلى المعاهدة لبناء سلطان المسلمين في تلك المنطقة ولم تكن لديّ أهداف أخرى. كنَّا في وضع يتحرَّك بسرعة تتجاوز ما كنَّا نطمح إليه. كان في نيَّتي أن أحررِّ بلادا تحت نير استعمار قاس على البلاد والعباد، ولكنِّي استرحت للحقيقة القاسية التي لم أكن متحكِّمًا فيها، فانصعت لأقدار اللّه. ارتباك السلطات الفرنسيَّة نفسها في ذلك الوقت لم يسهل المهمة أبداً، فقد كانت بين احتلال بعض السواحل لاتقاء شرّ القراصنة وتسهيل مرور تجارتها والاستيطان الكلّي.

ساد صمت كبير عندما انسحب الأمير للوضوء والصلاة. تساءل مونسينيور وهو يرشف ما تبقى في كأس القهوة بتلذذ كبير ملتفتًا نحوي.

ـ أرأيت يا عزيزي جون؟ هل هذا رجل ظلم وضغينة؟

ـ لا يبدو عليه ذلك مطلقًا يا سيدي. كل ما فيه يوحي بأنَّه في مكان ليس له ويحس بظلم كبير نزل عليه وعلى ذويه. ثم إنَّ سيرته ليست جديدة عليك.

ـ أعرف أنَّها ليست جديدة، ولكن ما هي اللغة التي يمكن أن نقنع بها نابليون الذي سار كل شيء بيده بعد ذهاب الملك. يستطيع أن يأمر فيطلق سراحه. ولكن محيطه لا يبعث على الارتياح أبداً.

ـ شيء يقول لي إنَّ الأمير يخفي أكثر مما يظهر حتى لا يؤذيك، الألم الكبير باد في لون عينيه. أحيانًا يبدو لي كالأسد الذي قلمت أظافره ووضع وراء القضبان.

ـ السنوات القاسية لم تعلِّمه إلاَّ الصبر، مثل عظماء الشهداء المسيحيِّين الذين تلقوا آلام الموت مقابل إنقاذ الذين يحبونهم.

عندما عاد الأمير، جلس قبالة النافذة المغلقة. اندهش مونسينيور مرة أخرى:

ـ لم لا تفتح النافذة، المؤكَّد أنَّ هواء الخارج يبعث على قليل من الراحة ويزيل قنوط الحبس والاعتقال؟ هذه الحدائق الجميلة برز فيها الإنجليز، لقد جُلبوا من وراء البحر فقط لأداء هذه المهنة. هم سادة الشأن في هذا الموضوع.

ـ أرى ماذا؟

ـ القصر والحدائق، يبدو أنَّك لم تسمعني؟

ـ لا أريد أن أعوِّد نظري على رخاء يؤذيني أكثر مما يريحني. ومع ذلك، الجمال موجود في عمق الأشياء. بمجرد إغماض عيني، أستطيع من وراء هذا المكان، وعلى الرغم من الستائر الخشنة والنوافذ الخشبيَّة الثقيلة، أن أرى سهل اغريس بوحله وأمطاره وتربته والخيل التي تعبره يوميًّا والساحات الواسعة التي لا يحدّها بصر، وهذه مونسينيور لا يستطيع أحد قهرها فينا إلاَّ الموت هل تستطيع أن تقول لي إنَّك لا ترى الجزائر كلَّما وضعت رأسك على الوسادة وأغمضت عينيك؟

لم يقل مونسينيور شيئًا، ولكنَّه صمت مثلما صمت الأمير من قبل. رأيت في عينيه اشتعالات يتامى الجزائر ودم رجليه وهو ينزع الحذائين مساء مصحوباً بجلدة القدم التي بقيت ملتصقة بعمق الحذاء الأيمن من كثرة الركض بين مختلف الأمكنة للاطمئنان على من هم في حاجة إليه، وبحر مصطفى الذي خرجنا منه لآخر مرة مثل الفارين على متن قارب قديم ومتآكل قبل أن نلحق بالسفينة التي كانت راسية في عمق البحر. كان يومها كل شيء قد فقد لونه، السماء اسودت حتى صارت مثل الغور الذي لا قرار له، والبحر لم يبق به إلاَّ الماء، بلا لون ولا ملوحة ولا طعم.

ـ الجزائر. تمتم مونسينيور أنطوان ديبوش. تلك قصة أخرى. قصة أخرى أكثر تعقيداً مما نحسّه الآن. ليكن. .

ثم أحنى رأسه قليلاً وأغمض عينيه.

* * *

- ٢ -

دارت أحصنة المقدمة حول نفسها طويلاً ثم رفضت الدخول في النباتات المتوحشة القزمة من الديس والحلفاء والمارمان والسدرة. لجم السايس الحصان الأول لكي يتخطّى الحواجز التي لا تعيقه عادة، فعزره الأمير

ـ الأحصنة عندما ترفض التقدم، أدرك أنَّ أمامها شيئًا هي تراه وأنت لا تراه. إما عائق طبيعي أو خطر داهم.

ـ الديس والحلفاء والمارمان تتخطاها الخيل عادة بدون تردُّد، لكن هذه المرة؟ أنت سيِّد العارفين يا سيِّدي.

ـ وهذا يعني أنَّ العائق غير طبيعي.

أضاف الخليفة مزاري الذي، على الرغم من جرح الكتف، جاء ليسند الأمير.

وقبل أن ينهي كلامه خرج الرسولان من بين الأشجار والنباتات، ملفوفين في برنسيهما الصوفيّين الأسودين. اتجها مباشرة نحو الأمير وخليفته. سحبهم نحو الخيمة التي كانت قد نُصبت قبل أن تغرب الشمس:

ـ يا أمير المؤمنين، تريزل[1] الذي حلَّ محلَّ دوميشال، يطحن كل شيء في طريقه. لقد أحرق قبائل غرابة وبعثر محصولاتها وسيضطر السكان هذه السنة إلى أن يغيروا على غيرهم أو أن تمدّهم بما تستطيع. لقد أخذهم على حين غفلة. يقولون إنَّ تريزل حفظ الدرس جيِّداً وعرف قصدك من كلامك «*لن يدخل طير إلى وهران بدون علمي*»، يعرف أنَّك ستسيج المدينة ولهذا يحاول أن يسبقنا إلى كل شيء. مصطفى بن اسماعيل لم يتوقف عن المناورة.

ـ وخليفة غرابة ولد خليفة؟ سأل الأمير الرسول الثاني.

ـ لم يفلح معه تريزل، فقد قال له إنِّي تحت إمرة سيدي أمير المؤمنين، السلطان عبد القادر. تريزل يستنهض القبائل البعيدة ضدنا

ـ مليحة هذه. يخترقون الاتفاقيات ويتهموننا بالتعدِّي. لن أبعث أي شيء حتى يعود الحاكم العام من سفرته وأستفسره عن الأمر. معه الأمور ستكون أكثر ثباتًا وأكثر جدِّيَّة. وإذا اضطررنا لفعل ذلك، سأبعث برسالة احتجاج وألحقها بتأكيد سيكون بمثابة إعلان حرب. منذ ٢٦ جوان وقواتهم تحطّ رحالها في الأمكنة نفسها، على ضفاف نهر سيق، في نقطة الربط بين وهران ومعسكر.

---

١ ـ Treizel

المكيدة ظاهرة للعيان. يبدو أنَّ تريزل مصمم على الذهاب بعيداً في عدوانه علينا

ـ يجب أن نردّ عليه يا سيدي بالشكل الذي يستحقّه.

حتى الفجر الأول، كانت قوات تريزل ما تزال تحصن مواقعها وتحتلّ منابع المياه للسيطرة على كل ما هو حيوي.

تأمل الأمير وقواده حركة العساكر من أعالي الجبل المطل على الوادي.

ـ قواتهم منظّمة وعيبها الكبير أنَّها ثقيلة وربما هنا مقتلها الأساسي. وإذا كان من حلّ أو من هزيمة لها فلن يكون إلاَّ من هذه الزاوية.

ـ أعتقد أنَّهم يريدون ترهيبنا فقط بهذا الاستعراض الكبير

تمتم أحد الخلفاء الذي ظلت عيناه مرتشقتين في حركة المدافع التي كانت تحوط بالفرق الموزَّعة على طول الضفة الجنوبيَّة من النهر.

ـ لا أعتقد الجنرال تريزل جادَّ في تحرُّكه وهو هنا لسحقنا أنا متأكِّد أنَّه وطأ على أوامر الجنرال دروي ديرلون الغائب بحسب مصادرنا عن وهران. لقد جاء إلى هنا وفي رأسه تنفيذ مشروعه القاضي بتأديبنا الضبَّاط الذين عرفتهم أذكى من هذا الرجل.

قبل أن ينتهي الأمير من كلامه، كان الآغا المكلَّف برقابة الجهة اليمنى من الجبل قد وصل مع خيالته. انزلق بسرعة نحو خيمة الأمير الذي كان في حوار مع خبيريه الإيطاليِّين في الأسلحة الثقيلة والمدفعيَّة وخلفائه وعدد محدود من ضبّاطه ومستشاريه. جلس

قبالته وهو يحاول جاهداً أن يسترجع أنفاسه:

ـ قل لي بدقة عدد قواتهم.

ـ عددهم يتجاوز الثلاثة آلاف عسكري، مدجَّجين بالأسلحة. فيلق الفرقة ٦٦، فيلق المدفعيَّة الإفريقيَّة الخفيفة، فيلقان من اللفيف الأجنبي، الفيلق الثاني للرماة الأفارقة على الخيول، مدفعان متحركان وأربعة من النوع الصغير السريع الحركة، وأكثر من أربعين عربة. لا نعتقد أنَّه جاء للعب أو فقط للتأديب.

ـ واضح جداً رأينا ذلك من أعالي الجبل.

منذ الفجر الأول وحتى المساء والجميع يتتبعون من الأعالي حركة جيش الجنرال تريزل الذي كان ينظِّم مواقعه ويحتلّ الأماكن الاستراتيجيَّة جنبات نهر سيق، تحت شمس ظلت مشتعلة حتى المغيب. في البداية توزعوا في شكل وحدات صغيرة تحت قيادة الكولونيل أودينو كتيبتان للرماة، ثلاث مجموعات من المشاة ومدفعان خفيفان وضعا على الجهة اليمنى من الفيلق ٦٦، الفيلق الإيطالي للفيف الأجنبي. الخلفية كانت مدعمة بفريق من الخيَّالة الخفيفة الإفريقيَّة وكتيبة بمدفعين جبليين يقودها الليوتنانت كولونيل بوفورت[١]، الذي كان مثل الثعلب يتشمم كل الحركات ولا يتوانى عن الرمي حتى ولو صدر ذلك عن أرنب أو أي حيوان مذعور

عند الساعة السابعة بالضبط وعندما تمت كل الترتيبات الأخيرة، بدأ الزحف نحو غابة مولاي اسماعيل ذات الأشجار الكثيفة

١ ـ Le lieutenant colonel Beaufort

والنباتات المتوحشة والصنوبر البرِّيّ والمنحدرات الكثيرة. أرضيَّة صعبة تعيق حركة الآليات الزاحفة. وما كادت الفرق الأولى تتوغَّل في عمق الغابة حتى بدأت المناوشات الأولى.

كانت مجموعة الأمير المكوَّنة من ٢٠٠٠ من المشاة و ١٢٠٠ نفر من القبائل المحاربة الذين يساعدون على المقاومة، قد احتلوا أماكنهم وراء الأشجار العملاقة وحوَّطوا المرتفعات المطلَّة على جيش تريزل. أعطى الأمير الأمر بالهجوم. كانت المدفعيَّة مندسَّة وراء الأشجار والصخور العالية بينما توزع الخيَّالة إلى فرق صغيرة لتكون أكثر حُرِّيَّة في حركتها الغابة والشقوق والمنحدرات، صعَّبت كثيراً من مهمة الجنرال تريزل. حاول الكولونيل أودينو أن يفكّ الخناق بواسطة الرماة ولكن رصاصة اخترقت جبهته فسقط بدون حراك حتى قبل أن تصل المعركة إلى حالتها القصوى. أحدث ذلك هلعاً ورعباً كبيرين في مختلف الفرق التي حاول تريزل أن يعيد تجميعها وترتيبها، في الوقت الذي كان فيه نافخ البوق قد بدأ يعلن عن التراجع. استطاع تريزل وبصعوبة كبيرة أن يخرج من مضيق الغابة وينسحب نحو السهل وينصب هناك خيامه.

أعاد الجنرال تريزل ترتيب كل قواته من جديد شعر بأنَّ الوضع كان أكثر تعقيداً مما تصوره مع قواده، وأنَّ عدد الأسرى كان مرتفعاً وهو لم يقدم بعد على الحرب الفعليَّة. في لحظة من اللحظات فكَّر في الدخول في مفاوضات مع الأمير لتبادل الأسرى ولكن الفكرة بدت له غير سليمة. في منتصف النهار من اليوم التالي، أخلى الأمكنة وبدأ يهيئ نفسه للعودة من حيث أتى. كان عدد القتلى

والجرحى كبيراً مما اضطرّ تريزل إلى إفراغ الكثير من العربات من الخيام والمؤن وملئها بالجرحى. تحركت القافلة باتجاه مدينة سيق للتوقف على حوافي النهر القريبة من المدينة ورفع مخيمها بالشكل الرباعي المعتاد. بينما نصب الأمير خيامه غير بعيد عن المكان نفسه. وبدأت الحركة تدب بين المعسكرين. في الليل وبعد مراسلات عديدة، تمَّ الاتفاق على تبادل القناصل. القنصل الجزائري كان محملاً برسالة استغربها الأمير كثيراً. فقد طلب تريزل من الأمير الاعتراف باستقلاليَّة الدوائر والزمالات والغرابة وكروغلي تلمسان والقبول بتبعيتها للتاج الفرنسي، والتوقف النهائي عن المطالبة بالأراضي الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الشلف وإلاَّ فلا مناص من الحرب التي ستحرق الأخضر واليابس.

استغرب الأمير وهو يتحدَّث إلى الخليفة مزاري:

ـ غريب أمر هذا الرجل، المهزوم عادة يطالب بما هو مستطاع؟ أتساءل إذا ما كان لهذا الرجل علاقة بالحرب وبالمفاوضات. أشكّ حتى في سلامة عقله.

ـ ماذا نفعل يا سيدي تجاه طلبه، سأل كاتب الأمير.

ـ ارتح. هذا الرجل يريد الحرب وقد اخترق اتفاقيَّة بكاملها، سيجيب عن هذا العدوان أمام رؤسائه. سأبعث برسالة إلى حاكم الجزائر عن طريق ابن دوران، فهو أقرب إلى العقل والصواب الآن، يبدو أنَّ تريزل سيتَّجه نحو أرزيو لفكّ الطوق وعلينا أن نمنعه.

استدعى الأمير رؤساء الفيالق والخلفاء والأغوات والقواد الذين رافقوه في الحملة، وبدأ يعرض عليهم ما يجب فعله حول مواصلة

الهجوم. لكنَّ أحد القادة الحميان من الذين يعرفون تضاريس الأرض جيّداً تدخل واضعًا أمام الأمير احتمالات كثيرة من بينها إمكانية مرور تريزل على هضاب حميان:

ـ يا أمير المؤمنين، هذا الرجل عنيد وعندما يصمم العنيد على فعل شيء، يركب رأسه. قواتهم إذا واجهناها ستحدث في صفوفنا خسارات كبيرة. ولكنّنا نستطيع بقليل من الحيلة أن نجرهم نحو سبخة المقطع لتعطيل عمل العربات نهائيًا ومدفعيته القوية.

ـ لكن هذا كلّه مربوط بحركة قوات الجنرال تريزل، ولهذا وجبت المناوشة لجرهم نحو هذا المسلك الذي يقود إلى مهاو كبيرة تنتهي كلُّها في سبخة المقطع التي تصعِّب من مهمة المسافرين وتَنقُّل العربات وأحيانًا حتى الأحصنة المدرَّبة.

ـ الجنرال تريزل ليس من الصنف السهل الذي يترك الأشياء في منتصفها، تدخل أحد سجناء الأمير الذي جيء به ليقدّم توصيفًا كاملاً عن جيش تريزل وضبَّاطه، هو مصمِّم على كسر شوكة جيش السلطان والعودة بانتصار كبير إلى رؤسائه ليقنعهم بضرورة الحرب وجدواها. الهزيمة تعني ببساطة موته العسكري.

ـ مشكلة هذا الصنف من القادة، أنَّه على صواب دومًا أو على الأقل هكذا يشعر. تدخل أحد معاوني الأمير من البولونيين الذين اختاروا الإسلام وطلبوا حماية الأمير. السجناء يؤكِّدون هذه النزعة المتسلِّطة فيه وعقدة قهر السلطان. كسر قوة الأمير وخيارات الضباط الفرنسيين، الذين جنحوا للسلام، هو انشغاله الأساسي.

كان الأمير قد بعث فرقًا صغيرة ونصبها كرأس حربة في كل الأماكن الاستراتيجيَّة بعدما تأكَّد من صحة كلام القائد الحمياني، وبدأ في المناوشات الأولى لجرّ عساكر تريزل نحو عمق المقطع.

الهجوم الأول كان مفاجئًا وصاعقًا. الخيَّالة اخترقوا معسكر تريزل كالريح الساخنة، ساحبين في أثرهم الأتربة والأوراق الميتة. لم تُسمع إلاَّ حركاتهم وزفهم والطلقات النارية الكثيفة قبل أن يمضوا عميقًا في فراغ الأدخنة والغبار ويتلاشوا نهائيًّا عن الأنظار مخلِّفين وراءهم صرخات مكتومة وصهيل الأحصنة الذي لم يتوقف. موجات أخرى من الخيَّالة هاجمت من الجهة اليمنى واليسرى محدثة الرعب نفسه، متفادية مواقع المدافع التي وجدت صعوبة كبيرة في التوجُّه نحو المهاجمين. فجأة انفصلت مؤخرة جيش تريزل عن الميمنة والميسرة، مما دفع بالمقدمة ذات الأعداد الهائلة والعتاد الثقيل إلى التوغُّل عميقًا في السبخات الخادعة، التي كانت تبدو في ظاهرها مجرد أرضيَّة اعتياديَّة وأتربة وأحجار زرقاء خلفتها سيول الوديان عندما تُحمل ثم تجف. أعطى تريزل أوامره لقادة الأسلحة الثقيلة والهندسة العسكريَّة بالدوران حول نفسها وتغطية ظهر وصدر القوات التي بدأت تتمزَّق بعنف وتتحوَّل إلى فرق صغيرة معزولة. دارت العربات والمقطورات في مكانها في محاولة يائسة لدرء الهجمات الأولى ولكن توغلها في السبخة جعل حركتها صعبة ثم مستحيلة. كلَّما حاولت أن تتقدَّم أكثر، زادت العجلات انغماسًا وغرقًا في عمق التربة الرجراجة. وبدل أن تتوقف الكتائب عند هذا الحدّ، حاولت أن تتعمَّق أكثر لتدرك الضفاف التي كانت تبدو سالكة. العربات الثقيلة التي كانت على رأس الرتل، تحوَّلت إلى كتل

حديدية لا دور لها إلاَّ استعمالها كآليات وقاية من وابل الرصاص. على الجهة اليمنى من الضفة، كان أكثر من ١٠ فارس أميري يركِّزون هجماتهم على قلب القافلة التي لم تفلح في الخروج من الغرق في السبخة. حتى المدفعيَّة الثقيلة لم تعد لها أيَّة فائدة باستثناء بعض القطع الخفيفة التي ظلَّت ثابتة في أمكنتها، لكن كثافة البارود ورائحة العفن المتأتية من الوادي والسبخة والنباتات المتوحِّشَة والمياه الآسنة جعلت الكثير من فرق العربات تقطع الروابط وتحرر الأحصنة وتحاول أن تهرب، مما جعل الأدجودان فورنييه[١] يشهر مسدسه ويضعه على الصدغ الأيمن لسائق العربة:

ـ لا تضطرني إلى تفجير رأسك.

ـ لكن يا سيدي كلُّهم هربوا وإذا بقينا هنا سنموت بكلّ تأكيد

ـ وماذا نفعل هنا في اعتقادك؟ وهل التخلي عن موقعك ينجيك؟ سيذبحونك مثل الخنزير والجرحى الذين يئنون بداخل العربة؟ روحك أثمن من أرواحهم؟ الأحسن لك أن تلزم مكانك وأن تحاول إنقاذ عربتك مع ما تبقى بجانبنا من بشر وأحصنة وآليات

ثم انكفأ فورنييه مع بقية الجند وحاول الجميع أن يخرجوا العربة ويحرروها من الأوحال والحفر ويخرجوها من الغرق وينقذوا العشرين جريحًا الذين كانوا فيها. لكنَّ الكثير من المشاة الذين وجدوا أنفسهم بين المقطع ومياه النهر المليئة بالأتربة والأوحال

١ ـ L'adjudant Fournier

والأشجار الميتة والنباتات المتوحشة والأحصنة الغارقة، اضطرُّوا إلى أن يُلقوا بأنفسهم في النهر لتجنب هذه الفوضى الطبيعيَّة العارمة، فغرقوا من كثرة ثقل المياه. الشيء الوحيد الذي بقي تحت سيطرة تريزل هو المدفعيَّة الثقيلة التي لم تتورَّط في السبخة. أما القطع الأخرى فإمَّا أنَّها دمرت أو أنَّ عساكر الأمير استولت عليها. ترك تريزل وراءه كل شيء: الألبسة والأغطية والأكل وحتى الكثير من السيارات المليئة بالجرحى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. على أطراف النهر وعلى الرغم من صرخات الخيَّالة، فقد انهمك الكثير من مشاة الأمير في النهب وقطع رؤوس الجرحى وأخذ الألبسة والأكل، بينما كان تريزل يحاول أن يجمع قواه ويخرج من عمق السبخة. الكثير من أصوات الضبَّاط ظلَّت تصرخ من أجل التوجُّه نحو طريق مستغانم فهي أكثر أمنًا، لكن الجنرال تريزل استطاع أخيراً أن يخرج هو ومن بقي معه من الجهة المعاكسة ويتوجَّه نحو طريق آرزيو بعد أن أعاد ترتيب ما تبقى من قواته. المجموعة الأماميَّة الصغيرة، وسط الضجيج ودوي المدافع وصهيل الأحصنة والبارود، لم تسمع أمر الانسحاب، فوجدتْ نفسها داخل كمَّاشة ليسحقها بارود المدافع وبنادق الأمير، فتمزقت إربًا إربًا على الرغم من محاولات التجمع الفاشلة. التحق الباقي، الذي استطاع أن يخرج من الجهة الأخرى من أوحال السبخة، بالفيلق ٦٦ وفرقة الخيَّالة التي كان يقودها الكابتن برنارد[١] مدعمًا بما تبقى من قطع المدفعيَّة، التي استطاع قائداها الكابتن آللو والليوتنانت باستوري[٢] أن يجمعاها ويحميا فرقة المشاة الهاربة من السبخة

١ - Le capitaine Bernard

٢ - Le capitaine Allaud et le lieutenant Pastoret

للانضمام إلى بقية الفرق التي كانت قد انتظمت من جديد للسير باتجاه آرزيو.

كان الأمير قد توقف عن المطاردة وبدأ يتأمَّل المشهد من بعيد. تدخل الخليفة مزاري وهو يحاول أن يمسح وجهه من الأتربة التي اختلطت بالعرق، ويضغط على جرح الظهر الذي عاد إلى النزف من جديد

ـ سيِّدي، هل نواصل الهجوم، فهم منهكون. سنذبحهم بسهولة.

ـ هذا الدرس يكفي بالنسبة للعاقل. الحرب ليست القوة فقط ولكن الحكمة كذلك عند الضرورة. أعتقد أنَّ الجنرال تريزل يعرف الآن أنَّ القوة وحدها لا تكفي لحلّ المعضلات الكبرى. عاقبه اللّٰه بهزمه وسيعاقبه حكامه بعزله. عرفت من الضبَّاط السجناء أنَّه سيجد نفسه مضطراً للإجابة عن أسئلة الحاكم العام. فقد خسر مدافع كثيرة وأكثر من ألف قتيل وسجين. هذا يكفيه إذا لم يكن مجنوناً

ـ ولكنَّهم في مرمانا يا سيدي ويمكن أن نبيدهم.

ـ نتوقف عند هذا الحدّ لأنِّي أشعر أنَّ الذين يفكرون مثل الجنرال تريزل صاروا اليوم قوَّة، فما ينتظرنا، اللّٰه وحده يعرف قسوته وصعوبته ومع ذلك فنحن طُلاَّب حقّ. سيضطرّ تريزل إلى الدخول إلى وهران عن طريق السفن، فهو يعرف جيّداً أنَّ قبائل الغرابة تنتظره عند مداخل وهران وإذا سار براًّ، لن تبقى منهم أذن واحدة. أخاف أن تكون معاهدة دوميشال أو ما تبقى منها قد لفظت نفسها الأخير نهائيًّا في هذه السبخة.

ــ ماذا نفعل الآن يا سيِّدي.

ـ نتركهم وشأنهم ونرفع الخيام. كل مجموعة تعود إلى مواقعها الأولى. ومع ذلك يجب الحذر هذا الانتصار سيدفعهم نحو حقد أكثر لم نكن البادئين. دافعنا عن أنفسنا فقط.

انطلقت المجموعات بنظامها المعتاد، المقدمة والميمنة والميسرة والمؤخرة التي تحمي ظهر الكلّ، باتجاه ضفاف نهر سيق قبل أن تنقسم إلى مجوعات صغيرة، كل واحدة سلكت طريقًا خاصًّا يقودها نحو قبيلتها، بينما عاد الأمير إلى معسكر حيث كان الناس ينتظرون عودته على وقع الزغاريد والأناشيد والتهليلات؛ ولكنَّ الأمير كان قد أعطى أوامره بأن يكون الاستقبال بسيطًا والاستعداد لأيام قاسية كانت تلوح في الأفق.

عند مدخل المدينة أخبره رسوله إلى المتيجة أنَّ خليفة مليانة قد نزل على رأس ٥٠٠ فارس وأجلى الفرنسيين من السهل واستعاد كل الأراضي الزراعيَّة، وضمَّ إلى صفوفه قبيلة الحجوط بدون خسارات تذكر

هذه الأخبار بقدر ما أفرحت الأمير أكَّدت له أنَّ المعاهدة انتهت وأنَّ الحرب بدأت تلوح في الأفق. طلب من مقربيه وعائلته أن يتركوه وحيداً لينام قليلاً لم يكن يبدو على وجهه ألقه المعتاد وكأنَّه قادم من معركة هُزم فيها ولم ينتصر، ولم تعكس عيناه الزرقاوان مياه وادي الهبرة ولا السهول المحيطة بقصر الباي. شيء ما لم يكن يسير على طبيعته كان يدرك جيِّداً أنَّ مصانع البارود التي بدأ العمل بها وورشات الأسلحة ليست إلاَّ في مراحلها البدئية بعد المفاوضات الشَّاقة مع الإيطاليين والألمان

ـ بناء الدولة يحتاج إلى حالة استقرار ما تزال العصبيَّة القبليَّة هي سيِّدة العلاقات وهي التي تحرِّك الناس. كل واحد يظنّ نفسه هو سيِّد نفسه.

وعندما أراد مصطفى ابن التهامي أن يسأل الأمير عما يجب فعله، سحبه بهدوء من يده وأدخله معه إلى قاعته الخاصة، ثم طلب منه الجلوس قبالته بعد أن سحب كتاب التوحيدي «الإشارات الإلهيَّة»، ووضعه في حجره:

ـ يا السي مصطفى، الحرب مع تريزل كسرت القشة التي ارتبطت بها للحفاظ على السلم. الناس لا يعرفون شيئًا آخر غير الحرب والغنائم. كيف يمكن تجميع كل الأسئلة والخلافات ضمن دائرة واحدة؟ قال الأمير مرة أخرى وهو يتمدَّد قليلاً على الفراش.

ـ الدين أيُّها السلطان. الدين يوحِّد القلوب

ـ الدين يجمع ولكنَّه يفرِّق أيضا يوم وقَّعت المعاهدة مع دوميشال، الكثير من أبناء جلدتنا وقفوا ضدنا بحجّة المصالحة مع دار الحرب أيَّة مصالحة عندما تكتشف فجأة أنَّك تنام على كذبة كبيرة اسمها القوة. وسائلنا مضحكة أمام جبروتهم. كل إرادات الدنيا لا تكفي. تذكر حماس محمد علي في مصر. لقد أدرك في وقت مبكر أنَّ عليه أولاً غلق الممرات مع الباب العالي نهائيًا وبدء التفكير في بناء دولة تتأسس على المعرفة والعلم. الفرق بيننا وبينهم أنَّ نابليون خرج تاركًا الأحلام معلَّقة في الهواء بينما يصر سلطان فرنسا على البقاء والتمركز نهائيًّا على هذه الأرض.

ـ ربما ستكون هزيمة تريزل درساً لهم.

ـ لا أعتقد. ستكون مبرّراً لأنصار الاحتلال الكلّي للبلاد للانقضاض نهائيًّا على ما تبقى من معاهدة دوميشال. أصبحت طبول الحرب تقرع نهاراً وجهراً، ولم يعد أحد يتحدَّث عن السلم إلاَّ من قبيل الحديث عن ماض لم يعد موجوداً إلاَّ في الذاكرة. تريزل ليس إلاَّ الوجه الظاهر للأزمة.

ـ صحيح أنَّ آلتهم الحربية أقوى من آلتنا، لكن شوكتنا ستزداد حدّة.

ـ أيَّة شوكة يا السي مصطفى وأنت سيِّد العارفين. إذا لم نبن آلة حربيَّة موازية لآلتهم أو على الأقل قريبة منها فسنظل تحت رحمتهم. صحيح أنَّنا سنقاوم باستماتة ولكنَّنا سنخسر الحرب إن عاجلاً أو آجلاً

ـ وماذا يجب أن نفعل.

ـ أن نهيِّيء الناس لمغادرة معسكر وكل الضواحي المحيطة بها وأن يستعدوا لرحيل اللّه وحده يعلم متى ينتهي. لقد بدأت الحرب من جديد

ـ أراك يا سيدي متشائماً وكأنَّنا هزمنا في حرب ربحناها

ـ ربحنا الحرب ولكنَّهم أجبرونا على خسران معركة السلم. لديَّ الإحساس كأنَّني دفنت عزيزاً غاليا على القلب. هذا ما لديَّ. القلب كان ممتلئًا وكنت أريد أن أعلمك بما أشعر به ربما كنت أكثر

تبصُّراً مني. سأرتاح قليلاً مع التوحيدي، فيه الكثير مما يزهر الروح المتعبة.

ـ وهل نحضر الناس لإخلاء المدينة عند الضرورة؟

لم يسمع سؤال مصطفى بن التهامي، كان قد توغل في عمق البهو المؤدي إلى غرفة نومه، بعيداً عن كل شيء، بعد أن فتح كتاب الإشارات الإلهيَّة في العلامة التي وضعها في آخر ليلة عندما فتحه، قبل شهرين بالضبط، على صفحة الغريب.

* * *

- ٣ -

١٠ أوت ١٨٣٥ على الرغم من حرارة الصيف القاسية والرطوبة الثقيلة، كانت السماء مغبرة وصفراء ولم يعد هناك أيّ مكان للزرقة. الرياح القوية ازدادت عنفًا وحرارة، لا شيء في المدينة إلاّ الغربان التي كانت تبرز من حين لآخر، هاربة نحو أفق غامض.

هذه الأجواء الاستثنائيّة تأتي دائمًا بخوف ضامر وحالة من الارتباك والغموض. عندما استقرّت السفن الثلاث في ميناء الجزائر، في الزاوية الأقل غليانًا، كانت طبول الحرب قد توقفت وبدأت الحرب الفعلية. كانت الأمواج القاسية تلطم جنباتها التي ظلّت تقاوم المياه البحريّة في هذا الفصل الذي لا يبشّر بخير كبير. دخلت المراكب الكثيرة لاستقبال الركاب وعتادهم. أربعة فيالق من المشاة والمدفعيّة وفرق الخيالة الضرورية والخيام وكل الأدوات اللازمة لنصبها والمستشفى الجديد.

قضى عمال البحر أكثر من نصف اليوم لمساعدة ألف ومئتي رجل للخروج، وثمانئة حصان جيء بها خصيصاً لبعثها إلى مدينة وهران. لم يكن الحاكم العام درووي ديرلون راضياً على القرار المتخذ ضده. كان يعتبره عمليَّة سياسيَّة. قال الجاكينو[1] الذي كان يجلس قبالته في مقصورة الضيافة بالميناء:

ـ أتمنَّى لكلوزيل[2] حظًا سعيداً ولكنَّنا سنرى، إذا كان الرجل الذي عوَّضني سيعمل أفضل مني. لديَّ كل الحقّ في الشكّ الآن في انتظار إثبات العكس. الأمير ظلَّ ملتزمًا بقرار الهدنة وكان يجب أن نواصل في الخط نفسه وأن لا نفرض عليه الحرب.

ـ وزير الداخلية ثيير[3] من تيار الاستيلاء الكلِّيِّ على الجزائر وهو الذي فرض كلوزيل. الأمر واضح يا سيدي. أعمال كلوزيل في الجزائر لم تكن مقنعة ومع ذلك ها هو ذا يعود من جديد كأنَّ شيئًا لم يكن.

كانت الطلائع الأوروبيَّة الأولى التي استقرت بالجزائر، تملأ المكان. كانت تنتظر رجلاً آخر، أكثر صرامة وأكثر وضوحًا، يفتح أمامها آفاق الزراعة واستغلال التربة واليد العاملة الرخيصة التي لا تنتظر إلاَّ من يمنحها فرصة العمل. فالأراضي الواسعة لا ينقصها إلاَّ من يفلحها ويعمل على إصلاحها

بعد أن حيّا كلوزيل السلطات العسكريَّة والمدنيَّة وتبادل معهم بعض الكلمات الخاطفة قُدِّم له كاس قهوة تركيَّة. كانت

---

١ ـ jacquinot
٢ ـ clausel
٣ ـ Thiers

رائحتها تملأ الميناء. شربها بتلذُّذ كبير ثم صعد إلى المنصَّة برشاقة مفتعلة وألقى كلمته التي أعدَّها في رحلته:

ـ «يا سكان الجزائر، إنَّ تعييني في حكومة الممتلكات الفرنسيَّة في الشمال الإفريقي عمل له دلالة كبيرة عن نوايا ملك الفرنسيِّين الطيِّبة. ومهما كانت تعقدات الأوضاع التي تنتظرني، لي الثقة الكاملة بأنِّي سأتوصل إلى فرض السلم بمساعدة الإدارة والسكان. أما الخارجون عن القانون، فسنعاقبهم بشدّة مهما تكن رتبهم وأينما وجدوا. وسأعمل على تشجيع كل الأعمال الزراعيَّة والتجاريَّة في أجزاء كبيرة من هذه الأرض وجلب المزارعين الأوروبيِّين للاستفادة من خبرتهم لخدمة هذه الأرض...»

في أواخر المساء لم تبق في الميناء إلا أصداء التصفيقات التي دوَّت طويلاً قبل أن تنسحب تاركة مكانها لعمل كبير وشاق لإفراغ بقية السفن المحمَّلة بالعتاد والأسلحة الثقيلة والخفيفة والعربات الجديدة والمدافع. عندما سئل كلوزيل وهو يستقلُّ سيارته عما هو فاعله، أجاب باقتضاب:

ـ هذه المرة لن تكون مثل شبيهاتها في المرات الماضية. نملك ما لا يملكه عدونا، الإرادة الحضاريَّة والآليات الضروريَّة لحسم المعركة نهائيًّا

عندما خفت الرياح الساخنة والمغبرة في الأيام التي تلت مجيء كلوزيل، كانت الغربان قد عادت إلى ضواحي المدينة وبحرها فقد رآها بعض الناس تنقر ماء الباب الشرقيَّة للعاصمة، ليس بعيداً عن مرسى السفن. وهذا نذير شر كلَّما حامت في غير أوقاتها تطيَّر منها الناس وشعروا كأنَّ شيئًا ما يتهيأ في الأفق. بعضهم اقترب منها

في باب الجديد ورأى عيونها المدورة وهي تتضوَّر جوعًا وقسوةً ومرضًا حتى عندما نشّوها كما هي العادة لطردها وتفادي خزرتها الصفراء، لم تهرب ولم تغادر الأعالي التي التصقت بها إلاَّ عندما صارت على بعد خطوة بينها وبين الناس.

بالنسبة للعارفين، فقد كان واضحا أنَّ الغربان السوداء ذات العيون الصفراء البرَّاقة، لا تدور هكذا في الفراغات الواسعة للمدينة. فهي لا تجلب من ورائها إلاَّ الخراب والخوف والأمراض الفتَّاكة. يقولون إنَّها تتشمم المرض من بعيد، ولهذا فهي تسبق نحو الأمكنة المصابة بوباء ما حتى تكون قريبة من غنائمها فقد بدأت أولى عوارض مرض الكوليرا تظهر في الأحياء الشعبيَّة بقوة كبيرة، وتتمدَّد كالريح الساخنة عبر الأزقة المريضة. قبل أن تزحف حتى الأحياء الراقية والثكنات العسكريَّة والسجون. وعلى الرغم من حملات التنظيف والسوائل التي وزعت هنا وهناك للتقليل من انتشار الكوليرا، فقد حصدت هذه الريح كما يسميها الناس هنا، في الأيام الأولى الآلاف من الناس في الأحياء الشعبيَّة، التي تمَّ تطويقها ومنع أغلبية سكانها من الدخول إلى عمق المدينة أو الاقتراب من الثكنات العسكريَّة أو زيارة السجون، وتُركوا يموتون جوعًا وعطشًا قبل أن يموتوا مرضًا حتى شبع المرض منهم

حاول حاكم الجزائر العام الجديد كلوزيل أن يقي جنوده من هذا الوباء الخبيث. كان خائفًا من أن يمنعه المرض من السير قدمًا نحو تحقيق الهدف الذي عيِّن من أجله. تكسير قوة الأمير في مهدها أكثر من شهرين استغلهما لتنظيم قواته وشحن السفن باتجاه وهران

بأكثر من عشرة آلاف رجل مدجَّجين بكلّ الأسلحة الممكنة والعربات والآليات الحربيَّة والبنادق الحديثة والسيوف التي لم تشترك في أيَّة حرب.

في أيام الخريف الأولى، عندما انطفأت ريح الكوليرا، كانت القوات قد حلَّت بمدينة وهران يقودها كلوزيل بصحبة ولي العهد الدوق دورليان، تحت رقابة طبِّيَّة صارمة إذ تمَّ إرجاع كل من بدت على وجهه علامات المرض. كان في رأس الجنرال كلوزيل شيء واحد ووحيد: تخطي وادي الهبرة ومحو عاصمة الأمير، معسكر بشكل نهائي.

* * *

ـ ٤ ـ

نزل الليل مبكِّراً على سهل اغريس.

دخل آخر رجل إلى المسجد قبل أن تُسدَّ أبوابه ولم يبق في العراء إلاَّ الحراس الثلاثة، مُلتفِّين ببرانسهم الخشنة، وعلى ظهورهم بنادقهم الطويلة.

الثلوج التي سقطت كثيراً على سهول بايلك وهران زادت كثافة هذه المرة. الآليات التي جلبتها السفن التي رست بالعاصمة أو وهران عقَّدت من مهمة الحرب. صارت قادرة على تخطي كل العقبات الطبيعيَّة التي تعيق عادة الخيول والوسائل التقليديَّة.

كانت الفيالق الفرنسيَّة في سفح الجبل، تبدو من بعيد منتظمة وهي تسير وفق خطة مرسومة بدقة وهي تتخطَّى الجسر الصغير لوادي الهبرة. لقد صار مؤكّداً أنَّ اتجاهها ليس مستغانم مثلما

خمن المراقبون في البداية ولكن معسكر. كل العيون والحراس الذين تسلّلوا عبر مصبات الهبرة وعلى ضفافها أو داخل غابة الكروش القريبة من الوادي، أكّدوا للأمير أو لقادتهم على أنَّ اتجاه القوات الفرنسيَّة صار الآن في عداد اليقين: معسكر ،لحرقها وتدميرها

على الرغم من شدّة البرد، فكثافة الحاضرين وضيق المسجد وحرارة الهمهمات أعطت نوعًا من الحرارة للأجسام التي بدأ الكثير منها يتخلّص من برنس الصوف الخشن.

الأمير لم يتكلّم طوال اجتماعه بقادة قبائل بني هاشم والقبائل الأخرى. صمته المتوالي حير الجميع. ليس من عادته، وإذا حدث أن فعل فذاك يعني أنَّ شيئًا خطيراً وقع أو هو بصدد الوقوع. الذين يعرفونه جيِّداً يدركون أنَّه بصمته كان يهيىء الجميع لخبر استثنائي. كل الحاضرين كانوا يشعرون به ولكن لا أحد كان يشتهي سماعه.

ـ ربما سأكون قاسيًا على أنفسنا جميعًا المرض العضال يُستأصل ولا يُرقع. فالترقيع معناه الموت المؤكد الذي لم أفهمه جيِّداً هو الانقلابات التي تحدث في الناس فجأة. الذي كان معك البارحة يصير اليوم بسهولة عدواً لك. الخليفة مزاري، البارح قاتل بجانبنا واليوم صار معهم. ما هي هذه الأقدار القاسية التي تغيِّر الناس بهذه السهولة. من الصعب الثقة في هذه القبائل التي تلبس كل يوم عباءة جديدة. الدواخل مرتبكة، ثقة الناس بدأت تنقص ويحلّ محلّها شيء آخر، المصلحة الصغيرة. السلطان يعمي الأبصار.

ـ إيمان مزاري في المقاومة ضعيف أصلاً يا سيدي الكريم. منذ البداية لم نكن موافقين على تعيينه خليفة. هؤلاء الناس يحاربون ولا

يرقَّون إلى مناصب التسيير. الخداع متأصل فيهم وفي ذريّتهم. لقد ناصروا دائمًا القوي. مع الواقف دومًا. أنظر يا سيدي إلى أجداده وسترى الإجابة التي لا شكّ في صدقها ووضوحها

ـ لا أدري إذا ما كان هذا هو الصواب. لا أحد يستطيع أن ينفي عنه حبه لهذه الأرض الطيِّبة التي حارب من أجلها وتعذَّب بقسوة. قد تكون أعمالنا غير صالحة، لم نتوصل حتى اليوم إلى إقناع الناس أنَّنا في حاجة إلى دولة وإلى نسيان القبيلة والتفكير فيما هو أكبر إذا أردنا أن نبني شيئًا نقاوم به الغزاة. حتى المتواطئون زاد عددهم لسبب لا أعلمه. أعدمنا من تورط علانيَّة ضدّ إخوانه ولكن ماذا نفعل لخلفاء سلكوا هذا الطريق؟ كلّما أعدمت رجلاً شعرت بأنّي أفتح جرحًا في هذا الجسد ولا شيء يغلقه. أليست أخطاؤنا وأنانياتنا الصغيرة هي التي رمتهم في أحضان الآخرين؟ نظامنا مهروس من الداخل.

ـ نحتاج إلى وقت أكثر، رد آخر ولكن يا سيدي ماذا نفعل اليوم؟ سنواجه بعد أيام قليلة آلة حربيَّة لا نملك حيالها إلاَّ صدورنا وشجاعة رجالنا وخيولنا التي لا تخون ولكن ما عساها أن تفعل؟

ـ مشكلة الوقت هي التي جمعتني بكم اليوم في هذا المسجد، الذي أديتم فيه البيعة قبل سنوات عديدة، لأعلمكم برغبتي الصادقة في التنحِّي. أشعر أنِّي لست مؤهَّلاً لقيادة أمة، كل يوم يرتد قسمها الأكبر ضدّي وكأنِّي أملك خيرات الدنيا ولم أضعها بين أيديهم. لتختر القبائل خليفة لي وسأنصاع لأمركم وسأموت بينكم إن توجَّب الأمر كأيّ محارب صغير لا هدف له إلاَّ نصرة الخير

والحرية، وإلاّ، أخبروا الحاج الجيلالي، مسيِّر شؤوني الإداريَّة بأنّي أرغب في الذهاب إلى المغرب أنا وعائلتي. لم أعد صالحًا لقيادة هذا السيل من البشر وعلى فهم نوازعه وشهواته. إنَّه يتحين الوقت الذي يعود فيه إلى الغزو والغنائم. شعب لا يقف إلاّ مع الواقف، وعندما ينكسر يتخلَّى عنه بسخاء كبير ويذهب باتجاه المنتصر كأنَّه لا توجد لديه أيَّة قضية. أنا على حافة زمن لم أعد أفهمه جيِّدًا. فقد كبرتُ على مبادئ لا شيء يقف أمامها إلاّ الموت، وبدأت أشعر أنَّ عالمًا آخر بدأ يظهر، لم يعد بمقدوري استيعابه، فآتوا بمن يستطيع فهمه.

كان هذا الخبر كالصاعقة. فهم الناس لماذا ظل الأمير مدة من الزمن صامتًا فهو لا يركن إلى هذه الحالة إلاّ عندما يكون الكلام قاصمًا للظهر.

فجأة ارتسمت صفرة كبيرة على الوجوه وارتبكت الألسن وكأنَّها اتفقت سلفًا على الكلمة التي ستقولها. ترددت أصداء الأصوات في المسجد وخارجه دفعة واحدة:

ـ لن نختار غيرك، مثلما بدأنا معك سننتهي بجانبك، وإذا توجب أن نبايعك مرة أخرى سنفعل ولا أحد يمنعنا من فعل ذلك.

لكن مصطفى ابن التهامي تدخل بحكمة:

ـ دينيًّا لا يحقّ لقائد أن يتخلَّى عن واجباته وقت الشدّة يا أمير المؤمنين.

ـ اللَّه وحده يعلم ما في السرائر والقلوب يا السي مصطفى وأنت سيِّد العارفين. الأيام القادمة ستكون قاسية ولا أريد من القبائل أن تلعنني في حلّها وترحالها.

ـ ولكنَّك سمعت بصوت واحد قادة القبائل أنَّهم لن يقبلوا بغيرك. نحن مستعدون لفعل أي شيء. نحن لم نقصِّر في معركة أو في الاستجابة لندائك؟ هل هناك شيء أثمن من ترك بيوتنا وفراشنا، فإذا كان ولا بدّ، أمرنا للّه، سنتبعك.

ـ ما ينتظرنا قاس جداً. من كان إيمانه ضعيفاً لن يذهب بعيداً لقد انتصر سادة الحرب وعُزِل ناس السلم في الجيش الفرنسي. ولا حلّ، إما قبول المهانة والموت وإما المقاومة. قد لا ننتصر في حروبنا القادمة، ولكن على الأقل نكون قد أدَّينا ما أمرنا به ربنا والناس الذين وثقوا فينا

التفت الخليفة مصطفى بن التهامي صوب الحاضرين فصرخوا بصوت واحد

ـ نحن معك حتى الموت يا أمير المؤمنين، نحن معك.

ـ فإذا كنتم صادقين فاستعدوا للحرب. هذه المرة ستكون أكثر ضراوة من كل سابقاتها هدف كلوزيل الذي بدأ زحفه نحو معسكر هو الاستيلاء على كل المدن المهمَّة وقصِّ أجنحتنا ولهذا علينا أن نفرغ المدينة من كل شيء ونحرق كل المصانع ونُهرِّب كل ما لا نستطيع نقله ويستعمل ضدنا. آلاتهم جبَّارة ولكن إرادتنا في الدفاع عن كرامتنا وأرضنا صلبة إن شاء اللّه.

ـ سمعنا أنَّ بعض التجَّار من اليهود وعرب الأندلس يرفضون ترك حوانيتهم ودكاكينهم، ويقولون إنَّهم تعبوا من الترحال والتنقل وهم يفضلون الموت في أرضهم على تركها

ـ لا تجبروا أحداً الهجرة واجب عند الضرورة وليست فرضًا على الكل. ومن رفضها له الحقّ في ذلك. بيِّنوا لهم مخاطر البقاء وليتحمَّل كل واحد مسؤوليَّته أمام نفسه وأمام اللَّه، فلا يكلِّف اللَّه نفسًا إلاَّ وسعها

منذ الساعات الأولى من الفجر التالي، انقسم الناس إلى وحدات للتنظيم، وكُلِّف كلُّ خليفة بالإشراف على إخلاء حي من الأحياء في أحسن الظروف وبدون نهب أو تخويف. بينما كُلِّف آخرون بالاتصال بالتجار لإقناعهم بتهريب سلعهم ووضعها في خدمة الهجرة. سقوط الثلوج والبَرَد والرياح لم يُسهِّل مطلقًا من مهمة الخروج. بعد ساعات من إعلان الهجرة في الأسواق ودخول خلفاء الأمير إلى المدينة، بدأ الناس يهيؤون دوابهم للمغادرة. كانت معسكر والقرى المجاورة كأنَّها تتعرَّض لزلزال شتَّت الناس في كل اتجاه. من بعيد تبدو المدينة كسوق لا نهاية لها، يختلط فيها كل شيء، الرجال والنساء والأطفال والدواب، الحمير والبغال والجمال والأبقار والماعز التي تستعمل عادة لحليبها والأغنام. الأخبار التي كانت تتوافد على الأمير كلّها تؤكِّد أنَّ اتجاه كلوزيل نحو مستغانم لم يكن إلاَّ مصيدة لربح الوقت، فكل قواته تتَّجه الآن نحو معسكر ولا تتوقف إلاَّ لترتيب شؤونها والتزوُّد بالماء والراحة قليلاً ثم تواصل زحفها باتجاه واحد فرضية مستغانم حُسمت نهائيًا كان الأمير يعرف جيِّداً أنَّ الضربات القوية التي تمحو الهزيمة عليها أن تمس قلب الشيء، والعاصمة هي المكان الأفضل لذلك.

بدأ رتل الخروج ينتظم. فبعد فيلق الخيالة الذي يحرس المقدِّمة، خرجت عائلة الأمير، المربية والأم والزوجات والأبناء، ثم

عائلة بني هاشم من القواد والنساء، ثم الدوائر الأخرى في شكل دوائر وكأنّها مجرّات لمن يراها من أعالي الجبل الذي تنام المدينة الممتدة في فوضى عند أقدامه.

عندما بدأت الشمس تنحدر من وراء المرتفعات، كانت البومة قد احتلت المدينة الخالية وبدأت تنعق في ما تبقى من خرابها. كانت ألسنة النار تُشاهد من بعيد وهي تأكل بيادر التبن ومطامير القمح والبيوت الخشبيَّة والأسواق حيث تجمّعت بضائع كثيرة صعب نقلها ومداخل المدينة وبعض محلات اليهود باستثناء حوانيت الذين رفضوا الخروج أملاً بعدم مجيء القوات الفرنسيَّة. لكنَّ الكثير ممن شموا رائحة البارود جراء القذائف المدفعيَّة الأولى وهي تنزل بالقرب من المدينة وتسدّ أبوابها جراء الحفر العميقة التي خلفتها، جمعوا بسرعة ما يمكن تجميعه وغادروا المكان مقتفين طريق الأمير على الجمال أو على الحمير وفي أحيان كثيرة على أرجلهم.

كان رتل المُهجرين كبيراً ويزداد اتساعًا كلّما اقترب من خيام القبائل الموالية للأمير.

عندما وقف قليلاً على الهضبة وقبل أن يبدأ الأمير عملية الانحدار باتجاه عمق الفلجة المؤدية إلى الجبل الذي يغطي كل شيء، التفت صوب معسكر للمرة الأخيرة، كانت ألسنة النار تتصاعد عاليًا محدثة دويًّا وانفجارات هائلة بعد أن زحفت لمخازن البارود وأضاءت فضاءات المدينة التي كانت ترزح تحت ظلمة شتويَّة كبيرة.

أنين الرياح، التي لم تتوقف منذ البارحة، يُسمع من بعيد وهو يخترق الأشجار والنباتات المتوحشة الكثيفة التي كانت تميل حتى

تمسح الأرض برؤوسها ثم تقوم لتنحني من جديد حتى رتل الحيوانات التي كانت تقطع الخلاء، كانت تتكاتف فيما بينها وتتقارب لتقي نفسها من شر البرودة القاسية. كلَّما هبت الرياح الباردة، أدخلت رؤوسها في صدور بعضها بعضًا قبل أن تُجبر على السير.

ـ مجهود سنوات من البناء يذهب مع الريح.

تمتم الأمير بدون أن يحرِّك حتى شفتيه. تنفس طويلاً وبعمق بعد أن شعر بضيق كبير في تنفسه ثم لفَّ البرنس على جسده النحيف عدة مرات، وهمز حصانه بالركابين بنعومة لكي يتقدَّم قليلاً إلى الأمام ويبدأ انحداره متبوعًا ببقية الخلفاء وقادة القبائل.

* * *

ـ ٥ ـ

Mon général, vous le saviez très bien, l'hivers est rude et décembre est insupportable dans ce pays.

Il faut qu'on arrive à temps, le froid est difficile même pour les armées les mieux adaptées à ce terrible climat.

ردَّ الجنرال كلوزيل على القبطان شونقارنييه[١] وهو يلف نفسه في غطاء ثقيل، ويحاول جاهدا أن يخرج رجله من المسلك الموحل الذي غرق فيه فجأة.

- Certains de nos éclaireurs disent que l'Emir a déjà quitté Mascara et se dirige vers les monts les plus proches.

Il nous facilitera la tache. Mais je ne pense pas que les commerçants le suivront. De toutes les façons, nous non plus, on a pas l'intention d'y rester longtemps. Notre but c'est de detruire le noyau d'une industrie d'armement.

١ ـ Le capitaine Changarnier

ردّ شونقارنييه وكأنّه لم يقتنع بكلام كلوزيل:

ـ تدمير مصانع البارود والأسلحة لا يكفيان يا سيدي، لأنّهم في هذه الحالة سيعودون إلى المدينة مرة أخرى عندما نغادرها

ـ ومن قال لك إنّنا سنترك لهم مدينة. أعتقد أنّ الأمير هذه المرة سيفهم الدرس جيّداً عندما يعود سيجد الرماد والأدخنة.

ـ هي الآن مجرد رماد على ما يبدو

ـ سنرى ذلك.

بعد أن قطعت آخر فيالق المشاة، متبوعة بفيلق أخير من الخيّالة، الوادي والمعابر الضيقة، لم تعد مدينة معسكر إلاّ على بعد كيلومترات قليلة. كانت الرياح الباردة تهب بشدة مصحوبة بسقوط ثلوج خفيفة. الليل كان في منتصفه تماماً فصل الشتاء يزيد من سواده وتفحمه.

أعطِي الأمر للمشاة بتطويق المدينة قبل دخولها.

- On sait jamais, ces arabes sont pire que les chacals. Laisser agir les zouaves d'abord, se sont des connaisseurs de ces regions accidentées. Faites les suivre par un bataillon de fantassins.

قال شونقارنييه وهو ينبه ضبّاطه الذين توزّعوا عبر أسوار المدينة، التي كانت كل أبوابها إما محروقة أو بكل بساطة مفتوحة ومشرعة في بعض مداخل المدينة.

عندما اقتحمت أولى طلائع كلوزيل المدينة الخالية من السكان يتقدّمها الزواف بسيوفهم وبنادقهم الطويلة، كانت معسكر

قد أخليت عن آخرها حتى من قططها وكلابها التي اعتادت أن تملأ شوارعها في أوقات القيلولة صيفًا أو الزوايا والأماكن الخالية شتاء. احتلَّت الفيالق الأولى البيوت التي بقيت واقفة أو بها بعض الأغطية لتفادي قسوة البرد والأمطار والثلوج التي كانت تخترق العظام كالإبر. لاحظ الجنرال كلوزيل وضباطه الحالة التي كانت توجد عليها المدينة فحاولوا أن يرتِّبوا أمورهم في انتظار الصباح الذي لم تبق له إلاَّ بعض الساعات.

في الفجر الأول عندما استيقظ القبطان شونقارنييه بعد اغفاءة خفيفة، وبدأ يعبر الشوارع الخالية التي كستها أغلفة بيضاء من المطر، اكتشف فجأة أمامه مدينة منكسرة عن آخرها أهم ما بقي فيها واقفًا، مسجدها الموريسكي الذي قضت فيه إحدى كتائبه ليلتها الأولى في المدينة الخالية، والبيوت الأندلسيَّة القديمة التي نجت من النار إذ بقيت بزرابيها ولم يتجرأ أحد على نهبها أو إخلائها من أغطيتها واكتشف ما دمرته فلول الزواف الذين كانوا أول من دخل المدينة من ناحية المقبرة، فكسرت كل المنحوتات الرخاميَّة ذات الأحجام الكثيرة التي على الشواهد أو على القبور لكن الذي ظلَّ يشغل شونقارنييه هو الأسوار الخشنة التي ظلَّت واقفة وتحمي المدينة من الهجمات الممكنة. طلب من عساكره أن تُوجه صوبها المدافع التي جرها من ورائه في زحفه على المدينة، ثم ركَّز ضرباته الأولى على مواطن قوتها لتنهار نهائيًّا في جهاتها الأكثر صلابة والتي تنهض بها أربع قلاع عالية للدفاع عن المدينة. لاحظ أنَّ الأمير أخذ ما استطاع حمله على الجمال من مصانع الأسلحة وما تركه وراءه أحرقه بحيث أنَّه لم يعد صالحًا كانت المصانع في بداية عطائها، وعلى

الرغم من كونها لم تكن تنتج إلاَّ باروداً أخضر، يشتعل بصعوبة، كانت النتيجة مهمة بالنسبة للأمير، لأنَّ عمليات تحسين البارود كانت قد بدأت بمساعدة الخبراء الإيطاليِّين والألمان الذين كانوا قد وضعوا أنفسهم في خدمة المصانع الأميريَّة.

عندما فوجئ شونقارنييه بآخر الكلاب الضالة يخرج من تحت الآلات المحروقة بصعوبة إذ لم يكن قادراً على الهرب من كثرة الجوع، لم يتساءل كثيراً، أخرج مسدَّسه وأطلق عليه النار بكل برودة دم. عندما رآهم يدخلون في البداية، لم يتحرَّك الكلب من مكانه. فقد بقي ثابتًا كالحجرة وكأنَّ الأمر لم يكن يعنيه لا من قريب ولا من بعيد ظلَّ يتأمَّل شونقارنييه بعينين مدورتين فارغتين من أيّ قلق. حتى عندما اخترقته الرصاصتان، لوى رأسه وتدحرج بهدوء بدون أن يعوي أو يردح قليلاً

ـ الكلاب الضَّالة تنقل الأمراض. التخلص منها ضرورة.

قال شونقارنييه وهو يعيد مسدسه إلى غمده.

ثم أمر بأن توقد النار في البيوت الأندلسيَّة التي ظلَّت واقفة والمسجد القديم، ودار الباي التي بقيت على حالها ولم يأخذ منها الأمير أيّ شيء، والأسواق الكبيرة التي بقيت واقفة وانسحب بعيداً يتأمَّلها مع مجموعة من مساعديه. ثم نزل باتجاه سوق الذهب. لم يجد إلاَّ عدداً ضئيلاً من العائلات اليهوديَّة وبعض المسلمين من أصل أندلسي. أمر بالتوغل داخل البيوت الواطئة والاستيلاء على الذهب حاول مردوخ الذي كسا كل عرائس معسكر وضواحيها أيام عرسهم أن يقاوم ولكنَّه جُرح في يده، فنُزعت منه المدراة التي كان يحاول بها

إعاقة الفرقة على الدخول إلى بيته تحت صرخات النساء والأطفال. بينما هرب حمو الذي حاول تهريب نسائه ونساء العائلات اليهوديَّة من الباب الخلفيّ. أخرج الجميع من البيت باستثناء السيدة العجوز التي رفضت الخروج وظلَّت تشتم بأعلى صوتها الذين أزعجوها في خلوتها، ولم تتوقف أبداً حتى عندما بدأت النيران تأكل البيوت التجاريَّة المبنيَّة ضمن خط مستقيم. انقلبت شتائمها إلى صرخات ثم إلى شيء يشبه العواء ثم صمتت تحت صوت النيران التي أكلت كل شيء. بينما أُخذ مردوخ وحمو وبقية الرجال باتجاه المدخل الغربي للمدينة، حيث نصبت مشانق عديدة. أياديهم مكبّلة وعيونهم مغمضة. تمتم حمو وهو يشم رائحة الموت:

ـ سنقتل يا مردوخ. ألا تحس بذلك؟

ـ وإذا أحسست ماذا بإمكاني أن أفعل؟

ـ لو استمعت إلي يا خويا؟ رأسك خشن كالحجر الأصم. ما تسمع غير لروحك. ألم أقل لك يا مردوخ؟ كان يجب أن نذهب مع أولادنا وراء الأمير

ـ عمرك سبعون وعمري أكثر قليلاً، ماذا بقي لنا، لا شيء. الأمير لن يفرط في الأولاد. أما أنا فقد تعبت من التنقل. في كل مرة نستقر فيها، يأتي من يخرجنا من أرضنا. أجدادي وأجدادك جاؤوا إلى هذه الأرض هرباً من محاكم التفتيش المقدَّس، فأين نذهب؟ كل الدروب صارت مغلقة وأرض اللّه ضاقت حتى صارت كفردة حذاء. يبدو أنَّ نهايتنا هي هذه ولنقبل بهذا المصير. الموت في الجماعة لا يخيف.

وُضعت الحبال في أعناقهم مثل الخرفان. لم يقاوموا. مدُّوا أعناقهم ورؤوسهم التي ابيضت بفعل الشيب والثلوج التي عادت إلى السقوط بقوة، باستسلام كبير وعيون منطفئة، ركزت قليلاً نحو الهضبة العالية التي سلكها الأمير وأبناؤهم الذين ودعوهم بعيونهم قبل أن تنكسر على ظلام حاد وصرخات كانت تأتي من بعيد

في اليوم التالي من شهر البرد والريح والثلج، غادرت الفيالق العسكرية المدينة بالنظام نفسه الذي دخلت به، بعد أن جعلت المدينة مرتعًا للكواسر والغربان والذئاب متوجهة نحو المسالك المؤدية إلى وهران عن طريق مستغانم هذه المرة.

ـ دخلنا المدينة وخرجنا منها بدون أن نخسر رجلاً واحداً قال الجنرال كلوزيل، هناك حروب سهلة وأخرى معقدة. ولكن هذه تبدو بدون طعم. صامطة.

ـ وماذا كان يجب أن نفعل يا سيدي؟

ـ أن نجد على الأقل من يعطينا مبرر هذه الحرب.

ـ والكلاب واليهود والعرب الذين شنقناهم؟

ـ لا أدري، ولكنِّي لا أشعر إلا بطعم الرماد الذي خلَّفه الأمير وراءه. لا أكثر.

كانت الأرجل الكثيرة تغوص في عمق الثلوج بسهولة وتخرج منها بعد مجهود كبير. حتى الخيل وجدت صعوبة كبيرة في إيجاد المسالك الأقل تعبًا لها، الكثير منها سقط على ركبتيه ولم يقف أبداً، فتُرك هناك في مكانه بعد أن أُطلقت عليه رصاصة

الرحمة كما أمر شونقارنييه، عادة تعلّمها من أحد القادة الذين تخرج عليهم.

كان سهل اغريس كعادته في مثل هذا الفصل قد لبس بساطًا ناصعًا من الثلوج البيضاء الصافية. بساط خادع إذ يتجاوز في الكثير من الأماكن المتر ويُسطّح كل العلامات ويُضيّع الطرقات والمسالك. كلّما هبت رياح خفيفة، سحبت وراءها نثار الثلج الذي لا يتوقف أبداً فيغطي سماء المدينة ببياض خفيف يسدّ كل الطرقات ويُعميها، مما صعّب كثيراً الحركة. الآلات الجديدة التي جلبتها السفن الحربيّة الفرنسيّة وجرها وراءه كلوزيل، عقّدت من حركة المشاة والمدفعيّة، فقد وجدت هذه الأخيرة صعوبة كبيرة في إيجاد المسلك المؤدي إلى الطريق الغربي.

كانت أعواد المشانق التي نُصبت وعُلّقت عليها أجساد العرب الباقين واليهود تبدو من بعيد وهي تتدلّى كالعناقيد الجافة، تحيط بها الكلاب الصفراء التي خرجت فجأة من مخابئها على الرغم من البرد والجوع والمطر، تنظر لها باشتهاء بينما الكواسر تقتحم الأدخنة العالية، تخترقها بعنف لتحوم دفعات دفعات على رؤوس الأجساد المتآكلة الأطراف، والتي بدأت تتصلّب وتتجمّد من قوة البرد حتى أنّ النقرات الأولى لم تأت بأيّ شيء إذ إنّها ارتفعت عاليًا بمناقير فارغة، فاستعدّت لمعاودة الكرّة أمام كلاب زاد عددها وذئاب تنظر من وراء الأشجار والحيطان المهدّمة إلى المشهد الذي بدأ جمهوره يزداد عدداً وكثافة وتنوعًا.

* * *

- ٦ -

لقـد تغـيـر كل شيء مع حلول السنة الجـديدة على قـبـائل الغـرابة. كل الطرقـات والمسـالك باتجـاه وهران وآرزيو سُـدَّت نهـائيًّـا ووُضـعتْ على الحـدود آليـات جـديدة لم يعـد من الممكن تخطيـهـا بدون التعرُّض إلى موت مؤكَّد المحاصيل الزراعيَّة التي كانت القبائل تفخر بها وتورِّدها لوهران أُحرقت في جزئها الأكبر في عز بلوغها، في عزّ الصيف القـائظ حيـث كـان فلاحـو الغرابة يسـتـعـدُّون للحـصـاد. قطعـان الأغنام أُخـذت ومـا هـرب نحـو العـمق، باتجـاه قـبـائل أخـرى، اعترضته فرق المشاة أو الخيَّالة أو الحرس فأخذته باتجاه معسكراتها، أو بكـل بســاطة دخـل إلى المدينة وبيع في الأسـواق أو في مــحــلات الجـزَّارين. وبسـرعـة، صـارت الغـابات والخلجـان مـوحـشـة والذئاب والأسـود تتـحـرَّك فـيـهـا في عزّ النهـار آخـذة في طريقـهـا كـل مـا كـانت تصادفه. وزاد عدد العسس والعسكر الذين أصبحوا يُرَون تقريبًا في كل الأمكنة داخل عربات مركبة أو على الأحصنة. لقد احتلوا كل

المرتفعات وبنوا على كل واحد منها ناظوراً كبيراً لا يفلت منه أي شيء. فوق كل هذا، مسحت الأمراضُ الفتَّاكة الكثير من سكان الغرابة.

سأل الضابط الفرنسي الذي نزل فجأة من عربته الخشنة ليفتش قافلة سرعان ما تركها تمرّ بعد أن تأكَّد من عدم حملها لأي شيء، الأطفال المتجمعين الذين كانوا يترصَّدون كلبا ظلّ ينظر إليهم من بعيد بشكل مهزوم:

ـ هل أنتم جياع؟

ـ قليلاً، ردّ كبير الأطفال بخجل.

ـ وهل تعرفون سبب جوعكم؟

ـ جداً، جداً كرَّر الأطفال الصغار مثل الفريق الموسيقي.

ـ من إذن

ـ طبعا الأمير هو السبب ردّ كبيرهم وهو يحاول أن يخبئ عينيه.

صمت العسكري قليلا تعمَّق قليلاً في عيون الأطفال الصغار

ـ معكم حقّ. خذوا ثم أعطى لأصغرهم قطعة خبز.

و قبل أن يمدّ الطفل الصغير يده نحو يد العسكري، التقت خزرته بخزرة أخيه الكبير فامتنع عن أخذ الخبز أخذ العسكري الطفل من يده وسحبه قليلاً عن المجموعة، لكنَّ أخاه تبعه حتى صار قريبًا منه.

ـ إنَّه أخي الصغير يا سيدي وأخاف عليه.

ـ أعرف. لن آكله. أنا أسأله لماذا لا يأخذ الخبز وهو في حاجة ماسَّة إليه؟ أعرف أنكم جميعًا تتضورون جوعًا

ـ صحيح. ولكن ديننا يمنعنا من الأكل من أيديكم.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّكم لا تتوضأون.

ـ ولكنَّنا لسنا مسلمين مثلكم. وماذا يجب أن أفعل لكي يأكل أخوك الصغير الخبز

ـ أن تتوضَّأ أن تغسل يديك وذراعيك ووجهك وفمك وأذنيك ورأسك ورجليك.

طلب العسكري ماء من حرَّاسه ثم انحنى أمام الإناء وبدأ يغسل يديه وذراعيه ووجهه وأذنيه ورأسه. ثم نزع حذاءه الخشن والجوارب التي كانت تغلفها

بعد أن انتهى، سأل الطفلَ من جديد

ـ والآن؟

ـ ممكن.

ثم مدّ الخبز إلى الطفل الذي نظر إلى أخيه قبل أن يتقدَّم ويأخذ نصف الخبزة التي وضعت بين يديه، فابتعد واقتسمها مع جموع الأطفال الذين تحلَّقوا حوله كالقطط الصغيرة. التفت العسكري مرة أخرى نحو الصبي الذي ظلّ يتأمَّل أخاه المنهمك في أكل الخبز بدون توقف.

ـ أقدِّر شجاعتك الكبيرة. عندما تكبر سندخلك في جيشنا وستكون قائداً كبيراً ولن تجوع أبداً. وستأكل حتى الشبع. في انتظار ذلك، إذا رأيتَ الأمير أو أحد أعوانه أو مخبريه ماذا تفعل؟

ـ طبعًا سنجري نحو الناظور لنخبركم. بالمقابل تعطوننا الأكل ولن نضطر لأكل الماعز ذي اللحم الخشن أو الكلاب الضّالة أو حتى القطط.

ـ أحسنت أنت طفل مخلص.

عندما غاب العسكري بدوريته وعربته من وراء الهضبة العالية التي تقوده إلى الناظور، عاد الأطفال إلى ركضهم وراء الكلب الهامل الذي ظلَّ بدوره يجري في كل اتجاه لقد تعوَّدوا على سماع هذه الأسئلة المتكررة يوميًّا حتى حفظوها بدون أن يحصلوا على شيء. لكن في هذه المرَّة تحصَّلوا على الخبز على الأقل والضابط قَبلَ أن يتوضّأ.

إنَّها المرة الأولى التي يرون فيها هذا الكلب الأصفر. جروا وراءه من جديد، وعندما تعبوا ارتاحوا قليلاً وتوقف هو بدوره عن الهرب. ثم عادوا إلى تعقبه من جديد حتى خارت قواهم وقواه. توقفوا على مسافات ليست بعيدة عن المكان الذي تمدَّد فيه الكلب وقد ظلَّ يطارد الذباب بأنفه الطويل ويرقبُ الأطفال بعينين ظلّتا مفتوحتين. كلما سمع هسيسًا، حرَّك أذنه اليمنى صوب الصوت واستعدَّ للمقاومة. كان كل واحد ينظر إلى الآخر. الكلب من جهة والأطفال من الجهة الثانية. هو يعرف أنَّهم حاولوا أن يعترضوا طريقه ولم يفلحوا وهم يعرفون أنَّهم إذا واصلوا السرعة نفسها سينهارون تعبًا قبل الوصول إليه.

ظلوا يلهثون ويحاولون أن ينظموا تنفسهم إلى أن فاجأهم رجل طويل ونحيف خرج من وراء السدرة العالية، يرونه للمرة الأولى. كان يحمل على ظهره كيساً من الخيش وحبلاً من القنب. لم يكن من قبائل غرابة ولكنَّه كان يتكلَّم لهجتهم نفسها وبلكنة بارزة:

ـ اعييتوا يا الواغش؟ ارتاحوا شويه وعندما تكبرون طاردوا الكلاب. الجري وراء الكلاب يتطلَّب دربة وقوة ما زلتم صغاراً عليها

ـ احذر يا سيدي. وقيلْ الكلب مكلوب. مغلقش فمه منذ أكثر من نصف ساعة ولهذا نحاول أن نقبض عليه ونرميه خارج الغرابة باش نتهناوا منه.

ـ فقط؟ صحيح لحم الكلاب مالح بزاف.

ـ هل أكلت لحم الكلاب في حياتك يا سيدي؟

ـ أبداً. مثلكم تماماً

ـ كيف عرفت أنَّه مالح.

ـ من الناس الذين يعيشون على أكل لحم الكلاب.

صمت الطفل الكبير مخافة أن يزعج الرجل الغريب الذي كان وجهه حادًّا وبارداً كالحجرة وعظامه بارزة. فقد أحس بأن هذا الرجل مثلهم، هو كذلك يصطاد الكلاب الضالة لأكلها

ـ الكلب مكلوب يا سيدي، يجب أن تحذر.

قال كبير الأطفال. لم يردّ الرجل الغريب عليه ولا بكلمة واحدة، ولكنّه وقف قليلاً يتأمّل الكلب الذي ثبت فجأة عينيه في عيني الغريب. وضع الرجل الكيس الخشن المثقل بشيء ما، على الأرض. فتح كفيه وحرّك أصابعه قليلاً لكي يجري فيها الدم من جديد. تأمله الأطفال بغرابة. افترضوا أن يكون من القبائل المجاورة وإلاّ ما غامر بالدخول إلى هذه الأمكنة، التي كانت غنية بمراعيها وأغنامها ولم تعد تنجب إلاّ الموت والخوف وقطاع الطرق والدوريات التي تنبت هنا وهناك كنباتات الفطر. نش الأطفال بعيداً عن المكان الذي كانوا فيه، ثم اقترب من الكلب وفي يده قطعة من اللحم تزفر بقوة رائحتها الكريهة وغرسها في الأرض، بعد أن ثبتها بمسمار كانوا مشدوهين في حركاته السريعة. طلب منهم أن لا يتحرّكوا وأن يقطعوا تنفسهم للحظة وأن يتظاهروا معه بالانسحاب ففعلوا لبرهة صغيرة. فجأة التفت بسرعة ثم ركض صوب الكلب الذي كان قد وضع في فمه الجزء الأكبر من قطعة اللحم المثبتة في الأرض ولم يستطع تركها حتى عندما رأى الخطر يداهمه. ولم يكد يتركها وينفصل عنها حتى كان قد تلقى الضربة الأولى على رأسه بالدبوس الذي نزعه الرجل الغريب من خصره، قبل أن ينحني عليه ويذبحه ويرميه في كيس الخيش ويغلق كيسه بحبل القنب، وينسحب بدون أن يقول أيّة كلمة للأطفال الذين خرسوا فجأة ولم يتجرأ أحد منهم، حتى أكبرهم، أن يسأله عما فعله. عندما ابتعد قليلاً، التفت نحوهم:

ـ ما تخافوش، من اليوم لن يضرّ أحداً سأرميه خارج حدود الغرابة.

كانوا مبكشين. تتبعوا مشيته التي تسارعت من بعيد حتى غاب وراء سهول الكرمة المالحة والسدرة العالية. ظلُّوا يتساءلون عن سر هذا الرجل الذي لم يكن يحمل شيئًا سوى كيس كبير ودبوس وسكين طويلة وسرعة فائقة تشبه سرعة النمور عندما تنقض على فريسة قبل أن تنهار قواها.

كان الضغط على قبائل الغرابة أكبر مما هو على القبائل الأخرى، وأغلبية رجالاتها إما التحقوا نهائيًّا بالأمير أو بكل بساطة أصبحوا يعملون لصالح الفرنسيِّين بعد أن غيروا أمكنة إقامتهم. امتدت المجاعة حتى صارت كالمرض المعدي. صار الناس يتقاتلون من أجل أتفه الأشياء، الكلاب، القطط، الدواب الهاملة والجرذان التي يركضون وراءها وقليلاً ما يحالفهم الحظ في القبض عليها، إذ كثيراً ما تندس داخل غار وتخرج من جهة غير معلومة، بينما يقضي الرجل كل وقته في الحفر عليها ويقسم برأس النبي أنَّه رآها تدخل في الغار وليست بعيدة عن يده، قبل أن يسلِّم أمره للَّه ويعود بكومة من الجذور النباتيَّة التي يغليها في الماء ويحتسي رواءها.

جيش الأمير نفسه أصبح يقتات بأكل الحنطة المنقوعة في قليل من الماء أو التمر أو التين أو الزيتون، وعندما ينزل ضيفاً على القبائل، يأكل اللحم هو ومن معه ويأخذ معه ما تبقى منه لتحمل مشقة الطريق والبرد والخوف، قبل أن يعود بعد أيام إلى الحنطة المنقوعة في الماء والبلوط والنباتات البريَّة.

* * *

الوقفة الخامسة

منزلة التدوين



ـ ١ ـ

طلب مني مونسينيور ديبوش أن أحضِّر له زهورات من مستخلص الأعشاب هذه المرة. فقد زادت عليه آلام البطن والرقبة والرأس.

ـ يجب أن تكون، كما عودتني، ساخنة وطيِّبة. أشعر ببرد كبير، وبهذا المرض الثقيل يجتاح الجسد بكامله.

ـ وهل يشكّ سيدي في مواهبي؟

ـ أبداً أنت تعرف ذلك يا عزيزي جون.

ثم أشعل مونسينيور ديبوش المدفأة بعد أن حشاها بكل الأحطاب التي اقتطعها صباحاً من الحديقة. البرد في بوردو في مثل هذه الفترات قاس جداً. المسترال، كما يسمونه هنا، عندما يهبّ، ينفذ مثل ضربة سيف في المفاصل. بارد وقاس ولا تقاومه أيَّة تدفئة هذه السنة بدأ الثلج يسقط مبكراً على غير العادة وبكثافة كبيرة.

فتح النافذة المطلّة على الحديقة ولكنّه سرعان ما أغلقها. مسح على الزجاج. رأى من وراء ذلك مشهد البياض بجوانب القنديل الزيتي المعلّق وسط الحديقة، الذي كان يُظهر جليًّا القطع الثلجيَّة وهي تزداد كثافة مختلطة بخطوط رقيقة من الأمطار.

الزيارة لم تكن طويلة ولكنّها فتحت أمامه أشياء كثيرة ظلّت غامضة. عندما دخلنا على الأمير وجدناه منهمكًا في الإملاء، ولكنّه كعادته، عندما يرى مونسينيور ديبوش يترك كلّ شيء ويفتح ذراعيه وهو يكرِّر جملته المعتادة:

ـ زارتنا البركة، مرحبًا مونسينيور، مرحبًا

ـ أنت تعرف أنِّي لا آتيك إلاّ لأقلقك.

ـ أتمنّى أن يجد كتابك هذا صداه عند نابليون وفي قلوب الناس.

عندما جلس على الكرسي المقابل للأمير، تأمَّل قليلاً السقف والبرودة ووجه الأمير الذي ظلّ صافيًا على الرغم من الصفرة التي علته، ولكن كلامه ظلّ متزنًا وواضحًا ونبراته متناسقة وهو يملي على مصطفى بن التهامي سيرته الخاصَّة. عندما سأله مونسينيور عن جدوى ذلك:

ـ وهل هناك جدوى بالنسبة لشخصيَّة معروفة مثلك ولها قيمتها عند الصغير والكبير. الذي لا يعرفك جاهل لزماننا؟

ـ المشكل قد لا يهمني شخصيًّا ولكنِّي أشعر أنَّ ما قاله لي السي مصطفى دقيق وصحيح. نكتب حياتنا مثلما عشناها بدون

زيادة أو نقصان أفضل من أن يرويها غيرنا عنّا بوسائله التي ليست دائمًا طيِّبة. ليس أفضل من امرئ يروي تاريخه وينير الطريق للناس الذين قاسموه الأشواق نفسها والآلام نفسها.

ـ الآخرون الذين يشتهون تأويل التاريخ كما تقول لهم رؤوسهم لا يسألون أحداً عندما يريدون الإساءة يا سيدي الفاضل.

ـ الموت حقّ وواجب يا مونسينيور، وأنا في هذا المكان أعتبر نفسي ميتًا أو في طريقي إلى ذلك، ولهذا أريد أن أبرئ نفسي أمام اللّه وأمام الناس الذين منحوني صفاءهم وثقتهم وحبهم الكبير.

ـ ومع ذلك، التاريخ يكتبه المنتصرون مشكلة التاريخ هي أنّ وراءه بشراً وأهواء، وأنت الآن سجين تجربة خضتها بكل أحلامها وقسوتها

ـ لكن من يضمن أنّ المنتصر في التاريخ هو المنتصر دوما للتاريخ مقالبه. وما أريده اليوم، هو أن أقول شهادتي كما عشتها والمجتمع الذي كبرت فيه والمحيط الذي أتعبني بحبه وكراهيته وخياناته المتكرِّرة. على كل. لن نقضي اليوم كلّه في أسئلة التاريخ، أعرف أنّ هناك ما يشغلك أكثر من التاريخ وسير الناس.

ـ صحيح. الذي لم أفهمه، هل حقيقة كنت تريد أن تستقيل مباشرة بعد انتصارك على تريزل، أم أنَّك كنت فقط تريد أن ترفع من روحيَّة جندك ليتمكّنوا من مواجهة خطر كلوزيل الذي كان يلوح في الآفاق. لم أفهم جدوى ذلك بالنسبة لرجل يعود منتصراً من معركة كبيرة مثل معركة المقطع؟

ـ كنت صادقًا فكرت في لحظة من اللحظات أنَّ الوضعيات تغيرت ولم أعد قادراً على تسييرها، ربما كان غيري أفضل لها. عندما نحسّ بالضعف يستحسن أن نترك المسؤولية لمن هو أهل لها ثم أنِّي شعرت بالضعف أمام ما كان يحدث أمامي ويحاك ضدي من مكائد، أناس أكلوا معك البؤس والشقاء والملح، فجأة يتخلون عنك. إما أنَّك لم تفهمهم أو أنَّهم يضمرون غير ما يظهرون. وكما ترى المسألة في غاية التعقيد.

ـ وهل التهديد بالتخلي كان حلاً؟

– تعبت. وكنت بكل بساطة أريد الذهاب إلى المغرب وترك كل شيء لمن هو أجدر مني على قيادة الأمَّة. العرب لا يحسُّون بالألم إلاَّ عندما يجرحون بسكين حادة، لأنّ كل واحد يعتقد أنَّ الأمر لا يهمه وأنَّ الكوارث لا تصيب إلاَّ الآخرين.

وضع مونسينيور ديبوش البطانية على رجليه الباردتين، فهو لا يعرف الكتابة والبرد يسكن أعضاءه. منذ طفولته الأولى وهو يرى في فصل الشتاء ألد أعدائه الذين تجب مقاومتهم.

فكر قليلاً وهو يشرب مستحضر الأعشاب الذي قدَّمته له.

ـ الحروب يا حبيبي جون مدمرة دومًا الذين يبدأونها ليسوا هم من ينهيها دائمًا تأكل الظالم والمظلوم؟

كان مرتبكًا على الرغم من مجهوداته لكي يبدو طبيعيًّا استعصت عليه الكتابة. بدا له الأمر أكثر صعوبة ممَّا تعوَّد. انسحب نحو سريره الصغير في الزاوية بعد أن وضع كمية أخرى من الحطب

في المدفأة ثم اندس في فراشه. عاودته صورة الأمير كما رآه في المرة الأخيرة وهو يدافع عن حقّه في الدفاع عن أرضه. تناهى إلى مسمعه صوته دافئًا بنبراته التي لا يبدو عليها أيّ ارتباك.

ـ مونسينيور، سأكون ظالمًا إذا تعديت على الآخرين. كان عليَّ أن أسيِّر وضعية الحرب مع آلة تجددت وصارت أهدافها غير تلك التي دخلت بها لقد وُضعتُ أمام الأمر الواقع، إما الاستسلام أو الدفاع عن حقّ لم تكن كل القبائل تشاطرني فيه. ضع نفسك مكاني وتأمَّل المشهد قليلاً تضع اليوم خليفة وفي الغد يأتيك الخليفة نفسه مدججًا بالأسلحة للفتك بك وعليك أن تبحث عن شخص آخر لتعويضه. لقد خانني الخليفة مزاري وقبله خاننا مصطفى بن اسماعيل الذي احتمى بكروغلي المشور قبل أن يستقبل الفرنسيِّين في مداخل تلمسان ولم يبق أمامنا إلاّ تدمير البرجية ثم محاولة توقيف زحف القبطان دارلونج[1] في تافنة. دخلنا من جديد في حرب العصابات ولم يبق أمامنا سوى الحصار هل تعرف لماذا؟ الحصار وحده يحافظ على الأرواح ويدفع القوي إلى التفاوض. خسرت في موقعة سيدي يعقوب أكثر من ٣٠ فارسٍ ولكنّي ربحت الحصار. حصار التسعة والأربعين يومًا يبدو لي أنّ زمن الرجال المحاورين كان قد انتهى.

ـ يقال عن بيجو إنّه رجل حوار وتعقل.

ـ في ذلك الوقت لا بدل الحوار، بعثت لنا وزارة الحربيَّة رجلاً صعبًا مزارعًا اختبر الأرض والبشر، بيجو[2]، ذا خبرة عسكريَّة

١ ـ Le capitaine Darlanges

٢ ـ Bugeaud

كبيرة. جاء على رأس ثلاثة فيالق مجهَّزة بكل الوسائل الحديثة ومكوَّنة من ٤٥٠٠ رجلٍ. الذي حدث، هو أنَّه بعد أن فكّ الحصار واستعان بقوات مصطفى بن اسماعيل اتجه في ٤ جوليبيه ١٨٣٦ نحو آخر ميناء لنا، ميناء رشقون. كان المكان حيويًّا بالنسبة لنا ولهذا حاولنا أن نوقفه بين نهري السكاك وإيسر وخسرنا الكثير، المدفعيَّة وحصاني المفضَّل والآلاف من خيرة رجالي. أنت تعرف ما معنى أن يخسر العربي حصانه؟ ١٢٠٠ خيَّال و٧٠٠ بندقية وست رايات وأكثر من ١٣٠ سجيناً تمَّ تحويلهم إلى مارسيليا وسجنهم هناك. عندما خسرنا الموقع عرفنا أنَّنا فقدنا إمكانية المؤونة، ولم يبق أمامي إلاَّ الانسحاب إلى تكدامت.

ـ ومعسكر، لاحظ مونسينيور كالطفل الصغير.

ـ معسكر كانت مجرد ذاكرة، لقد دمرت في الهجمة الأولى ولم يعد بالإمكان الاتكال على مردودها، بالمقابل كان علينا إيجاد عاصمة أخرى، أكثر ضمانا وأكثر بعداً عن مرمى الخصم. مكان له موقع وتاريخ. تكدامت كانت المكان الملائم. بين مليانة وخلافة معسكر. أُسِّستْ هذه المدينة من طرف عبد الرحمن بن رستم سنة ٧٦١ وأخليت عندما استولى عليها الفاطميون في ٩٠٩ بأشجارها العملاقة والبلوط والزيتون والتربة الصلبة والجبال كانت نموذجيَّة في صدّ الهجمات الكثيرة. صحيح أنَّ طبيعتها قاسية إذ إنَّ البرودة القاسية تبدأ منذ شهر أكتوبر ولكن موقعها لا يُضاهى. لا نختار الأمكنة هكذا. الذين وضعوني في هذا المكان كانوا يعرفون جيّداً الدلالة. كان حلمي أن أجعل منها مدينة حرب ولكن كذلك دار

علم وثقافة كما كانت. الوقت لم يسعفنا والحرب حرمتنا من علمنة المدينة. استعنت بالعلماء الأوروبيِّين لإعادة بناء السور الواقي من الهجمات ثم بنيت مصنعا للبنادق داخل المدينة. مدينة لا تنتج سلاحها بيدها مدينة ميتة. كانت مركزاً تجاريًّا بين التل والصحراء. شوكة في عيون القبائل المرتدَّة. شكلها الدائري يمنحها قوة الدفاع من كل الجهات وأبوابها تمنحها فرصًا أكبر للمناورة. بدأنا سكّ العملة النحاسيَّة، ووضعنا الأسس الأولى لمكتبة كبيرة، كان حلمي أن أضع فيها كل ما جمعته من مؤلفات. بناء مدينة لم يكن سهلاً في وضع حرب، ومع ذلك كان أملي الكبير أن أجد وقتًا كافيًا للتأمُّل والقراءة والكتابة. تخيَّل إنسانًا في اللحظة التي يفتح فيها كتابًا يأتيه رسول يخبره بأنَّ خليفة في مدينة ما يطلب النجدة والمساعدة منه؟

ـ وهل انقطعت العلاقات بينكم وبين فرنسا وقتها؟

لا حظ مونسينيور ديبوش وهو يتأمَّل خطوط وجه الأمير الهادئة.

ـ لا فقد ظلّ العقل هو سيِّد كل شيء. لم نمنع المعاملات مع فرنسا. فقد كنَّا نستورد البارود والكبريت ونورِّد اللحوم والقمح وكل ما كان يحتاجه الفرنسيون في بلادنا. كان ابن دوران نشيطًا وعلى اتصال دائم بالمسؤولين الفرنسيِّين، وهو الذي كان يقدِّم لنا قائمة الحاجيات من لحوم وحبوب وغيرها وكنَّا نبعثها له عن طريق تجّارنا.

ـ ألم يمر بذهنك أن يخونك ابن دوران يومًا هل تدري ما قيل عنه عندما دخلت القوات الفرنسيَّة إلى الجزائر أول مرة.

ـ أعرف أنَّهم قالوا عنه الكثير وأنَّه استولى على كل ذهب الداي. لكن الذي أعرفه جيداً هو أنَّه كان ثقة كبيرة، معرفة قديمة بالنسبة لوالدي. بينهما علاقة كبيرة. فقد منحناه كل الصلاحيات. كان حلقة الوصل بيننا وبين الفرنسيِّين. لا لم نر منه ما يؤذينا. أما كونه يهوديًّا، فقد وجدنا الخير أحيانًا في اليهود والمسيحيِّين أكثر مما وجدناه في إخواننا لو ألقت عليَّ القبض فلول سلطان مراكش مولاي عبد الرحمن لقتلتني، ولهذا فضَّلت أن أضع مصيري بين أيدي القائد الفرنسي لاموريسيير وأترك البقية للَّه، وحده كان بيده مصيري. لكنِّي كنت أعرف أنَّ ثقافتكم تمنع قتل القائد، بل وتحترم شجاعته وتقدِّر استماتته من أجل المثل التي يدافع عنها

ـ أحيانا أتساءل ولو أنِّي لست عسكريًّا ولا مخولاً لفعل ذلك، ألم يكن من الممكن تفادي التعنت وركوب الرأس والبحث في المسائل الصعبة بكثير من الرصانة والتسامح. الكثير من الضحايا كان يمكن أن يسلموا من موت الحروب الخاسرة لو قُبلت الهدنة مع بيجو منذ البداية فقد التقى مع ابن دوران، واقترح عليه بدء المفاوضات، في رسالتك الموجَّهة له.

ثم أخرج الأمير رسالة من حقيبته الجلديَّة التي لا تغادر ظهره.

ـ اسمع هذا الجزء من الرسالة التي بعثتُها له: هل نحن تحت إمرتك حتى تبعث لنا بمثل هذه المراسلات لقد أشدت بقواتك ونحن نذكرك بشجاعة أبطالنا ومستعدون للموت مؤمنين إذا اقتضى الأمر. أعتقد أنَّنا في حاجة إلى لغة أخرى في مجال السياسة ـ اعذرني يا مونسينيور، أنت الآن ترى بعين واحدة. اللَّه رزقنا إثنتين.

معناه أن نرى بامتلاء قبل الأحكام. الذي يغيب عنك مونسينيور هو الجزء الآخر من المراسلة. ماذا بعث لنا بيجو؟ اسمع ماذا يقول في رسالته، فأنا أحفظ الرسائل المهمَّة عن ظهر قلب ويستطيع السي مصطفى أن يأتيك بالوثيقة المؤكَّدة: قبل أن ندخل في ساحة الحرب والمعارك القاسية، إنسانيتي تجاه العرب وتجاه جنودي تحتِّم عليَّ أن أقترح عليكم السلم قبل الحرب. السياسة تجبرني على فعل ذلك مثلها مثل الإنسانيَّة، لأنَّك إذا رفضت السلم الذي أمنحه لك، ستتحمل مسؤوليَّة الحرب ونتائجها المدمرة. هذا تهديد غير مقبول أبداً. ثم إنَّ الاتفاقية تراجعت حتى على ما حققناه مع دوميشال الذي وقعته فرنسا ونكثته بنفسها مقترحات بيجو الأولى التي بعثها في ١٥ أفريل كانت ضعيفة، وكان عليه أن يغيِّر نقاطه فيستقرّ على النقاط السبع التي بعث بها إلى وزير الحرب والتي يطالبه فيها بالموافقة عليها بسرعة. من ثمة عرفت أنَّه جاد في الوصول إلى اتفاق

ـ بيجو عسكري من الطراز العالي. لكنَّ الحروب تُعمي الأبصار أحياناً

ـ هذا كلام بيجو الذي علّق كل شيء على ظهري وكأنِّي أنا من اعتدى على فرنسا. الحرب تدبير، ومن هنا أفهم بيجو جيّداً، فقد كانت تسيطر عليه عقلية المزارع أكثر من عقليَّة العسكري. كان يريد ما يشتهي وهذا ليس معاهدة. المعاهدة طرفان وأخذ وعطاء، هذه هي السياسة. كان يريد أن يحسم كل شيء قبل بدء الحرب. كان يحرق الحقول لا حبا في حرقها وهو المحب للأرض والزراعة ولكن لحسم المعركة بسرعة. وسرت معه وفق المنطق نفسه. لكنَّ الصراع كان

يتجاوزني. هناك القادةّ الفرنسيون في الجزائر ووهران الذين لم يكونوا مع سياسته. وابن دوران الذي أبلغني بالصغيرة والكبيرة كان على دراية بذلك. بالعكس أنا لم أرفض أيَّة معاهدة سلم قدمت لي من القادة الفرنسيين تحترم الحدّ الأدنى من حقوق المسلمين، فخياراتي كانت محدودة وهم يعرفون ذلك جيّداً.

ـ لم أفهم جيّداً؟ هل يمكنك أن توضِّح لي أكثر

ـ في البداية رفضت تصلُّب بيجو وعقلية المزارع فيه، لكن منذ أن تدخل ابن دوران معي واقترح عليّ النقاط العشر للمعاهدة قبلت بالتنازل. أتذكر كلام ابن دوران إلى اليوم، فقد قال لي: **فرنسا لا تفهم جيداً شروط قوانينكم، وأنتم لا تفهمون قيمة شرف الأمة الفرنسيَّة. المشكل أنَّه لم تكن هناك سلطة واحدة. واحدة لبيجو مستمدة مباشرة من فرنسا وثانية للحاكم العام دامريمونت Damrémont ووجب إيجاد اتفاق معهما، مع الأول اتفاقية حول مقاطعة وهران ومع الثاني حول مقاطعتي الجزائر والتيطري.**

ـ وهل اقتنع بيجو؟ هذا نوع من التحدي لسلطته.

ـ المسألة في غاية البساطة. بيجو اقتنع متأخِّراً بدون التوصل إلى إقناع مرؤوسيه. كان يعرف جيِّداً أنَّ التنازل عن التيطري هو ضرورة عسكريَّة وتجاريَّة. فقد كنت الوحيد القادر على ضمان المسالك وفتح طريق التجارة والزراعة في الأراضي الخصبة ضمان السلامة أساس لكل شيء وإلاَّ ستكون الحرب آلة مدمرة للكل. الذي فهمه بيجو متأخِّراً لم يدركه الآخرون بسهولة.

لم يستطع مونسينيور أن ينام تلك الليلة وهو يسترجع التفاصيل التي حكاها الأمير بحماس وهدوء ورزانة. لم يترك أبداً أهواءه تقف بينه وبين الحقيقة التي كان يراها

تساءل مونسينيور كيف يمكن نقل هذا العقل الصافي وهذه الموضوعيَّة إلى الرئيس نابليون.

عاودته آلام الظهر. استقام قليلاً للحظة ثم عاود حركته وفليه لكومة الأوراق التي كانت على الطاولة الكبيرة حتى وصل إلى وريقات المعاهدة بكل بنودها تأمَّلها جيدا وهو يتساءل ما الذي لم يكن صالحًا في هذه المعاهدة وهذه البنود الخمسة عشر وهوامشها وتوقيعاتها، قبل أن يغمس قلمه في الدواة ويدخل في نوبة الكتابة وينسى البرد الذي كان ينخر العظام تماماً ولو للحظة يغفو فيها في عالم كان يعجّ بالغرابة.

تمتم وهو يقرِّب إحدى القصاصات من عينيه:

– إذن الخلاف بين بيجو ودامريمونت كان كبيراً.

ثم انحنى على الورقة والقلم من جديد ونسي نفسه بين الجمل المتلاحقة والكلمات.

* * *

- ٢ -

- هذا الصمت لا يعجبني مطلقًا. لا أفهم ماذا يريدون؟ يريدون السلم ويرفضون دفع الثمن. يريدون الحرب ويخافون عواقبها

قال بيجو لأمين سره الذي كان ينظّم قواته على نهر التافنة وهو يسترجع وجه دامريمونت متجاوزاً أوامره وطالبًا موافقة خاصة من وزارة الحربيّة مباشرة على مفاوضاته مع الأمير.

- يجب أن تحذروا يا سيدي. تقول بعض الألسن الخبيثة إنّ الأمير قرضكم أكثر من ١٨٦٠ فرنكًا لإصلاح طرقات البيريقور، والبعض يقول إنّها مجرد سلفة.

لم يقل بيجو شيئًا وكأنّه لم يسمع كلام أمينه، ووجّه بصره نحو الوادي الذي كان يقطع السهول في منتصفها ويتسرسب كالثعبان على مرمى البصر.

عندما وصلت الخيول توقفت على الضفة اليمنى من وادي يسّر[1]، نظر الجنرال بيجو إلى السماء، صفرتها لم تكن منذرة بخير أبداً. حارّة وجافة ومع ذلك فمياه الوادي لم تتوقف عن التصاعد. بانت له السهول الممتدّة على مرمى البصر وحقول القمح والشعير التي أصبحت جاهزة للحصاد. تذكر منطقة البيريقور. التفت نحو أمين السرّ الذي كان يقف بجانبه على حصانه:

ـ أرأيت قوة هذه الأرض. تنقصها السواعد وعقل صحيح يعرف كيف يستغلُّها يد عاملة قوية وهي موجودة وبعض الذكاء وإرادة فذّة لخدمة الأرض.

كانت السهول تمتدّ من التافنة حتى حوافي الغزوات ورشقون وبلاد امسيردا حيث تتضاءل الجبال مخلفة وراءها امتدادات لا توقفها إلاّ مرتفعات فلاوسن والبحر وجبال عصفور العالية باتجاه أقصى الحدود الغربية. في طريقه، مر على الكثير منها وفكّر في حرقها انتقاماً من هذه القبائل العربيّة والبربريّة التي تخفي أكثر مما تظهر، ولكنّه هذه المرة لم يفعل وهو لا يدري لماذا

ـ ابن دوران على حقّ. الحرب لا تنجب إلاّ الخراب. لولاه لما وصلنا إلى هذه النتيجة. ربما كان يبحث عن مسلك لتجارته ولكنّه أفادنا باستماتته للوصول إلى المعاهدة.

ـ ابن دوران عاشر الأتراك وعائلة الأمير منذ زمن بعيد، من هذا الموقع فهو مفيد أحياناً يتقطّع كل شيء ولا يبقى إلاّ خيطه الذي ينسجه من جديد ويعيد المياه إلى مجاريها السنوات علمته الكثير.

---

١ ـ Isser

ـ عرفت منه أنَّ الأمير يريد المعاهدة، وأنَّ دامريمونت الحاكم العام كان يريد أن يسبقني للظفر بهذه الاتفاقية ويضع كل العراقيل التي تعطل عملي العسكري. حتى الكتائب التي طلبتها لم يمنحني منها إلاَّ الربع وكأنَّ الأمر يتعلق بصفقة ما. ولهذا اتخذت قراراً بضرورة الاتصال بالأمير. بعد ثلاثة أيام من وصولي إلى مدينة تلمسان، حررت حميد السقال، قائد الحضر وسجين الكومندان كافينياك، وحمَّلته برسالة تحتوي على مقترحات جديدة للأمير، وكتبت رسالة إلى وزير الحربيَّة أخبره فيها عن الوضعيَّة الصعبة التي وجدت نفسي فيها، فطلبت منه السماح لي بالتفاوض مباشرة مع الأمير بدون المرور على الحاكم العام. في اليوم التالي حزمت معسكري وتوجهت نحو التافنة التي وصلتها كما ترى في ٢٣ من شهر الربيع حيث حُدِّد الموعد مع الأمير.

نُصب المعسكر وهُيِّئت المدافع والخيالة والمشاة درءاً لكل احتمال.

عندما انتهت الخيل من شرب الماء رأى فارساً عرفه من هيئته.

ـ حميد السقال. جاء في وقته تماماً وهذه علامة خير.

بعد التحية، قدَّم حميد السقال مقترحات الأمير الإثني عشر. تأمَّلها بيجو طويلاً في خيمته وقلَّبها على كل الأوجه مع قادته ثم سلم قبوله المبدئي لحميد السقال في انتظار تزكية وزير الحربيَّة الذي بعث له برسالة في اليوم نفسه، وحاول أن يقنعه فيها بجدوى السلام الذي اقترحه على الأمير وقبل مبدئيًّا به.

أعطى بيجو الأمر لنصب كل خيام المعسكر، فالبقاء قد يطول قليلاً، أكثر مما توقعه. ارتاحت فيالق الخيَّالة والمشاة والمدفعيَّة والتسيير والحرس. لأول مرة يشعرون بنوع من الراحة على الرغم من تهديدات القبائل التي كلَّما وجدت غفلة للغزو فعلت، متجاوزة أوامر الأمير. الرحلة كانت قاسية. وضرب الجزء الأكبر من المعسكر على الطرف الأيمن من الضفَّة، في الجهة الأكثر ارتفاعًا، درءاً لكل مفاجأة بشريَّة أو حتى طبيعيَّة. الوادي عندما يفيض، يمسح كل شيء في طريقه. لم يكن الأمر مع الأمير سهلاً، فقد استغرق العمل شهوراً متتالية بكاملها قبل الوصول إلى تحقيق شيء ملموس، كان بيجو يعرف جيّداً جدواه ولهذا طالب بتملك سلطة القرار التي تسمح له بتجاوز عراقيل الحكام في وهران والجزائر. كانت الساعة تشير إلى الواحدة.

عندما تخطت الساعة عتبة الواحدة، شعر بيجو بامتعاض كبير وهو ينتظر موفد الأمير قبل أن يظهر أخيراً مصحوباً ببعض الخيَّالة. ركض الحارس مباشرة إلى الخيمة ليخبر بيجو بالقادمين:

ـ إنَّهم على بعد ميلين عن مكاننا، ماذا نفعل؟

ـ أعلن عن وصول الموفدين والاستعداد لكل الاحتمالات.

ـ عددهم ليس كبيراً

ـ لننتظر ومع ذلك يجب أن لا نغفل.

عندما وصل موفد الأمير، أدخلوه مباشرة على بيجو. عندما قرأ رسالة الأمير تردّد قليلاً ثم أمر بتهيىء حصانه وسلاحه وفيلق من الخيَّالة. وتوجَّه الجميع نحو مداخل الجبل الضيق الذي ينفتح على

قبائل ولهاصة حيث كان البوحميدي ينتظرهم. طمأنهم ثم قادهم نحو الأمير. بانت علامات التساؤل والحيرة على وجه بيجو:

ـ اطمئنوا. السلطان ينتظركم ليس بعيداً عن هذا المكان.

قال البوحميدي بثقة كبيرة. ردّ بيجو بتعالٍ بدا على وجهه الذي تصلَّب على غير المعتاد.

ـ أنا لا أخاف أحداً، أعرفكم جيّداً وأعرف أخلاقكم ولكنّي منزعج من قائدكم لتأخره ولمعاملته لي بهذه الطريقة وإتعابي بكل هذه المسافة الزائدة

ـ المنطقة صعبة يا سيدي ولكنّه ينتظرنا.

وماكادت المجموعة تخرج من فجوة الجبل حتى خرج الأمير وكأنّه يخرج من عمق صخرة. كان محاطاً بمئة وخمسين فارساً كان على حصانه الأسود، ببرنس خفيف بلون بني. لقد اختار أصعب المسالك ولكن الأكثر سلامة ولهذا تأخر عن الموعد. كان يتأرجح بثقة عالية صوب الوادي، يسبقه حارسه الأسود الذي كان يبري الطريق ويتلمس بعينيه، اللتين تشبهان عيني نسر، مكامن الخطر والشراك المنصوبة. أومأ للأمير بالتقدم فتبعه قادة الكتائب الخلفيين ثم حملة البيارق ورؤساء القبائل وعشرة آلاف فارس، توقفوا عند مرأى المعسكر الفرنسي. ونصبوا خيامهم الكبيرة، خيمة الأمير ثم بقية الخلفاء والعساكر.

ثم اقتربا من بعضهما، بعيداً عن الفرق التي صحبتهما اقترب بيجو أكثر ومدَّ يده وانتظر قليلاً قبل أن تصله يد الأمير. ثم

ترجَّل الرجلان فجلس الأمير على الأرض وفعل بيجو الشيء نفسه. كانت ملامح الأمير تبدو مرهقة ومتعبة بسبب التحركات الكثيرة من تلمسان إلى رشقون إلى معسكر إلى تكدامت التي بدأ يراقب مدى تقدم الأعمال بها. وهما يتحادثان، كانت عيونهما تلتقي من حين لآخر ولكن سرعان ما تنكسر صوب الأوراق التي كان المترجمون يحاولون تدقيقها

بعد نقاش دام برهة من الزمن، بدأت مراسم التوقيع.

سأل الأمير بيجو:

ـ أمنيتي أن تستمر هذه الاتفاقية وأن لا يكون حظها مثل حظ الاتفاقيات السابقة.

ـ أنا كفيل عند ملك فرنسا بضمان تطبيق الاتفاقيَّة.

ـ وأنا ديني يحتِّم عليَّ احترام وعودي، القبائل التي تحت وصايتي مجبرة على اتباعي.

ـ تزكية الملك لا تتجاوز الثلاثة أسابيع ولهذا فهي صالحة وأستطيع باسمها أن نختم هذا الاتفاق بشكل نهائيّ، ولهذا أسألك إذا كنت قد فتحت ممرات العاصمة وضواحيها كما ورد في الاتفاق.

ـ تُفتح عندما تعيدون إليَّ تلمسان، هذا كذلك جزء من الاتفاق، كلُّها ترتيبات تأتي لاحقًا ولا تكلِّفنا إلاَّ أوامر نصدرها للخلفاء الذين ينتظرون بفارغ الصبر تحقيق هذا الاتفاق.

ـ يستحسن إذن أن ندقق البنود بنداً بنداً ونضع الخواتم ونسعى بعدها لتزكيتها من طرف ملك فرنسا لتصبح سارية المفعول على الكل.

ـ بمجرد التوقيع سأذهب بنفسي للتيطري وأفتح طرقات العاصمة وفكّ العزلة على المتيجة. وَعْدٌ من رجل وضع كلمته وحياته في الميزان.

ـ لم يخب ظنّي فيك.

ـ وقت للحرب ووقت للسلام. وظنّي في أخلاقكم العسكريَّة العالية كبير.

ـ أتمنّى أن يلتقي الجيشان كرمز للأخوة.

الأمير لم يجب عن المقترح الأخير ولكنَّه نظر إلى السماء وقام من مكانه وهو يتمتم بعد أن مدّ يده لبيجو للمرة الأخيرة:

ـ الوقت صار غروباً ولا أريد أن يقع لكم مكروه بسببي. رافقتكم السلامة.

ركب حصانه بينما أمر البوحميدي بمرافقة الضيوف لتجاوز المضيق وتقريبهم من معسكرهم والاطمئنان عليهم. فهو لا يريد أن يقع لهم أيُّ مكروه.

عندما امتطى بيجو حصانه وهمزه قليلاً بقي شيء واحد يطن في رأسه: كيف تجرّأ وركب رأسه وجاء إلى هذا الرجل المحاط بأكثر من مئة فارس؟ لكنَّه كان سعيداً لأنَّه من بين كل الضبّاط الفرنسيِّين الذي عرفوا الأمير، كان هو الوحيد الذي رآه عن قرب وجالسه وحاوره.

* * *

ـ ٣ ـ

عندما دخل ابن دوران على بيجو في حصن المشور لم يجد صعوبة أمام الحراس. عانقه كمن يعانق صديقًا لم يره منذ مدة طويلة. جلس ابن دوران يشرب شايه كعادته وعندما انتهى سأله بيجو:

ـ هل تعرف لماذا طلبتك.

ـ إذا كانت حاسة شمي صحيحة لن يكون ذلك إلاَّ من أجل صفقة أسلحة.

ـ حاسَّة شمّك قويَّة ولا يمكنها أن تخطئ. إنَّنا نهيئ أنفسنا لبيع كل شيء لا نستطيع نقله أو لا تحتاجه جيوشنا قبل إخلاء تلمسان وتسليمها للأمير. والبارود لا نأخذه ولكن يمكننا أن نحرقه. أعرف أنَّك تقايض فيه ولك زبائنك الدائمون.

فهم ابن دوران مقصد بيجو ولهذا لم يتردَّد في إبرام الصفقة معه.

خرج ابن دوران من المشور مزهواً فقد ربح الصفقة التي كان يعرف جدواها وتذكر كلام الأمير: يجب أن تجد وسيلة مناسبة لكي لا يُترك هذا البارود للكوروغليِّين أو لمصطفى بن اسماعيل الذي يجب أن يُقطع رأسه هو ومزاري وعدة ولد عثمان ومصطفى بن مقلش وإبراهيم البوسني وإسماعيل ولد القاضي الذين حملوا السلاح ضدّ الأمير وحاربوه وكادوا أن يقتلوه

تم بيع بقية المؤن في المزاد العلني للمدينة.

في السوق حيث كانت تباع الأغذية الفرنسيَّة، كان القوّال يعيد سيرة الأمير ويتساءل الناس ما الذي سيفعله الأمير في حقّ الذين فتحوا الطريق إلى الفرنسيِّين وحاربوه. الكل كان يُجمع على أنَّ المدينة ستتحوَّل إلى مجزرة وإلى بركة دم وربما إلى رماد لكن الذين يعرفون الأمير كانوا يؤكِّدون أنَّ الأمير لا يتصرف بهذه الطريقة.

قال البراح الذي بُحَّ صوته من كثرة النداء والصراخ: **يا السامعين، اللي ما يعرفوا ما يسنيوا ما يدريوا..** ثم توقف القوال عند رجلي طفل ممزق الألبسة، فصرخ في وجهه: **يا لد الناس سلطان البلاد هنا والخير سيعم. قم واجر اطلب الرحمة من السلطان، اليوم سيصلي في الجامع الكبير**. قام الطفل بسرعة وانطلق كالسهم نحو الجامع الكبير بدون أن ينظر وراءه.

عندما اقترب الظهر خلت السوق فجأة على غير عادتها، وبدأ الناس يعبرون الطرقات والممرات جماعات جماعات باتجاه الجامع بحثًا

عن الأمير الذي صار الكثير منهم يؤكّد أنّه رآه يعبر شوارع المدينة القديمة.

استمرت عملية إخلاء المدينة بحسب الاتفاق قرابة الأسبوع، من ١٢ إلى ١٧ جويلييه تحت قيادة القبطان روفراي[١] مساعد معسكر الجنرال بيجو عندما خلت المدينة من الفرنسيين الذين خرجوا عن آخرهم بموجب الاتفاق، كان الأمير يزحف من الأعالي باتجاه الجامع الكبير وهناك استُقْبِل من طرف السكان كالمنتصر الكبير أُنشدت الأناشيد ورُفعت الأعلام عاليًا وقُرعت الطبول وحُضرت العطور المصنوعة من ياسمين تلمسان وبرتقال ضواحيها والملح والسكر حتى لا تمسه عين الأعداء. كان الأمير متواضعًا في مشيته، يرفع من حين لآخر يده اليمنى بحياء، يحيي الرجال والنسوة اللواتي لم يتوقفن عن إنشاد أساطيره

عندما انتهى من تأدية صلاة الظهر، خرجت قوات الأمير صوب وادي الزيتون. كان الخريف يلملم أوراقه الميتة. كروغلي وادي الزيتون استقروا في هذا المكان منذ القرن السابع عشر. كان الفجر في علاماته الأولى عندما بدأ الهجوم عليهم بعد أن انتهى من كلمته: **اليوم يرفضون دفع الزكاة التي نص عليها ديننا.. .لندحرهم في جحورهم مادام اللّه معنا والمجد والخلود لمن مات في المعركة. والغنى والمال لمن عاد منتصراً.** تعالت الأصوات مجتمعة: اللّه ينصر السلطان، اللّه ينصر السلطان. ضربت الطبول على إيقاعات الحرب ثم بدأ الهجوم الكاسح بواسطة المشاة والخيّالة، فتحوّل كل شيء إلى رماد في ظرف ساعات معدودات. وأوتي بثمانية عشر سجينًا مقيداً من أهم

١ - Rouvray

المساجين. قُرئت عليهم التهم في حضرة الأمير الذي أعْطى أوامره بتنفيذ الإعدامات بعد صلاة العصر. أول المعدومين شنقًا، القايد المعين من طرف كلوزيل، ببروم. وتبعه إثنان من أهمّ قواده وعندما وصل إلى الرابع وهو شيخ طاعن في السن، ارتمى أولاده عند أقدام الأمير وطلبوا الصفح وتشبثوا بأهداب برنسه. صمت لحظة ثم أعطى الإشارة بتوقيف تنفيذ الإعدام وهو يبرِّر موقفه:

ـ الموت الذي يخيف فقط لا جدوى من ورائه. أتمنَّى أن تعتبر البقية.

وتركه يعود مع أبنائه.

كانت الريح قد بدأت تقوى ولم يكن ممكنًا الإقامة في عراء وادي الزيتون ومنحدرات فراغاتها الكبيرة وجبالها ومنجرفاتها المستحيلة التسلُّق. أعطى الأمير أوامره بالتحرُّك نحو مدينة معسكر لحلّ بعض الخلافات ورفع الخيام ورايات النصر.

بعد ساعة كانت القافلة قد بدأت تشقّ مسالك وادي الزيتون باتجاه معسكر، لقضاء ليلة واحدة بها قبل أن تتَّجه صوب تكدامت التي انتهي فيها من تكوين الدوائر الأولى وترميم جزء مهم من أسوارها الخارجيَّة.

* * *

- ٤ -

معسكر كانت تغلي.

الأخبار التي وصلت إلى معسكر لم تكن مريحة. الأمير قبل بالصلح مع الغزاة وتنازل عن جزء كبير من أرض المسلمين للمسيحيِّين الذين قتلوا الناس وأحرقوا المدن.

المطر لم يتوقف طوال اليومين الأخيرين على سهل اغريس. الأرجل تغوص في الأعماق والخيبات تزداد اتساعاً الأمير منذ أن نحا باتجاه تكدامت لم تعد معسكر تهمه إلاّ كمعبر، حتى عندما عاد لها أغلبية سكانها واستوطنوها من جديد

عندما امتلأ مسجد البيعة بالمصلين، تدخل الإمام الذي توغل في عمق المسجد بصحبة الإمام سيدي الصافي الذي ظلّ صامتًا ولم يقل أيّة كلمة:

ـ كل القبائل موجودة. هاشم والغرابة وبنو عامر نلتقي اليوم لتدارس ما حدث على أرض الإسلام التي لم يستطع ابن محيي الدين الحفاظ عليها وقَبِل بمقايضتها بنصف أو ربع أرض. لقد تبعناه في كل شيء، في السرَّاء والضرَّاء، أما المقايضة فلا.

قادة القبائل لم يتدخلوا ولكنَّهم ظلُّوا يتابعون كلام الإمام حتى نهايته باهتمام كبير. بعدها تقدم أحد أعيان بني هاشم وطلب الكلمة موجِّهًا كلامه لمجموع المصلين:

ـ يا أهل أغريس، قبل أن نحكم على الرجل، أُطلبوا منه أن يجيء إلى معسكر ونسمع رأيه، ربما يكون قد رأى السلطان ما لم تره الرعيَّة، وهذا كثيراً ما يحدث في ظروف الحرب القاسية. نرسل له وفداً يحاوره ويأتي به إلى أرضه الأولى التي بايعته. على الأقل نسمع منه قبل أن نتخذ أيّ إجراء.

قام سيدي الصافي محتجًا:

ـ سنأتي به ونسأله عن بيع دار الإسلام؟ الخلافة لم تعد له بحكم الشرع ولكنَّها عادت بدءاً من هذه اللحظة للذي يحفظ ذمة قومه وعفة دينه.

قام الإمام من جديد من مجلسه.

ـ عاش سيدي الصافي خليفة للمسلمين.

ترددت في إثره أصوات قليلة لتترك مكانها لتشكيل الوفد الذي يذهب لمساءلة الأمير وتخييره بين تكدامت ومعسكر وبين معاهدته المشؤومة الناقصة ونقضها وتنظيم الصفوف لمواصلة الحرب المقدَّسة والجهاد ضد الغزاة.

انسحب الجميع ثم تهيأ الفرسان العشرة للذهاب صوب الأمير الذي كان يستعدّ للدخول إلى تكدامت بدون المرور عبر مسالك سيق ووادي الهبرة وتفادي معسكر التي أوصل له المخبرون أنَّها تغلي وأنَّها مستعدَّة لتعليقه على أعواد المشانق ومبايعة غيره إن هو دخلها في مثل هذه الظروف.

عندما واجهوه وهو ينظم معسكره للراحة قليلاً بعد متاعب الأيام الماضية:

ـ وكيف نخمد ثورتهم؟

ـ ماذا أفعل الآن في نظركم؟ أكل الحنطة والعيش في الخلاء والبحث كل يوم عن مكان للنوم، وكل يوم أدفن العشرات في هذه الأرض التي لا تشبع ولا ترتوي أبداً؟ ألعب؟ أتعامل مع الغزاة؟ في هذه الحالة كان عليَّ أن أستفيد من رخاء الحياة التي لا يبخلون بها علي مثلما فعلوا مع من هو أقل منِّي رتبة وجاها: مزاري ومصطفى ابن اسماعيل. أولادي في أرض وأنا في أرض أخرى مثل ذئب البراري؟ يجب أن أكون مجنوناً لكي أقبل بهذه الحياة التي تقود بشكل مستقيم إلى جهنم.

ـ ولكن يا سيدي ليس هذا ما وصل إلى معسكر. قال أكبرهم سناً، نحن نعرف أنَّ ابن محيي الدين لا يخون دمه وملحه.

ـ كم أتمنَّى أن ينتهي هذا البؤس وأعود إلى كتبي.

ـ ولكن هذه الأرض في حاجة ماسّة إليك.

ـ هذه الأرض لم تعد في حاجة لأيّ أحد لا يعرفون أنَّ الدنيا تغيرت وأنَّنا على حافة عالم في طريقه إلى الزوال وعالم يطلّ بخشونة

برأسه. لا خيار لنا إلاّ أن نفهمه وننسجم مع ظروفه أو نظلّ نغنّي ولا أحد يسمع أصواتنا إلاّ الذين نريهم الهزائم انتصارات دائمة. لقد سألت أئمة فاس ولم يقنعوني ومع ذلك أخذت كلامهم مأخذ الجدّ. هل سيفكِّرون أبعد من ربح القبيلة؟ سيفهم بنو هاشم وأهل غريس وقبائل الغرابة وبنو عامر أنَّ الحرب قاسية وأنَّ الجهاد لا معنى له إذا لم يضمن حدًّا أدنى من غريزة البقاء، ليس للأفراد فقط ولكن للأرض والتراب. السيف بدأ ينسحب اليوم أمام البارود والمدفع اللومبردي، والجياد والخيول الكبيرة والأكثر أصالة أمام السيارات البخاريَّة. إنَّهم لا يعرفون أنَّنا نحارب كذلك بالحيلة واللَّف والدوران أو غريزة حب البقاء، وإلاّ لأُبدنا وصرنا تحت سلطان الأعداء. لو فقط يعرفون! ولكنِّي أدرك جيِّداً أنَّهم لا يعرفون. مشكلة قبائل الأشراف أنَّها ما تزال تظن أنَّ الانتصارات تأتي هكذا بقدرة قادر. إنَّنا اليوم لا نملك الآلة الفرنسيَّة المدمِّرة، ولكن نملك على الأقل الإرادة لتعطيل جزء من مفعولها ونحتاج في هذه الحالة إلى وحدة حقيقيَّة وثقة كبيرة فيما نقوم به، وإلاّ سيأتي يوم ويتعطل كل شيء بدون أن نحصل حتى على الحدّ الأدنى. سيبدو لهم كلامي غريباً. المهمّ ليس هنا، هل يملكون حلاً آخر غير المفاوضات، فليأتوني به إذن وسأكون سعيداً لتطبيقه إذا كان هذا يخرج الغزاة من أرضنا.

ثم التفت نحو برويلة، كاتبه الخاص:

ـ السي محمد، دوِّن كل ما تسمعه، اللّه شاهد على ما أقول، وأقوله صادقًا من القلب. أنا كذلك تعبت من إظهار وضع مفكَّك ومفرط في القبليَّة على غير ما هو عليه. نحن أمَّة تأكل بعضها بعضاً

وكل واحد ينتظر صاحبه في الزاوية ليكسره، وسلم الرسالة للوفد ليوصلها إلى أئمة بني هاشم إذا بقي هناك أئمة، ملحقة بملاحظات وردود أئمة فاس وتلمسان ومراكش، ليحكموا عن صدق ودراية أما

ثم التفت إلى الوفد الممثِّل لأشراف سهل اغريس الذي ظلَّ صامتًا أمام قسوة وصدق كلام الأمير الذي لم يتردَّد، على غير عادته، عن قول ما كان يفكر فيه بصراحة.

ـ أما عن بيع دار الإسلام، فطمئنوا سيدي الصافي وإمامه بأنَّ دار الإسلام أكبر من الجميع ولها رب يحميها من كل تلف، وإلاَّ لكانت حروب الرِدَّة والمقايضون القدامى والجدد قد هلكوها منذ زمن بعيد وإذا أراد سيدي الصافي أن يخرج من حضن نسائه ويأتي معنا ويأكل الحنطة منقوعة في الماء أو مجروشة، ويبيت في الخلاء ولا يرى أبناءه إلاَّ مرة واحدة كلَّما سمحت الظروف، هذا إذا لم يمت في موقعة من المواقع، فمكانه ما يزال بيننا ومرحبًا به في أيّ وقت يشاء.

ـ لكن يا سيدي هذا رأيه الشخصي وليس رأي الأشراف وسكان أهل اغريس.

ـ لا هل هناك من قام وخطَّأه أمام الملأ؟

ـ لا، قالها أحد الأشراف بصوت لا يكاد يسمع.

ـ ما دام الأمر هكذا، السكوت أقبح علامة للرضى. ومع ذلك لا ألوم أحداً. فهذا هو رأيي. إذا قبلوا بالاتفاقية فأهلاً وسهلاً وإذا لم يقتنعوا، لا أنا منهم ولا هم مني. وليسلك كل واحد طريقه. ، إذا

داسوا على المعاهدة سأكون أنا أول من يحمل السيف ضدهم ويقاتلهم بلا هوادة.

قضى أشراف سهل اغريس ليلتهم في خيمة الأمير، وعندما بدأ العسكر تجميع الخيام المطوية على ظهر الجمال، انطلقوا هم صوب سهل اغريس بينما سار الأمير وجيشه صوب تكدامت، التي بدت له هذه المرة قريبة على غير عادتها بمكتبتها التي بدأت تخرج من الأنقاض في وقت ازدادت معسكر بعداً وتضاؤلاً وأهل اغريس بدوا كأقوام صغيرة بعدد النمل يتناكلون ويتناحرون على أتفه الأشياء.

* * *

- II -

باب أقواس الحكمة



الأميرالية (٢)

أغمض جون موبي عينيه طويلاً وكأنّه كان يخزن تلونات البحر اللامتناهية ثم تنهد عميقاً كمن خسر بلداً أو عزيزاً.

بدأ الضباب ينسحب شيئًا فشيئًا وبشكل متسارع عما كان عليه في الفجر الأول. عندما رفع رأسه، بانت له الزرقة في أجلى صفائها الصيفي كان الزمن يمر بسرعة. جون موبي كان يعرف جيِّداً أنَّ عليه أن يعود إلى الأميرالية وتغيير لباسه والتحضير لاستقبال رفاة مونسينيور ديبوش كمعني أول بعودته أو كأيّ رجل يصطف على حافة شارع الإمبراطورة[1] في انتظار مرور الموكب الجنائزي. منذ وصوله في الأسبوع الماضي وهو يحضِّر لهذا اليوم. حتى الذين يعرفونه لاموه على مجيئه وهو لا يملك الشيء الكثير حتى لحياته الخاصة، ولكنَّه ظلّ يردِّد بشكل متواتر:

---

١ ـ Avenue de l'Impératrice

ـ هذه إرادة اللّه وحقّ سيدي عليَّ أن أودِّعه للمرة الأخيرة. بكيت على فقدانه يوم وجدت نفسي وجهاً لوجه مع عينيه اللتين انفتحتا للمرة الأخيرة، وأفرح له اليوم لأنَّه عاد إلى التربة التي اشتهى دائمًا أن ينام فيها نومته الأبديَّة.

كان القارب يتدحرج بهدوء كبير فجأة لم يعد الصيَّاد المالطيّ يُجذِّف، فقد توقف نهائيًّا مندهشًا لضخامة السفينة التي كانت تشق السطح الأملس للبحر بلا رحمة. لم يستيقظ جون موبي من غفوته قليلاً إلاَّ عندما هزَّه زمور السفينة القوي وهو يمزِّق الصمت الجاثم على البحر كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحًا

ـ ألم تقل إنَّ السفينة التي تقل رفاة مونسينيور ديبوش اسمها الطاميز؟

تساءل الصيَّاد المالطي.

ـ نعم.

ـ إقرأ معي يا سيدي. هي. لقد وصلت.

ـ يا إلهي ما أضخمها

فرك جون موبي عينيه طويلاً ثم بدأ يفكّ الحروف المكتوبة على جنب السفينة حرفًا حرفًا: T..A..M..I..S..E هي.

ـ لقد وصلت. ولكنَّهم لن يخرجوه إلاَّ بعد ساعات لم يتأخَّر كما كنت أتوقَّع. في ٢٤ جويلييه خرج جثمان مونسينيور من مدينة بوردو باتجاه مارسيليا التي وصلها في ٢٦، ومنها وُضع في سفينة الطاميز La Tamise التي وصلت مثلما كان مقرَّرًا لها يومان كانا

كافيين لقطع هذه المسافة البحريَّة التي تبدو طويلة كالقيامة. كم تمنَّى هذا اليوم، وها هو ذا يعود إلى أرضه الأولى.

ـ لا بدّ أن يكون الآن أسعد إنسان.

ردَّد المالطي بدون أن ينتظر جواباً من جون موبي الغارق في تأمُّل السفينة التي كانت تزحف نحو أقرب نقطة في الميناء قبل أن تحوطها الزوارق الصغيرة لإفراغ شحناتها

كان الضباب قد انسحب نهائيًّا وأصبح ميناء الجزائر والأميراليَّة وقلعة ماتيفو وبنايات العاصمة التي تتسلَّق الجبل، أكثر جلاء ونصاعة. بقية مدينة الجزائر لم تغير من عادات التسلق باتجاه جبل كوكو الذي يغطي جهتها الجنوبيَّة مثل الصدريَّة الواقية.

جذَّف المالطيُّ قليلاً ثم التفت نحو جون موبي:

ـ يمكننا أن نعود الآن إلى الأميراليَّة، لقد أديت واجبك كاملاً ونفَّذت وعدك برمي الأكاليل والتربة في المكان نفسه الذي خرجتما منه أول مرَّة.

ـ إذا شئت. على كل، الوفد المستقبل لن يتحرَّك إلاَّ بعد منتصف النهار مونسينيور بافي سينزل هو شخصيًّا على الرغم من مرضه وسيمتلئ شارع الإمبراطورة بالمستقبلين.

ـ أنا نفسي سأنزل بأبنائي إلى الشارع. كم سيكونون سعداء عندما يعرفون أني كنت مع أغلى إنسان في هذه المدينة. خسارة، لقد تأخَّر كثيراً.

ـ ألم أقل لك .Mieux vaut tard que jamais لقد نفَّذنا ما تمناه.
وهو يحتضر في تلك الليلة، ساعات قبل موته، طلب أن أدخل عليه لوحدي وأوصاني بما كان في قلبه.

ـ الأكيد أنَّه تألم كثيراً في مرضه؟

التفت جون موبي نحو الباخرة التي كانت ماتزال تزحف نحو الميناء وطيور النورس التي كانت تحيط بأعاليها وسواريها مشكِّلة هالة من البياض.

ـ أنت تعرف أنَّ المرض شيء لا يُطاق خصوصاً بالنسبة لرجل قضى كل وقته ركضاً في خدمة الناس. سنة ١٨٥٦ لم تكن فاتحة خير على مونسينيور ديبوش. فقد صار مرضه الذي حمله طويلاً في جسده حتى لا يزعج الآخرين، واضحاً. كان عندما يتألم، لا نعرف جيداً إذا ما كان يبتهل ويشكر اللّه أم يتألم من ضغط القسوة التي صار من الصعب عليه مقاومتها الحالة بدأت معه مبكراً تراكمت منذ سنوات متتالية ولم يكن يعطي قيمة لما كان يعانيه. كان الالتهاب الذي دمَّر مخَّه بسبب الأعمال الكثيرة والانشغالات التي لا تُحدّ قد أثَّر عليه كثيراً

ـ لم يكن وحيداً في آلامه. الرفقة تخفف أحياناً من ضغط المأساة.

ـ زاره في آخر صيف له الأب روسي[1]، أحد أفضل أصدقائه وأقربهم إلى قلبه. وتحادث معه طويلاً عمّا كان يحس به، فقد اتكأ عليه وقطع معه جزءاً كبيراً من حديقة البيت ورأى الشمس للمرة الأخيرة. وعندما زاره الطبيب، نهاه عن كثرة الحركة، فأجابه

١ ـ l'Abbé Rousset

مونسينيور: إذا أراد اللّه أن يناديني إلى جواره فأنا مستعد وإذا بعث بك كملاك للرَّحمة لتشفيني فأنا جاهز. أما عملي، فهو مبرِّر حياتي. في المرة الأخيرة، بعد زيارة الطبيب، طُلب منِّي أن لا أوقظه لأنَّه في حاجة ماسَّة إلى النوم ويحتاج على الأقل إلى ساعة. تركته على راحته، ولكنَّه عندما استيقظ كان يتكلَّم بصعوبة ودارت عيناه في محجريهما وتقلَّصت عضلات جسده فارتعبت. مسحت وجهه الملتهب بقليل من الماء البارد، وعندما انتهت أزمته فتح عينيه وهو يتمتم: عزيزي جون، لا تخف، فمازلت هنا اقترب قليلاً لا تنس الوصيَّة فهي دين على عاتقك وعلى عاتق كل من يعرف رغبتي.

ـ وهل طمأنته؟ قال المالطي متسائلاً

ـ قلت له، نعم يا سيدي. ثم في الليل ناداني لوحدي وهمس في أذني الكلمات السابقة نفسها حرفيًّا وكأنَّه كان في كامل وعيه: **«لقد أعدت ذراع القديس أغسطين إلى هيبونة، آه لو يُكتب لي بعد موتي، أن تُعاد أنا كذلك عظامي نحو تلك الأرض الطيِّبة مع الناس الذين اختارهم لي اللّه. لو أستطيع أن أنطق سأقول لمن يغمض عيني للمرة الأخيرة: Redde ossa mea meis، لو فقط...»**

ـ واضح أنَّك تعذَّبتَ كثيراً يا سيدي وأنت تستمع إلى هذا الكلام القاسي.

ـ لم يكن الأمر مهما كنت أريده أن يذهب بأقل الآلام الممكنة. صحيح، أيام عديدة لم أعرف فيها طعم النوم. في الليلة الأخيرة لم نكن كثيرين. أنا وأخت مسعفة وأخوه الذي لم يتوقَّف عن البكاء. كان سيدي يتألَّم والموت يزحف بقوة إلى عينيه. قضيت

الليلة كلّها عند قدميه أقرأ عليه وأطلب له الغفران. لم ينطق إلاّ مرتين باسم مريم التي كان يحبّها. سأل إذا كان الأطفال بجانبه لتعميدهم. لم أرد عليه ولكنّي همهمت بأنّي مازلت بقربه. عند الثالثة والنصف فجراً بدأت النوبات الأولى من حالة الاحتضار تظهر جليًّا على وجهه وبدأ الموت يرتسم في عينيه المفتوحتين اللتين ظلّ يخرج منهما إشعاع غريب. عند الساعة الثامنة صباحًا سمعته يتمتم: أخيراً سأرتاح قليلاً كنت أسمع خطوات الموت وهو يزحف في بهو البيت الطويل الذي كان مونسينيور كلّما حبست رغبة الكتابة، قطعه جيئة وذهابًا، بلا توقف طوال الليل. أغمضت عينيه ولا أعرف كيف سرقه الموت مني بسرعة حتى قبل أن أتفطن بأنّه انسحب بهدوء مثل الذي لا يريد أن يُرهق أحداً كان صاحب الغبطة كبير أساقفة بوردو قد تحمّل كل مصاريف دفنه.

ـ جيّد أن يموت الإنسان وهو في عزّ تأمُّلاته واقترابه من اللّه.

ـ مونسينيور كان محبوبًا. فقد امتلأت الكنيسة حيث أقيم له قدّاس جنائزيٌّ عال. جاءه تلاميذ السمينار الكبير، وكليرجي سانت ـ أندري وكبير أساقفة بوردو. وتمَّت عملية الدفن تحت إشراف مونسينيور ليوني[١]، أُسقف سانت ـ فلور[٢] وقد حضر الدفن الفقراء واليتامى من كل مكان. لقد كان في قلب الجميع. وُضع جسده الصغير على متن سيّارة مصفحة، كان يحيط بها كل من الجنرال دو طارطاس[٣] وقائد وحدة بوردو العسكريَّة، والمحافظ ورئيس

---

١ ـ Monseigneur Lyonnet

Saint-Flour

ـ Le général de Tartas

البلديَّة ورجال الدين وعلى رأس الكورس الجنائزيٍّ كان أخوه الذي آواه في وقت الشدّة. كان يعرف جيِّداً تفانيه فيما يحب ويعشق. وارتاح الجسد الطيِّب في كاتدرائيَّة سانت ـ أندري القديمة ببوردو لأنَّها كانت المكان الذي قضى فيه مونسينيور وقتًا كبيراً في استقبال الناس الذين طلبوا نجدته ومساعدته والاستماع إلى صرخاتهم العميقة. لم يكن يطلب الشيء الكثير إلاَّ القدرة على الكلام والإصغاء.

ـ كان يعرف مسبقًا أنَّه لا دواء بدون إرادة الإنسان لمساعدة نفسه.

ثم التفت جون موبي إلى مدينة الجزائر التي تجلَّت بوضوح نهائي فجأة خرجت من كتلة الضباب التي كانت تغلِّفها مثل الغلالة. ولم يعد شيء يعيق ذلك البياض الذي كان يتسلَّق الحيطان والبيوت التي بدت وكأنَّها مدرجات في مواجهة بحر يشبه منصة بلا حدود، كانت تدور فيها كل الوقائع والأحداث الأكثر تعقيداً. ثم التفت نحو الطاميز التي كانت تزداد توغُّلاً في عمق مرفأ الجزائر بأدخنتها الكثيفة التي تعالت في السماء حتى اختلطت بالغيمات القليلة التي انفصلت أمام قوة زرقة السماء والبحر. بينما لم تتوقَّف يدا المالطي عن التجذيف الذي كان يقود المركبة الصغيرة رويداً رويداً نحو رأس البينيون(١) الذي كان يعرفه مثلما يعرف جيبه. لقد عبره العديد من المرَّات، ومنه على أطراف المارية التي كانت تخترق عمق البحر مثل الشفرة الحادَّة أو مثل سيف دخل عميقًا في البحر شاقًّا سطحه الرهيف إلى قسمين غير متساويين: الجزء الأيمن للميناء بينما الجزء الأيسر للأميراليَّة، قبل أن ينتهي داخل امتدادات البحر باتجاه باب الوادي.

* * *

١ ـ Penion



الوقفة السادسة

مواجع الشقيقين



ـ ١ ـ

ـ عزيزي جون، أُعذرني، لقد أرهقتك كثيراً. إنّي أحمِّلك أكثر مما تستطيع. التنقلات المتكرِّرة مهلكة. منذ أكثر من شهرين وأنت تشقّ معي الطرقات الضيِّقة والمسالك الصعبة لخدمة الناس الذين ينتظروننا بفارغ الصبر.

ـ أنت تعرف يا سيدي ماذا يعني لي وجودك والعمل معك. لا أب لي ولا أم. لا أحد غيرك يملأ القلب. وكلّما صحبتك في رحلتك أحسست بأنّ حياتي لها معنى.

جملتي التي أكرِّرها دائمًا على مسمع مونسنيور ديبوش كلّما اعتذر لي عن شيء ما فهي تأتي من القلب ولا سلطان لي عليها أبداً.

في ذلك المساء عندما عاد مونسنيور من السمنار، كان منهكًا. فقد قطع شارع سانت ـ صوفي ببوردو المؤدِّي إلى بيت أخيه

وحده ولم يتكئ عليَّ كما هي العادة. وصل إلى البيت متثاقلاً، يجر جسده جرًّا رأيت ذلك في عينيه لقد أمضى اليومين الماضيين في انشغال تام بين كنيستي سان ـ بول وسان ـ لويس يستمع إلى مكاشفات[١] الناس التي تثقل كاهلهم وهم في حاجة إلى تقاسمها مع الآخرين، وزيارة العديد من الداخليات[٢] التي أوكلت له مسؤولية تسييرها منذ عودته من طوران[٣] بإيطاليا كان أكثر ميلاً لزرع الكلمة الطيِّبة في قلوب الناس من الخطابات الفيَّاضة. وعندما يسأله الذين يعرفهم، كيف كان اليوم، يجيب بلا تردّد: Messis qui-dem multa المحصول كان جيّداً. لم يجد الوقت الكافي لتأمل وضعه المعقَّد من منفى إلى عزلة إلى خوف. المموِّلون لمشاريعه الخيريَّة لا يتوقفون عن متابعته لأنَّه استدان كثيراً لتسيير الشؤون الخيريَّة. كل يوم يسألون عنه كالسارق بينما كان يعرف أنَّه إذا لم تتدخل الدولة لمساعدته فسينتهي إلى الحبس المؤكَّد الديون تراكمت حتى صار من الصعب دفعها هي نفسها الأسباب التي دفعت به إلى ترك الأرض الأولى التي أحبها لقد تخلَّى وقتها المشرفون عن مسؤولياتهم في الجزائر ولم يعد قادراً على تحمُّل كل شيء على ظهره لوحده. فبعد مغادرة صديقه البارون ڤيلار[٤] الذي استقبله في بيته بعيداً عن الأعين في مرتفعات مصطفى، خرج من الأرض التي كانت فراشه ورماده. رأى نفسه وهو ينزل ليلاً في الزورق الصغير على ساحل مصطفى ، هارباً مثل أي سارق ليحمله بعيداً عن الجزائر التي أحبها

---

١ ـ Confessions

٢ ـ Les pensionnats

٣ ـ Turin

٤ ـ Le baron Vilard

في أقسى لحظاتها لم يرافقه أحد إلاَّ قسّان من أكثر القساوسة تفانيًا في حبه، مونتريا وكيستيل[١] وأنا، مرافقه الأمين والوفي كما كان يسميني. قال لي في تلك الليلة الحزينة التي كانت مظلمة لولا القناديل الزيتيَّة التي ساعدتنا على التنقل:

ـ حبيبي جون، ليس لديَّ أيّ اقتراح لك، ولكنِّي سأكون سعيداً إذا قاسمتني مصيري حتى الموت بلادنا قصيرة الذاكرة.

ثم ذكَّرني بالجحود الذي أصاب هذه الأرض. استحضر وجه الماريشال دو بورمونت[٢] الذي انتصر على الأتراك واحتلَّ الجزائر. بعد أن سلَّم للجنرال كلوزيل المسؤولية، أُجبر على مغادرة البلاد ليلاً مثل أي سارق على ظهر سفينة نمساويَّة قديمة. لم يحمل معه إلاَّ أثاثًا قليلاً وحقيبة بها قلب ابنه الذي أكلته الحرب.

ـ هناك لعنة مست كل من دخلوا إلى هذه الأرض أو أحبوها، قال مونسينيور ديبوش وهو يقبض على حبل السفينة، شارل العاشر الذي أمر باجتياح الجزائر انتهى إلى المنفى، البارون دو هوسز[٣] الذي حضر له، لم يكن مصيره أحسن، الماريشال دو بورمونت، المنفى بدوره، حسين باشا الذي قاوم الغزو، المنفى، عبد القادر الذي دافع باستماتة، المنفى. ويلحقني المصير نفسه، مصير اللعنة لأخرج ليلاً مثل سارق مطلوب. كل ما قمت به في تلك البلاد صار مجرَّد جنون وتسرُّع.

---

١ ـ Montréa et Questel

٢ ـ De Bourmont

٣ ـ Le Baron d'Hussez

رأى نفسه من جديد وهو ينزل في ساحل طولون ولا يرى حتى أهله، ومنه ينتقل مباشرة إلى طوران الإيطاليَّة حيث منفاه وعزلته. لكنَّه كان يدرك جيِّداً أنَّه في كل أراضي الدنيا أُناس خيِّرون. وعندما وصل إلى طوران أكرمه مونسينيور فرانزوني[1]، فهو كذلك ذاق قسوة المنفى والبرد والنسيان. على الرغم من الثلوج والبعد، لم يتوقف مونسينيور عن الذهاب نحو السجن الواقع خارج المدينة لمساعدة الناس العزل. كان يشعر دائماً بحالة حميميَّة تجاه هذا المكان. أكبر أذى يصيب الإنسان هو أن تُسحب منه حريَّته الخاصة.

كان مونسينيور منهكاً ومرتبكاً. بدت لي الصفرة التي علت وجهه غير عاديَّة. كلَّما وصل إلى دار أخيه شعر بالراحة لكن هذه المرة شعرت بشيء ما كان يأكله من الداخل. سألته بعدما شرب كأس القهوة:

ـ هل يريد سيدي شيئًا آخر؟

ـ شكراً. أتذكر يا جون أيام المحنة في طوران والبرد القاسي وطيبة الناس.

ـ كنت الآن أفكر في ذلك وكأنَّك قرأت ما في قلبي. أتذكر يا سيدي حتى كراماتك الكثيرة.

ـ أيّة كرامات يا جون، إنَّها إرادة اللّه.

ـ أتذكر تلك المرأة التي جرت نحوك بخطوات سريعة، وجهها غارق في دموعها، سألتَها ماذا تريد؟ وما مصدر شقائها؟ قالت لك إنَّ وضعية أمها تحيِّرها، مريضة وهي في أقصى درجات المعاناة.

١ ـ Monseigneur Franzoni

وطلبتْ منك أن تعمِّدها وتباركها طلبت أن ترافقها فقلت لها إنَّ الوقت متأخِّر. قالت سيدي يستطيع أن يبارك حتى من مكانه ودعواته تصل. رأيتك يا سيدي وأنت تجلس على ركبتيك ثم التفتَّ صوب مسكن المرأة وباركتها في اليوم التالي كانت المرأة قد قامت من حالة مرضها وكأنَّ لا شيء بها وعم خبر هذا الشفاء المنطقة بكاملها حتى صرت لا تجد وقتًا للراحة.

ـ مجرد دعوة طيِّبة وصلت. الراحة الكبرى عندما يرضى علينا اللّه والناس. الآن يا جون أريد قليلاً من المداد الأسود، الذي كنت أكتب به بدأ يذبل ويتخشَّن. أنت تعرف ماذا تفعل، سخنه كالعادة وزد عليه قليلاً من مواد التكحيل والماء الساخن. بي رغبة كبيرة للكتابة على الرغم من تعبي. الكتابة أحيانًا راحة.

ـ لا تهتم يا سيدي، سأحضر كل شيء. الرسالة إلى الرئيس ستتم، أنا أعرف ذلك. ولكن يا سيدي، أخشى عليك في دفاعك عن الأمير، من حماسك الكبير.

ـ أنت كنت دائمًا معي وتعرف الأمير جيِّدًا وتدرك معي أنَّه رجل يستحقّ أن ندافع عنه. الذي ذاق العذاب والمنفى لا يمكنه إلاَّ أن يكون في جانب المقهورين. على هذه البلاد أن تعرف ما فعلته في ذويها تصور، عندما سألته تلك الليلة عن ظلم الأقارب قال لي الشيء نفسه. جمله ما تزال تطن في رأسي بقوة: أنا كذلك يا مونسينيور لم أنجُ من ظلم الأقارب. الذين وضعوني على رأسهم تنكروا لي والذين وضعتهم باعوني. الأكثر من ذلك، هم يكفرونني. التكفير في غاية الصعوبة والأهمية. يتهمونني

بالتقاعس عن الجهاد، وهل يعرفون ما معنى أن نجاهد ونحن نواجه السيَّارة والآلة الحربيَّة. اللّه أعطانا عقلاً للحفاظ على أنفسنا وعلى أرواح الآخرين. الجهاد لا أن تحمل سيفًا وتشهره في وجه أول من تصادفه، الجهاد أن ترفع سيفًا عندما تنغلق في وجهك سبل السلم. ديننا يقول إذا جنحوا للسلم فاجنح لها. لم تخفني آلتكم الحربيَّة ولكن الذي أخافني جهلنا المتزايد بقوتكم. كنت أستمع إلى القصائد وهي تمجِّد السيوف وأضحك في أعماقي لأن حياتي بدأتها هكذا الجهاد أن يتعلم الإنسان باستمرار بأنَّه جاهل كلَّما تقدَّم به الزمن. كنَّا نظنكم تعيشون الجاهليَّة فاكتشفنا الجاهليَّة فينا يا سيدي. ليس من الصعب أن يصير الإنسان قاتلاً أيام الحروب، كل شيء جائز لأنَّ القوانين الحيَّة تتعطَّل ومن الصعب أن يحافظ الإنسان على قدر من إنسانيَّته.

ـ ظلم الأهل صعب وقاس. أجبته بدون تفكير كبير، والأصعب منه المنفى الذي نشعر به حتى ونحن في أمكنتنا التي ألفناها المنفى الكبير هو الانفصال الكلي عن المكان الذي نعيش فيه لأسباب متعدِّدة لا نعرفها جيّداً

ـ كم اشتهيت أن أعيش منفاي في مكاني الطبيعي، أجابني الأمير وهو يلفلف برنسه ويتحسس جلد لحم يده الإنسان مثل الأرض، عندما تخسر ماءها وتدخلها المياه المالحة، تتشقق وتشيخ. أنت كنت في طوران ولكنَّك كنت بين ذويك، بين الناس الذين تعرفهم ويعرفونك، تصلي معهم ويقاسمونك حنينك وأشواقك. غربتك أقل. وأنا...؟

ـ أعتقد أنَّ الوطن والأرض والناس هو كل ما يمكن أن نحمله معنا. كنت في طوران بين ممارساتي الخيريَّة والدينيَّة وعين الشرطة التي طردتني فيما بعد لأنِّي صرت خطراً عليها، ولكن لا أحد استطاع أن يفصلني عن الأرض التي تبنتني، الجزائر. تصور كنت أقضي الليالي كلّها وأنا أكتب كتابي **كتابات عن الجزائر المسيحيَّة**. كنت أرى نفسي في ذلك التاريخ البعيد الذي صنعه الكبار من أمثال القديس أوغسطين. سيعرف الذين يكبرون في تلك الأرض، أن رجلاً خيِّراً وعالمًا كبيراً عاش في هذه التربة وهداها إلى الخير لم استطع استرجاع القديس أوغسطين ولكنِّي استرجعت الذراع التي فعلت الخير ومارسته وهي اليوم تنام على تلك الأرض الطيِّبة. كم اشتهي يومًا أن يعود رمادي إلى هناك حيث تركت قلبي وجزءاً من ذاكرتي. كم أشتهي أن ألقاها وتلقاني وأسند رأسي على تربتها الطيِّبة. قد لا يكون الطلب كبيراً ولكنَّنا تعوَّدنا أن نُحرم حتى من الأشياء الصغيرة. تأتينا الأشياء الكبيرة ليس دائماً من الرجال الكبار، فقد ساعدتني يا جون موبي أن أطبع الكتاب ونزعته من خبزك اليومي ومنحتني فرصة أن أقول ما يملأ القلب. إليك عادت فضائل الكتاب. لقد عرفت معي كيف يُنتزع الإنسان من أرض أحبها.

ـ أرأيت يا صاحبي كم تلتقي الرغبات، أجابني الأمير بطيبته المعهودة. أعرف جيِّداً استماتتك تجاهي. أنا كذلك أتمنَّى إذا لم تسبقني تربة مكة إليها أن أعود إلى تلك الأرض نفسها ولو ينفتح قلب البشر قليلاً نحو النور، أتمنَّى أن يوضع قبرانا جنباً إلى جنب. قد يبدو ما أقوله لك مجرد حلم، وربما احتجنا إلى زمن آخر أقلّ حقداً

ولكن هذا ما أحس به الآن. أقسى شيء في المنفى هو أن تموت على أرض ليست لك ولست لها. لقد دفنت جزءاً من عائلتي في هذه التربة وكم أتمنَّى أن لا يدركني الموت إلاَّ وأنا في أرض تمنيت الذهاب إليها. ولا يهم بعد ذلك إذا أعيدت عظامي بالقرب من ذوي وأقاربي. المنفى يهون عندما تمنحنا الدنيا فرصة السفر الأخير ولو في شكل رماد نحو ترابنا الذي أحببناه.

ثم التفت مونسنيور نحوي وهو يبحث عن شيء غائب في البيت وكنت أحمل في يدي المداد وقد كحلته قليلاً كما يشتهيه عادة كلَّما شرع في الكتابة:

ـ هل رأيت يا عزيزي جون، المداد مثل الإنسان بقدر ما تركِّزه يعطيك ويزداد وضوحًا، كلَّما تبخل عليه يصير باهتًا إلى أن ينتفي الدنيا ليست ظالمة بل البشر الأمير رجل يحفظ الود، من يدري؟ اليوم نقدم له يد العون وغداً ربما قد يقدم ضعفها للناس الذين هم في حاجة إليه وليسوا من دينه. الدين نبتة طيِّبة، إذا غُرست بشكل جيد، أعطت نبتًا طيِّبًا. ولهذا فإصراري كبير وإلاَّ ما جدوى وجود الإنسان على الأرض إذا لم يكن قادراً على لمس جراحات الآخرين بنوع من اللطف والحساسية حتى لا يؤذيهم.

ـ ولكن يا سيدي أنا أخشى فقط على حماسكم من الخيبات الكبيرة إذا اصطدم بعدم فهم الآخرين.

ـ لا يهمني الآخرون في مسعاي تجاه الأمير. أنا متأكِّد أنَّ الرئيس يفهمني جيداً وهذا هو الأهم. ثم لا تهتم، رحمة اللَّه واسعة.

ـ ولكن.

أردت أن أقول له: صحتك؟ ولكنَّه لم يلتفت نحوي، كان قد انغمس في مداده من جديد كانت الأشواق قد بدأت تحترق مثل الحطب اليابس. هو لا يفهم مطلقًا ما الذي يجعل البشر قليلي الحساسية، بينما اللَّه منحهم طوقًا من الأشواق مرصعًا بملايين الذرات من الحنين إلى كل ما يجعل القلب مرتاحًا والعين مستكينة وقريرة. كانت الأحرف والكلمات تنزلق من بين يديه كقطرات الماء بسرعة متناهية الصفاء وكأنَّه كان في سباق مع الزمن.

في آخر الليل وكانت الرياح قد هدأت وصفيرها قلّ قليلاً وتوقفت الأشجار عن خشخشاتها الدائمة، لكنَّ آلام الظهر التي تصل حتى قفاه كانت قد زادت حدّتها كثيراً ولم يعد قادراً على تحمُّلها، قام من مكانه قليلاً ثم التفت نحوي فوجدني أنظر إليه بنوع من الصمت والحيرة:

ـ يا حبيبي جون، عليك أن تنام قليلاً. نحن انتهى أمرنا، الإنسان عندما يصاب بعدوى الإنسان لا يرتاح إلاَّ عندما يُفتح قبره على مصراعيه. اذهب لترتاح قليلاً

ـ أنا كذلك هرب النوم من عيني يا سيدي ولا أملك حياله الشيء الكثير. إما أن يأتي أو لا يأتي. الآن لم يأت ولهذا أستأنس بك وأنت تعمل، أقول لنفسي ربما احتجتني يا سيدي قليلاً

قال مونسينيور وهو يمسح على وجهه الطيب بيديه الناعمتين ويقوم من مكانه قليلاً لتجنب آلام الظهر، فهي كلَّما اشتدَّت لا حلَّ

لها إلاَّ الدوران داخل البيت حتى تسكن ثم العودة إلى الوضع الذي يسمح بتجنُّبها قليلاً قبل عودتها بعد دقائق أو ساعات:

ـ أتعرف يا جون، كلَّما تأمَّلت هذا الرجل، ازددت محبة له ولأخلاقه. الأنانية أحياناً مؤذية. في البداية تمنيته مسيحيًّا، نزهو به كأخ ونلقِّنه تعاليمنا ليذهب بها عند ذويه ويشيعها ولكن مع الزمن تأكَّدت أنَّ هذا الرجل الذي يشبهنا في كل شيء، لا يمكن أن يكون إلاَّ هو، رجل محبّ لكل شيء يقرب الإنسان من المحبّة واللَّه.

ـ لكن يا سيدي هو كذلك يقاسمك الشعور نفسه، لقد أصبح قضيَّتك المركزيَّة واللَّه وحده يعرف المشاكل التي أنت غارق فيها الممولون وراءك، يحمِّلونك ما لا طاقة لك به، بل إنَّ بعضهم يعمل الآن لتقديمك للعدالة بحجَّة أنَّك استهلكت ولم تدفع وكأنك فعلت ذلك من أجل نفسك.

ـ كل هذا ليس مهما، أنا أعمل للصالح العام، التعويض، هناك مؤسسات عليها أن تتكفَّل به. فأنا لم آخذ مليماً لمصلحتي الخاصة. عليهم أن يعرفوا ذلك. افتقدت تلك الأرض، ولا شيء يهمني اليوم إلاَّ أن يلحقني اللَّه بها وإذا حدث وتأخرت عودتي أو انعدمت، اسبق الجميع، خذ حفنات من تربة هذه الأرض وازرعها هناك فجراً، في البحر الذي غادرته ليلاً ولم أتمكَّن من رؤيته فجراً اذهب إلى هناك إذا استطعت وخذ كذلك بعض الأكاليل الصغيرة وتوِّج بها الموجات التي تراها قبل أن يوارى جسدي في تربة تلك البلاد التي لا خيار لي في غيرها هذا الرجل سيموت غريباً، أحس بذلك، بل أنا على يقين. سأسكن تلك الأرض في انتظار مجيئه.

فهو أقسم لكل سائليه إنَّه لن يعود لتلك الأرض لا كرهًا فيها ولكن تمسكًا بالكلمة التي قطعها على نفسه.

ـ ما يزال في العمر بقيَّة يا سيدي.

ـ لو حدث أيّ مكروه. لقد أوصيتك وأوصيت حفيدي، البارون سانت ـ سوران بأن يسهر على تنفيذ هذه الأمنية. سأكون سعيداً ومؤمنًا لو ارتاحت رفاتي يومًا وسط أبنائي في الجزائر لقد جلبت رفاة القديس أوغسطين إلى هيبونا وكم أتمنَّى أنا كذلك، عندما يحين دوري أن تعود رفاتي تجاه تلك التربة المقدَّسة، لأرتاح بين الناس الذين منحني اللّه حبهم. إذا استطعت أن أقول من الآن لمن سيغمض عيني للمرة الأخيرة: Redde ossa mea meis. لا نتحكم في الأقدار ولكنَّنا نتمنَّاها

ـ ولهذا كلّه يجب أن ترتاح قليلاً أن ترحم صحَّتك لكي تنهي رسالتك.

ـ لقد أخذتْ مني وقتًا كبيرًا ولكنِّي أريدها رسالة تمسّ القلب في عمقه وإلاَّ ما جدوى الكتابة؟ الأمير ينتظر مني الكثير ولا أريد أن أخيِّب آماله. وقتي محسوب وعليّ أن أنتهي من كل هذا. العمر لا يمهلنا كثيراً ولا نشعر بالحاجة له إلاَّ عندما يواجهنا فعل نريد إنجازه لكن الجسد لا يسعفنا

ـ هل يحتاجني سيدي في شيء؟

ـ ارتح قليلاً، غداً لدينا أعمال كثيرة يا صديقي العزيز، أما أنا فسأتم ما أنا بصدده وأنام إذا أسعفتني آلام الظهر والرأس.

عاد الهدوء الأول والسكينة حيث لا شيء إلاَّ صوت الريح أو نقرات المطر أو وخزات البرد التي تدخل عمق العظم.

تأمَّل مونسينيور سقف بيت أخيه وخلو المدينة حتى من القطط والكلاب. بدت له خيول الأمير وهي تعبر المسالك الوعرة بصعوبة كبيرة أو وهي تتجه نحو القفر والصحراء. أو وهي تحاول جاهدة أن توقف زحف القوات الفرنسيَّة نحو مدينة قسنطينة أو الأمير وهو يفكر، هل يتحلّل من المعاهدة أم يظل داخلها هو كذلك كان في حاجة إلى وقت لتمديد سلطانه حتىّ الصحراء، لأنَّه صار يدرك أنَّ وهران صارت في كماشة وأنَّ الآليات الحربيَّة التي دخلت البلاد غيرت كلّ خططه، وأنَّ عليه أن يجد وقتًا كافيًا لتشييد مدينة تكدامت التي تجمع ما بين العلم والبارود والكتب والحصانة.

سمعت مونسينيور يقول بتمتمات واضحة، ولا أدري إذا كان يقرأ لي أو لنفسه! لأنِّي، كنت قد دخلت في عمق الفراش وبدأت أتحسس الدفء الكبير الذي كان يعبر الجسد المتعب، لكنَّ كلامه كان يصلني واضحًا:

ـ أستطيع اليوم أن أقول إنِّي أعرف هذا الرجل كما أعرف الأطفال والنساء والرجال الذين يأتونني يوميًّا في كنيستي: سان ـ بول وكنيسة سان ـ لويس للصفح عن الأخطاء التي ارتكبوها أستمع إلى نداءات الاستغاثة وأمنحهم بركات اللّه الذي يسمع دعوة الضعيف والتائب. أقنعهم يوميًّا بأنِّي لست قديسًا ولا أمنح صكوك الغفران. ولكن اللّه دائمًا قريب إلى القلب الطيب والصادق والمتفاني في حبه. لم أجد في الأمير إلاَّ هذه الصفات. رجل يريد أن

يتكلّم وينتظر منّا أن نسمع لنشيده المنكسر. وها أنذا، كلّما عدت إلى هذا البيت الصغير وإلى هذه الزاوية لا شيء في رأسي إلاّ إتمام هذه الرسالة وقول ما رأيته وما سمعته وما أحسسته عن هذا الرجل.

أخذتني إغفاءة لا أدري إذا ما كانت قد طالت أم قصرت. قفزتُ فجأة من فراشي بسرعة وأنا أغمغم وأرضع أصبعي:

ـ أمي. أمي.

كان مونسينيور قد أشعل قنديلاً آخر. مدَّ يده إلى رأسي وهزني قليلاً:

ـ جون، جون، الشمس لم تشرق بعد، والماما ليست هنا ولكنّها في الجنَّة مع الذين كانت تحبّهم، لا تهتم وارتح قليلاً

ـ هل تحتاج أمي شيئًا عفواً، هل يحتاج مونسينيور.

ـ لا، أنت في وضع نوميٍّ مزعج لك، تمدَّد قليلاً

ـ لا أدري مونسينيور ماذا يحدث لي الآن لقد رأيت أمي، كانت تشبهك يا سيدي.

ـ ارتح قليلاً، وتدثَّر جيداً، غداً لنا عمل كثير، اليتامى ينتظرون مساعدتنا

غطاني، ثم عاد إلى مكانه بجانب وثائقه ليعيد فليها وتأملها من جديد كنت مندهشاً بصبره وصلابته.

كان الليل في آخره عندما وجد نفسه غارقًا في أدقّ التفاصيل التي لم يكن يعرفها إلاّ جزئيًا من قبل. عاد لينغمس من جديد في

كومة الأوراق والصحف المتراكمة على الطاولة الكبيرة التي تحتل قسمًا كبيراً من الحجرة التي كنا فيها. قرّب قنديل الزيت منه قليلاً، فجأة قفزت بين يديه وثيقة صفراء، بقايا صفحات جريدة مؤرخة في ١٢ جوان ١٨٣٨ كانت الحروف تركض مثل الخيول المتزاحمة.

غمس القلم في الحبر الذي صارت ميوعته أفضل مما كانت عليه ثم تركه يشقّ البياضات في هذه الورقة.

التفت نحوي ليطمئن عليَّ، ولكنَّه لاحظ أنَّ عيني صحتا تمامًا وكأنِّي لم أنم أبدًا.

ـ ألم تنم بعد يا جون؟

ـ خلاص، يبدو أنَّه هجرني نهائيًّا.

ـ لديَّ إحساس خاصّ أنَّ وراء مغامرة الأمير في عين ماضي أناسًا آخرين لا يحبون الخير لا له ولا لفرنسا. أتساءل من بعث خليفة لغواط، العربي ولد سيِّد الحاج عيسى إلى المدية ليطلب من الأمير أن يساعده على كسر شوكة التيجانيَّة ويقنعه بأنَّ أتباعه ينتظرونه لمبايعته؟ لماذا أُجبر الأمير على ترك قلاعه وتحضير مدنه وذهب إلى عين ماضي لتدميرها وهلاك عسكره بسبب الحصار والبرد إذا لم تكن هناك نيّة مدبرة سلفًا؟ لماذا ساعده سلطان المغرب وڤالي[1] بالمدافع القادرة على تدمير أساسات التحصينات؟ في كل معاركه، لم يكن الأمير هو البادئ. فقد كان دائمًا يردّ عدوانًا. الذي حدث هذه المرة، كان العكس تمامًا. الأمير من الحكمة بما كان من الدخول في لعبة حروب لا تخدمه ولا تخدم ذويه؟

---

١ ـ Vallet

في المرة الأخيرة، قبل أن أغرق في نومٍ أعادني من جديد نحو أمي، رأيته منحنيَ الظهر، منكسراً، يخط بريشته الأنيقة كلماته التي كانت تأتي من أعماقه؛ بعد أن أصبحت سيولة المداد أكثر لزوجة وسيولة.

لم يكن يكتب، كان منهمكًا في شيء أكثر طراوة ونعومة من الماء.

كان يطرِّز كما كان يقول هو دائمًا عن الأمير، كلّما دخل عليه ووجده يكتب أو يملي سيرته.

* * *

ـ ٢ ـ

ـ انطلق، ستكون أنت أخف من الجميع. بلّغه الرسالة وعليه أن يردّ في أقرب الآجال حتى لا يباغَت في فراشه كالفأر.

ـ نريد رضاك يا سيدي السلطان فقط. نحن في ١٢ جوان، ستصله الرسالة إن شاء اللّه بعد يومين على أقصى تقدير.

ثم مدّ الأمير يده فقبلها الرسول، ولكن الأمير سحبها كعادته حتى قبل أن تلثمها شفتاه. ثم لفّ لثامه على كامل وجهه. لكز حصانه فانطلق هذا الأخير مخلِّفًا وراءه ضبابًا من الأتربة. لم يلتفت الرسول وراءه ولكنّه زاد في سرعة حصانه.

ـ اللّه يحفظك. رافقتك السلامة.

قالها الأمير وهو يتأمَّل الأتربة التي غطت الفارس المتَّجه إلى عين ماضي والسماء التي كان غيمها يتحول في صدر السماء بسرعة ويتشكل بحرية.

عين البرانس لم تكن تبعد إلاَّ بعض الأميال عن تكدامت. رمى الأمير بصره بعيداً قبل أن يهمز حصانه بالركاب بلطف. قبل قليل كان هذا المكان ممتلئًا بصراخ النساء في العطاطيش على ظهر الجمال وهن يزغردن أو يصرخن خوفًا من أن تتحوَّل التدريبات إلى معركة حقيقيَّة، عندما تلتقي الأحصنة وجهًا لوجه في عنف كبير ولا يسمع إلاَّ صهيلها أو لهاث الفرسان وهم يحاولون أن يتفادوا الضربات الوهميَّة، أو هن يحتمين من الخيَّالة الذين يحيطون بهن حتى لا يسقطن بين أيدي العدو الافتراضي تبدى له المكان فجأة غارقًا في شيء يشبه الصمت، ما عدا النحنحات الخفيفة من هنا وهناك لبعض الأحصنة وحركة السروج والركابات الحديديَّة وحوافر الخيل التي كانت تُلجم حتى لا تنطلق، فتحفر الأرض في انتظار تحركها رفع حصان الأمير الأسود رأسه قليلاً ثم قوائمه الأماميَّة قبل أن يتحرَّك نحو المقدِّمة أكثر حتى تجاوز أحصنة الخيَّالة بألبستهم الحمراء. تحسس الأمير من جديد فيالقه في عين البرانس، قبل أن يعطيها الأمر بالتحرُّك. أربعمئة خيَّال وألفا عنصر من المشاة المدربين، من بينهم فيلق الكروغلي المكوّن من أربعة وعشرين مدفعيًّا، ومشرفين على المدافع الثقيلة وعلى رأسهم باش طبجي محمد ولد الكسكسي، وألف وخمسمائة جمل لنقل المؤن والعتاد والأسلحة وثلاثمئة قائد عسكري في مختلف سلَّم المسؤوليات.

عندما لوَّح الأمير بيده اليمنى، ارتفعت الأعلام الكثيرة مخترقة الصفوف وصهلت الأحصنة بقوة، فتحرَّك فرسان المقدِّمة متبوعين بالميمنة والميسرة ووسط العسكر، بآليَّاتهم الكثيرة وأسلحتهم المتنوعة. وعندما التفت الأمير قليلاً إلى الوراء للمرة

الأخيرة، وقبل أن يفصله الجبل عن البرانس، لم ير شيئًا إلاَّ الأدخنة التي كانت تتعالى من تكدامت، من مصانع تذويب الرصاص واستخراج الحديد الذي كان يؤتى به من أتربة مليانة لتجهيز قوالب المدافع الصغيرة ومواسير البنادق الطويلة، التي كان يصنعها الحرفيون الإيطاليون وأبناء البلد الذين بدأوا يتعلَّمون الصنعة بسرعة فائقة.

لم تغير أبدًا الكتائب من نظامها، حتى عندما كانت تمرّ عبر مختلف القبائل، كان الخلفاء وعساكرهم يلتحقون بموكب الأمير بدون إرباك للنظام العام.

بعد يومين من السير المرهق، ارتاحت العساكر الأميريَّة على حوافي جبل عمور لأخذ قسط من الراحة. عندما شارفوا على مدينة عين ماضي، ضربوا خيام المعسكر وتقدَّمت المدفعيَّة التي وُضعت على المرتفعات ووُجِّهت نحو أسوار المدينة، وبدأت الضربات التهديديَّة الأولى تنزل عليها بقوَّة قبل أن يتوقف الأمير في انتظار الإشارات الأولى من مقدم الزاوية، محمد التيجاني، وتمكين مبعوثيه من العودة إلى معسكره.

قبل أن يُنهي الأمير اجتماعه التنظيمي، كان مبعوث محمد التيجاني، مقدم الزَّاوية التيجانية قد وصل وفي يده رسالة. فسلَّمها بشكل مباشر للأمير الذي قرأها بصوت عال على مسمع خلفائه وقوَّاده والمجتمعين لتحديد خطط الهجوم على الزاوية وعين ماضي: **قولوا لأميركم لست عدوًا له ولا رجلاً منتفضًا ضدّ سلطانه وأنا مستعد، ومعي سكان عين ماضي والقبائل الموالية، للاعتراف بسلطانه، ولكنِّي مقدم زاوية ولا أهتم إلاَّ بما يربطني بالسماء. فأنا أرفض هذه الروابط الأرضية المحكوم عليها بالزوال. أجدادي الأوائل كانوا دائما ضحايا لهذه الأخطاء**

التي لا أريد تكرارها. أؤكِّد مرة أخرى على نوايانا السلميَّة ولكن إذا أصر الأمير على رؤيتي بهذا الشكل العدواني، عليه أولاً باختراق أسوار عين ماضي واختراق صدور أتباعي وخدمي.

سادت لحظة من الصمت. لم يتجرأ أحد أن يتفوَّه بكلمة. الرسالة كانت مسالمة لأنَّها تعترف بسلطان الأمير ولكنَّها عنيفة لأنَّها كانت تعصي أوامره وترفض أن تحاور الأمير وأن تمتثل لرؤيته. حتى تدخَّل الأمير بنفسه:

ـ وأنت يا السي عمر ابن الروش ماذا تفكر، ماذا نفعل مع هذا الطَّاغية الصغير؟

تململ ليون روش، مستشار الأمير الجديد، في مكانه قليلاً قبل أن يأخذ الكلمة:

ـ يا سيدي السلطان أرى أنَّ هذه وقاحة ويجب أن يعاقب عليها لا يمكن أن نتحدَّث مع سلطان كبير بهذه اللغة.

لكن الخليفة ابن التهامي تدخل بدوره حتى بدون أن ينتظر من الأمير رأيه في كلام ليون روش المستشار الخاص للأمير:

ـ لا يا السي عمر. مهمتنا واضحة في هذا المكان وصعبة كذلك، والأفضل أنَّنا إذا دخلناها أن ندخلها بيقين كبير وقناعة وصبر. نحاوره بشكل مباشر ولا أعتقد أنَّ مقدم الزاوية يرفض محاورتنا.

تدخَّل ليون روش هذه المرة بعنف شعر فيه ابن التهامي ببعض المبالغة:

ـ ولكنَّه أهان سيدي السلطان بهذه الرسالة.

ـ ولكنَّنا سنقوم بحرب مدمّرة وعلينا أن نعرف كيف تكون الخسارات أقل والنصر حليفنا نطالبه أولاً وبشكل واضح الامتثال للأوامر الأميريَّة. ثم نحن لا نعرف سمك الحيطان التي تحميه وقوة مقاومتها لضرباتنا

ـ المسألة لا تحتمل الانتظار. في هذه الحالة، قال الأمير، علينا أن نبعث بمن يختبر ويتأكَّد من قوة هذه الحيطان.

ـ أنا ذاهب يا سيدي، قال ليون روش وسأعود لك بالخبر اليقين.

ـ تعيش يا السي عمر ابن الروش. اللّه ينصرك مثلما نصرت الحق. رجل ومن صلب رجل. سيِّد المخاطر والمهام الصعبة. معدنك بقي صافيًا

قال الأمير وهو يرفع الجلسة الأولى.

ـ لا أقوم إلاَّ بواجبي الديني يا سيدي وما يمليه علي ضميري.

ـ خذ أحسن الفرسان وتحسس الحيطان والحالة العامَّة لمدينة عين ماضي. أريد أن أعرف رد فعل الناس وقدرات مدافعنا

كان مبعوث محمد التيجاني ينتظر في خيمة الضيوف الردَّ الموجَّه إلى سيده الذي طال، فبدأ يتململ قليلاً ولكنَّه كان مجبراً على الانتظار ولا يعرف إلى متى. المؤكَّد أنَّه سيُحمَّل برد عن مقترحات محمد التيجاني.

عندما تأكَّد ليون روش من قوة الأسوار يومًا بكامله، عاد في جناح الظلمة إلى المعسكر ووجهه مليء بالبارود والأتربة والأوحال.

فقد استطاع حتى أن يدخل إلى مدينة عين ماضي ويتعرَّف على تضاريسها والمشاكل التي تشغل بال الناس وتحديد الموقع الذي ينزوي فيه مقدّم الزاوية وحريمه وبقيَّة عائلته. كان ليون روش مرهقًا ومتعبًا، مرهقًا من شدّة الخوف من اكتشاف أمره هو والفرسان الذين صحبوه وبقوا على حافة المدينة. تأكَّد أنَّ المدافع الصغيرة التي جرَّها الأمير من ورائه لن تحدث شيئًا في الأسوار الضربات التخويفيَّة الأولى لم تحدث إلاَّ حفرًا صغيرة في جنباتها استطاع ليون روش أن يتحسسها وأن يقدر حتى أقطارها الحيطان التي لمسها عن قرب كانت قويَّة وليست مدافع الأمير هي التي تحدث فيها فجوات يمكن التسرب من خلالها، ويجب التفكير في شيء آخر

في عمق الليل دخل ليون روش على الأمير الذي كان ينتظره. كان واضحًا وصريحًا وجارحًا:

ـ سيدي السلطان، كل ضرباتنا غير مفيدة وآلتنا ضعيفة وليست ذات قيمة أمام سمك الحيطان، ونحتاج إلى مدافع من عيار أقوى كتلك التي يملكها الفرنسيُّون وسلطان المغرب. الخبرة التي اكتسبتها منكم علَّمتني ادخار المجهودات كل ضرباتنا كانت بارودًا ضائعا المدينة محصَّنة وتحتاج إلى اللومبارد الإيطالي لهزّها من عمقها

ـ ومن أين آتي بهذه المدافع؟ إذا لم نتوصل إلى إحداث الفجوات في عمق التحصينات سنحضّر لهجوم آخر للاستيلاء على المدينة، السلالم ليست شيئًا سيئًا كما اقترح علي في البداية بعض القادة، ويمكننا أن ندخل إلى المدينة حيث الحراسة المحدودة كما تحسستَها وأنت تكتشف أسرار عين ماضي.

ـ حتى هذا غير ممكن، فهم سادة المكان ويعرفونه أحسن منَّا، ثم إنّ العسس مسلَّح بشكل جيِّد وخسائرنا ستكون كبيرة لا محالة. يجب أن نفكِّر كثيراً قبل الإقدام على فعل مثل هذا. أقول لك ما رأيته يا سيدي.

ـ وماذا نفعل يا السي عمر في هذه الحالة إذن؟

ـ ننتظر قليلاً. نعمِّق الحصار كما تعودنا، نجوِّعهم ونعطِّشهم وبعدها نرى ماذا نفعل، وربما ستكون المدافع الفرنسيَّة التي طلبناها من ڤالي قد وصلت، ومن يدري! قد يستجيب سلطان المغرب نفسه لطلباتنا

تدخَّل أحد الخلفاء، ظل صامتاً منذ اللقاء مع خليفة لغواط.

ـ إذا سمح لي سلطاني أن أقول كلمة في هذا السياق، أنا لم أرتح لخليفة لغواط. لم يعجبني. وهناك أشياء كثيرة غير واضحة أولها: لماذا تعتدي قبائله على قوافلنا، لماذا يهجمون على جيوشنا

ـ أنت تعرف القبائل لا تنظر أبعد من أنفها، أغلبها يتشابه ونحتاج إلى تنظيم آخر لضبطها نعاني مما يعانون وأنت سيِّد العارفين.

ـ ومع ذلك يا أمير المؤمنين، لم أرتح للعريبي، خليفة لغواط مطلقًا. قلبي يحدِّثني بأنَّه ليس صادقًا في مسعاه. كان يمكن على الأقل أن يساعدنا، أن يكون معنا مثلاً.

ـ لا يمكن أن نشكك في رجل جاء يطلب نجدتنا وولاءنا، وإلاَّ ما معنى أن نتحدَّث عن دولة تحمي رعاياها؟ عندما ندخل في هذه

الأسئلة تذهب ريح الدولة، وإذا كان كاذبًا، سنعرف الحقيقة ونؤدبه إذا استدعى الأمر. ربما في قلبك شيء آخر غير هذا تريد قوله؟

قال الأمير وهو يرى خليفته في وضع غير المقتنع بما كان يقوله الأمير.

ـ ولكن يا سيدي لست مرتاحًا لهذه الحرب. الجنرالات يتحرَّشون بنا. قسنطينة سقطت. وقلاعنا في تكدامت لم ننته منها بعد نحتاج إلى وقت للسيطرة على منجزات التل وردّة القبائل المتمردة على سلطانك. قلبي يقول لي إنَّنا نرتكب خطأ كبيراً بدخولنا في عين ماضي. قلعة سبدو وقلاع سعيدة جنوب تلمسان وتكدامت جنوب معسكر، وطازة في الجنوب الشرقي من المدينة نفسها وبوغار جنوب مليانة وبلكروط جنوب المدية والجنوب الشرقي للجزائر وأخيراً بسكرة جنوب قسنطينة، كلُّها ورشات مفتوحة على الجهد والمبهم. لا أحد يضمن الآتي الكبير.

ـ مجهوداتنا بدأت تثمر خيراً.

قال الأمير وهو يحاول أن يجيب عن تساؤلات خليفته.

ـ بدون شكّ يا مولاي. المجهودات كبيرة ونحتاج يا سيدي السلطان أن ندخرها لمصلحة البلاد وهذه الفسحة من السلم. ولهذا أشعر يا سيدي أنَّهم يلهوننا عن عملنا الحقيقي الذي يجب أن نقوم به. ثم لماذا نقاتل من لا يعادينا. هل هذه المدينة مهمة لمستقبل البلاد الموحدة تحت رايتكم؟ أليس من الأجدر لنا أن نتكفَّل ببناء الدولة التي نريد إنشاءها وننسى عين ماضي؟

ردَّ خليفة آخر وهو يحاول أن يناقض كلام الخليفة الأول تمامًا.

ـ ما يراه أمير المؤمنين هو عين الصواب. ثم إنّنا نحتاج إلى مالهم لبناء البلاد. مالهم مجمّد لا يفيد المجهود الحربي في أيّ شيء. ما معنى أن يموت الناس وهم مرتاحون بين حيطان مدينتهم وقلاعهم وكأنَّ شيئًا لم يكن؟

ـ الأمر سهل، ردّ الخليفة، في هذه الحالة نطالبهم بتأدية الزكاة والعاشوراء، وإذا رفضوا دفعها نغزوهم كما نفعل عادة بالنسبة للقبائل الأخرى، رسالة التيجاني لا تظهر عداوته نحونا ويمكن أن يكون حليفًا لنا في المنطقة مادام مستعداً للاعتراف بسلطان سيدي.

ـ وماذا نقول للأربعة آلاف فارس الذين ينتظرون في الخارج للهجوم، الليل والمتاعب والقلق والخوف من الهجومات الغادرة؟ وماذا تقول القبائل عنّا؟ إنّنا فشلنا أمام ربع رجل، قامته نفسها لا تقنع أحداً ولا يعرف شيئًا آخر إلاّ الزاوية والنوم بين أحضان النساء؟

ـ أمير المؤمنين كفيل بإقناع الجميع، يملك الآلة التي تؤدب عند الضرورة

خَفَّف الخليفة الثاني من حماسه عندما رأى إصرار الرجل على المهادنة والسلم. تدخل الأمير ليفكّ من حالة الصمت موجّهًا كلامه إلى الخليفة الذي بدا متردِّداً بشأن هذه الحرب الخاسرة حتى قبل انطلاقها.

ـ إنّي متيقن أنَّ كلامكم لا يصدر إلاَّ عن قلق وجدنا أنفسنا فيه. الحروب لا تمنعنا من إنهاء مشاريعنا الجميع صار يعرف اليوم أنَّ أمورنا في طريقها الصحيح. أدوات السّك، تسكُّ العملة في تكدامت مختومة كما أمرنا: على الوجه الأول: هذه إرادة اللّه، وعلى

الوجه الثاني: ضربت في تكدامت. ووضعنا أثنتي عشرة قطعة مدفعيَّة وستة مدافع بعيدة المدى على حصون تكدامت وصار اختراقها صعبًا. الأقبية الرومانيَّة يتمّ الآن استغلالها كمحلات أو كمصانع صغيرة لتحويل الحديد والكبريت والرصاص. كل الآليات التي جاء بها الميلود بن عراش من فرنسا يتمُّ الآن تشغيلها انتهينا من الهياكل المركزيَّة وبدأ الأوروبيُّون يشغِّلون المصانع الصغيرة التي بنوها في عمق تكدامت. عندنا في تلمسان، مختصّ اسبانيٌّ يسيِّر مصنع إنتاج قوالب المدافع من عيار الإثنتي عشرة بوصة والست بوصات. في مليانة الفرنسي دو كاس[1] بنى فابريكا صغيرة للبنادق والبارود. وقد دعونا الكثير من الأوروبيِّين للمجيء للاستقرار والعمل في بلدنا وسمحنا لهم حتى بالتملُّك. نريد أن نستفيد منهم ومن خبرتهم وأن نبني هذه البلاد على أسس صحيحة وقارة. نطمح من هذه الحضارة أن توقظ هذا الشعب النائم على الكذب. نظَّمنا الجيش تنظيمًا محْكمًا بعيداً عن النزعة القبليَّة المقيتة. أستطيع اليوم أن أقول إنَّه صار بإمكاننا أن نتحرَّك أينما شئنا، لدينا تحت تصرُّفنا على الأقل ثمانية آلاف من المشاة وألف خيَّال جاهزون للقتال في اللحظة، وأكثر من مئتي مدفعي وعتاد حربي كبير يسمح بالمقاومة مدَّة طويلة. وأستطيع عند الحاجة الماسة، أن أمدّ خلفائي بألف من المشاة على الأقل ومئتين وخمسين فارسا خيَّالاً وثلاث قطع حربية من المدفعيَّة، وثلاثين مدفعيًّا متمرِّسًا ونتمنى أن نستفيد من خبرة الفرنسيين لخلق جيش نظاميٍّ عتيد

---

١ - De Casse

ـ هذا ما أريده يا سيدي السلطان. كل هذه المكاسب الكبيرة تظل غير فاعلة إذا لم تستقر ويستفيد منها جيشنا. مازلنا في قلب النار. هل تتصورّ النتائج لو ينقض الفرنسيُّون المعاهدة؟

ـ على القبائل أن تفهم أنَّه لا سلطان فوق سلطان الأمير.

ردّ ليون روش وهو يضع الخطط أمام الأمير لكل التحصينات والموقع الذي يوجد فيه مقدِّم الزاوية التيجانية.

ـ لا يوجد حلّ آخر سوى التجويع واحتلال الآبار المجاورة ومنها نقاط الماء. إذا لم يعطشوا فلن يخرجوا. رَدُّ المقدم محمد الصغير التيجاني الأخير لم يعد يترك مجالاً للشكّ. لا يمكن أن نتحدّث مع السلطان بهذه اللغة: **«عندما كنت سلطانًا لم تكن أنت إلاَّ غراً ولا أفهم ما الذي أتى بك إليَّ؟ ربما تظنّ بأنَّك أمام نساء لا حول لهن ولا قوة، سترى أسود هذه المدينة التي لن تعود لها»**.

شعر الأمير بوخز في عمق قلبه وباعتداء على صفائه وجبروته.

ـ ابن الكلب، تمتم الأمير، سنرى من هي الأسود ومن هي القطط.

ثم غادر الاجتماع مصحوباً بليون روش. كان النقاش قد أوقف نهائيًا وأصبح خيار الحرب والحصار هو الخيار الأساسيّ للأمير وجيشه. حتى الذين كانوا ضدّ الهجوم انصاعوا للقرار النهائيّ.

ـ لتمت ذريَّتهم وأبناؤهم وذووهم وكلابهم عطشًا وجوعًا.

قالها الأمير بشكل بارد برزت معه عيناه الزرقاوان ووجهه الذي علاه قليل من الاصفرار مثل وجه كاهن مسيحي.

حُوِّطت مدينة عين ماضي من كل جهة ومنع الداخل إليها والخارج منها. تمَّ الهجوم على الحدائق المحيطة بها وحرقها وتدمير أسوار المدينة الواطئة. احتُلت العين في الشمال الغربي لعين ماضي، والتي تنزل من جبل عمور لتموت في رمال الواحة التي تقطنها أربعمئة عائلة والتي تروي المدينة وحدائق وحقول المقدم وحاشيته. احتُلَّت السواقي الصغيرة المحيطة بعين ماضي وأُغلق عليها بإحكام، ورُدَّ كلّ من حاول الاقتراب منها بالتهديد والتخويف أو السجن بالكلمات المكرورة.

ـ روح قل لسيِّدك يعطيك تشرب، بركته تنزل الماء من السماء والأرض.

تحت قهقهات بقية العساكر التي كانت تطوِّق المكان.

كان الصيف حارًّا، والجثث تتفسَّخ بسرعة. الثمانون قتيلاً في صفوف الأمير دُفنوا بسرعة في مقبرة جهِّزت لغرض المعركة كما هي العادة، بينما الجرحى كانوا يُقتادون إلى الخيمة الواسعة حيث كانوا يداوون بالسمن المغليِّ وصفائح الحديد الساخنة والرماد وبعض الأدوية التي بعثها ڤالي إلى الأمير.

كان الأمير على حصانه الأسود مصمِّمًا على الانتهاء من مرابط عين ماضي، خصوصًا بعد وصول مدافع الماريشال ڤالي الأربعة والبارود والعتاد الحربي المختلف الذي سبق للأمير أن طلبه ومدفعي السلطان مولاي عبد الرحمن الذي طلب مساعدة الضبَّاط الفرنسيِّين لتسهيل مهمَّة تمريرهما إلى الأمير.

بعد أيام قليلة، كانت الآلة الحربيَّة جاهزة للهجوم النهائي.

* * *

- ٣ -

ـ أين وصلنا يا سارجان حسن[١] في عمليات الحفر التي لا تنتهي؟ الوقت يمر بسرعة. لقد أمضينا وقتاً كبيراً، وإذا لحقت بنا أمطار نوفمبر ستمتلئ الأنفاق بالماء وسيذهب عملنا أدراج الرياح. هذا إذا استطعنا أن ننجو بجلودنا

ـ كل شيء صار جاهزاً. نحن الآن على عمق خمسة أمتار أو ستة. نستطيع أن نقول إنّنا وصلنا إلى عمق المدينة من تحت. نوجد الآن بالضبط تحت سكن التيجاني أو لنقل تحت مقامه الخاص. أنجزنا المهم. تحت الأسوار حفرنا ثمانية ممرّات أساسيّة وحشوناها بقناطر من البارود السريع الاشتعال الذي وصلنا من الجنرال ڤالي. الانفجار إذا حدث لن يترك من التيجاني شيئاً ولا من عائلته. كيف حال الحمّى يا سيِّد ليون روش؟

١ ـ Le sergent Hassan le hongrois

قال حسن النمساوي وهو يسحب فتيل التفجير من عمق الحفر، حيث وضعت المتفجِّرات تحت السور الخلفيٌّ لعين ماضي .

ـ لا بأس . ولكنِّي أشعر بإرهاق كبير

ـ كـان عليك أن تبـقى في الخـارج بدل التـوغل في هذه الدهاليز

ـ أردت أن أتأكَّد من سير الوضعية بنفسي حتى يمكنني من تقديم تقرير تفصيلي للسلطان عن سير الأعمال .

ردّ ليون روش مرة أخرى، وهو يحاول أن يخرج الفتيل الذي التصق بصخرة من الصخور وكاد أن يتقطّع بقوّة الشدّ التي كان يقوم بها حسن النمساوي، قبل أن يدخل الفتيل في القصب المحروق حتى لا تفسده الرطوبة . أخرج الخيط إلى الخارج ثم بدأ يغطي المنافذ بالصخور بمساعدة العمال الذين كانوا في الخارج . ثم عاد ليون روش نحو المعسكر تاركًا وراءه البقية تحت قيادة حسن النمساوي .

ـ يا حسن أنت مركز قوَّة ما نقوم به اليوم وتأثيره على سير المعركة كبير جدًّا ليس من السهل السهر على كل هذه التفصيلات . المسؤوليَّة ضخمة

ـ أعرف يا سيدي . سأبقى هنا مع الحرَّاس . ثم إنَّنا في عمق حديقة عين ماضي، الماء والخضرة والخير الكثير اهتم يا سيدي أكثر بصحَّتك، أنت في وضع صعب ووجهك أحمر مما يدلّ على أن الحمى ما زالت تأكلك داخليًّا

ـ سأعود لأخبر سيدي السلطان بكل التفاصيل .

كان المرض قد اشتدَّ على ليون روش وحرارته زادت ولم يقطع الكيلومترين الفاصلين عن المعسكر إلاَّ بصعوبة كبيرة. سقط مرتين من على الحصان. عندما وصل، كان برنوسه قد امتلأ وحلاً وطميًا. استقبله الأمير في خيمته بسرعة إذ بمجرد وصوله، سُمِحَ له بالدخول على الأمير.

ـ سيدي السلطان لقد انتهينا

ـ يهمّني وضعك يا السي عمر. أنا لم أطلب منك تقريراً عن عملك. ارتح أولاً كيف حسن النمساوي وبقية الفرسان؟

ـ كلُّهم بخير يا سيدي ويهدونك سلامهم ولا يطلبون إلاَّ رضاك.

طلب الأمير أن تُحضر لليون روش ألبسة نظيفة وأن يُحضر له كأس من الشيح. شربه بصعوبة لشدّة مرارته ثم طلب منه أن يتمدَّد قليلاً وأن يضع رأسه على ركبته ولا يتحرَّك أبداً، فامتثل ليون روش للأوامر مثل الطفل الصغير. أغمض عينيه طويلاً قبل أن يضغط الأمير على ناظره الأيمن بلطف شديد حتى نام ليون روش وعندما استيقظ في منتصف الليل كان المرض قد توقف نهائيًا وشعر برأسه على كتفيه. حرَّكه يمينًا وشمالاً حتى بدا له أنَّه كان يحلم وأنَّ كل ما رآه وفعله لا يعدو أن يكون كابوسًا. لم ير شيئًا وهو يفتح عينيه إلاَّ وجه الأمير وبريق عينيه الزرقاوين تحت نور القنديل الزيتي، الذي لا يتوقف عن الاشتعال طوال الليل في خيمته الواسعة. كان الخادم قد انتهى من شوي رمَّانة بقشورها، سلَّمها له لأكلها ففعل وهو يصيخ السمع إلى المدافع التي زادت قوَّة وحدّة.

ـ الحرب تزداد حدّة.

ـ مناوشات، لم نبدأ بعد الهجوم الحقيقي، ردّ الأمير.

بينما كانت الحركة في الخارج قد تعدّدت. يعرفها ليون روش من كثرة نحنحة الأحصنة وضرب الحوافر على الأرض. فقد وصل سيدي محمد سعيد، مرابط سهل اغريس، أخو الأمير مصحوباً برؤساء القبائل على رأس جيش كبير جاء لمساعدة الأمير ولتعقيله في الوقت نفسه لتفادي التصادم الدموي مع محمد التيجاني، مقدم الزاوية التيجانية. بينما في الخارج كانت بين الفينة والفينة تُسمع أصوات الانفجارات والقذائف التي بدا وكأنّها كانت تبتعد مثل الرعود العابرة. عندما سأل ابن التهامي هل من حلّ؟ قال الأمير:

ـ يا السي مصطفى، اللي ما يرضى بالخبزة، يرضى بالنص. أسوار عين ماضي تتعرّض الآن لقصف غير مركّز لمدفعيتنا. لقد وفى الماريشال ڤالي بوعده، مدافعه الكبيرة وصلتنا

شعر مصطفى بن التهامي بمغص في أعماقه ولكنّه لم يقل شيئاً على الرغم من الارتسامات التي تزحلقت على وجهه. حاول أن يغيّر الحديث مذكّراً الأمير بما هو أهمّ.

ـ إنّهم يطاون على المعاهدة يا سيدي.

ـ حتى الآن، قبائلنا هي التي تخرّب كل شيء. الفرنسيّون ملتزمون بما وعدوا به على العموم. والمسؤوليات في ذلك واضحة.

ـ قسنطينة سقطت بين أيدي ڤالي كما تعرف، دامريمون الذي كان محسوباً على المعتدلين مات برصاصة في الرأس في الهجوم على

قسنطينة. تريزل، رولهير، ڤالي، فلوري ودوق النامور[1] ابن الملك الثاني شاركوا في الحملة، والباي أحمد الذي قاوم الفرنسيِّين ظل وحيداً حتى انسحابه نحو الصحراء. ألا ترى يا سيدي أنَّ قوانا متفرِّقة وأنَّ الاتفاقية لم تعد إلاَّ حبراً على ورق؟

ـ يا السي مصطفى، من مصلحتنا أن لا نكون البادين بالاعتداء وخرق المعاهدة. أنا لم أختر هذا الوضع، والحرب مع الفرنسيين لن تقود إلاَّ إلى تدمير ما بنيناه الحرب مع محمد الصغير لها معنى آخر. نحتاج إلى فرض قوانا وإلا ذهبت أخبارنا مع الريح.

كان الانفعال باديًا على الأمير وهو يتكلَّم

دخل عليهم الباش طوبجي، محمد ولد الكسكسي المكلَّف بتجريب المدافع الجديدة، بعد أن استأذن من حرّاس الأمير:

ـ ماذا وراءك يا السي محمد؟

ـ يا سيدي، المدافع التي وصلتنا من الماريشال ڤالي أحدثت فجوات حقيقيَّة في الأسوار والتحصينات، ويمكننا بدء الهجوم من الآن، لأنَّهم على الرغم من الجوع والعطش والأمراض، بدأ سكَّان عين ماضي يرممون الحيطان والتحصينات. لسنا في حاجة لاستعمال المدافع الأربعة مجتمعة ولا مدافع ملك المغرب ولا كل الذخيرة القويَّة. السكان في حالة إنهاك كلَّيٍ ورعب.

ـ هل يمكننا أن نمر بخيلنا.

[1] Le duc de Nemours, deuxième fils du roi Louis Philippe.

ـ المشاة يستطيعون الدخول بدون أيّ إشكال ويفتحون لنا الأبواب. ثم إنَّ الناس جياع وبدأوا يأكلون القطط والفئران والكلاب وجذور النباتات. وأحياناً يقتلون بعضهم بعضاً من أجل كسرة خبز. لقد توقفوا عن دفن موتاهم. الآن، يجب كسر شوكتهم والاستيلاء على مالهم ونسائهم.

أثناء كل الصبيحة لم تتوقَّف المدافع الفرنسيَّة والمغربيَّة بعتادها ومشرفيها من الفرنسيِّين عن الضرب والدَّك المتواصل. لا شيء يُسمع في الأفق إلاَّ صوت القذيفة وهي تخرج من فوهة المدفع الواسعة مصحوبة بأدخنة وهزَّات عنيفة ودهشة الحاضرين، الذين يرون لأول مرة هذه الآلات المدمِّرة التي تجرها عربات خاصَّة تسهِّل من حركتها ومناورتها أو وهي تنزل على الجهة اليسرى من مدينة عين ماضي محدثة فجوات وفراغات كبيرة في الأسوار والساحات، مصحوبة ببقايا صرخات كانت تأتي متقطِّعة من بعيد

صلى الأمير صلاة الظهر مع قادته وضيوفه واستغلَّ الفرصة للحديث عن الأوضاع المستجدَّة خصوصاً بعد وصول الأسلحة الجديدة.

ـ أيُها الناس، بدءاً من اليوم ستدخل الحرب يومها الحاسم وسيعرف هذا الطاغية الصغير بأنَّ الزمن تغير وعليه أن يدرك بشكل نهائيٍّ أنَّ هناك سلطاناً واحداً ووحيداً في هذه البلاد، بايعته كل القبائل وأقسم أن يدافع عن راية الإسلام. وسأحارب كل من ينكر سلطاني الذي هو سلطان اللّه. وكل من ساعد أعداءنا فهو عدو لنا وعدو لدينه. أؤكِّد للذين يستشهدون في هذه الغزوة وهم يحاربون المرتدِّين وراء الأسوار، أنَّ جزاءهم عند اللّه كبير وفي الأرض سيكرَّمون مثل الذي حارب الغزاة والكفَّار.

تململ ابن التهامي في مكانه قليلاً ثم طلب الكلمة:

ـ نحمد اللّه يا مولاي على الانتصار العظيم الذي من به اللّه عليكم. الأعداء قد عرفوا حجمهم الحقيقي وعرفوا أنَّك جادّ في تدميرهم عن آخرهم. ولهذا أطلب، أن نعطيهم فرصة للتفكير، تسمح لقواتنا بالاستراحة ولهم بالتعقُّل إذا كانوا عاقلين وإلاَّ فليتحمَّلوا مسؤوليتهم أمام اللّه.

ـ لقد بدأوا والبادئ أظلم يا السي مصطفى.

ـ إنَّهم من ديننا يا سيدي، فلنمنحهم مخرجًا على الأقل.

ـ ماذا ستقول عنَّا القبائل التي تنظر إلى هذا الهجوم بتحسس كبير؟ والذين ماتوا ماذا نقول لذويهم؟ وماذا يكتب عنَّا العرب، إنَّنا فشلنا في تركيع شيخ زاوية وندَّعي أنَّنا سنُخرج الغزاة النصارى من أرضنا الذين يُعدُّون بالآلاف؟ فات الأوان يا السي مصطفى، الكلب يعض دائمًا على اليد التي تُقدّم له، لقد تكلَّم البارود بيننا وسال الدم وطاحت الكثير من الرؤوس. بيننا وبينهم الموت والنار.

لم يضف ابن التهامي ولا كلمة ولكنَّه التحق بفيلقه بسرعة، في انتظار أوامر الأمير، وفي قلبه شيء آخر لم يقله كعادته في مثل هذه المواقف.

ـ أمرك يا سيدي، أتمنَّى أن لا نكون قد أخطأنا في حساباتنا.

ـ هذه مسؤولية القائد، قالها الأمير بشكل جدّ جاف.

بعد ثلاثة أيام من الدَّك وعشرين يومًا أخرى من الحصار بدأ الزحف مرة أخرى، فتم الاستيلاء في البداية على ما تبقى من

الجنانات والسواقي المحيطة بالمدينة وضواحيها ودفاعاتها الصغيرة المتقدِّمة ومُسح كل شيء فيه الحياة، البشر والقطط والكلاب والجراد والحيطان والنباتات. أُحرق حتى الرماد.

بعد صلاة المغرب عاود ابن التهامي الكرَّة ولكن هذه المرة بصحبة أخيه السي سعيد، مرابط سهل اغريس الذي كان قريبًا من التيجانية.

ـ جنودنا أنفسهم تعبوا يا أمير المؤمنين من طول هذا الحصار ونتائجه، وبدأ التململ والرغبة في العودة إلى الديار يظهران بشكل علني. وسكان عين ماضي وضعوا الموت بين أعينهم وسيقاومون لأنَّهم لا حلّ لهم. سننتصر عليهم بدون شكّ، ولكنَّهم سيطيلون مدَّة الحرب. رمضان على الأبواب، ألا يجب أن نجنح نحو السلم. كلّ الرسل الذين بعثوا بهم يريدون ذلك. نفتح لهم باب الخروج سالمين، وإذا رفضوا، سنحرق الأخضر واليابس وكل ما بقي واقفاً وندخل في عمق المدينة ونبيدها بمن فيها

تردَّد الأمير للحظة من منطق كلام ابن التهامي وأخيه ثم أجابه، مصوِّبًا نظره أكثر باتجاه السي سعيد:

ـ أنت أخي الأكبر وآراؤك أكثر حكمة مني، ولكن مثل هؤلاء الناس يجب أن لا نضيِّع وقتنا معهم. لولا السكان الذين هم وراء التحصينات لأحرقت هذه المدينة على رؤوس سكَّانها ومع ذلك، افعل ما تراه صالحًا معهم.

ـ إن شاء اللّه خير. سنذهب إلى المقدّم اليوم ونحاول أن نقنعه بضعف رأيه وبهلاكه إن هو أصر على المقاومة.

ـ واش تحب نقول لك؟ إن شاء اللّه تنجحون في إقناعه. خذ معك السي مصطفى والسي عمر ولد الروش فهو يعرف المنطقة وناس عين ماضي جيّداً وحاول، ربما استطعت إقناع دابَّة رأسها خشن، لا يهزّه إلاَّ البارود إذا تكلَّم عند رجليها.

ابتلع مصطفى بن التهامي ريقه بصعوبة كبيرة ولم يُضف شيئًا

فجأةً سكن كل شيء بعد الأمر الذي أعطاه الأمير. ارتاحت العساكر بدون أن تغادر مواقعها المتقدِّمة. كان ابن التهامي ومحمد السعيد وليون روش قد توصلوا إلى الدخول بدون معوقات واستقبلوا باحترام من كوة صغيرة فُتحت للمفاوضين، مما أكَّد للأمير أنَّ سكان عين ماضي لانوا عمَّا كانوا عليه في البداية من غطرسة. فتح الكوة كان علامة رغبة في الوصول إلى شيء.

في المساء عاد الرجال الثلاثة وفي يد ابن التهامي ورقة موقَّعة من مقدم الزاوية، محمد الصغير التيجاني وابن التهامي، من ست نقاط: **التيجاني سيدفع للأمير قدرًا من المال يوازي الخسارة الحربيَّة التي تسبب فيها الحصار والهجوم. التيجاني وعائلته وأتباعه يخلون المدينة في مدة لا تتجاوز الأربعين يوما، ويستعملون لذلك وسائل النقل التي يوفرها لهم الأمير، ومن حقّ التيجاني أن يأخذ معه ماله وحريمه ولسكان عين ماضي الحقّ في أن ينقلوا معهم متاعهم لمن أراد أن يتبع المقدم. ويلتزم الأمير برفع الحصار والانسحاب ثمانية أقدام عن المدينة طوال مدة التهيؤ لمغادرة المدينة، أي أربعين يومًا ولضمان هذا الانسحاب يضع شيخ الزاوية ابنه واثني عشر من خيرة أتباعه رهينة بين يدي الأمير حتى يتأكَّد من نوايا مقدم الزاوية الحسنة.**

استغل الأمير الفرصة لتقليد قواده الرتب العسكريَّة بمناسبة بلائهم الحسن ودفن الموتى وإعادة ترتيب الجيش وتشحيم المدافع وتنظيفها، والتفكير في صنع مدافع شبيهة بتلك التي وفَّرها له الماريشال ڤالي، إذ بواسطتها يستطيع أن يشقّ الصحراء.

سأل الأمير ليون روش عن صمته وهو يسبح:

ـ السي عمر، الصمت ليس من عوائدك سنكاتب الجنرال ڤالي بمناسبة ارتقائه إلى رتبة ماريشال، إذا كان بإمكانه أن يمنحنا المزيد من المدافع ويسهِّل لنا نقل هذه الصناعة إلى تكدامت، أليس هذا هو مقترحك؟

ـ اللي يشوفو مولاي هو الصحّ. ولكنِّي كنت أتمنى أن تمنحنا فرصة الشهادة أو أن نَحرق كل من يشقّ عصا الطاعة لسيدي. هذه المدينة كافرة وخائنة، ووجب حرقها بلا رحمة. ولكن الحكمة أمر جيِّد دائمًا والخلاص بهذه الطريقة سمح لنا ادخار قوانا، فالعساكر تعبت كثيراً.

ثم التفت الأمير نحو أخيه:

ـ عليَّ أن أكتب رسالة أخرى لشكر سلطان المغرب. عليه أن يعرف بأنَّ الشعب الجزائري صار اليوم تحت راية واحدة. الطرق صارت اليوم سالكة وليس في نيّتنا أن نقلِّل من سلطانه كما أوصل له الوشاة. فإذا أراد السلطان أن يبعث بأحد أبنائه أو حفيده أو أيّ شخص يثق فيه ليدير الحكم في البلاد فمرحباً به، فنحن مستعدُّون للتعامل معه. وسيزيل عنِّي ثقل المسؤولية التي لم أعد قادراً على

تحمُّلها سأكلفك بهذه الرسالة وبكل هدايا ملك الفرانسيس لويس فيليب ما عدا المسدسين، لتأخذها له كعربون وفاء. لم أعد في حاجة إليها. تنقلاتي لا تسمح لي بأيّ شيء في هذه الدنيا إلاّ نصرة الحقّ وتحرير هذه الأرض من الاستعمار وطغيان القبائل الجاهلة.

ـ أنا سعيد أنّ الحكمة هي التي انتصرت في الأخير يا سيدي.

قال خليفة معسكر، مصطفى بن التهامي، وهو لا يستطيع أن يخبئ غمرة الفرح التي كان فيها. بفضله تفادت عين ماضي حمَّام الدَّم.

ـ لم نعد نرى خليفة لغواط، قال مصطفى بن التهامي؟ ألم يكن من المفروض أن يلتحق بنا بخيَّالته ومُشاته وبنادقه؟

ـ العكس هو الذي يحدث. قبائله المتشرِّدة صارت تعترض قواتنا في الطريق، أكَّد محمد السعيد وهو يحاول أن يفكّ حالة الارتباك التي بدت على وجه الأمير.

لم يردّ الأمير على تعليقات أخيه وصهره سوى بكلمات ارتعشت مع ارتعاشات المسبحة التي لم تغادر يده أبداً:

ـ غداً إن شاء اللّه، ربي يجيب الخير. أريد أن أنام قليلاً، رأسي يكاد ينفجر.

ثم انسحب أولاً نحو خيمة الرهائن، اطمأن على حسن المعاملة ضاربًا على كتف ابن التيجاني:

ـ لا تقلق يا ابني، رحمة اللّه واسعة. أتمنّى أن يلتزم والدك بشروط المعاهدة وتعودون إلى ذويكم في أقرب وقت إن شاء اللّه.

ثم سار الأمير نحو خيمته وهو يحاول أن يلملم برنسه الذي انفتح في جانبه الأيسر على غير العادة إلا عندما يكون متعباً. كان الليل في هزيعه الأخير.

صلى ثم نام ولم يقرأ شيئًا عندما حاول أن يفتح كتاب ابن خلدون، لم يفهم الشيء الكثير من كثرة التعب، فتمدَّد ونام.

اقتيد أكثر من مئتي جمل ذوات بنيات قوية عند بوابات المدينة ووُضعت في خدمة سكان عين ماضي لاستعمالها في نقل الأثاث والحاجيات الأساسيَّة. بدأ انسحاب المقدم التيجاني قبل الوقت. حُملت بالصغيرة والكبيرة ودُفعت نحو شق الرمال. من بعيد كانت تُرى القوافل وهي تتدحرج الواحدة وراء الأخرى، تسير بهدوء، جماعات جماعات باتجاه منجرفات بني ميزاب. النساء، حريم وأبناء مقدم الزاوية، الأطفال، الرجال، كل واحد يحمل على ظهره شيئًا بالإضافة إلى حمولات الدواب. لا تسمع إلاَّ تنهدات الجمال المخنوقة وهي تنزل قوائمها بصعوبة بسبب كثافة الرمل والأثقال التي كانت تنقلها على ظهورها المنهكة.

وفي عز برد الشتاء القاسي الذي يدخل كالسوسة بين العظام، كل شيء يتجمَّد ليلاً ولا ينسحب الجليد إلاَّ في ساعات متأخِّرة من الصباح لتصعد شمس صفراء لا فعل لها في إزالة البرد. انسحب التيجاني باتجاه بني ميزاب في هودجه كالعروس، وراءه عبيده ورجاله الأوفياء الذين نبتوا في المدينة ورأوا أجيالاً بكاملها مرت عبر هذه الواحة التي لم يدخلها أحد إلاَّ وجد فيها ظلاً يأويه وماء يرويه. هكذا كان يُحكى في قصص الأولين.

كان الأمير قد خطط للبقاء في عين ماضي بحامية عسكريَّة دائمة، واستعمالها كنقطة متقدِّمة لمواجهة القبائل المتمرِّدة أو تلك التي تخرج عن سلطانه، ولكنَّه فجأة بعد صلاة العيد الصغير وبعد المغافرة، غيَّر رأيه وشعر أنَّه لم يعد بحاجة إليها، فقد ضيعت له الوقت والأنفس.

ـ ليون! أريده أن يحضر بسرعة.

بعد لحظات كان ليون روش قد حضر إلى خيمة الأمير.

ـ أمر سيدي.

ـ أنت تعرف ماذا بقي لك أن تفعل. لم أكره مدينة في حياتي مثل هذا الوكر الملعون. حرقها لا يُخسر الأمة شيئًا.

لمع بريق من السعادة في وجه ليون روش.

ـ طلبات سيدي أوامر.

لم ينتظر ليون روش كثيراً، فأعطى أوامره لحسن النمساوي الذي لم يكن ينتظر إلاَّ ذلك. فجأة سمع دويٌّ عنيف تطايرت إثره أسوار المدينة عاليًا في الفضاءات الواسعة ولم يعد مقام التيجانية إلاَّ ركاماً من الحجارة والأتربة. وقبل أن ترتفع ألسنة اللهب عاليًا وتغطي الأدخنة الكثيفة السماء أعطى روش والأمير الأمر للفيالق الأولى فبدأت بحرق كل شيء، المساكن الفارغة والحدائق وحقول القمح والتبن والخيام والمطامير.

تأمَّل الأمير وبجانبه مستشاراه الحربيان، ماريوس غارسان ونوبل مانوشي، مشاهد النار وهي تشق صدر السماء عاليًا لم يعد

بالمدينة شيء حي، حتى الكواسر التي بدأت تحوم كعادتها على بقايا المدينة سرعان ما اندثرت تحت كثافة الأدخنة والنيران التي منعتها من الاقتراب من المكان. تمتم الأمير أو تحدَّث لأحدهم وهو ينظر نحو الفراغ. كان أخوه السي سعيد ومصطفى بن التهامي قد انسحبا نحو الخيام عندما شُرِعَ في تدمير عين ماضي:

ـ هكذا يبدأ الطغيان وهكذا ينتهي في قلب الرماد. ثم رمى نظره بعيداً، من وراء مدينة عين ماضي، فلم ير شيئًا سوى نيران أخرى متقدة ورماد وصرخات أطفال وأنين نساء حوامل في شهورهن الأخيرة. ركب حصانه وعاد نحو معسكره.

لم يقل شيئًا ولكنَّه التفت نحو الفراغ حيث لا شيء إلاّ السكينة والصمت وصوت سقوط الأنداء وأمطار الشتاء الأولى. تذكَّر فجأة الفيافي التي قطعها والوديان والسدرة ونباتات الشيح والحرمل والقندول والأشواك التي تدمي الأرجل.

أراد أن يكلِّم ليون روش ويسأله عن حماسه لحرق المدينة وعن المدة التي دام عليها الحصار، من ١٢ جوان حتى ٢ ديسمبر، تاريخ رفع حالة الحصار، ثم حرق المدينة الذي انتهى يوم ١٢ جانفييه ١٨٣٩ ولكنَّه فضل أن يصمت. وواصل تأمُّله للحرائق التي زادت قوتها لكن ليون روش حاول أن يخرجه من حيرته:

ـ لقد خرج محمد الصغير منها منكسراً مهزوماً كالفأر

ـ يستاهل. اللَّه لا يرده. ولكنَّنا أضفنا إلى قائمة الأعداء، التيجانية بكاملها وربما حتى بني ميزاب الذين آووه. ستكرهنا هذه

القبائل حتى يغير اللّه أحوال هذه البلاد ويجعل منها أرضًا واحدة. ليكن. لا قوة لنا تجاه ما سطره لنا اللّه في الطريق.

ـ ولكن يا سيدي، الحروب دائمًا هكذا وسيأتي من يمسح الجراحات القاسية ويعيد المياه إلى مجاريها لقد نزعت شوكة عن طريقك وكسبت رضى الماريشال ڤالي وسلطان المغرب مولاي عبد الرحمن.

في المساء، لم يبق الشيء الكثير سوى توزيع الأوسمة على الجند المتبقين ودفن الأموات الجدد من شدّة البرد والجراح الغائرة، وبوم ينعق في الخراب والغياب الملتهب المغلف بشمس كانت في نزعها الأخير، أشعتها كانت تتسرّب وراء النخلات القليلة التي بقيت واقفة في المدى البعيد. أحس بصرخات الناس التي كانت تأتي من بعيد مصحوبة بقهقهات جنده الذين احتلوا كل زوايا المدينة.

انسحب نحو خيمته ولم يكلِّم أحداً.

* * *

ـ ٤ ـ

سلم قدور بن محمد برويلة، كاتب الأمير، عوده للسايس الذي كان يقف بجانب الخيمة ثم نحنح وهو يرفع قماش مدخل الخيمة الخشن ويدخل عندما أذنت له لالة الزهراء، أم الأمير بذلك.

ـ تفضَّل يا السي قدور، السلطان يستناك.

ـ شكراً يا لالة الزهراء. هل مولاي السلطان قام من نومه. البارحة سهرنا حتى ساعة متأخرة لترتيب كتابه الجديد ولا أريد أن أزعجه. على كل حال هو الذي طلب منِّي أن ابكر. الدنيا معطاة للي يبكر مش للي يصبح ناعس، هكذا يقول ناس بكري يا لالة الزهراء.

ـ أوصاني بك. نعم. يتوضا ويصلي ويلتحق بك. تعرف سيدي عبد القادر قام قبل ساعتين. قرأ قليلاً قبل أن يتهيَّأ لصلاة الصبح. والتقى بقواده العسكريِّين البارحة بعد ذهابك واليوم فجراً. نهار اليوم زين في مليانة.

ـ المسؤولية التي على ظهر سيدي كبيرة ويحتاج إلى قسط من الراحة. خصوصاً في هذه الأيام الصعبة التي عادت فيها فكرة الحرب من جديد

ـ تفضل، تفضل. البارحة عندما خرجت وخرج قواده ناقشناه أنا وأخوه والسي المصطفى بن التهامي في ما ينوي فعله. قال إنَّه يشعر بالإرهاق الكبير ويريد أن يترك كل شيء وهو صادق في ذلك، ولكنَّه يشعر كذلك بأنّ ديناً ما يزال على ظهره وعليه أن يقوم بتأديته. واللّه وحده يعلم متى يفرج كربته. تفضَّل، تفضَّل.

ـ اللّه يزيد فضلك يا لالة الزهراء.

جلس قدور بن محمد برويلة كعادته القرفصاء، طاوياً رجليه تحته ورافعاً ظهره قليلاً إلى الأمام في هيأة من ينتظر أمراً ليقوم بسرعة وبدون تثاقل. وضعت لالة الزهراء أمامه غَلاَّية من القهوة على مجمر متّقد وعلى جنباته قطعة من الخبز الأبيض كانت تتجمر بهدوء على نار غير مرئيَّة ولكنَّها كانت تشعّ دفئاً كبيراً

ملأت لالة الزهراء الفنجان ثم قدّمته لقدور برويلة الذي كلّما دخل إلى هذه الخيمة لتسجيل انطباعات الأمير أو أفكاره، اندهش من بساطة هذا الأخير ومن ممتلكاته. فقد كان برويلة، وهو الرجل البسيط، يملك من الغنى المادي أكثر مما كان يملكه الأمير

ـ سيدي عبد القادر منشغل هذه الأيام بإعادة ترتيب الجيش. الحرب على التيجانية خلاتو يشوف الضعف الكبير الموجود في عسكره وتنظيماتهم. هو يعرف أنَّ السلم مؤقت وأنَّ التغيرات الحاصلة في فرنسا كثيرة وارتداد القبائل ضدّه لا يتوقف أبداً، قوم

تعودوا على من يسيطر عليهم وعلى القوة. ويحتاج في كل مرة إلى تذكيرهم بأنَّ شوكته لم تنكسر. ولهذا يتحدَّث دائماً عن ضرورة تأسيس جيش حقيقي، منظَّم ودائم وتحت أمرته مثلما هو الحال عند الفرنسيِّين وهو يستعين حتى بخبرائهم وخبرات الأوروبيِّين الآخرين.

ـ لهذا فهو يسهر كثيراً على إتمام وشاح الكتائب ووضعه تحت تصرف ضباطه وجيشه. ولكن كل ذلك يحتاج إلى استقرار كل الأمور تسير بشكل جيِّد والحمد للَّه. المدن تكبر والقلاع تتحصن أكثر فأكثر وإذا لم يحدث شيء، سنكون سادة التل وربما الصحراء لأنَّ الكثير من القبائل تنظر إلى سيدي السلطان كمنقذ لها ومستعدة للمبايعة.

ـ الخوف الآن يجيء من جهة الروامة. العسكر الفرنسي اخترق أبواب الحديد واحتلَّ قسنطينة ويتهيأ بحسب المعلومات التي وصلت سيدي عبد القادر، على نقض اتفاقية تافنة التي تمنعه من فعل ذلك. ربي يجيب الخير

كانت قطعة الخبز تتفرقع عندما انتهى الأمير من صلاته.

ـ اتفاقية تافنة؟ قال الأمير، لا أتصور أنَّ عمرها سيطول حبذا لو طال، لكن ما تتمناه النفس غير ما تراه العين ويحسه القلب. رائحة الخبز الطيبة تأتي من بعيد. ما أطيبها لا شيء يضاهي بياض خبز مليانة وبنة زرع معسكر.

ـ الوقت يا سيدي الوقت ليس في صالحنا والحرب التي تفرض علينا، ليس هذا وقتها. يجب أن نتفاداها بكل الوسائل.

ـ يا السي قـدور كل شيء يدلّ على أنَّ الأمـور تـسـيـر نحـونا بسطوتها وسنجبر على الدفاع عن أنفسنا. داي قسنطينة طُرد وسار نحو الصحراء، ودامريمون الذي عوض كلوزيل، الرجل الطيِّب وحاكم الجزائر، قُتل هناك وعُوض بالماريشال ڤالي الذي ساعـدنا على كـسـر شـوكـة التيجاني، حكمه لم يدم إلاَّ ثمانية أشهر وقسنطينة اليوم شبه محتلَّة.

ـ يجب تفادي هذه الحرب. إنَّها ستضعفنا لا محالة وتدمِّر كل ما أنجزناه حتى الآن. مصانع تكدامت ومعسكر وطازه وغيرها على وشك الانتهاء وبدأت تعطي ثمارها. وقصة الميلود بن عراش ليست إلاَّ مصيدة كبيرة.

ـ حتى ولو تغاضينا على خطأ الميلود بن عراش الذي أُجبر على توقيع ملحق مع الماريشال ڤالي لشرح جوانب غامضة من المعاهدة، فـالقـبـائل بدأت تتـملـمل من هذا الملحق الذي أعطى حقّ المرور للفرنسيِّين إلى قسنطينة. الحرب الوشيكة لا أريدها ولكنِّي سأدافع حتى الموت إذا دعا الأمر. ولهذا يجب أن ننتهي من كل ما يتعلَّق بالتنظيم. طيِّب، قل لي يا السي قـدور، أين وصلنا في **الوشـاح**، يجب أن ننتهي منه. استشرت الفرنسيين الذين يتعاونون معنا والمسلمين ذوي الحنكة الحربيَّة ووصلت إلى أشياء جديدة.

ـ انتـهينا من القسم الأول الذي ذكرنا فيـه العسـاكـر المكوَّنة لجيش السلطان، المشـاة والمسمـاة العسكر المحمـدي، الذي يتم فيـه الالتزام مدى الحياة بالجنديَّة. ويتحرك تحت إمرة آغا والفيلق مكوَّن من ألف نفر. والفرقة مكوَّنة من مئة رجل يقودها سيَّاف بحسب الرتبة التي على كتفيه والمكونة من سيفين. وتنقسم الفرقة إلى ثلاثة أفواج، وكل فوج تحت إمرة رئيس الصف ثم كاتبين ليبيان الحاجات الخاصة

أثناء الحروب أو أثناء السلم. ولكل فريق من العسكر لباسه الخاص. لم الخيَّالة التي يعتمد عليها سيدي في الضربات الخاطفة والسريعة حيث الحصان رفيق الحرب وآلة للنجاة ودرع، ولهذا وجب حبه، ثم المدفعيَّة التي بدونها لا يمكن ربح المعارك. وأنَّ التفكير في تكوينها وبنائها مسألة حيويَّة. بالنسبة للحاجات المعاشيَّة للعسكر فهي مكوَّنة من الموجود، الخبز والدشيشة والسميد من أجل الكسكسي. وكل فوج يتلقى يوم الاثنين والخميس خروفًا يتم اقتسامه بين أعضائه. هذا تقريبًا ما ذكرناه طوال ليلة البارحة وما قبلها وعلينا أن ننتهي من الإنجاز في هذا اليوم لتسليم النسخ الأولى لقادتنا العسكريِّين لكي يتمكَّنوا من تطبيقه وترتيب شؤونهم.

ـ المفيد هو التطبيق وإلاَّ سيصبح كل شيء مجرد كلمات جميلة مرشومة على الورق بدون معنى ولا عمق، وهذا ما لا أريده.

ـ إن شاء اللّه.

ـ كل الترتيبات الصغيرة يجب أن تجد لها مكانًا في هذا الكتاب أو ملحقًا له. مثلاً كل هذا الحشد من الناس الذين يقومون بالخدمات الضروريَّة ماذا نفعل أمامهم؟ يجب أن تكون مهامهم واضحة حتى لا تتداخل الوظائف:

- **منظفو حوافر الخيل.**

- **السواس أو السائس، خَدمة الأحصنة والساهرون على علفها وراحتها.**

- **البياطرة المكلَّفون بمراقبة الجروح وحوافر الخيل.**

■ الخدم المكلَّفون بمدّ الأحصرة والسجّادات.

■ السرّاجون الذين يصعدون بدون الضغط على قربوس السرج، ويسهرون على عدم إيذاء الأحصنة ومراقبة استعداداتها للسير الطويل بدون التحسُّس ووضع أحصرة السروج.

ـ هل سندرجها في كتاب التنظيمات العسكريَّة؟

ـ هي مهمة ولا شك. ولهذا سنخصص لها ملحقًا شارحًا لوظائفها بدقَّة. أما بالنسبة لقانون القضاء العسكري، فهذا أمر أساسي. بدون انضباط لا يمكن للدولة أن تُبنى. ما هي حقوق وواجبات العسكري كيفما كان صفه؟ عليه أن يعرف أنَّ فوقه قانون ولا يمكنه أن يفعل ما يشاء. يجب أن لا يُظلم ولكن كذلك أن لا يظلم. ويجب أن يعرف الناس أنَّ محاربة الغزاة والكفَّار يرضي النفس واللَّه. ويجب كذلك أن نجازي الذي يبذل النفس والنفيس في نصرته للحقّ. أفكر في وسام ذي قيمة كبيرة من ذهب وفضَّة نسميه الشيعة المحمديَّة، ويمكن لهذا الوسام أن يجازى به حتى عمَّال الإدارة أو الذين يقدمون خدمة حقيقيَّة لهذه البلاد الطيِّبة المعطاءة، يوضع على الحايك أو على الخيوط وعلى الجبهة حتى تكون ظاهرة للعيان. قطعة عليها من خمسة إلى سبعة أصابع بحسب الرتبة العسكريَّة ويكتب عليها **ناصر الدين**.

ـ هل نبدأ التدوين يا سيدي.

ـ إذا انتهيت من شرب قهوتك، نتّكل على اللَّه.

ـ باسم اللَّه. أنا جاهز يا سيدي للتدوين.

ـ قلمك جاهز؟ القلم علامة صاحبه مثلما الخانة علامة المرأة المسرارة.

ـ كما يرى سيدي، هل يريد سيدي أن أسجِّل هذا؟

قالها برويلة كاتمًا ابتسامة غامضة ثم انكفأ على صدره ينتظر بقية الكلام لتدوينه.

فهم الأمير الغمزة الطيِّبة.

ـ هل تريد من العربان أن تحرق بيوتنا. لا شيء أثمن من الحب. ومع ذلك، كل شيء في هذه الأرض حوَّلناه بشكل يشبه فشلنا وإخفاقاتنا الكثيرة. الأحسن أن نتَّكل على اللَّه.

ـ باسم اللَّه.

طلب الأمير أن ينزل حجاب مدخل الخيمة وأن لا يُزعج إلاَّ في الحالات الاستثنائيَّة التي لا خيار له أمامها، وهي الغارة والحرب؛ وأن يُترك صافي الذهن حتى النهاية.

ـ الحاجة الزهراء، اللَّه يفتح عليك إذا كانت حاجات خفيفة تكلَّفي بها أنت. وفد من نساء جرحى غزوة عين ماضي استكلفي بهم واطمئني على السجناء حتى يفرج عليهم اللَّه. وسأتكلَّف بالبقية بمجرد الانتهاء من الإملاء، الديوان ينتظرني ولكن ما زال أمامي أكثر من عشر ساعات أستغلها لإتمام هذا المشروع الضروري.

ـ اخدم يا وليدي، اللَّه يعينك وينصرك على أعدائك وما تشوفش موراك أبداً، أنا نعرف واش ندير ما كانش اللي يدخل.

قالت لالة الزهراء وهي تنزل الغطاء على مدخل الخيمة. العادة عندما يكون المدخل نازلاً لا أحد يتقدّم نحو المكان إلاَّ عند

الضرورات القصوى كالموت والغارات والحرائق، باستثناء ذلك، يعتبر خرقًا للحرمات ويعاقب عليه القانون بصرامة.

ساد الصمت فجأة ولم يعد يُسمع إلاّ التمتمات أو خشخشة أوراق المصنفات التي وضعها الأمير تحت يده ويرجع لها كلّما دعت الحاجة إلى ذلك لتأكيد كلامه. أو صوت حركة القلم وهو يخترق بياض الأوراق جيئة وذهابًا في ديمومة بدون كلل. كان الأمير كلّما خانته الفكرة، أغمض عينيه وصفن قليلاً قبل أن يعود إلى الإملاء من جديد مدة طويلة، بدون توقف وكأنّه يقرأ وثيقة موضوعة أمامه.

ـ أنظر يا السي قدور، قال الأمير وهو يحاول أن يرفع رأسه عن أحد الكتب التي كانت بين يديه، قدماؤنا كانوا أفضل منّا في التدبير العسكريّ خصوصًا في الفترة الأمويَّة والأندلسيَّة. نشعر بقوة التنظيم الروماني في صفوفهم، ونحن لم نصل بعد إلى اعتبار أنَّ تقليدنا للجيش الفرنسي قوَّة وليس تبعية وإيمانًا بقوانا وليس كفرًا. القبائل صارت عمياء. الجهل يا السي قدور أكثر خطرًا من الأعداء الواضحين. الجهل عدو مدسوس فينا، يمكن أن ينفجر بين يديك في الوقت الذي لا تنتظره فيه أبداً.

ـ نعود يا سيدي إلى موضوعنا، هكذا اتفقنا، قلت لي كلّما رأيتني استطردت أعدني. وهذا ما أفعله إذا لم يكن هناك حرج لسيدي.

ـ عندك حقّ يا السي قدور، نواصل.

ويعود برويلة إلى قلمه برشاقته المعهودة وتأمُّلاته الكثيرة، ويعود الأمير إلى كتبه وخشخشاته وإملاءاته.

* * *

ـ ٥ ـ

لم تغيِّر مدينة مليانة من نظامها كلَّما فاجأها فصل الشتاء وشهر فبراير ببرده القارس وثلوجه. لقد صارت بين أمسية وضحاها بيضاء ناصعة تحت قوة أشعة الشمس التي تتسرَّب من حين لآخر من بين كتل الغيوم الثقيلة. اكتست الشجيرات بالنتف الكثيفة حتى صار من الصعب على فروعها تحمل أثقال الثلج. كلَّما هبت رياح جبل زكار، انحنت قليلاً لدرجة ملامسة الأرض ثم بهدوء تصعد لتعاود الانحناء من جديد

سكان الأعالي هم كذلك، لم يغيِّروا من عاداتهم اليوميَّة، يصعدون بصعوبة كبيرة وينزلون محملين بالحاجيات اليوميَّة وأدوات العمل والرفوش والفؤوس التي يشترونها من الأسواق التحتيَّة لتنقية المداخل التي تنغلق من كثرة تساقط الثلوج. الرعاة المدثرون بالجلابيب والألبسة الخشنة يسيرون بدوابهم وأغنامهم في عمق الجبل، تحت الأشجار، حيث الثلوج لا تغطي الأرضيَّة إلاَّ قليلاً.

بدأ الناس يدركون جدوى السلم وحالة الاستقرار وبدأ الخوف من عودة الحرب على كل الألسن، في الأسواق وفي الأحياء الشعبيَّة وحتى في معسكرات الأمير وبين القبائل، من مع ومن ضد. السلم سمح للناس بالاستقرار وفرض نظام الدولة في كل الأماكن التي طالتها إدارة الأمير، ولكنَّه حرم بعض القبائل القويَّة من الغزوات والسطو على غيرها من القبائل الضعيفة. وزاد غنى المدينة بعد أن تاب سكان الصحراء ودفع من توجب عليه دفع الزكاة والعاشوراء، واستفادت منها كل الخلافات خصوصًا خلافة مليانة التي تعتبر الصدر الواقي للدولة الفتيَّة، التي ليست في مأمن من القوات الرابضة والحاميات المجهَّزة في سهول المتيجة.

اكتظت سوق مليانة هذا الصباح بالمتسوقين وأصحاب الدكاكين وباعة الخضر والفواكه التي تكاثرت هذه السنة والقادمة من المرتفعات والسهول القريبة وضفاف الشلف وسيدي لخضر منذ التوقيع على المعاهدة، أشياء كثيرة تغيرت جذريًّا وصارت الحركة بين الضواحي والمدن القريبة أسهل وأكثر أمنًا.

على أطراف السوق الشعبيَّة، كان البراح يحذِّر الناس من مغبة رفض دفع الزكاة والعاشوراء، ولا شيء على ألسنة الناس إلاَّ الحديث عن الحرب الوشيكة وحرق عين ماضي وطرد شيخ التيجانية. كان العيساوي يدرِّب أفاعيه وثعابينه ويمسرح كل ما يقع أمام عيون الحاضرين المفتوحة عن آخرها:

يا ديوان الصاحين، يا ديوان الصالحين،

الصلاة على النبي محمد،

شيخ البؤس، شيبة النار،
نبتوا له على الراس تيجان،
قالوا: سيدي بايع وإلا تخرج،
قال له، هنا قاعد، وربي ستار.

يا ديوان الصاحين، يا ديوان الصالحين،
والصلاة على النبي محمد،
في العام البارد، والماطر،
جانا سيدي عبدالقادر،
سلاك المسكين والواحل،
وهزم كل الكفار.

في المرتفعات، عند مدخل الخلافة، كانت الحركة غير عادية منذ الصباح. منذ يومين ورسول الماريشال ڤالي، دو صال[1] ينتظر ملاقاة الأمير للمرة الثانية لتدارس وثيقة معاهدة تافنة وتزكية توقيع خليفته ابن عراش، الذي فتح أمام الفرنسيين الطريق نحو قسنطينة بدون استشارة الأمير. فقد ظل الأمير منشغلاً بهذه المعضلة مع ممثله في العاصمة ابن دوران ومع خلفائه للوصول إلى حلّ يرضي الجميع ويقي البلاد ويلات حرب جديدة لم يلتق بابن عراش في تكدامت، منذ عودته من باريس، منذ سنة، إلاّ مرة واحدة بين له فيها انزعاجه وامتعاضه.

١ - De Salles

كانت المناقشة في مجلس الأمير حادّة:

ـ أكرر ما قلته لك في الشهر الماضي في تكدامت. أشعر بالمرارة والخيبة. أنت تعرف ماذا تعني الكلمة بالنسبة لي. أنا وقّعت على اتفاقية ولن أقبل بالتوقيع على الحواشي التي تعطي للفرنسيّين حقّ العبور نحو قسنطينة. أرفض هذا الممرّ الذي يجعلنا باستمرار تحت رحمتهم بعد أن لم يكن أمامهم ووراءهم إلاّ البحر وجبال الأطلس. هذا نسميه لوي الذراع عندنا.

ـ لكن يا سيدي. هذا يبقي لنا حقّ الهيمنة على مناطقنا وبنائها. الوقت في صالحنا والحرب خداع. وماذا نخسر من هذا المسلك.

ردّ الميلود بن عراش وهو يبحث عن كلماته المرتبكة.

ـ من قال لك إنّهم سيتركون لنا الوقت لبناء دولتنا كل شيء يوحي بأنّنا نتجه نحو حرب شاملة. المتغيّرات في باريس ليست في صالح السلم. على كل لنر ما يمكن فعله. الخلفاء حاضرون وما تراه القبائل سأسير على هديه. أريد سلماً يحافظ على الناس وعلى جزء مهم من أرضهم وإلاّ فالموت أهون. عندما تخسر أرضك، تفقد عرضك. وعندما تفقدهما ماذا يبقى لك؟

كان الضجيج في قاعة الاجتماعات قد وصل إلى أقصاه وحدة رؤساء القبائل الرافضة تزداد عنفاً إلى أن تدخل الأمير، فصمت الجميع. طلب من ابن عراش أن يأتي دو صال، مبعوث الماريشال، والسماح له بالدخول وحضور الاجتماع لمتابعة الجلسة، تحت دهشة الجميع.

ـ أريده أن يعرف بأنَّ القرار الذي نتّخذه، اتخذته القبائل بشكل جُماعي، وأنَّ الأمير ليس إلاَّ آلة في خدمة شعبه ودينه.

عندما رأى المبعوث وجه ابن عراش مصفراً ومنكسراً عرف بأنَّ الامور لا تسير على ما يرام، وأنَّ الأمير يجد صعوبة في تزكية ملحق الاتفاقية.

ـ الأمور لا تبشّرُ بخير على ما يبدو، تساءل دو صال

ـ أبداً. ستحضر معنا وتسمع بنفسك حتى تنقل لمسؤوليك حقيقة ما جرى أمام عينيك. السلطان نفسه يريد هذا. يبدو أنَّ الأمر ليس بسيطًا، فقد تدخل أناس كثيرون في الوثيقة والآراء متضاربة. ويرفضون من الأمير أن يوقِّع ويفضِّلون سيوف الحرب، بينما هو كما تعرفه يجنح دائماً نحو السلم.

ثم التحق الرجلان بالاجتماع. كان الأمير ما يزال في حديث خاص مع ليون روش الذي تعوَّد أن يستشيره في الصغيرة والكبيرة. عندما جلس الجميع، وحضر المبعوث، تدخل الأمير:

ـ أطلب من السيِّد دو صال أن يعرض علينا المقترحات الفرنسيَّة حتى نعرف بالضبط حيثيات ما فُعل وما يُنتظَر منا فعله.

استعدّ دو صال قليلاً ثم تكلَّم:

ـ سيدي السلطان، السادة أعضاء المجلس الحربي الموقر شكراً على الثقة التي وضعتموها فيَّ. كل ما يبحث عنه الماريشال ڤالي هو استمرار المعاهدة ولا يريد مطلقًا أن يخترقها

ـ اخترقها وانتهى الأمر، قال أحد الخلفاء.

واصل دو صال كلامه ولم يعر الخليفة أيّ انتباه، وكأنَّه لم يسمع مقاطعة الرجل له والذي عزَّره الأمير بعينيه، فصمت.

ـ ما تريده فرنسا بسيط، الموافقة النهائيَّة على ملحق المعاهدة الذي يدقق الاتفاقية لتفادي التأويلات وبالتالي تفادي الحروب المجانية. وقد اطلع عليه الجميع ووقعه ابن عراش. مهمتي إذا سمح سيدي السلطان، هي العودة بالوثيقة مزكاة من طرفكم حتى نتفادى سوء التأويل ويستمرّ السلم.

التفت الأمير نحو ابن عراش، فوضح هذا الأخير:

ـ وقَّعت من باب أنِّي كنت وراء التوقيع على المعاهدة الأولى ونحن نريد خيراً للجميع. وإذا رأى سيدي عكس ذلك فله الخيار فعلت ما فعلته بحسن النيّة وصفاء الضمير ولا يوجد في الاتفاقية شيء إضافي سوى توضيح ما سبق أن اتفقنا عليه فقط.

ـ باب جهنم يا السي الميلود مفروشٌ بالنوايا الحسنة، علّق أحدهم

تدخَّل ابن دوران الذي استغل الفرصة لقراءة رسالة الماريشال ڤالي على مسمع الحضور المجتمعين وشرحها قليلاً قبل أن يعلِّق على رفضهم القاطع لكلّ تحوير في الاتفاقية، حتى أنَّ بعضهم طالب بمحاكمة الميلود بن عراش.

ـ أنتم مخطئون. فرنسا دولة قويَّة أنتم تعرفون أنَّ جيشها نظامي ومنضبط جدًّا ويملك وسائل تدميريَّة كبيرة. بهذه الطريقة المتصلِّبة، ستخسرون كل شيء

لم يستطع الأمير أن يتمالك غضبه وهو يستمع إلى تهديدات ابن دوران ودفاعه عن الرسالة التي كان يحملها معه، والتي حاول بموجبها إقناع الأمير بقبول الهدنة.

ـ نقبل بالهدنة ولكن أيَّة هدنة؟ إلى متى سنظلّ نتحمَّل شتائم النصرانيِّين واستفزازاتهم؟ لقد أعطونا كل الأدلّة التي تثبت عدم احترامهم للعهود التي قطعوها على أنفسهم. يمكننا أن نجد مخرجاً ولكنَّنا لا نقبل بالتهديدات كيفا كانت، واضحة أو مبطَّنة. ولو كان الفرنسيون يريدون حقيقة سلماً لما اخترقوا ما وافقوا عليه.

ـ فهمت يا سيدي السلطان ما تقصدونه. أؤكِّد لكم أنَّ الأمر لا يستحقّ كل هذا الغضب من طرفكم. ليس في نيّة الفرنسيِّين مخادعتكم ومن أوصل لكم هذا التأويل، يصبّ الزيت على النار ابن الملك مرّ عبر أبواب الحديد في جولة صيد لا أكثر. ثم عاد إلى مكانه من حيث جاء. فإذن لا يوجد أي اختراق حتى الآن

تداعت الكثير من الأصوات من كل الجهات، بفوضى وبدون نظام، قبل أن يبرز صوت رجل قوي البنية من بينها وهو يقوم من مكانه:

ـ فرنسا تريد الحرب، فليكن. نحن لها، وهذه المرة سنحرِّر ليس العاصمة فقط ولكن الشريط الساحليَّ بكامله وسنقوم بحرق كل شيء.

ثم قام آخر من وسط الجمع، من سكان الصحراء وبدأ يقرض شعراً في الأمير وشجاعته وخصاله. شعر الأمير بنوع من الحرج، ولكنَّه تركه ينهي مديحه قبل أن يرفع الجلسة التي انتهت تحت

التهديد بالحرب، وبرفض الملحق من طرف الكثير من القبائل وإعلان الحرب إذا اخترقت فرنسا الاتفاقيّة.

هزّ الأمير رأسه قليلاً ثم تمتم وهو يستعيد إيقاعات القصيدة:

«آه لو كان الشعر يحرِّر البلاد والنفس.

ـ لنترك القرار النهائيَّ إلى ما بعد احتفالات العيد الكبير الذي هو على الأبواب.

الأمير من جهته لم يحسم الموقف، فقد ترك القرار النهائي معلَّقًا لنهار الغد ليزيد من تعميق الاستشارة. الرأي الغالب كان يتَّجه نحو الحرب المدمِّرة. كان الأمير يعرف أنّ الثمن سيكون غاليًا وأنَّ الحروب القادمة لن تشبه الحروب الفائتة، ولهذا ظلّ معلَّقًا على توضيح الصعوبات. لكن القبائل المناصرة للحرب وبقية المجلس الحربي بدأت تتَّجه في نقاشها نحو فكرة إعلان حرب شاملة تستعيد فيها المتيجة والسواحل المحتلة.

بعد احتفالات العيد، وفي أول اجتماع في شهر مارس، حين بدأ نوَّار اللوز يملأ رؤوس الأشجار وبدأت شمس الربيع الدافئة تذيب كتل الثلوج، اتُّخذ القرار النهائيُّ في حضرة سبعين من أشراف البلاد وعلمائها

ـ ليكن، تريدون الجهاد ولا شيء غيره. ما دامت هذه هي إرادتكم، أنحني أمام القرارات التي اتخذتموها جماعيًّا ولا يمكن أن أشذ عن الجماعة. ولكن، يجب أن تعرفوا قسوة هذا الخيار والصعوبات التي سنعانيها والخسارات التي ستدفعكم إلى النكران. أدعوكم أن تعاهدوني أمام اللّه وأن تقسموا على الكتاب بأنَّكم لن

تخـدعـوني ولن تتـركـوا الجـهـاد، وكل من تركـه أعتُـبِر في عـداد الكافرين.

صرخ الجميع بصوت واحد تردّد في الأرجاء:

ـ اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، اللَّه ينصر السلطان. اللَّه ينصر الحقّ.

عرف دو صال النتيجة من وجه الأمير وهو بين رجلين مهمين: يهود بن دوران وعمـر ليون روش، فقد علاه سواد ودكنة غريبة لم يستطع أن يقاومها كان مرتبكًا في كلامه ولكن رزينًا في مخارج الحروف، يتكلّم بهدوء كبير.

ـ لقد رفض كل الأشراف وأعيان القبائل والضبّاط الموافقة على ملحق اتفاقية ٤ جويلييه. وأنا أضم صوتي لصوتهم. فأنا أولاً وأخيراً خادم لهم لا أكثر، أرى ما يرون وأسير في الطريق الذي يسلكون إنَّ الملحق جائر ويضع المسلمين تحت هيمنة الآخرين. وهذا ما لا تقبله لا الأعراف ولا الدين السمح.

كـان وجـه الكومندان دو صـال منكسـراً، لم يتكلّم. طلب السماح له بالمغادرة بعد كل هذه المدة التي قضاها بعيداً عن ضبّاطه الذين ينتظرون بفارغ الصبر الإجابة.

ركب حصانًا وخرج من المدينة صحبة المرافقين الذين بُعثوا معه لإيصاله إلى أقرب معسكر للفرنسيِّين، الذي لم يكن إلاَّ على مسيرة أقل من ليلة.

في الليلة نفسها اجتمع ابن دوران مع الأمير في خلوة خاصَّة. كان الصمت هو سيِّد الجلسة. شرب الأمير كأس الشاي الساخنة

محدثًا صوتًا مستديمًا وهو يرشف. لم يكن يبدو عليه القلق ظاهريًا ولكنَّه كان مرتبكًا بالفعل، لأنَّه كان يعرف ماذا ينتظره ولا تكفي صرخات مؤيِّديه باللّه أكبر والعزة والنصر لأمير المؤمنين. كان ابن دوران هو أول من حاول أن يفكك أسر اللحظة.

ـ أعرف القلق الذي تعانيه يا مولاي ولكن الأمر ما يزال في أيدينا، أفضِّل أن أدخل العاصمة وأنا حامل لخبر التوقيع ومواصلة السلم على حمل رسالة الحرب الملعونة التي لا تقدِّم شيئًا للبلاد.

ـ يا السي ابن دوران، أنت تعرف عقليات سكان هذه البلاد، أنت من تربتها وأقرب الناس إلى نبضها. أعرف أنَّ الفرنسيِّين يريدون الحرب ويبحثون عن مبرِّر لها خروج ولي العهد الدوق دومال ومروره عبر أبواب الحديد تحدٍّ صارخ، كان يمكن أن أهجم عليهم وأسجن ولي العهد نفسه، فقد كانوا تحت نيراني، على الرغم من تصورهم أنَّهم كانوا مأمونين ولكنِّي لم أرد أن أخلط الأوراق وأن أدمِّر كل ما قمنا به منذ مدة. إنَّهم يبحثون عن المبررات، أنا متأكِّد من ذلك. رفضت وقتها أن أمنحهم هذه الفرصة. ولهذا لجمت جيشي ومنعتهم من الهجوم على ولي العهد الدوق دومال.

ـ لا تعطيهم هذا المبرر إذن.

ـ الآن، خرج الأمر من يدي. هناك بعض القبائل تتهمني بالكفر والمروق. فرنسا تنقل مشاكلها الداخليَّة نحونا لقد ذهب رجالات السلم وحلّ محلّهم رجالات الحروب الشاملة. ما عدا ذلك، هو رغبة ملحة لربح الوقت فقط. حكومة مولي(١) قدّمت استقالتها

١ ـ Molé

في ٢٢ جانفييه الفارط، الماريشال ڤالي طلب تنحيته مرتين لولا تدخل الملك الذي رفض ذلك، وطلب منه أن لا يشيع استقالته التي ما تزال محصورة على مستوى الوزارة في انتظار المرور الوشيك للعاصفة. هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يفعلون بهذه الأرض التي يحبونها ويكرهون ناسها. ولهذا فالحرب القادمة لن تشبه الحروب الفائتة، فقد تعرَّفوا على الأرض وستصير حربًا استعماريَّة كليَّة وسنقاسي الأمرَّين وقد يموت الكثير منَّا فيها. ماذا تريد! أحيانًا كلَّما حاولنا الهرب من الأقدار، وجدنا أنفسنا في عمقها. النار عندما تشتعل تفرض منطقها من الشجاعات والخيانات والبؤس. الآن كلّهم أبطال ولكن عندما يوضع السيف على الرقاب أشياء كثيرة ستتغير حتمًا حتى لا أقول شيئًا آخر.

ـ يمكنك أن تقنعهم كما فعلت دائما سطوتك ما تزال قائمة. افرض عليهم السلم بالقوة مثلما فرضت الحرب على الكثير منهم عندما عصوا

ـ يا السي ابن دوران، هل تظن أنِّي مناصر للحرب؟ أعرف أنَّ الحروب مدمرة وأنَّنا سنذوق المرارة القاسية. الخلفاء عزموا على الحرب، وكل فعل معاكس سيسمى مروقًا وخروجًا عن الدين. الكل يصرخ بالجهاد وأنا أعرف سلفًا، عندما تتكلم المدافع والبارود وتُستل خناجر البنادق، سينسى الكثير منهم كل تعهداته ويرفض أن يجوع أو أن يموت من أجل قبيلة غير قبيلته. الفرنسيُّون مسؤولون عن هذه الوضعيَّة مسؤولية كاملة، وأعرف أنَّ الحرب ستطحننا جميعًا ولكنَّها ستأكل أعزّ أبنائهم وخيرة قادتهم هم كذلك. مع ذلك، لا أريد أن يقال عنِّي بأنِّي تركت ناسي يموتون ونجوت بجلدي أو أنِّي لم أقاوم

حتى النهاية. ما يزال هناك متّسع للمقاومة والقتال الذي فرض علينا ولم نذهب نحوه.

في الصباح خرج ابن دوران، الوجه مشدود والعينان منتفختان وفارغتان من قلة النوم، باتجاه العاصمة منكسراً من رحلته الأخيرة حاملاً رسالته الأخيرة للماريشال ڤالي. كانت عباراتها تطن في رأسه كما أملاها الأمير على كاتبه الخاص أمامه:

«السلام على من اتبع الهُدى. قرأنا الرسالتين وفهمنا ما فيهما. قلت لكم في رسائل سابقة إنَّ العرب من ولهاصة حتى الكاف، مصمِّمون على خوض الجهاد ولا يمكنني إلاَّ أن أكون بجانب الذين بايعوني في هذا المنصب. لقد كنت وفيًّا معكم لكل التعهدات التي قطعتها على نفسي، وأخبرتكم بكل التحولات وها أنذا أفعل صادقًا. أعيدوا قنصلي في وهران لعائلته واستعدوا للجهاد المعلن ضدكم. إذ لا يمكنكم من الآن اتهامي بالخديعة وخيانة العهد. قلبي صاف ولا يمكنني القيام بشيء منافٍ للعدالة».

في مساء اليوم نفسه استدعى الأمير خلفاءه الرئيسيِّين الثلاثة ووزعهم باتجاه المتيجة، المكان الرمزي للاحتلال: أمر خليفته ابن علال أن يتَّجه صحبة الخليفة البركاني رئيس قبائل غرب الجزائر البربريَّة، صوب المتيجة وأن يبدأ من جنوب وغرب الجزائر وحرق كل شيء. بينما طلب من الخليفة ابن سالم بأن يهجم من الناحية الشرقيَّة ويضع القوات الفرنسيَّة في كماشة وقطع كل الخطوط.

كانت الحرب قد بدأت ولا أحد كان يعرف كيف ستكون النهاية.. لكن الكل كان متأكِّداً أنَّ الحرب هذه المرة لن تكون شبيهة حروب السنوات الماضية. حرب بين الطمع واليأس.

كان الأمير قد اختار مرتفعات بني صالح لتسيير هذه الحرب التي ناصرتها القبائل وانصاع لها الجميع.

في الليلة نفسها كانت طلائع نيران الحرب تشتعل في كل مكان. حتى حاكم الجزائر ترك بوابات العاصمة حيث كان يقيم عند مداخل مصطفى باشا ودخل في عمق المدينة، مما عمق الدعاية التي ملأت المدينة بأنّ الأمير سيدخل الجزائر في الأيام القليلة القادمة، وأنّ عرب ويهود القصبة وضواحيها بدأوا يلتحقون سريًّا بجيوشه الضخمة.

* * *

- ٦ -

لقد انتظر الناس طويلاً في الميناء على الرغم من البرد القارس وسيول الأمطار التي بدأت تسقط منذ بداية شهر فبراير على مدينة الجزائر الملفوفة داخل كتلة بيضاء من الغيوم محت كل الطرقات ومعالم المدينة. لا تسمع على حافة البحر إلاّ وقوقات الطيور البحريَّة التي كانت تبحث لها عن أمكنة وعن شيء تأكله من حين لآخر تنقر الماء وتغوص في الأعماق بحثًا عن الأسماك، عيونها الحادَّة تسمح لها بالدخول بمناقيرها عميقًا.

يوم ٢٢ فبراير ١٨٤١ كان عاصفًا.

أخيراً، عندما دقت ساعة المدينة دقَّتها الثانية، وصل بيجو طوماس روبرت إلى الجزائر قادمًا من طولون، بعد أن عُيِّن حاكمًا جديداً على الجزائر خلفًا للماريشال ڤالي. شعر بيجو بلسعة البرد وشدّة الاختناق بسبب الرطوبة العالية، وهو يضع رجليه على الدرج

الأول للسـفـينة الثـقـيلة والقـديمة. وقف على المنصَّة التي وُضعت خصيصاً. كان كلامه واضحاً:

«لقد بذلت مجهودات كبيرة لإقناع بلادي للاستيلاء الكلّيّ والنهائيّ على الجزائر وكنت في حاجة إلى جيش وعتاد كبيرين وتضحيات بلا حدود ولكن صوتي لم يكن مسموعاً وقتها. وبذلت مجهودات كبيرة لإقناع الآخرين بسداد رأيي. والآن يجب إخضاع العرب وتسليط الحرب الشاملة. يجب أن يظلّ العلم الفرنسي هو العلم الوحيد الذي يرفرف على الممتلكات الإفريقيّة. الحرب الضروريّة التي نخوضها اليوم ليست هي الهدف النهائيّ. لا نفع من وراء حملة بدون استيطان. سأكون معمراً متحمّساً إذا استطعت أن أؤسّس لشيء دائم لفرنسا».

وُوجه بيجو بعاصفة من التصفيقات الحارَّة قبل أن يُقادَ إلى مقرِّ إقامته.

عندما حطَّ بيجو رجليه في الجزائر للمرة الثالثة كان يعرف جيِّداً ماذا يجب عليه فعله. اختبر هذه الأرض التي ما تزال حقولها المحروقة ملتصقة بمنخريه. كان يعرف جيِّداً ما ينتظره. قال ذلك صراحة من أعلى منصة الغرفة الأولى في ١٥ جانفييه ١٨٤٠ لإقناع البرلمانيِّين بخطته الصارمة، التي لم يعد يكفي فيها الاستيلاء المؤقت على بعض المقاطعات ولكن الاستيطان الكليِّ والتدمير النهائيِّ لقوة الأمير. كان يدرك جيِّداً أنَّ نقطة ضعف العربي ومقتله هي أرضه وزراعته. المفيد ليس المطاردة والقمع الأعمى ولكن منعهم من الزراعة والحصد والرعي، هذه هي الضربة القاتلة لهم. حاول أن يقنع الجميع لكن الغرفة وقتها وجدت طريقته بربريَّة. فردّ عليهم بسخريّة: من

أراد الحرب يستثنِ الموسيقى، وليسخِّر لها وسائلها المدمرة. وانتقد أمام الغرفة سياسة فرنسا في الجزائر بشكل علني أغضب الكثيرين.

عندما باشر بيجو عمله، اتخذ قرارات صارمة بمنع الاتجار مع القبائل التي لا تخضع لقانون الهدنة الفرنسي، كما حدَّد شروط التعامل بالالتحاق الجماعيِّ وليس الفرديّ بالقوات الفرنسيَّة، خصوصاً بالنسبة لرؤساء القبائل. وثالث القرارات هو إجبار السكان الأصليِّين على وضع شارة حديدية بيضاء على صدورهم يكتب عليها عربي خاضع Arabe soumis.

لم يتوقف، منذ وصوله، عن الحركة واستصدار القرارات. في نهاية ربيع السنة نفسها، زحف على مليانة التي كانت تمثِّل العاصمة السياسيَّة للأمير، لكن جيش الأمير تحت قيادة ابن عراش والبركاني خليفة المدية ظلَّ يترقَّب كل حركاته وحركة جيشه المنظَّم ويستعد للمواجهة الكبرى. كان بيجو مدعماً بثلاثة فيالق وبفرقة الزواف Les Zouaves لفتح الطريق. وترك خيالته احتياطاً في السهل. شم بيجو الخطر مرة أخرى وأحسَّ كأنَّ الأمير يدبِّر شيئاً غير ما كان يحاول إظهاره. طلب من بعض فرقه أن تتظاهر بمغادرة المكان والانسحاب باتجاه مليانة لجلب جيش الأمير باتجاههم. ودارت العمليات مثلما تخيَّلها بيجو. قال لقائده الذي ظلَّ متردِّداً وخائفاً من مقالب الأمير:

ـ لا تخف. علينا أن نصبر حتى يصيروا في مرمانا

ـ وإذا عرفوا لعبتنا؟

ـ لا. تراجعنا سيشجعهم للدخول في عمق المعركة.

فجأة انقضت جيوش الأمير متوغلة في عمق المصيدة، بين الحافة والصخور والوحل والوديان. كانوا كثيرين وعندما أصبحوا في مرمى القوات المختبئة وراء الصخور والأشجار وقطع المدفعيَّة، بدأ الهجوم المضاد لم يُسمع إلاَّ صوت القائد وسط لعلعة البارود وهدير المدفعية وهو يدعو قواته إلى التراجع بعد أن اكتشف المصيدة.

ـ خديعة خديعة. إلى الوراء. إلى الوراء.

لكن الأوان كان قد فات وبدأ الجري في كل الاتجاهات. وجد جيش الأمير نفسه على حافة المنحدرات التي ابتلعت الكثيرين منهم أو في مواجهة البنادق العمياء التي حصدتهم مثل الجراد. القليل منهم من ارتمى على الصخور للوقاية من رصاص كان يأتي من تحت الصخور نفسها والبقية المتبقية ارتمت في عمق الوديان لتتحوَّل إلى طعم سخي للأوحال والمياه المندفعة وضربات المدفعيَّة الجافة. مجزرة أخرجت فيها السكاكين التي لمعت تحت أشعة الشمس المنكسرة من غيمات داكنة لتغيب من جديد تحت عواء الذئاب الذي انبعث مبكِّراً من الزوايا الخالية للجبال والوهاد والمدينة. لم تعد تُسمع إلاَّ الصرخات المكتومة والحشرجات التي تسبق الموت بلحظات قليلة. القليل ممن استطاع أن ينجو بجلده حاملاً على جسده علامات وجراحات ورائحة الخوف والبارود

عندما انسحب الأمير أو ما تبقى من جيشه، أعطى بيجو الأمر بحرق كل المحاصيل وقلع الأشجار وتدمير كل شيء واقف والاستيلاء على رؤوس الأغنام والأبقار والأحصنة، وسط صرخات النساء وانتحار الرجال العبثي في حرب كان ينقصها الكثير من التوازن وعدالة البارود.

ـ لا أريد أن أرى شيئًا واقفًا في هذه الأرض.

ثم التفت نحو قائد جيشه:

ـ العرب هكذا، عندما تمسهم في مصلحتهم يتبعونك ويأكلون رأس خصمك.

ـ ومع ذلك خرج الكثير منهم سالمين.

ـ العرب محاربون أقوياء ولكنَّهم ينكسرون بسرعة. لقد أخذوا درسًا قويًّا ولكن الضربة القوية يجب أن تصيب الأمير في القلب: تكدامت.

ـ المسألة ليست سهلة. كل أسلحتهم مركَّزة هناك.

ـ لنا في مساعدة القائد مصطفى بن اسماعيل سند قويٌّ. إنَّه يكره الأمير أكثر من أي شخص آخر سيفتح الطريق بستمئة خيَّال ونتبعه نحن بعد ذلك. على كل حال، كل شيء في وقته يا جنرال.

بعد أن فتح طريق مليانة وفكّ الحصار عن جيشه، عاد بيجو إلى العاصمة.

بعد أيام قلائل، امتطى سفينة قديمة قادته إلى مستغانم على رأس جيش مكوَّن من اثني عشر ألفا من المشاة المجهزين بأحدث الأسلحة، للاستيلاء على تكدامت، العاصمة الرمزيَّة للأمير وتدميرها كليًّة. وفي ٨ ماي خرج الجيش من مستغانم ليبلغ تكدامت بعد ستة أيام. لم تقاوم تكدامت طويلاً، فقد أُخليت من سكانها ومن قطعها الحربيَّة المهمة وبعض مصانع الأسلحة التي جلبت من أماكن مختلفة من أوروبا.

أعطى بيجو أمره بحرق كل شيء. بدأ باستعمال الألغام لتفجير كل البيوت الواقفة وأُحرقت كل المحاصيل الزراعية والخلجان المحيطة بالمدينة. في مساء اليوم نفسه، مُلئ بيت مصطفى بن التهامي، صهر الأمير، بالمتفجرات والمواد الحارقة وأُشعل كل شيء، فتحوَّلت ظلمة الليل إلى شعلة كبيرة ظل بيجو مشدوداً إليها مدَّة طويلة. فقد التهمت النيران كل شيء.

بعدها انسحب جيش بيجو باتجاه معسكر التي كانت قد أُفرغت من أسلحتها وسكَّانها قبل وصول القوَّات الفرنسيَّة، ما عدا الأقليَّة التي اندثرت مع الضربات الأولى التي اخترقت الأسطح وشوارع المدينة.

كانت الحرب الشاملة التي وعد بها بيجو قد بدأت.

عندما اقترب الأمير من ركام الأسوار المهدَّمة ورماد تكدامت ومصانعها وبيوتها والمسجد والمكتبة التي حوت العديد من كتب الأمير، قال وهو يحاول أن يقترب من النار التي كانت ألسنتها ما تزال تحفر فيما تبقى من المدينة والكتب والأخشاب:

ـ كنت أعرف أنَّنا سنخسر الكثير، ولكن القبائل كانت مخطئة. مخها حابس ولا حلّ لي معها إلاّ ابتلاع هذه الخسارات الفادحة.

ـ يا سلطاني، نحن معك حتى الموت. الحرب هذه هي. بيجو هذه المرة مصمم على تدمير كل شيء واقف.

ـ هو هو، فقد اعتمد دائماً على الأرض المحروقة. هذه هي اليوم استراتيجيته للبقاء الدائم. هذه المرة جاء ليبقى ولهذا فهو يدافع باستماتة.

ـ سنخرجهم إن شاء اللّه.

ـ ربما على الأمد الطويل ولكن بغير هؤلاء الناس وبغير هذا الجيش القبليٍّ المتهتك من الداخل. الكثيرون ممن رفعوا شعار الحرب بلا هوادة، ارتدّوا وصاروا في خدمة الغزاة، والكثير منّا منكسر داخليًّا لهذا الفقدان. في أقل من ربيع واحد فقدنا كل مواقعنا الكبيرة: شرشال، المدية، مليانة وتكدامت وبوغار وطازة.. ها هم يتّجهون نحو معسكر التي سيحتلونها لا محالة على الرغم من الدفاعات الصغيرة التي وضعناها على مشارف المدينة لا للدفاع عنها ولكن لتسهيل مهمة هرب الناس والمال، وسيأخذون قمحها وزرعها وخيرها

ـ وماذا سنفعل بهذا السيل من السجناء الذين أصبح من الصعب علينا جرهم من مكان إلى مكان. الأفضل أن نتخلّص منهم.

ـ لا يجب أن لا تعمي أبصارنا أحقاد الهزائم والحروب.

ـ لا نملك ما نعطيه لهم.

ـ لم تنغلق سبل الدنيا إلى هذا الحدّ. سنظل نقاوم مثلما كنا نفعل في السنوات الأولى. لم تعد لنا قوة الاستقرار. الوقت لم يكن في صالحنا، لقد قتل كل شيء وهو في مهده. تدمير هذه المدن بهذه السهولة يبيِّن أنَّ ليون روش باع كل شيء. لم يكن إسلامه إلا مثل إسلام رؤساء الكثير من قبائلنا. على كل حال لا يستطيع أن يغير من قدر اللّه أبداً.

ـ السي عمر ولد الروش، باع القلّة وزاد البوش. هه... تمتم الأمير بسخرية وهو يعضُّ على شفته السفلى.

عندما عاد إلى خيمته في المرتفعات، فتح كتاب ابن خلدون ثم خطَّ على حوافيه بعض الكلمات. تمدَّد قليلاً في فراشه، كانت الأمطار قد زادت حدَّة، الأمطار التي تودِّع عادة فصل الشتاء. استأنس لنقراتها وهي تنكسر على كتان الخيمة مثل لعب الأطفال. قرَّب النور نحوه. لم يفهم الشيء الكثير من كتاب ابن خلدون، ولكنَّه شعر بدفء داخليٍّ يسحبه نحو وفاق ذاتي غير معتاد، فقد انسحب المعنى. ومع ذلك شعر ببعض الراحة ورغبة قصوى للنوم لم يشعر بها منذ شهور عديدة.

* * *

ـ ٧ ـ

كانت رياح الخريف قد عادت من جديد بقوة. على قمم جبال الونشريس، لا يسمع إلاّ حفيف الأشجار وهي تئن. تتمايل غصون البلوط والصنوبر الحلبي عميقًا حتى تلامس الأرض لتقوم من جديد وكأنّها تقاوم موتًا محتوما الخريف على رأس الونشريس صعب. لم يستطع بيجو أن يصعد قمتها في المرة الأولى ونزل نحو جيشه في الهضاب المجاورة بعد أن يئس من ملامسة قمّتها التي لا ينبت بها شيء، الجبل الأقرع، كما كان يسمّيه ناس المنطقة بسبب قمته الجيريّة البيضاء. لكن هذه المرة عاود الكرة على رأس ثمانية آلاف رجل من كل الفيالق والقطاعات، مصحوبًا بالدوق دومال ومساعدة شونقارنييه والكولونيل كورت[١] والخليفة سيدي العريبي الذي صار يقاتل بجانب بيجو ساعدت الأمطار الغزيرة والرياح

١ ـ Changarnier et le colonel Corte

والعواصف، خيَّالة الأمير للخروج من الجنوب لدعم القوَّات المحليَّة وقبائل الفليتة وسكان الشلف. فخسران الونشريس سيغيِّر حتمًا من مسار الحرب.

مرتفعات الونشريس عالية، مثلها مثل مرتفعات طرارة التي كانت تغطي ندرومة، حائطها الواقي. الآن بدا وكأنَّها تنهار شيئًا فشيئًا مثل الجبال الثلجيَّة. لم تحم طرارة تلمسان وندرومة وتراجع الونشريس عن حماية السهول والهضاب التي أصبحت كلّها أو معظمها في يد بيجو

توغَّل الأمير وخيالته في عمق منحدرات مخروطيَّة وعميقة تشبه المدافن الفرعونيَّة القديمة بعد أن أُجبر على الدخول عميقًا فيما بين الشقوق الجبليَّة لتفادي ضربات بيجو التي صارت موجعة. دخل في عمق الجبل واستقر هناك مع قادته وبدأ يعدّ العدة للذهاب نحو أمكنة أخرى كانت تنتظره. وجوده وحده كان كافيا لتغيير موازين القوة وعودة الذين اختاروا الطرق الأكثر سهولة للحفاظ على مصالحهم. كان أتباعه يشيعون أحيانًا وجوده بالمنطقة فقط للرفع من المعنويات المنهارة والمنكسرة.

شعر بأنَّ الحرب قد تغيرت نهائيًّا ولم تعد تكتفي بالاستيلاء على المواقع ثم مغادرتها ولكنَّها حرب من نوع آخر لقد احتلوا معسكر واستقرُّوا بها واحتلُّوا تلمسان ولا شيء يوحي بأنَّهم سيتركونها. الجوع والتعب وانهيار المعنويات وارتداد الكثير من الخلفاء، كلُّها عوامل كسرت يقين الأمير. أصبح في المؤكّد أن هذه الحرب القاسية والجديدة، ستأكل الأخضر واليابس.

لقد أمضى الأمير أكثر من ليلتين وهو يفكّر فيما يمكن فعله لتجاوز المحنة. لقد أصبحت كل الحركة غير ثابتة في وضع، أي ثبات فيه يعني الموت. الدولة كلُّها صارت على ظهر الجمال. الزمالة لم تكن هي الهدف ولكن لا خيار له في ذلك. لقد سقطت كل القلاع أو دُمِّرت، ومُحيت كل العواصم ولم تعد إلاَّ الحرب الخاطفة والعواصم الخاطفة، والإقامات الخاطفة، عاصمة يوم واحد فقط ثم تنتقل إلى مكان آخر.

ـ الأمر يزداد صعوبة يا مولاي. آلة خراب كلِّي يا سيدي.

ـ كل ذلك كنت أتوقعه. ما تزال لدينا الزمالة لحماية الحد الأدنى من الدولة المنهارة. هذه هي الحروب، يوم لك وأيام عليك. هكذا الدنيا

قال أحد الخلفاء وهو يتتبع تخطيطات الأمير، الذي لم ينم أبداً طوال الليلة الماضية إثر احتلال الفرنسيِّين للجهة المواجهة لنهر الشلف والمطلَّة على قبائل الفليتة التي خسرت أغنامها ومالها وتوغل أفرادها عميقاً في المنجرفات والجبال باستثناء تلك التي تبعت قائد بني وراغ، الشيخ محمد بلحاج الذي سلَّم نفسه لبيجو بعد أن خسر ستة من أبنائه الثمانية، فسلم أحصنته وأسلحته مما شجَّع آخرين على الالتحاق به.

ـ أنظر إلى هذه الأرض، قال الأمير وهو يتأمَّل التربة التي كستها الأمطار وبدأت تخرج من صلبها نباتات خضراء، إنَّها تجفّ عندما يأتي عليها الصيف، حتى لنقول إنَّها انتهت وماتت وصارت مجرد تربة بلا حياة. ثم تهب رياح السموم على الجبال محوِّلة كل

شيء إلى صفرة، ناقلة الرمال والأتربة نحونا بكل ما تحويه وهاربة ببذور غير مرئية نحو أراضٍ أخرى، وإذا الأمطار والسيول تملأ المكان ونقول إنَّ الدنيا انتهت وسحبت في أثرها كل إمكانية للحياة، وإذ بشموس خفيفة تبزغ هنا وهناك ويتغير كل شيء: إذ تفتح الأرض صدرها من جديد للحياة. هكذا الدنيا مذ كانت هذه الأرض، لسنا أكثر من تلك البذرة الهاربة أو ملح الحياة الذي يمنح البذرة إمكانية التفتُّح. وضعنا يزداد صعوبة هنا ويتفكك هناك. متى عشنا في رخاء واستقرار؟ اتفقنا على الحرب دفاعًا عن هذه الأرض، وها نحن نخوضها والله وحده يعلم النهايات. ما دام هناك رجال مثل الخليفة سيدي مبارك وقائده بن يوسف قائد قبائل الحجوط لا خوف على هذه الأرض. هل تعرف ماذا قال سيدي مبارك لشنقارنييه عندما طلب منه الاستسلام والالتحاق بخدمة الفرنسيِّين؟ اندهش بيجو وهو العسكري المحنّك من ثبات هذا الرجل في رسالة بعث سيدي مبارك بنسخة منها إلينا. اسمع ماذا يقول: **من جبل الداخلة إلى وادي الفضة يمتدّ سلطاني، أجاهد وأعفو عند المقدرة. مقابل هذا السلطان الذي أمارسه لنصرة دين الله وسيدي السلطان عبد القادر، فماذا تضيف لي عندما أسلم نفسي لك؟ أرضي التي سأسترجعها بالبارود والنار كما سرقت مني؟ الدراهم ولقب يتبعني إلى القبر بالخيانة؟** هل تبقى شهادة عظيمة مثل هذه عندما تصبح ظروف العيش قاسية؟ هذا هو المثل الأعلى، ما عدا ذلك كلّها معارك نربح بعضها ونخسر بعضها الآخر؟

ـ يا سيدي. أنا لم أتحدَّث عن الاستسلام، تحدثت عمًّا يجب فعله بعد صمت سلطان المغرب وخنوع الباب العالي وتردد الإنجليز وغطرسة الغزاة.

ـ بالنسبة للإنجليز أعرف ضعفهم، لا يريدون حكمًا عربيًّا قويًّا وموحَّداً ولا يريدون حكمًا فرنسيًّا يستولي على كل شيء يرون أنفسهم هم أحقّ به. ينتظرون هزيمة الاثنين وبهذا لا يربحون عطفنا ولن يحصلوا على أي تنازل من فرنسا، هذا هو حساب الإنجليز. كنت مستعداً أن أمنحهم بعض مرافئ الغرب الصغيرة لو تعاونوا معنا ولكن حساباتهم خاسرة. الحرب الآن تغيرت والإنجليز ما يزالون في الممارسات القديمة. بالنسبة للباب العالي، من البدء لا أتكل عليه، ولكنّي فعلت ذلك لوضعه أمام هزاله وخيبته ومرضه، الطاعة تأمرني بفعل ذلك. ولو كنت أعلم سلفًا أن لا أحد يحرِّر هذه الأرض إلاَّ ذووها. قد لا نفلح في ذلك، ولكن عظامنا ستظلّ ههنا شاهداً على أنَّ رجالاً مرُّوا من هنا، أدُّوا ما عليهم ثم انسحبوا كالظلِّ تاركين الدنيا لغيرهم. ربما كانوا أجدى مما نفعله نحن اليوم، وإلاّ ماذا سيقول عنّا أبناؤنا؟ أما مولاي عبد الرحمن، سلطان المغرب، فلم أفقد بعد أمل نجدته ونجدة القبائل المبايعة له. عندما تنغلق كل سبل الدنيا سنذهب نحوه.

ـ وماذا ينتظر؟

ـ سنذهب نحوه. قبائل بني إزناسن هي مآلنا عندما تظلم الدنيا. نسترجع أنفاسنا، نخبر السلطان بالصعوبات ونعود من هناك بإرادة أقوى لدرء الخطر ليس فقط علينا ولكن عليه هو كذلك. الطرقات التي سنعبرها سالكة ونعرفها جيّداً.

ـ أما زلت مصراًّ يا سيدي على سجن الشيخ محمد ولد بلحاج.

ـ لن أخرج من هذه الأرض إلاّ إذا أخذته معي إلى الزمالة. يُغفر للإنسان العادي ولا يُغفر للقائد. الغارة التي أمرت بها ستأتي به. القوات القليلة الباقية في عين المكان سيدمِّرها قوادنا وسيأتون به مثل الجرذ. ننتظر مجيئه ثم ننسحب، بدون هذا لن يعرف الناس أنَّنا ندير شأنًا عظيمًا

عندما علت أولى الأشعة، بدأت قوات الأمير تلفّ الجبل وتنحدر قليلاً، ولكنَّها لا تنزل أبداً إلى الأراضي المنخفضة حتى تظلّ بعيدة عن كل الضربات والمفاجآت. انتظر حتى أكّدت له عيونه المنتشرة انسحاب قوات بيجو وشنقارنييه بعد أن استولت على الممتلكات، من أغنام وبهائم، لنقل المؤن.

انضمت فرقة جديدة للخيَّالة لتسند الأولى ثم انطلق الجميع مثل السهام باتجاه بني وراغ، فأحرقوا وقتلوا واستولوا على كل شيء قبل الهجوم بشكل كاسح على خيام الشيخ محمد ولد بلحاج والقبض عليه وإخراجه من تحت نسائه مثل الفأر، عاريًا كما ولدته أمه. وَضع على ظهره فوقية وأُخرج مربوطًا بحبل يلف عنقه. جابوا به بين الخيام ومواقع القبيلة الرئيسيَّة تحت دهشة الجميع. كان الرجل الذي يشدّ الحبل يردِّد:

ـ هذا مصير من يبيع دينه وسيدي عبد القادر وشرفه.

الكثير من الحاضرين الذين اشتركوا في الهجوم ضدّ شنقارنييه، كانوا يرجمونه بالحجارة حتى غاب وسط الوحل والأمطار قبل أن يُرمى على حصان ويغيب بين شقوق الجبال نهائيًّا مع فيالق الأمير التي لم تغادر المكان إلاّ عندما هبط الظلام. أشاع الأمير خبر

اقتراب هزيمة الجيش الفرنسي وأن قادته تلقوا رسائل لطلب التوقيع على اتفاقية هدنة، وأنَّ ملك الفرنسيِّين بعث بولي العهد الدوق دومال للتوقيع وإنهاء الحرب والخروج من البلاد بعد أن تكبَّدوا خسائر فادحة.

قبل أن يخرج نهائيًّا من المنطقة، أمر الأمير قبائل فليتة والجوار بقتل الكلاب حتى لا تفضح العساكر الأميريَّة المارَّة من المنطقة، فالكلاب تسببت في مقتل الكثير من عيونه عندما مروا بهذه المناطق وقد تكاثرت.

ـ أعرف ضرورة الكلاب ولكنَّها لفترة وجيزة فقط حتى يفرج اللَّه كربتنا

ولاكتساب المزيد من عطفه، كُوِّنت في اللحظة نفسها فرق مضادة للكلاب بدأت بالمطاردات والملاحقات والقتل والدفن. وما كادت شمس اليوم التالي تغيب حتى خلت الأحياء والدواوير من الكلاب، ممَّا سهَّل مهمة الذئاب الجائعة التي تتربَّص بالأغنام، وحلّ الإنسان محلّ الكلب لمراقبة حركة الذئاب التي أنزلها الجوع من قمم الجبال.

* * *

الوقفة السابعة

مراتب المهاوي الكبرى



- ١ -

ـ آه يا عزيزي جون لو تعرف؟ كلّما نويت زيارة الأمير، ازداد الجسد ثقلاً بالمسؤولية وانكسر القلب، لأنّي لا أحمل له شيئًا سوى بعض الكلمات الطيّبة والكثير من الأسئلة لكتابة رسالة لا تريد أن تنتهي.

ـ ولكن يا سيدي أنت تفعل أكثر مما تستطيعه. صحتك في وضع صعب وعليك أن تلتفت قليلاً لنفسك كذلك.

ـ خلّها على اللّه. ثم ما معنى حياتنا إذا كانت لا تصلح للإنصات لحياة الآخرين؟ الآخرون في حاجة دائمة إلينا وعلينا أن نذهب نحوهم. هذا هو الإنسان، ما عدا ذلك، فلا قيمة لما يفعله.

عندما استيقظ مونسينيور ديبوش في الصباح، شعر بتحسن كبير في آلام الرقبة وبتراجع الحمى التي صارت تنزل عليه بشكل متواتر. مشى قليلاً في الحديقة ثم دخل وبدأ يرتّب الوثائق التي

تحصَّل عليها حول انهيار الزمالة وشجاعة الأمير على الإبداع المستمر حتى في أحلك الظروف.

كان مونسينيور يريد من رسالته إلى نابليون أن تكون قويَّة ومقنعة وإلاَّ فلا معنى لبعثها رأى في زيارته المبرمجة للأمير حلاً لكل الأشياء الغامضة حول محو دولته المتنقلة. هكذا يفعل مونسينيور دائمًا قبل زيارته للأمير. يحضر نفسه لكل شيء حتى لأسوأ الاحتمالات، أن لا يكون الأمير مثلاً في وضع نفسي جيد للإجابة عن التساؤلات المطروحة عليه.

في الليلة التي مضت لم ينم مونسينيور جيِّدًا. وعلى الرغم من آلام الرقبة ودرجة الحرارة المرتفعة، فقد قضى وقتًا طويلاً ينبش القصاصات والوثائق والملاحظات التي جاء بها من الجزائر ومن زياراته لباريس. لم يستطع أن يخبئ الوهن الذي علا وجهه في شكل صفرة ليمونية فاقعة. فقد تفاقمت الحمى القاسية التي كانت تبدأه من القفا لتنزل على طول العمود الفقري حتى الفقرة الأخيرة لتصعد من جديد وتستقر عند عظام الرقبة، حيث تُجمِّد كل حركاته حتى ساعة متأخِّرة من الليل. فقد تعوَّد أن يلاعب مرضه ويداريه بأن يحني رأسه قليلاً ليستقرّ في النهاية على الوضع الذي يناسبه قليلاً ويترك له فرصة للكتابة. يبدو من بعيد في جلسته المائلة نحو الجهة اليمنى كأنَّ به مرضًا عضالاً في فقرات العمود. تعوَّد على هذه الوضعية حتى في سيره. يقول دائمًا:

ـ المرض مثل البشر، بقليل من الصبر وكثير من الحيلة والذكاء نستطيع أن نسيره وأن لا نحسّ به عندما نجد له الوضعيَّة المناسبة.

أجرِّب كل الوضعيات الممكنة حتى أجد تلك التي تناسبني والأقل ألمًا

عندما هممت بتنظيف الطاولة التي كان يكتب عليها من كأس الشاي وصحن الخبز، صرخ بأعلى صوته وكأنَّه اكتشف شيئًا جديداً في:

ـ أوريكا. أوريكا

ـ ماذا حدث يا سيدي؟ أجبته عفويًا

ـ لا شيء. ولكن أنظر. أنظر يا عزيزي جون؟ أنظر؟ هل يمكن أن يكون رجل مثل هذا قاتلاً أو مجرمًا كما يريد إقناعنا الذين خانوا ما وعدوا به؟ أليس هذا دليلاً قاطعًا على استقامة الأمير وأنَّه محارب بأخلاق المحارب الكبير؟

ـ لا أعرف يا سيدي ما تقصده. قلت بنوع من التردُّد لأنِّي لم أكن أملك ما كان يملكه بين يديه.

ـ أنظر جيِّداً. وثيقة مهمة للأب سوشي[1] الذي أرسلته مبعوثًا لمحاورة الأمير في قضية السجناء الفرنسيِّين، والذين أطلق سراحهم بدون تعقيد سوى بطلب فعل مماثل من طرفنا. هل تدرك قيمة هذه الوثيقة؟ اسمع ماذا يقول:

لم يتح لي فرصة النظر إلى الوثيقة، فقد أخذ يقرأ هو بنفسه تقرير الأب سوشي بعد لقائه بالأمير:

---

١ ـ L'abbé Suchet

كان عمره تقريبًا خمسًا وثلاثين سنة. بقامة متواضعة، يتجلّى منه وقار عال. وجهه دائري وملامحه متكاملة. لحيته كثّة وتنحو نحو سواد ظاهر. بشرة وجهه بيضاء، مائلة إلى بعض الصفرة على الرغم من سمرتها من شدّة الحر عيناه الزرقاوان جميلتان وموحيتان. صامت. نظرته دائمًا في حالة تأمُّل وخجل. ولكنّه عندما يتحدَّث تتقد عيناه بقوّة، وكلّما تعلّق الحديث بالدين، رفرفتا خشوعا، تارة باتجاه الأرض وأخرى باتجاه السماء. بسيط ويبدو عليه انزعاج كبير من هالة القداسة التي تحيط به. ليس من السهل رؤية هذا الإنسان يضحك ليصبح إنسانًا عاديًا. الصداقة حاجة قلبيَّة بالنسبة له. هو كذلك كان مشدودًا إلى رؤيتي. منذ زمن بعيد وهو يرغب في التعرُّف على راهب كاثوليكي. كنت أول من رأته عيناه. بعد الترحاب التقليدي طلب مني أن أقرأ له بواسطة ترجماني رسائل مونسينيور ديبوش. وعندما استمع إليها كان سعيدًا وبين لي عن رضاه. ومثلنا جميعا، كان يقدِّر أعمال مونسينيور الخيريَّة. قال: أعرف كل شيء وأعرف جيِّدًا ما يقوم به من أجل الجزائر ولديّ تقدير كبير لشخصيته. أخبرته بسعادة مونسينيور بنجاح عملية تبادل الأسرى. وأوحيت له أنَّ هذه السعادة تبقى منقوصة ما دام هناك رهائن لديه. أكّدت له أنَّ ستةً وخمسين شخصا ما يزالون رهن الاعتقال وأنا هنا من أجل المطالبة بهم من طرف البابا الكبير كما كان يسمِّي مونسينيور ديبوش. ثم قدَّمت له قائمة السجناء الذين عُثر عليهم في سجن معسكر بعد لحظات من التفكير أخبرني بأنّه لا يستطيع أن يخلي سبيلهم ما دام هناك سجناء عرب لدى فرنسا فذكَّرته بأنَّ هذا لم يردّ في الاتفاق بينه وبين مونسينيور والخليفة. وأنَّ مونسينيور لا يتدخل في المسائل السياسيَّة وأنَّ ما قام به لا يعدو أن يكون عملاً خيريًّا. وأخبرته بإطلاق ثمانية سجناء التحقوا بقبائلهم في الطريق ومن بينهم قائد مهم

طالب به ابن سالم. قال الأمير

- هل تضمن لي بأنَّ مونسينيور سيجتهد أكثر لإطلاق سراح أربعة سجناء عرب يهمونني كثيراً وقائد موجود اليوم بفرنسا مع السجناء الذين نقلوا إلى هناك.

- بالنسبة لهذا الأخير فقد تقدَّم مونسينيور بوثيقة يطلب فيها من الملك الصفح عنه. أما بالنسبة للآخرين، لو كان الأمر يتعلَّق بسيدي لرأيتهم في أقرب وقت بجانبك.

في هذه اللحظة تغيرت لهجة السلطان:

- إذن. ستأخذ معك سجناءك.

- متى؟ قلت بحيرة.

- ابتداء من اليوم سأعطي أوامري لأحد قادتي لكي يقودهم إلى وهران التي لا يحتاجون للوصول إليها إلى أكثر من اثنتي عشرة ساعة

لم أعرف كيف أشكر عبد القادر وطلبت منه أن أذهب معهم إلى وهران لكي أعود برفقتهم. قال بابتسامته المعهودة بأنَّ الحذر واجب. ربما كان يخشى بتنقلي هذا واكتشافاتي، أن أخبر القوات الفرنسية بمواقع قواته. وكان يمكن أن أعده بالاحتفاظ بالسر ولكن شيئا من هذا لم يحدث. كنت سعيداً أنَّ مسعاي قد نجح.

ـ هناك حالة من العمى صارت مستشرية وإلاَّ لما احتفظوا به كل هذا الوقت

ـ بعد نقاش طويل حول المسيحية مع الأب سوشي، أثاره الصليب الذي كان يشعُّ على صدره ولكنَّه لم يقل شيئًا. أخرج

الأب فدية عن السجناء الفرنسيِّين. رفض الأمير قبولها، لكنَّ الأب سوشي ألحّ أنَّها مني وأنَّ الإكرامية لا ترفض، تردّد الأمير قليلاً ثم قال:

ـ أقبل بها لأنَّها منحة من طرف أسقف كبير وإلاّ ما قبلت بها

ـ سيدي يطلب منك طلبًا أخيرًا، هل بالإمكان السماح بحضور قس بجانب السجناء الفرنسيِّين مستقبلاً، يساعدهم على تحمُّل سجنهم ومأساتهم؟

ـ يستطيع أن يفعل ذلك ومن الآن.

ـ أتمنّى أن تكتب لي ذلك حتى يتمكَّن مونسينيور من قراءته.

ثم كتب هذه الكلمات:

لقد طلبتم مني، إذا لم أرَ مانعًا في بعثكم أحد قساوستكم للتخفيف عن السجناء الفرنسيِّين إذا تضاعف عددهم مستقبلاً أقول لكم على الرحب والسعة وأقبل بهذا المقترح الصادر عنكم بصدر طيب. ونستقبل مبعوثكم بالحفاوة والكرم إن شاء اللّه.

ثم واصل مونسينيور القراءة:

نحن نثق فيكم كثيراً في الحفاظ على الوعد الذي قطعتموه على نفسكم. وستطلقون سراح محمد بلمختار في القريب العاجل وما تبقى من السجناء. عائلاتهم وأبناؤهم في حيرة وخوف كبيرين ولا يتوقفون عن التضرُّع للّه ليجمع شملهم بذويهم. بقي أربعة سجناء في وهران ينتظرون إطلاق سراحهم ونحسن فيكم الظنّ لسببين أساسيين:

أولاً، لأنكم وعدتم بذلك. ثانياً، سيكون ذلك فرصة كبيرة للقيام بعمل خيّري، إنسانيٍّ جديد. دمتم في رعاية اللّه وحفظه.

ثم التفت مونسينيور مرة أخرى نحوي:

ـ أرأيت يا عزيزي جون لماذا أجهد نفسي لتفجير الحقيقة؟

ـ خيرك كبير يا سيدي ولن ينسى اللّه ذلك أبداً.

ـ ليس خيري هو الكبير ولكن سماحة الرجل وقدوته. سنزوره في سجنه من جديد ونحتاج إلى التوغُّل في كل التفاصيل التي تساعدنا على معرفته ومساعدته. أنت تعرف أنَّ الرئيس مع إطلاق سراحه، لكن المجلس مركَّب بشكل لا يسمح مطلقًا بالتقدُّم في وضعية الأمير.

ثم طلب منّي أن آتيه بلباسه الفضفاض وخاتمه وصليبه الذي لا يغادر صدره وأن أجمع الوثائق وأضعها في حقيبته. قام من مكانه، مشى قليلاً في الحجرة قبل أن يلبس اللباس الذي أحضرته له بصعوبة كبيرة باحثًا عن الوضعية الأقل أذى والتي لا توقظ آلام الرقبة والظهر إلاَّ قليلاً.

* * *

- ٢ -

انحنى مونسينيور ديبوش قليلاً وهو يعبر عتبة الباب المؤدية إلى البهو الطويل الذي ينفتح مباشرة على الصّالة التي كان الأمير يرتاح بها عادة، يقرأ، يحادث، أو يروي سيرته لمصطفى بن التهامي بالتوازي مع مونسينيور ديبوش الذي يدخل دائماً محملاً بالتساؤلات والأشواق الكثيرة. الأمير نفسه تعوّد على ظلّه ورائحته الطيِّبة التي تسبقه من بعيد

ـ صباح الخير سيدي السلطان، اليوم ابتسامتك مشرقة.

ـ صباح الخير مونسينيور. أراك محمَّلاً بأوراق كثيرة، يبدو أنَّ أسئلتك هذه المرة أكثر من المرات الماضية. سعيد جداً بك.

ـ هذا غير مهم أمام ما في الرأس.

ـ اللّه يعيننا على الإجابات. تعرف يا مونسينيور أنَّ الذاكرة تخدع دائماً أصحابها ولهذا كثيراً ما يخطئون؟

تضاحك الرجلان قليلاً قبل أن يطلب الأمير من ضيفه الجلوس بجانبه. تماماً في المكان الذي كان يجلس فيه مصطفى بن التهامي عادة والذي صار الآن مواجهاً له، يستمع إلى ما تبقى من كلامه عن سيرته.

ـ شاي بالنعناع مونسينيور، أليس كذلك؟

ـ لقد تعوّدت عليه وعلّمته لجون الذي صار يتقنه، أليس كذلك يا جون؟

انحنيت قليلاً تأكيداً لكلام مونسينيور الذي شرّفني بذكر اسمي وسط جمع محترم. لقد كان محقًّا كنت في الزاوية ولم أستطع كتم سعادتي:

ـ لست مختصاً في الشاي، ولكن من كثرة الحدادة نصير حدّادين فقط يا مولاي.

ثم التفت الأمير نحو ضيفه وهو يعدل من جلسته كمن يستعدّ لكتابة شيء أو الاستماع لخبر في غاية الأهميّة:

ـ مونسينيور، لولا زياراتك وزيارات الناس الطيّبين لأصابنا اليأس في هذا المكان. كلماتك الطيّبة تجعلنا نتحمل هذه الحالة التي ليست سجناً معلناً ولا ضيافة واضحة ولا كرماً فائضاً منذ أن بدأنا نفقد أحبتنا على هذه الأرض وندفن أطفالنا، أصبح لديّ اليقين أنّ سنوات المنفى صارت حقيقة ولم تعد مجرد كلام. يبدو أنّ المنفى يبدأ بفكرة وينتهي بفاجعة. ما كان مؤقتاً صار دائماً، فكيف نسميه يا سيدي؟

شعر مونسينيور بالكلمات تموت في حلقه كالطيور المنكسرة. لغته لم تعد كافية للتقليل من الحزن والمأساة العميقة التي كانت تأكل الأمير من الداخل كل يوم قليلاً تمتم وهو لا يدري ما إذا كانت كلماته تصل إلى الأمير الذي كان منحني الرأس ولا ينظر إلى وجه صاحبه. فهو كلّما تكلّم على نفسه، إما انكسرت عيناه صوب الأرض أو يرفع رأسه نحو السقف أو نحو سماء مفقودة لا يراها إلاّ هو

ـ لا أملك إلاّ قلبًا صغيرًا أضعه بين يديك. أحيانًا لا أنام وأنا أتخيّلك تعبر البهو جيئة وذهابًا بحثًا عن إجابة مقنعة لقلقك الكبير. وما دام في العمر بقيّة سأبعث بهذه الرسالة إلى الرئيس لأنّي أعتقد جازمًا أنّه يسمع لنداءاتنا الداخليّة.

ـ لا أشكّ في طيبتك، اللّه يكثر خيرك مونسينيور. ولكنّك تعرف أحسن منّي أنّ الأمر لم يعد متوقّفًا على الرئيس وحده. طيّب ما هي أسئلتنا اليوم، في هذا على الأقل، نجيد الإصغاء ونجتهد في الإجابة؟

ـ أستغرب أيُّها السلطان أن تتحرَّك دولة بكاملها على ظهر مجموعة من الجمال، لم أر هذا في حياتي ولم أقرأه في كتب. لم تتح لي فرصة التعرُّف على ذلك ميدانيًّا، ولكن أستغل فرصة وجودك لمعرفة سر ذلك ما دامت الحرب قد همدت ولم تعد هناك أسرار. الزمالة تبدو لي أمرًا غريبًا بالنسبة لرجل مثلك عاش يبحث عن دولة مستقرة.

شردت ابتسامة من ابن التهامي. أراد أن يجيب ثم فجأة تراجع عندما رأى الأمير يستعد لذلك. من عادته أن لا يتحدَّث إلاَّ

عندما يطلب الأمير منه ذلك لإبداء الرأي في قضية ما أو تسجيل ملاحظة صغيرة. فقد عاش في ظلّ الأمير، هو العارف الكبير بخبايا الحكم والسلطان لثقافته الواسعة ولقراءاته الكثيرة.

تأمَّل الأمير السقف قليلاً ثم مسّد على وجهه قبل أن يجيب على تساؤل مونسينيور.

ـ مونسنيور؟ هل تعرف ما مقدار مسؤولية أن تجر وراءك دولتك؟ معناه بكل بساطة أن تكون حذراً ليس فقط على جيشك ولكن على أبنائك وشرفك. وربما بسبب خطأ صغير يمكن أن تدفع بكل شيء إلى الهلاك. قوَّة دولتك في سرِّيَّة حركتها ولكن عندما تُكتشف بنهار كل شيء في ثانية. ومن يضمن ذلك في ظل الاختراقات الكثيرة؟ لم أكن أخاف من أعدائي بقدر خوفي من أبناء جلدتي هم أقدر على الأذى لأنَّهم أكثر معرفة بالشأن العربي وأكثر دراية بحركتنا

ـ ألم تكن هناك حلول أخرى في مقدور البشر تسييرها احسُّ أنَّ وضعًا مثل هذا، فوق طاقة التحمل ومغامرة غير مأمونة الجانب؟ لم أر في التاريخ ما يشبه ذلك كما قلت لك.

ـ وما هي الخيارات التي تُركت لي في حرب أحرقت كل مدني يا مونسينيور؟ صفر. إما الاستسلام في وقت مبكر أو النضال حتى النهاية وبكل الوسائل الممكنة والمتوافرة. أنا كذلك أشتهي أن أذهب إلى مكتبة للحصول على كتاب لقراءته مثلما تفعلون، أو أن أذهب إلى بلديَّة مثلما هو عندكم وأُخرج وثائقي بدون متاعب تذكر، لكنَّنا في حرب وقد أُحرقت كل وسائلنا التي كنَّا نعتمدها ولم تترك

لنا إلاّ الرماد القاسي. حتى مكتبتي في تكدامت لم أنقذ منها إلاّ ما استطعت إخراجه.

ـ الكتب أُحرقت؟

ـ أحرق القرآن والتوراة والإنجيل في تكدامت. النار كالحقد، عمياء. أُحرق ابن خلدون وابن عربي وكتاب عن نابليون ترجمه لي ابن التهامي وغيرها من المخطوطات النفيسة. يحدث معي أن أبكي على كتاب أكثر من بكائي على أعزائي الذين أكلتهم الحرب، فهم في الجنَّة ولكن المخطوطات اندثرت وإلى الأبد، وهل تدرك يا مونسينيور مقدار الخسارة الفادحة؟ لم يعد لنا مكان في أرضنا وأرض أجدادنا، فقد أُخذ منَّا كل شيء واعتُدي علينا ولم نعتد على أحد خُيِّرنا بين أمرين، إما الرحيل والموت أو التسليم في الأرض فاخترنا النظام الممكن أي الزمالة للحفاظ على ما تبقى من نظام الدولة وعلى حدّ أدنى من التسيير لمقابلة الفوضى التي كانت بكل بساطة تعني الانتحار. ويمكنك أن تتخيَّل المشقَّة الدائمة للتنقل والرحيل ومع ذلك وجدنا نظاماً يجعل الحركة على ضخامتها تتم بسهولة كبيرة.

ـ عندما ندرك غيرة المسلم على ماله وعرضه أرى استحالة في تنظيم الدوائر كما وردت في الوثائق التي بين يدي.

ـ هنا بيت القصيد لقد أمضيت وقتًا طويلاً في البحث عن البدائل التي لا تقبل تضييع الوقت. تخيَّلنا ذلك قبل سقوط المدن الكبرى لأنَّنا كنَّا نعرف أنَّ الحرب التي كنَّا نخوضها كانت قاسية وهي حرب كان الوقت هو سيِّدها الأول. الهدف من تنظيم الناس في

شكل دوائر هو تقريبهم قدر المستطاع من مصدر القرار. البعد يولد العزلة في فلسفتنا نظامنا كان بسيطًا أنشأناه مباشرة بعد تدمير المكان الذي تخيَّلته عاصمة لنا تكدامت. التدمير كان ضربة قاسية. في اللحظة التي ترى فيها ألسنة النار تأكل سنوات العمل، تشعر بالغبن لأنَّك لا تملك الوسائل التي تدافع بها عن مكتبتك وبيتك ومصانعك وناسك، وحتى الناس الذين تتركهم وراءك للدفاع عن المكان، تعرف سلفًا أنَّهم سيموتون. قاسية هي الدنيا يا سيدي الفاضل. وكانت الزمالة تكبر كلّما شُرِّدت القبائل ودُمِّرت مساكنهم وحقولهم. مع تباشير ١٨٤٣ كانت تحتوي على ثلاثمئة وتسع وثلاثين من الدواوير وسبعين ألف نسمة، وأربعمئة حارس نظامي تحت إمرة ابن التهامي أو ابن عراش. منقولة من حيث النظام عن معسكري المكوَّن من أربع دوائر متساوية المسافات الفاصلة. المركز تحتله إدارتي وعائلتي ثم الدائرة الأولى مكوَّنة من معاوني المباشرين ومنهم: ابن التهامي وبلخروبي والميلود بن عراش وابن خليفة، الدائرة الثانية مكونة من دوائر سيدي مبارك ومسؤول الخيَّالة وقنصلي في وهران سيدي الهادي الحبيب ولد المهر وإدارته المركزيَّة، الدائرة الثالثة مكوَّنة في معظمها من قبيلة هاشم، أما الدائرة الأخيرة فمكوَّنة من مختلف القبائل المتضررة وقبائل الجنوب المتنقلة.

ـ عاصمة متنقلة؟

ـ تماما، فيها كل شيء. لقد توصلنا إلى طريقة تسمح لنا بسرعة المناورة، ضرب الخيام ونقلها كلَّما كان الخطر قريبا كل الأرشيف معي، مصانع الحرب، الأسواق التي تعقد مرة في الأسبوع،

صناعة الذهب التي يتقنها اليهود الذين يتنقلون معنا، المؤن الحربيَّة، وحتى القضاة، لكن أهم شيء هو المكتبة التي شكلتها بواسطة عملي وكانت هي نواة مكتبة تكدامت ولكن الظروف دفعتنا إلى التنقل. حزين كما قلت لك قبل قليل لأنَّ الكتب التي بُعثرت أو أُحرقت لا تُعدّ ولا تُحصى. أخطر شيء هو سرِّيَّة المكان. شرطان: السرِّيَّة المطلقة وإيهام الجواسيس بالأمكنة ومنابع الماء، والقوات الفرنسيَّة كانت تعرف كل نقاط المياه. ولولا وشاية آغا بني عياد، اعمر بن فرحات، لما استطاع الكولونيل يوسف والدوق دومال أن يعثرا على منبع عين الطاجين.

ـ بعض الوثائق التي معي تقول إنَّ العثور على الزمالة جاء عن طريق الصدفة.

ـ قد يكون، ولكن مادام هؤلاء الناس يقتفون أثري ليلاً نهاراً، ينتفي عامل الصدفة. كنت مطارداً من الفرنسيِّين ومن بعض ذويَّ، فإنَّ أخطأني الأول، الثاني سيصيبني لا محالة وهو ما حدث بالفعل.

صمت الأمير قليلاً وبلع ريقه بصعوبة كبيرة. رأى الأدخنة المتصاعدة وصرخات الأطفال والنساء الذين فوجئوا في غفوتهم، ورأى بألم كبير الثلاثمئة فارسٍ الذين ارتموا بقوة في أتون النار وهم يعرفون سلفًا أنَّهم سيموتون، ولكنَّهم كانوا يفعلون ذلك لترك الفرصة لما تبقَّى من الزمالة لكي يفلت وينجو من نار مفاجئة وموت مؤكَّد

ـ سيدي ماذا نفعل، هل نتوقَّف عن التدوين؟

نبَّه مصطفى بن التهامي الأمير الذي كان قد غير جلسته وتربع على الهيدورة الخشنة الموضوعة على الحصير الكبير، فقد كان يجد صعوبة كبيرة في المكوث طويلاً على الكرسي أو حتى على الكنبة الخشنة.

بينما ظلّ مونسينيور مشدودًا إلى حركة الأمير الذي شعر فجاة بامتعاض يشق داخله ويشظِّيه إلى ذرَّات متعددة تشكو كلُّها ألَمًا خاصًّا

ـ سيدي ماذا أفعل؟

ردَّد مرة أخرى مصطفى بن التهامي الكلمات المرتبكة نفسها بدون أن يتلقى إجابة على تساؤله، ثم أغلق كرَّاسته الصغيرة واتكأ على الحائط قليلاً ليستطيع تحمُّل آلام الظهر التي لا تسمح له بالبقاء مدة طويلة في الوضعية نفسها كان يعرف أنَّ الأمير إذا صفن طويلاً، يحتاج إلى وقت آخر قبل أن يعود إلى وضعه الطبيعي الأول ويستعيد حيويَّته.

لم يرد الأمير، ولكنَّه قام من مكانه وفتح النافذة التي تنتهي في الحديقة والصمت. لم يسمع ما يخرجه عن حزنه وأشواقه المنكسرة، ولكنَّه عندما دقق السمع قليلاً انتفى كل شيء ولم يبق أمام عينيه إلاَّ ضجيج الخيل وهي تترافس وتتقاطع بقوائمها الأماميَّة، والسيوف وهي تحدث بريقًا وشعلات كلَّما تقارعت في الفضاءات قبل أن تنغرس في الأجساد الطرية للفرسان وصدور الأحصنة. تناهى إلى سمعه الذي ازداد حدَّةً صوت الأبواق وهي ترتفع عاليًا والنداءات

وهي تتقطَّع بقوة في خلاء زادت وحشته، وسط الضباب الكثيف وحوافر الخيل وهي تبحث عن مواقعها لتثبت في أمكنتها تحت السيل الجارف من رشقات البنادق وتقاطع نصول السيوف مخلِّفة حشرجات وتنهدات، تشبه الزفرات الأخيرة التي تسبق الموت عندما يصبح هو سيِّد الساحة المظلمة بالأتربة المتصاعدة والخوف الذي لا يُرى إلاَّ في العيون القلقة والمهلكة.

«من أين جاء يوسف بكل هذا الحقد؟ ما حدث، كان يجب أن يحدث»

تمتم الأمير وهو يحاول أن يفتح عينيه بصعوبة كبيرة، ويتفادى ذلك اليوم الذي صار بعيداً ولكنَّه قريب دوماً كالجرح: ١٠ ماي ١٨٤٣

*

- ٣ -

لفصل الربيع عطر خاص ونكهة لا تُضاهى. في الغابة يلتقي كل شيء مخلّفًا وراءه رائحة مسكرة وخاصة النوار والمارمان الذي يعرش في كل مكان والعرعار المعطّر برائحة الحلازين ونسغ النباتات والحرمل وأشجار الصفصاف والبلّوط والأرز وزهر الرمان واللوز ومياه الوديان والضفادع البريّة التي تطلق روائح كثيفة كلّما شعرت بقوة حيّة تعبر أمكنتها الحيويّة لا شيء يخترق المسامع إلاّ خشخشة الأشجار وهي تتداخل فيما بينها وأزيز الحشرات الصغيرة التي تتوالد في هذه الأمكنة الرطبة بكثافة وخرير المياه الذي يسمع من بعيد في شكل همهمات خفيفة ولكنّه يصل واضحاً

كان الكولونيل يوسف بصحبة الدوق دومال، يقود الخيّالة، وثلاثة فيالق من المشاة تحت أوامر الكولونيل كامو وفيلقين للمدفعيّة إضافة إلى ثلاثمئة خيّال قومي يقودهم الآغا ابن فرحات إضافة إلى قافلة المؤن المكونة من ثمانمئة جمل وبغل لنقل الأكل والحاجات

الضروريَّة، لتحمل شهر بكامله من الترحال والبحث في عمق الغابات والخلاء.

Heureusement que cette splendide beauté rend la marche supportable sinon on aurait abandonné depuis longtemps. Je ne vois aucun aboutissement à notre périple.

Votre Altesse, je ne peux pas me tromper. J'ai vérifié, les informations s'avèrent très crédibles. J'ai la ferme conviction qu'on arrivera à notre but.

- Peut être une erreur d'appréciation !

Votre altesse, S'il y a une seule chose dont je suis sûre durant toute ma carrière militaire, c'est bien ceci sous la force et la contrainte, les arabes ne vont pas par mille chemins, ils se résignent.

- Tu veux dire la torture !

لم يكن الكولونيل يوسف يملك أجوبة صارمة عن موقع الزمالة، ولكنَّ استنطاقه للمساجين في هجومات بوغار سمحت له بمعرفة المواقع التقريبيَّة لزمالة الأمير، ولكنَّه كان يدرك جيِّداً أنَّ الأمير يغيِّر مخابئه باستمرار. ولهذا، لم يكن من السهل العثور على خيامه وتحديد موقعها بشكل دقيق.

ـ أنا متأكِّد يا سيدي أنَّ الموقع ليس بعيداً من هنا شيء ما يقول لي إنَّنا نحوم حول الزمالة وهي أمام أنوفنا للعرب رائحة تشبه رائحة الذئاب وأنا أشمها ولو كنت على عشرات الكيلومترات، مثل الخوف.

أكَّد الكولونيل يوسف مرة أخرى، موجهًا كلامه إلى ولي العهد الدوق دومال ولامورسيير اللذين كانا يتصيَّدان بعيونهم كل

الحركات ويتشممان كل الروائح المنبعثة من الأمكنة الخفيَّة. عندما اعترضهم الوادي، وجدت الأحصنة صعوبات كبيرة لتخطي الخلجان الكثيفة والمياه التي كان يزداد علوها باستمرار على الرغم من أنَّ الفصل كان ربيعيًّا

ـ حاسة شمي تقول لي إنَّ ما قاله لي الآغا ابن فرحات، فيه شيء من الصحة. هو متأكِّد أنَّ موقع الزمالة ليس بعيداً عن المكان الذي نحن فيه.

ـ هل لديك الثقة الكاملة فيه، ألا يمكن أن يكون قد نصب لنا شركًا؟ أشعر كأنَّ كل حركاتنا مراقبة منذ أن بدأنا تحركنا.

ـ الآغا ابن فرحات جربناه في ظروف أكثر قسوة من هذه وأثبت وفاءه الكبير. أنا كذلك متأكِّد أنَّنا مراقبون ولكن لم يحن الوقت للهجوم عليهم، لنتركهم يكشفون أنفسهم شيئًا فشيئًا في مثل هذه الحالات نستولي على عيون الأمير فتصير مهمة بقية المراقبين صعبة إن لم تكن مستحيلة. فهم الرابط بين الأمير وتحركاتنا.

كان الكولونيل يوسف يدرك جيِّداً أنّ الطلقات المتشابهة التي تصحبهم كلَّما اقتربوا من قرية لم تكن عبثيَّة، ولكنَّها إشارات ولغة ذات معنى واضح. عندما دخلت الفيالق في عمق الغابة واختفت تمامًا بين الأشجار والخلجان، انفصل الكولونيل يوسف مع مجوعة صغيرة بينما سار الآغا ابن فرحات في الجهة المعاكسة تمامًا مع فرقة من الخيَّالة بالعدد نفسه، متتبعين أصداء الطلقات مثل ذئبين هرمين، بمحاذاة حوافي الوادي، بين الأشجار العالية. ومثل الكمَّاشة، باغتا المنذرين الواحد بعد الآخر. كان عددهم اثني عشر رجلاً تمّ اقتيادهم حيث

ينتظر ولي العهد وبقية الفيالق. انتحى الكولونيل والآغا صخرة كبيرة على حافة الوادي وشرعا في استجوابهم الواحد بعد الآخر. لا تسمع إلاَّ صرخات الآغا وتهديداته بالموت للضحيَّة إن هي رفضت قول الحقيقة. وبعد نهاية كل استجواب تُسمع طلقة جافَّة ثم صوت تكسر المياه عندما تستقبل شيئًا ثقيلاً عندما انتهى الكولونيل يوسف من استجوابهم الواحد تلو الآخر عاد نحو الدوق دومال، ولم يترك وراءه إلاَّ شخصًا واحدًا جرَّه حتى موقع الدوق دومال. كان طفلاً، لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره. كان يرتعش كالورقة عندما رأى الرجل الذي قُتل ينكسر كنخلة عالية ويسقط عند رجليه محدثًا صوتًا مكتومًا تبعه صمت كبير. عيناه ضائعتان في أفق بلا لون. أمام الموت الأكيد، كان الطفل مستعدًّا لتقديم كل ما يعرفه من معلومات عن مكان الزمالة.

ـ هذا آخرهم يا سيدي.

قال الكولونيل وهو يمسح جبهته التي نضحت عرقًا:

ـ يا سيدي أنا موجود هنا عن طريق الصدفة. هم جاؤوا بي إلى هذا المكان.

ـ قل كل ما تعرفه، قال الآغا بصوت مكتوم وثقيل.

التفت الطفل نحو الآغا بعينين تشبهان عيني كلب ينتظر رصاصة الرحمة علَّه يرحمه، لكنَّ الآغا كان قد نزل من على حصانه ووجَّه ركلة قويَّة إلى صدر الطفل الذي انقطع نفسه، ازرورق مثل حجرة الوديان قبل أن يتقيأ الدم.

ـ قل يا وحد الفرخ كل ما تعرفه من معلومات، إذا قلت ما نعرف والو، تعرف واش يستناك. وتعرف النهاية التي تنتظرك. لا

داعي لتضييع الوقت، فلا وقت لدينا لتضييعه في الحيل، وين راها زمالة الأمير؟

مسح الطفل شفتيه من الدم الذي تجمع في فمه وتمتم:

ـ ليسوا بعيدين عن عين طاجين.

ـ أنت متأكِّد مما تقوله؟

ـ نعم يا سيدي، سمعتهم يقولون هذا الكلام. أرجوك لا تقتلني ويمكنكم أن تأخذوني معكم للتأكُّد من كلامي.

ـ ومن قال لك إنَّنا سنقتلك؟ تدخَّل ولي العهد وهو يهدِّئ من روعه ويبعد عنه قليلاً الكولونيل والآغا

ـ ذئاب يا سيدي. يشبهون بعضهم بعضاً.

ـ أطلق سراح هذا البئيس، لم نعد في حاجة إليه.

ثم وضع الطفل رأسه بين ركبتيه وبدأ يبكي ويطلب الرحمة، بينما كانت الفيالق قد بدأت تتوغَّل أكثر في عمق الغابة. فوجئ الطفل أنَّه تُرك في مكانه. شعر فجأة بسعادة كبيرة وهو يحاول أن يترك مكانه والهرب نحو قريته.

من بعيد، عندما صارت القافلة على الضفة الأخرى من الوادي، سُمع صوت طلقة جافَّة وصرخة مكتومة. نظر الكولونيل يوسف إلى الدوق دومال الذي بدت عليه بعض علامات الدهشة:

ـ العرب لا ينتحرون يا سيدي عندما يخسرون معاركهم. هم هكذا يا سيدي، لا يتردَّدون في قتل من يخونهم.

ـ تعتقد أنَّهم قتلوا الشاب.

ـ لا أعتقد ولكنِّي متأكِّد

قال الكولونيل يوسف بصرامة ويقين ظاهرين.

ـ كل شيء مسموح به عند العرب إلاَّ ما يسمُّونه بالخيانة ضد الأمير.

تمتم الآغا بكلام لا يكاد يُسمع.

ـ كل شيء يُغفر إلاَّ الخيانة.. الخيانة أخت الموت.

ثم أحنى رأسه قليلاً قبل أن ينبهه يوسف:

ـ لا تهتم يا آغا، أنا كذلك تخليت عن الأتراك عندما وجدت أنَّه من الأجدى لي خدمة دولة قوية تضمن حقوقي وحقوق أبنائي، جيلنا الذي تعلَّم لم يعد قادراً على تحمل تخلُّف ناسه وأقربائه.

لم يقل الآغا شيئًا ولكنَّه واصل سيره وصمته.

سارت القافلة باتجاه الجنوب ولم تنصب معسكرها في قرية قوجيل. المعلومات الجديدة التي تحصلت عليها دفعت بها إلى تحمل معاناة الطريق أكثر لربح الوقت. عندما وصلت إلى أعالي القرية، توقفت قليلاً في مرتفع صغير يسمح لها بالإشراف على الأراضي المنخفضة، بين الأشجار وبعيداً عن الجبال. آخر الأخبار التي وصلت الكولونيل يوسف تتقاطع كلّها مع فكرة تحرُّك جديد للزمالة باتجاه جبال عمور. زاد الكولونيل يوسف من يقينه بضرورة عدم التوقف، بينما قسم الدوق جيشه إلى فيلقين، فتفرَّد بقسم من الخيَّالة وقسم من المدفعيَّة، بينما ظلت المجموعة الثانية المكوَّنة من فيلقين من المشاة لحراسة قافلة المؤن، تحت قيادة الكولونيل كامو.

استمرت الرحلة الليلة بكاملها الأحصنة تعبت والخيّالة كذلك. الوحيد الذي لم يفقد حماسه أبداً هو الكولونيل يوسف الذي لم ينم طوال الليل وظلَّ يترقَّب بعينيه الصغيرتين كل الحركات. عندما بدأت همَّة الدوق دومال تخفت، كان هو من شجَّعه على مواصلة السير:

ـ انا متأكِّد انَّ الأمير صار في قبضتنا أكثر من أي زمن مضى.

ـ ومع ذلك يا كولونيل، يبدو بالفعل أنَّنا أخطأنا الطريق. أنت تعرف في مثل هذه الحالات يمكن للعدو أن يراوغ خصوصاً إذا كان رجلاً مثل الأمير الذي يعرف المكان جيِّداً يبدو أنَّه من الحكمة أن نوقف رحلة لا يمكنها أن تؤدي إلاَّ إلى تضييع الوقت وزيادة المخاطر. أشعر من عيون العسكر والأحصنة أنَّ طاقتهم بدأت تتضاءل.

ـ لا يا صاحب السمو، نحن على قاب قوسين أو أدنى من الهدف وخسارة أن نوقف الرحلة عند هذا الحدّ. فالأمير وأعوانه لا يطلبون إلاَّ هذا، ويجب أن لا نمنحهم هذه الفرصة.

ـ في كل مرة الشيء نفسه، في غارة بوغار ظننا أنفسنا قريبين من الهدف ولكنَّنا لم نعثر إلاَّ على الرماد الذي خلَّفه الأمير بحرقه أمكنة إقامته. في معسكر، في تكدامت، دائماً المشاهد نفسها. منذ أيام لم ننم وأتساءل إذا كنَّا نملك الطاقة الكافية لمواجهة الأمير إذا ما فاجأنا بقواته؟ الجميع متعبون.

ـ جيشك يا سيدي ما يزال بقوة الانطلاق نفسها، ويكفي أن نشجِّعهم قليلاً. الآثار التي على الأرض تؤكِّد بأنَّ قافلة ضخمة مرت من هنا آلاف آثار الأقدام الآدميَّة والحيوانيَّة تثبِّت ذلك. أنظر. لا يمكن أن نتوقف، لقد صاروا في قبضتنا

ثم ترجل الكولونيل يوسف وبدأ يقتفي آثار التحركات ويحاول أن يتتبعها بغصن الزيتون الذي لا يغادر يده.

ـ أنظر يا سيدي، ليست قديمة أبداً. العبيد الذين تخلَّفوا عن الركب وألقينا القبض عليهم يؤكِّدون على ذلك. لا يمكن أن تكون كل هذه العلامات مخطئة. إذا لم نفعل الآن نكون قد ضيعنا فرصة لن نحصل عليها أبداً.

تأمَّل الدوق دومال الآثار جيِّداً، لاحظ عن قرب جدَّتها، ثم التفت نحو قوَّاده قليلاً قبل أن يسمح للكولونيل يوسف بمواصلة الطريق وتأجيل التوقف.

ـ ليكن، نجرب هذه المرة وإذا لم تصب نهتم بشيء آخر غير الزمالة التي صارت مثل السراب، نسمع بها ولا أحد رآها لقد فرضت على جيشي الإرهاق الكبير ولا أريد أن أتسبب في كارثة. الرجال مثل الأحصنة، يموتون جوعا وعطشًا وتعبًا ولا أريد أن أذهب بعيداً أكثر من عين طاجين ما دامت هي المصدر القريب بحسب الآغا ابن فرحات والشاب المقتول.

ثم التفت نحو ابن فرحات:

ـ هيا، قدنا إلى هذه العين، لا نستطيع أن نفعل شيئًا آخر ذا أهمية قبل شرب الماء والاستراحة قليلاً ورؤية ما تخبِّئه لنا هذه العين.

لم يكن الكولونيل يوسف راضيا عن هذه الوجهة، فقد كان يفضل الزحف نحو جبال عمور، ولكنَّه سعد أن ولي العهد لم يأمر بالتوقف.

استمرَّت عملية العبور ليلة بكاملها وحتى الصباح قبل أن تتوغَّل قوات الدوق دومال عميقاً باتجاه عين طاجين التي بدأت أولى أكواخها تظهر من بعيد. كان الخيَّالة القومية بقيادة الآغا، يفتحون الطريق كرأس حربة.

فجأة عاد أحد قواد الآغا ابن فرحات راكضاً لا يعرف كيف يتحكَّم في الدهشة التي غزته وغزت فمه الذي جف فجأة.

ـ سيدي الآغا، سيدي الآغا، الزمالة، الزمالة، الزمالة.

بمساعدة الآغا ابن فرحات ومساعديه ابن عيسى ولد قايد العيون وبو بن حميدة، والكولونيل فلوري[1] والكولونيل دوبراي[2]، انطلق الكولونيل يوسف ليصعد إلى المرتفع الصغير مندهشاً من المنظر الذي تبدَّى له فجأة. في هضبة بين الأودية والمرتفعات الصغيرة والأشجار الكثيفة، جثم معسكر بدون حدود، منظَّم وكأنَّه مدينة أو قرية كبيرة بانشغالاتها اليوميَّة وحركة ناسها المنتظمة. الرجال، النساء والأطفال، الجمال والأحصنة والبغال وأغنام لا حصر لها وحركة بشرية لا تتوقف أبداً.

Mon dieu? on dirait l'arche de Noé.

تمتم الكولونيل يوسف وهو يحاول أن يزيل الغشاوة التي علت عينيه فجأة.

عندما رأى الدوق دومال المشهد لم يصدِّق عينيه. بعث برجل ثقته الأول، الكابتن مارغونا[3] لكي يتأكَّد من الخيام المنتشرة على

---

١ ـ Le colonel Fleury.

٢ ـ Le colonel du Barail

٣ ـ Le capitaine Marguenat

مرمى البصر، هل هي بالفعل الزمالة أم مجرد خديعة من الأمير أو من أتباعه للسماح له من الفكاك من قبضة الدوق الذي يتصيَّد خطاه.

بعد لحظات بدت طويلة على الدوق دومال، عاد الكابتن مارغونا وعلى وجهه علامات القلق والخيبة:

ـ مونسينيور، ما رأيته لا يعني أي شيء، خيام بئيسة يمكن أن تكون لأيٍ من الأعراب الرحّالة. صحيح أنَّها كثيرة ولكن كثرتها لا تعني أي شيء مع هؤلاء العربان الذين خسروا أراضيهم وبيوتهم بسبب الحرب وصاروا يتنقلون جماعات جماعات. يجب الحذر

ـ اسكت يا كابتن مارغونا ويكفي تخريفًا؟ هذا كلام الجبناء.

لم يستطع الكولونيل يوسف أن يسكن غضبه، فانتفض بعنف زائد.

ـ يبدو أنَّك أعمى يا كابتن وتحتاج إلى طبيب عيون ليس المعسكر إلاَّ زمالة الأمير. وسأعود مرة أخرى لأتأكَّد بنفسي. لا يمكن أن نترك مثل هذه الفرصة تفلت من يد الدوق دومال.

عندما عاد، كان يقينه مطلقًا هذه المرة.

ـ يوسف.

قال الدوق دومال بحدّة. ثم عدل من هندامه وامتطى سيفه واستقام كالخيط الرفيع على حصانه حتى أن يوسف شعر بنوع من الخوف والارتباك.

ـ يوسف، لست من الجنس الذي يتراجع في وقت النزال. سننقسم الآن كما في الهجمات العسكريَّة العاديَّة، وبسرعة. يجب

ان لا نترك أيَّة فرصة حتى للهاربين. سنقطع عليهم الطريق ونغلق كل الممرات المحتملة لهروبهم. وسنقسم الزمالة على اثنين حتى نربكها من الداخل ونمنعها من فرصة التنظيم والدفاع.

كان الهجوم كاسحًا ومباغتًا. الدفاع صار حالة انتحاريَّة. لم يعد الانتصار مهمًا بالنسبة لأتباع الأمير ولكن تهريب ما أمكن من النساء والأطفال وعائلة الأمير. كل من استطاع حمل أي سلاح فعل ودافع باستماتة قبل السقوط تحت حوافر خيل جموحة لم تكن هناك قوة قادرة على وقفها كان يوسف يرتمي على الخيام بشكل أعمى، فتسحب أحصنة خيَّالته كل ما تصادفه في طريقها من الأثاث والأجسام التي لا تكاد تستفيق حتى تتحوَّل إلى طعم سائغ للبارود والسيوف. الجهات الخلفيَّة الوحيدة التي كانت لها فرصة الاستماتة وركوب الأحصنة، لم تكن كافية لردّ هذا السيل المفاجئ صراخ الحيوانات اختلط بصرخات النساء والأطفال الذين وقفوا عراة من كل شيء في مواجهة آلة يوسف التي كانت تحصد كل شيء. لم يبق شيء واقفًا. رائحة البارود تملأ الخياشيم ساحبة في أثرها مذاق الموت وطعم الخوف وارتعاشات الأحصنة وشخيرها وهي تنكسر على ركابها قبل أن تسلِّم الروح وتنكتم أنفاسها نهائيًا

المشهد لم ينزلق من نظر الرسام هوراس فرنيه[1] الذي ظلَّ يتتبع من أعالي المرتفع، المشاهد وحركة الدوق دومال وهو يبحث عن مسالكه وسط الأجسام الباردة والدم والأحصنة. وسط الجموع، انفصل أحد الفرسان الملثمين وانسحب بحصانين بعد أن وضع

---

١ - Horace Vernet

عليهما امرأتين كانتا مختبئتين تحت حصان سقط وهرب بهما متوغلاً في جبل عمور، لالة الزهراء، أم الأمير وإحدى زوجاته، بعد أن غطاه فيلق من الفرسان استمات حتى النهاية. كانت الزمالة قد كُسِرت في عمودها الفقري ولم يعد بإمكانها الوقوف والدفاع.

بقية الفرق وصلت متأخِّرة، فرقة المدفعيَّة ومشاة الكولونيل كامو لم تكن هناك أيَّة مدعاة لاستعمالها ودخولها المعركة.

في المساء، لم يستطع الكولونيل يوسف أن يخبِّئ سعادته الغامرة، فبدأ يعد مكاسبه وغنائمه الكثيرة: ألبسةً نسائيَّةً غاليةً وحزامين ذهبيين وأسلحة صغيرة وبعض المصاحف المخطوطة والكتب الثمينة، والرايات الحربيَّة، والكثير من الأواني النحاسيَّة وغيرها جمعها كلُّها ثم توجَّه بها إلى خيمة الدوق دومال وقدَّمها له كهدية. اكتشف الدوق وهو يتأمَّلها أنَّه كان من بينها الأسلحة التي أهداها والده الملك فيليب للأمير بمناسبة توقيع معاهدة تافنة.

ـ وخسائرنا، تساءل الدوق موجِّهًا كلامه ليوسف.

ـ تكاد لا تذكر يا صاحب السمو

ـ وخسائرهم؟

ـ أكثر من ثلاثمئة رأس، وستمئة زوج من الآذان.

قالها يوسف مشدِّدًا على عدد الآذان، وهو يقهقه بخشونة وبصوت عال. فهم الدوق دومال قصده جيِّداً:

ـ أتمنَّى أن لا نصل إلى الحالة التي يقال عنَّا فيها إنَّنا نقلِّدهم في قتل المساجين.

ـ وستة آلاف سجين، وأربعين ألف رأس غنم. ومئتي فرد من العائلات الأقرب إلى الأمير والتي تشكِّل حاشيته. ماذا نفعل بكل هذا الحشد إذن؟

ـ وعبد القادر وحاشيَّته القريبة؟

ـ تفحَّصنا المقتولين والأحياء ولكنَّنا لم نعثر لا عليه ولا على زوجاته وقوَّاده المباشرين. قيل لي إنَّ أمه وإحدى زوجاته تمكنتا من الهرب بفضل أحد قادة الأمير وإلاَّ لكانت الغنيمة مهمَّة. أعتقد أنَّه ليس بعيداً من هنا ويمكننا أن نصل إليه إذا بذلنا مجهوداً إضافيًّا

ـ هكذا هو دائما عندما نصل، يكون قد هرب بساعات تجعله بعيداً عن نيراننا نكتفي بهذه الغنيمة وننسحب. يكفي أنَّ الزمالة دُمِّرت وهذه وحدها ضربة موجعة له ستكون على رأس العناوين الصحفيَّة في الأيام القليلة القادمة.

بعد توقف في بوغار، واصل الدوق رحلته نحو المدية بعدما التحقت به كل الفصائل المتأخِّرة التي وجدت صعوبة كبيرة في قطع مسافة المئة كيلومتر المحفوفة بالمخاطر والوديان والخلجان الكثيفة والمعابر الضيقة.

ارتكن الرسام هوراس فيرني إلى زاويته القريبة من منتجع الدوق دومال وبدأ ينسج العلامات الأولى والتخطيطات الأساسيَّة لرسمه الكبير عن تدمير زمالة الأمير عبد القادر وهو غارق في استرجاع تفاصيل الهجمة المفاجئة، كان هوراس يحلم بأن ينجز شيئا خارقًا في ألوانه وضخامته وقصته.

* * *

ـ ٤ ـ

ظل الأمير راشقًا نظره في الأرض يتأمَّل الخطوط المتشابكة الكثيرة التي رسمها بفرع الزيتون ويحاول في صمت أن يفكّ تفاصيلها وطلاسمها ثم التفت نحو خلفائه الذين كانوا يحيطون به في انكسار بدا واضحاً على وجوههم المشدودة.

ـ كنت حذراً من لامورسيير، بوهراوة الذي لا يرحم، وإذا بي أفاجأ بابن الملك الدوق دومال الذي كنت أظنّ أنَّه عاد إلى بوغار يحدث أن تكون حساباتنا خادعة ونحن أولى ضحاياها

ـ سنعدم كل الذين قصروا في الحراسة.

ـ في هذه الحالة سأكون أول من يُعدم. المشكل ليس هنا لأنَّ المسؤوليات الكبرى مشتركة بين الجميع إذ لم نختر المكان المناسب وعيوننا كانت ضعيفة أو متخاذلة. كنت متأكِّداً أنَّنا في منأى عن نيرانهم. الذي يخيفني هو حالة اليأس التي يجرُّها هذا الانكسار.

ـ الصدفة أيُّها السلطان تكون قاتلة أحياناً.

ـ قد يكون ذلك صحيحاً، لكنَّ الحرب تغيرت ونظامها تبدَّل وعسكرنا للأسف ونحن معهم، ما زلنا نتحرَّك وكأنَّ هذه الحرب البائسة تبدأ الآن أو كأنَّنا أمام عدو ساذج. سنظلّ نقوم بالغارات تلو الغارات وكل هذا لا يغيِّر في الموازين شيئاً. نحن لا نعرف ما نفعله في الكثير من الحالات مثل كل اليائسين، لكنَّهم، على العكس من إرادتنا المهتزَّة، يريدون بكل بساطة تدمير آلتنا، لقد دمَّروا المصانع والقلاع ويدمِّرون الآن الرمز. أتعرف في عرفنا ما معنى أن يصلوا إلى بيتك؟ لقد اختاروا أقرب المقرَّبين وصمَّموا على نفيهم وإبعادهم إلى جزر السانت ـ مارغريت[1] بالقرب من مدينة نيس. بأيّة لغة سأواجه عائلات المتضرِّرين؟

ـ حكم اللّه يا سيدي، هذا ما نملكه في مثل هذه المعارك. وكل الناس يسلمون أمرهم للّه ولا أحد يعصى مشيئته. وكلّهم يعلم جيِّداً أنَّك لم تدخر جهداً لحماية الجميع.

ـ أنظر عظمة الناس وقوتهم، أتعرف بماذا أجاب ابن علال عندما طلبت منه عائلته السجينة أن يضع الأسلحة ويستسلم لأمر اللّه؟ قال: لا أملك قدرة على تنفيذ ما تريدون ولكن تحمَّلوا صروف المحنة والدهر وأقدار اللّه بالصبر وقراءة القرآن واسمعوا نصائحي، يحتمل أن لا أتلقى رسائلكم بدءاً من اللحظة. لقد صليت على أرواحكم الطيِّبة، صلاة الغائب، فافعلوا الشيء نفسه.

ـ اللّه يعطيه الصبر. ربي يكبِّر قلبه ويوسع عليه.

١ ـ Sainte-Marguerite

ـ بوهراوة كان معهم. كان ضمن الحاصلين على الغنائم. التحق بهم مصطفى بن إسماعيل الذي كُلِّف بملاحقة الهاربين من الزمالة وقتلهم أو إذلالهم. قيل لي إنَّه اعترض فلول الهاربين ودمَّر ما تبقى مما كانوا يحملون وأحرق بعضهم أحياء.

ـ رحمة ربي واسعة. سيكون انتقامنا كبيراً ولن نرحم أحداً من هؤلاء الخونة. عسكرنا مرابط هناك منذ أيام وستكون غنيمتنا كبيرة إن شاء اللّه. لن يفلت الخائن مصطفى بن إسماعيل من قبضتنا

ثم عاد الأمير إلى تخطيطاته، متنقلاً بين تفاصيلها ومنعرجاتها والتفكير جدِّيًا في إعادة تنظيم الزمالة أو ما تبقى منها هو يعرف جيِّداً أنَّ الدولة لا يمكن تصورها إلاَّ في الثبات

كان ما يزال غارقًا في نقاشاته مع بعض المقرّبين منه حول تلاشي الدولة وفنائها عندما تفقد إمكانية الثبات، عندما دخل عليه أحد قوّاده الشباب وعلامات السعادة تملأ وجهه المتفحم من شدّة الحرّ وكثرة المرابطة في الخلاء. لم يستطع القائد أن يكتم صرخة السعادة:

ـ لقد جئنا به يا سيدي. جئنا به.

لم يقم الأمير من مكانه ولكنَّه تساءل بهدوء وكأنَّ الأمر لم يكن يعنيه كثيراً، عن الخبر الكبير الذي كان يدفع بهذا الشاب للصراخ وافتقاد توازنه:

ـ من هذا المحظوظ الذي جئتم به؟

قال أحد مساعدي الأمير الذي كان برفقة الشاب.

ـ مصطفى بن اسماعيل؟ لقد جئناك يا سيدي السلطان بعدوّك.

ـ أين هو؟

ـ في شكارة الخيش هذه. لقد جئنا برأسه ويده اليمنى.

ثم أفرغ الشكارة كمن يفرغ شيئًا لا قيمة له. وضع الغنيمة عند قدمي الأمير. نزل الرأس أولاً ثم بقيت اليد عالقة بأطراف الشكارة فنزعها ورماها بجانب الرأس. نظر الأمير قليلاً إلى وجه مصطفى بن اسماعيل وإلى عينيه المفتوحتين. كانتا باردتين ولكنّه هو بلحيته الحمراء وعلامات وجهه التي لم تحفرها الثمانون سنة إلاّ قليلاً باستثناء بقع الدم التي كانت تطبع الشفة السفلى، لم يبدُ عليه أي شيء من التغير. لم يقل الأمير شيئا ولكنّه ظلّ مندهشا من هذا الوجه الذي ظل صافيًا على الرغم من حرقة السنوات. الدنيا فعلت في كل الناس إلاّ فيه. حرائقه ربما كانت داخليّة، تمتم الأمير في خاطره.

ـ وبقية الجثة، أين هي؟

ـ لم نر لذلك أهمّية، فقد بيعت للفرنسيين، لابن أخيه مزاري الذي سحبها إلى وهران لدفنها هناك بالقرب من أهله وزوجته الجديدة.

ـ ذئب الخلاء. الغيرة تعمي الأبصار. من حماية الكروغلي إلى خدمة الفرنسيّين. اختار الطريق الأقل تعقيداً ولكن الأكثر صعوبة. لقد قدَّم خدمة كبيرة لأعداء دينه وأرضه على رأس ستمئة خيَّال،

وسلّمه كلوزيل عندما سارع لنجدته صليب لفيف الشرف في ساحة المشور نفسها في ٦ فبراير ١٨٣٦ كان وراء تدمير تكدامت لأنّه كان الأكثر معرفة بأسرارنا للأسف، فهو من جلدتنا. كل الناس رأوا حقده الأعمى وهو يحرق الكتب ويدمِّر القلاع ومصانع البارود ويمرِّغ الوجوه الكريمة في الوحل ويقول للمشتكين: هذا ما أراده لكم سيِّدكم السلطان عبد القادر، أريحوا البلاد منه ترتاحوا. كيف كانت نهايته؟

ـ مثل نهاية كل الطغاة. ولا يستحقّ أيّة رحمة.

ـ الحيلة والدهاء فيه. كيف وقع في المصيدة؟

ـ الشر يقود صاحبه دائماً إلى مزيد من الشر ثم إلى النهايات الفاجعة. عندما انتهى من تدمير ما تبقى من الزمالة مع لاموريسيير، بوهراوة، طلب أن يعود إلى وهران بالقرب من زوجته الجديدة ذات العشرين ربيعاً. في طريقه إلى فرندا كان مثقلاً بالغنائم مع خيَّالته. لاختصار الطريق مرَّ عبر غابات فليتة التي كان يظنّها سالكة بحكم أنَّ أهلها بايعوا سلطان فرنسا وكان على رأس فرقته عندما ضرب أنصارنا مؤخرة خيَّالته. وهو يحاول أن يعود على طريقه لنجدة جنده، استقرَّت رصاصة في قلبه أردته قتيلاً في الحال. الذين رأوه، يقولون إنَّه قاوم الموت والتصق بحصانه الذي رفع قوائمه عالياً ورماه قبل أن يركض بعيداً، جرجره مدة طويلة قبل أن يتنصل من الركاب. وعندما رآه جنده على هذه الحال انسحبوا تاركين وراءهم الغنائم والرايات وهم يصرخون: الآغا مات، الآغا مات، قبل أن ينزل سكان فليتة نحو الجثّة ويقطعوا الرأس واليد اليمنى.

ـ أكرموا سكان فليتة وقولوا لهم أن يأتوني في المرات القادمة بغنائمهم حيَّة حتى تكون المكافأة أكبر. كم اشتهيت أن أسأل هذا الرجل سؤالاً واحداً فقط، بعد سنّ الثمانين، ماذا كان ينتظر من الدنيا؟ كنت أريد أن أسمع صوته هو الذي ظلّ حاملاً سيفه وجرأته ضدّ إخوانه، يقطع الرؤوس وفي كل رأس يقطعه كان يراني ولهذا لم يكن رحيماً مع أحد

ـ وماذا نفعل ببقاياه يا سيدي.

ـ صلوا عليها وادفنوها وادعوا له بالمغفرة. اذكروا موتاكم بخير. ليس هذا ما يشفي غليل اندثار الزمالة. ما خسرناه لا يعوضه رأس مصطفى بن إسماعيل ولا حتى رأس بوهراوة، الدنيا ضاقت ولكن رحمة ربي واسعة. الضغوط على سلطان المغرب تكاثرت هذه الأيام وحتى نحن لم نحصل على جواب، والشبكة اليهوديَّة لم تأتني بأي خبر جديد. أهلنا هناك في المغرب، وننتظر منهم الكثير ولا يمكن أن يتخلّوا عنّا في هذه الظروف العصيبة. نحتاج إلى قوة أخرى ونفس جديد لنقهر بوهراوة وبيجو وبيدو وشنقارنييه والدوق دومال الذي يقطع الفيافي مثل سائح بحثًا عن مجد ضائع.

أمضى الأمير الأيام التي تلت في مرتفعات جبال عمور في كتابة الرسائل إلى سلطان المغرب وإلى الإنجليز وإلى خلفائه في مختلف الأماكن يخبرهم بالظروف الصعبة والمحنة التي تعانيها البلاد ويحثهم على مواصلة الجهاد ومقاومة القبائل المستسلمة لسلطان فرنسا في آخر الليل نادى خليفته الأقرب إلى قلبه سيدي مبارك وبعض الخلفاء الآخرين وفتح معهم حواراً طويلاً فيما يجب فعله.

كـان الرأي الغـالـب مـواصلة القـتـال على الرغم من تردُّد البـعض في النطق بما في القلب، حتى تدخل سيدي مبارك حاسماً حالة التردُّد:

ـ سـيـدي السلطان، أنت ترى الناس تعـبـوا، لـم نعـد إلاّ قلّة قليلة، نقـاوم معزولين في الجبال، طرقات مرور الأسلحة أُغلقت كلّها تقريبًا، قلّ البارود وقلّت العزائم وتهدَّمت الإرادات. عـواصمنا دمِّرت الواحدة تلو الأخرى. القبـائل تتـدحـرج بيننا وكلّما قـويت شوكة أحدنا زاد انتسابهم إليه وكلّما خفَّت شوكته تنكَّروا له. ومع ذلك يا أمير المؤمنين لدينا اليقين أنَّ أيام سلطان القوة محدودة.

ـ ألم أقل لكم إنَّ ما ينتظركم كبير وعليكـم أن تصبروا كان بإمكاننا أن نقبل بالصلح الذي اقتُرِح علينا ونوقِّع لنتفرغ لبناء النواة الأولى لدولة كبيرة. من الصعب أن ننسحب الآن ونحن لم نقدِّم كل ما نستطيعه إلى هذه الأرض. أرى الكثيـر منَّا صامتًا، هل تريدون الاستسلام؟ ليكن. لنرمِ الأسلحة ونسلِّم أنفسنا لبوهراوة الذي لا ينتظر إلاَّ ذلك لإذلالنا أنا مشيت في طريق، من سلكه سار فيه حتى منتهاه. من أراد أن يذهب نحو الأعور أو نحو بوهراوة ليحمي رأسه وعائلته، فليفعل فهو حر طليق.

ارتبك سـيـدي مـبـارك بـن عـلال قليـلاً قـبـل أن يجـد لغـتـه الضائعة.

ـ يا أميـر المؤمنين لو تركـك الجـمـيع، فلن أسلِّمك ولو بقيت وحيداً أواجه هذه الآلة الجهنميَّة القاسية، ولكنِّي أبحث فيما يمكن أن يفكِّر فيه الكثير منا بصمت. إذا كان لا بدّ من الموت فليكن، فلا حلّ لنا إلاّ ذلك. أنت خرجت من الموت بأعجوبة في وقت كان يجب

فيه أن تموت بين شنقارنييه وبار وسانت آرنو والدوق دومال ولامورسيير، دخلت المتيجة في البرد والثلج والعواصف وظهرت حيث لا أحد كان ينتظرك وأعطيتنا يد المساعدة لي وللبركاني فداك يا سيدي العظيم وأقطع لسان كل من يعاديك أو يتخلّى عنك.

ـ لقد وصلنا إلى عنق الزجاجة يا السي ابن علال وعلينا أن نبحث عن طريق للدخول إلى بني إيزناسن، هناك أهلنا وإخواننا ربما استطعنا إقناع سلطان المغرب بمساعدتنا ومساعدة نفسه وأرضه. فرنسا تتحرَّش به كذلك ولا أستبعد حربا طاحنة بينهما سيكون فيها أول الخاسرين إذا لم يجمع جهده بجهدنا مشكلة سلطان المغرب ابنه، العقون، الذي لا يصلح لأي شيء فإذا خلف والده، رحمة اللَّه على بلاد المغرب وعلى سلطانها

منذ المساء وحتى ساعة متأخِّرة من الليل لم يهدأ النقاش إلاَّ عندما بدأ صياح ديك هامل يأتي من بعيد وصل الجميع إلى النتيجة الحتميَّة وهي ضرورة الاتصال بسلطان المغرب. تمَّ الاتفاق على خروج سيدي مبارك بن علال صوب بلاد المغرب بينما تتكفَّل بقية القوات بالمقاومة وتسهيل مروره بالتمويه والمناورة حتى يتجاوزوا الحصار المضروب حفاظًا على ما تبقى من القوات، وحتى يتم تطعيمها ببني إيزناسن والقبائل التي ترفض الاحتلال ولم تبايع سلطان المغرب. توادع الجميع بينما مكث الأمير مع مجموعة صغيرة في عمق المغارة، في مرتفعات جبل عمور.

رُتِّبت المؤونة وسرجت الأحصنة والجمال وحُمِّلت الأغنام، وفي الفجر الأول تحرَّكت القافلة محاذية لانحدار الجبل الذي ينتهي

إلى وادي كـان من الأجـدى تفـاديه نظراً للأمطار التي بدأت شدّتها تزداد قوة.

عندما عانق الأمير سيدي مبارك بقامته الصغيرة واستدارة جسمه، بدا له كطفل صغير يبحث عن أمومة ضائعة. حاول الأمير أن يمحو دمعة ارتسمت في عمق عينيه اللتين برقتا تحت القنديل الزيتيِّ الذي كان يتدحرج في يد أحد العبيد.

سار سيدي مبارك بن علال وسط فرقة كبيرة من الخيَّالة والمشاة، باتجاه الأراضي المغربيَّة. كانت أمطار الشتاء قويَّة والرياح تزداد عنفًا وأشجار البلوط المتعرِّشة تضخِّم الأصوات والرياح.

ـ أُدع لنا بالخير يا أمير المؤمنين.

ـ حفظك اللّه وحفظ من معك. سنلتقي هناك إذا كان في العمر بقيَّة وإذا لم يكن فلنا اللّه ورحمته. أخبرني بكل شيء.

ـ أذكرونا بخير يا إخوان.

وتحت همهمات غير واضحة تشبه الدعاوى، امتطى سيدي مبارك حصانه وسار على رأس الركب.

* * *

ـ ٥ ـ

أقل من أسبوع كان كافيًا لكي يجد سيدي مبارك بن علال نفسه على مشارف الوادي المالح. كان كل شيء هادئًا على غير العادة في مثل هذه الأماكن. لقد شم رائحة الخطر ولكن رسله لم يأتوا بالشيء الذي يمكن أن يدفعه إلى تغيير مسيرته لقيادة ما تبقّى من الدائرة نحو بني إزناسن. هكذا اتفق مع الأمير ولا شيء يمنعه من الوصول إلى منتهى الرحلة القاسية التي لا يسمع فيها إلاّ هسهسة الألم وصوت الموت الذي يتربّص في كل مكان وحركة الريح التي تفتح طرقات جهنم بشهيّة كبيرة.

أيام الحرب جعلت سيدي مبارك يقرأ حسابًا خاصًّا لكل التفاصيل، وأن لا يستهين بالأشياء التي تبدو صغيرة وهي ليست كذلك، منذ أن شرف في جويلييه ١٨٣٧ بأخذ مكان عمّه الحاج محيي الدين الصغير الذي مات بوباء الريح الصفراء (الكوليرا) التي عمت مدينة مليانة. استقرّ بالمدينة وبقي بها حتى تحلّلت معاهدة

تافنة في ١٨٣٩ فقد إحدى عينيه بسبب حادث تافه ولهذا كان من الصعب ضبط نظرته ووجهتها عندما يخزر إنساناً محدَّداً. مارس ضغطاً كبيراً حتى لا يتمّ تسليم القليعة للفرنسيين بموجب معاهدة تافنة ولكنَّه استسلم في النهاية لضغوط الأمير عبد القادر. كان من أضمن قادته وأصدقهم. هدد سهل المتيجة التي ظلَّت مدة طويلة تحت رحمة ضرباته وهو من دمر كل القنوات التي تقود المياه نحو مدينة البليدة. في مضيق جبل موزايا، قاوم الجيش الفرنسي بقوة بدون أن يخسر نزعته الإنسانيَّة، إذ كان وراء المفاوضات التي قادت مونسينيور ديبوش إلى إطلاق سراح المساجين في ماي ١٩٤١ أول خليفة وضع الأمير بين يديه كل دائرته وأشيائه الثمينة.

أمطار الخريف دائماً قاسية لأنَّها غير منتظرة وكذلك الرياح.

توقف سيدي مبارك قليلاً قبل أن يأذن بنصب المعسكر كان الجيش والأحصنة وبقية الدائرة قد وصلوا إلى أقصى درجات التحمُّل.

ـ غريب، هذه الأماكن تبدو موحشة وغير مريحة، قال سيدي مبارك لأحد قادته وهو يتحسَّس فراغ الأمكنة.

ـ هل يريد سيدي أن نواصل.

ـ لا، ما دمنا قد تعبنا، لنرتح قليلاً ريثما تتوقف هذه الرياح وهذه الملوحة التي تملأ الحلوق حروقاً هذه الرياح صعبة التحمُّل

ـ هل يعتقد سيدي أنَّنا سلكنا الطريق الصحيح الذي اقترحه علينا السلطان، أشعر كأنَّ مسالكنا غير مفضية يا سيدي.

ـ الطرق كثيرة والطريق الذي اقترحه السلطان ربما ليس سالكًا مع هذه الأمطار، ولهذا فضَّلت عليه هذه المعابر الواسعة قليلاً.

ـ لكنَّ الطريق الذي نسلكه مكشوف وهم يراقبون حركتنا يا سيدي الكريم، أنا متأكِّد من ذلك. عيونهم على ما تبقى منَّا منذ انكسار الزمالة.

ـ لن يتجرأوا، أعرف مناوراتهم وجبنهم وإذا فعلوا لن يخرجوا سالمين هم كذلك. أنتظر اليوم الذي أواجه فيه بوهراوة لتخليص الناس من شره.

ثم التفت إلى قواده الذين تحلَّقوا حوله:

ـ الأحصنة والناس تعبوا، نرتاح قليلاً ثم نواصل عندما يهبط الليل.

كان المكان مناسبًا للراحة، العين المائية والمرتفع، المشكل الوحيد هي الأمطار والأوحال التي كانت تعيق حركة الجميع ولكنَّها تضعهم في مأمن عمن يلاحقهم إذ يحتاج إلى بذل مجهودات مضاعفة لكي يتوصَّل إلى مباغتتهم خصوصاً مع الضباب الكثيف الذي ينتشر عادة في هذه المناطق في فصل الخريف.

وما كاد سيدي مبارك بن علال أن يدخل خيمته حتى كانت أحصنة العيون الذين اقتفوا كل خطواتهم تسابق الريح. كانت كتائب الكولونيل طارطاس[1] الثماني هي أول من وصل إلى عين المكان. فهاجمت قوات سيدي مبارك المتعبة التي وجدت صعوبة كبيرة في تنظيم نفسها فاكتفت بترتيب الوسائط الدفاعيَّة. في الأخير وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه مع قوات الكولونيل طارطاس قبل أن يتمّ تطويقهم من الجهات الأكثر هشاشة، الميمنة والميسرة. تأكَّد سيدي مبارك أنَّ لا حلّ له إلاَّ المواجهة القاسية.

١ ـ Le colonel Tartas

ـ كما ترون، لا حلّ لنا إلاّ الانتصار أو الشهادة. لقد طُوِّقنا من كل الجهات وعلينا أن نفتح ممرًا في الوسط ولهذا فلا حلّ لنا إلاّ الهجوم.

كانت رائحة البارود تختلط بالحشرجات وأصوات الأحصنة وهي تئن من الضربات المتتالية القاسية. كانت ترفع قوائمها الأولى في الفضاء قبل أن تنكسر على ركابها، وعندما تريد أن تقوم في آخر جهد، تكون قواها قد خانتها نهائيًا وتلاشت. سيدي مبارك استبدل تحته ثلاثة أحصنة. عندما استعدّ لركوب الرابع، وجد نفسه في مواجهة سيوف عسكر طارطاس وبنادقهم المحشوة بالموت. مجزرة. كانوا واحداً مقابل أكثر من عشرة مسلحين حتى الآذان. عندما التفت وراءه لم ير إلاّ أجساداً تتهاوى الواحد تلو الآخر وأحصنة تنتحر داخل الفيالق المطوَّقة من كل الجهات. لا تسمع إلاّ الطلقات الجافَّة والمتقطعة من حين لآخر أو السيوف وهي تتقاطع محدثة صوتًا حادًّا قبل أن تندفن في الأجساد بطراوة. استطاع سيدي مبارك أن يتخطَّى الجثث التي كانت تقطع عليه الطريق ويمتطي حصانه الرابع. فجأة وجد نفسه وجهًا لوجه أمام مجموعة من الضبّاط، كانت تغلق عليه الطريق. لكن الحصان الذي مشى خطوات، نحنح ثم انطلق صوب المجموعة قبل أن ينقلب على رأسه جثة هامدة تحت وقع الرصاص الذي اخترق جسده. استطاع سيدي مبارك أن يقوم على ركبتيه ثم على رجليه. كان جسده ينزف بقوة. عرف وجوه الذين ظلوا مشدوهين في وقفته: الكابتن كاسينيول[١] والماريشال سيكوت[٢] والبريقادير لابوسي[٣]

١ ـ Le capitaine Cassaignolles

٢ ـ Le maréchal Sicot

٣ ـ Le brigadier Labossy

تأملهم للحظة لم ير شيئًا غير الدم والحيرة. فجأة قام حصانه للمرة الأخيرة، كان الدم يملأ جسده. تمتم سيدي مبارك: النفوس تموت هاربة، وهو يرى كل الأبواب قد صارت مسدودة. رأى كل الصور القديمة التي ارتبكت وصارت حمراء تحت قوة الدم النازف من رأسه ووجهه. امتطى الحصان الذي ارتفع للمرة الأخيرة عاليًا وهو ينحنح بقوة. وقبل أن يرفع البريقادير لابوسي رأسه، كانت ضربة سيدي مبارك الجافَّة قد شقته. مدَّ الماريشال سيكوت في اللحظة نفسها يده إلى مسدسه لكن ضربة سيدي مبارك هذا المرة جرحته في صدغه لتستقر بعدها في صدر حصانه. لم يستطع سيدي مبارك تفادي الضربة التي شقّت كتفه ولم تسقطه عن حصانه. مسح الدم من عينيه اللتين رأى من خلالهما الماريشال سيكوت وهو يحاول أن يقوم من مكانه، فهجم بقوة متفانية، لكنَّ البريقادير جيرار الذي كان قريبًا من المشهد، أطلق النار على سيدي مبارك وهو لا يعلم كيف فعل ذلك من شدّة الخوف، فأصابه في صدره، تمامًا في القلب. فسقط من على الحصان مثل الحجرة ولم يحرِّك ساكنًا. عندما اقتربوا منه كان قد مات ومع ذلك لم يرتاحوا لعينيه المفتوحتين عن آخرهما

نزع البريقادير جيرار قبعته وانحنى قليلاً على الجثَّة ثم غاب وسط الأدخنة يتّكئ على كتفه الأيمن الماريشال سيكوت الذي كان يجد صعوبة كبيرة في المشي وهو يتمتم:

ـ بفضلك ما زلت حيًّا يا بريقادير جيرار وإلاَّ لكنت أنا في مكان هذا الرجل.

فيما بعد، عندما لملموا جرحاهم، عاينوه وعندما تأكَّدوا أنَّه هو خليفة مليانة، حز أحد الجند رأسه وأرسل به إلى الجنرال

لاموريسيير الذي بعثه بدوره كهدية إلى حاكم الجزائر الذي قطع به وهران، ثم أمر بنصبه لمدة ثلاثة أيام على بوابة مدينة مليانة ليقنع السكان بأنَّ قائدهم قد انتهى.

كانت الوجوه التي أجبرت على التجمع عند البوابة باردة وتشبه قطعًا حديديَّة:

ـ قائدكم مات، ومن ناهض سلطاننا لن تكون نهايته أقل من نهاية ابن علال. لن يسلم أحد من نارنا وسيوفنا.

لاذ الناس بالصمت، كاتمين آخر الدمعات والصرخات. انتظروا طوال اليوم على مرأى من رأسه المعلَّق حتى أذن لهم بإنزاله ونقله على أحد أحصنته إلى القليعة لدفنه في مقبرة العائلة. لكن في اجتماعه الدوري مع ضبَّاطه، قال بيجو وهو يستمع من مبعوث لاموريسيير إلى تفاصيل الوقائع:

ـ بعد حملة الربيع كان يمكن أن أصرِّح بأنَّ الجزائر قد انصاعت واستسلمت ولكنِّي فضلت أن أبقى في حدود أدنى من الحقيقة، ولكن اليوم بعد معركة ١١ نوفمبر الرائعة التي دمَّرت مشاة الأمير وعسكره وقتلت خليفته الأساسي أستطيع أن أقول لكم إنَّ الحرب انتهت. يستطيع عبد القادر مع كمشة من الفرسان المتبقين له والأوفياء له أن يقوم ببعض العمليات والهجومات ضد بعض عرب الحدود الذين انصاعوا لنا ولكنَّه لن يفعل شيئًا مهمًّا.

* * *

ـ ٦ ـ

حامت الغربان على رأس خيَّالة الأمير قليلاً قبل أن تنسحب مجموعات مجموعات صوب الغرب، تتبعها بعض الكواسر تحسس الأمير منها فهو يعرف أنَّها لا تظهر إلاَّ عندما تكون الجثث في مرمى بصرها أو حاسَّة شمها، ولكنَّه كتم أحاسيسه.

ـ اللَّه يجيبها في الصواب، أتطير من هذه الكواسر.

كان الأمير وما تبقى من خيَّالته يسير بين الخلجان على بعد مسافة يومين أو يومين ونصف فقط من سيدي مبارك بن علال. يتذكر جيِّداً أنَّه أول مرة عندما سمع آخر الطلقات من بعيد ظنّها طلقات بوهراوة في صراعه مع القبائل التي رفضت الانصياع له. وعندما بدأت تقترب من بعضها البعض وتأتي خافتة من بعيد غير رأيه. قال له مصطفى بن التهامي الذي ظلّ ملازمًا لحصانه الأسود، يقتفي خطواته، خطوة خطوة:

ـ أنا متأكّد يا سيدي أنَّها قبائل المنطقة تفتح الطريق لسيدي مبارك.

ـ لا أظن. لا يملكون كل هذه الأسلحة لتضييعها في المناورة، أظنّ أنَّها مشادة خطيرة. صحيح أنَّها تأتي من ناحية الغرب، ولكنَّها ليست المسالك التي كان يفترض أن يسلكها ابن علال. ربي يجيبها في الصواب. قلبي يحدِّثني أنَّ مكروهًا ما ينتظرنا في مكان ما. الرشقات التي كانت متقطعة صارت الآن متواترة.

ـ رحمة ربي واسعة.

قال مصطفى بن التهامي وهو يحاول أن يخبئ الأحاسيس المظلمة التي مسته في القلب. هو كذلك أصيب بعدوى تحسس الأمير.

ـ ربي يجيبها في الصواب، هذه الغربان لا تطمئن.

ـ أنت تعرف يا سيدي هذه الغربان كلما شمَّت رائحة الجثث، طارت نحوها. فهي لا تفرِّق بين جثث الإنسان والحيوان.

ـ كلّما اجتمعت الكواسر والغربان وطارت نحو الهدف نفسه تأكد أنَّها تذهب، في أغلب الأوقات، نحو جثث بشرية طريَّة. هكذا هي دومًا

عندما اقتربوا من ضفاف الوادي المالح، طلب الخلفاء من الأمير عدم التوقف والإسراع أكثر نحو مصدر النار الذي كان يأتي خافتًا ولكن هذه المرة واضحًا. لم تساعد الأمطار التي قويت حركة ما تبقى من الدائرة التي كانت تتحرَّك مع الأمير. كانت مزالق الجبال كثيرة

وملوحة التربة لا تساعد على السير بدون الوقوع عرضة للهجومات الفرنسيَّة. ثلاثة جرحى من الذين نفذوا من شباك الكولونيل يوسف، توفوا أثناء الرحلة، الأول مباشرة بعد رفع المعسكر والثاني بعده بقليل بينما الثالث أثناء الرحلة، وكلُّهم دفنوا في مكان مخالف. ساعدت الظلمة الداكنة على دفنهم في صمت حيث لا شيء غير عواء الذئاب وبعض التمتمات القرآنيَّة التي لا تكاد تسمع.

ـ أتسمع الذئاب يا السي مصطفى؟ تمتم الأمير وهو واقف على حافة الحفرة العميقة التي حفرت بصعوبة بسبب الأمطار وبسبب الصخور التي تجعل من عملية الحفر أمراً صعبًا وأحيانًا مستحيلاً، لو كانت هذه الأرض تشهد ستقول ماذا ابتلعت من خيرة ناسنا الواحد تلو الآخر. أناس لا شغل لهم إلاَّ الانصياع لهذا الصوت الخفي الذي يأتي من عمق الأرض. أتسمع هذه الذئاب؟ إنَّها تقترب بخطى حثيثة مثلها مثل صوت البارود الذي توقف نهائيًّا

ـ أسمعها وأحسها، كأنَّها تمشي بالسرعة نفسها التي نسير بها

ـ الذئاب يا السي مصطفى أكثر دقة منَّا، تعرف جيِّداً أنَّ القافلة عندما تتحرَّك ماذا تحمل معها وتشم رائحة الموت. للموت رائحة لا تشمّها إلاَّ الذئاب والكواسر والغربان. ولهذا عندما نحفر القبور علينا ان نعمقها لتفادي إخراج الجثث من راحتها وسكينتها الأبديَّة.

توقفت القافلة قليلاً في انتظار عودة الرسولين اللذين تأخّرا كثيراً سقوط الأمطار ومتاعب الرحلة والأوحال وفيضانات الوديان

التي يسمع خريرها من بعيد لم يكن ليسهل المهمة. لم يصل الرسول الأول إلاً مع بداية انسحاب الذئاب. بعد كلمة السرّ، توجّه مباشرة نحو حصان الأمير:

ـ يا سلطاني الفاضل لقد أبيد جزء كبير من الدائرة ومات الكثيرون ممن رافقوها وساروا معها. بوهراوة لم يترك لها فرصة العبور، لقد مزقت في عمقها

ـ وهل مر جزء منها؟

ـ لا أدري ولكن لن يكون جزءاً كبيراً، فقد تشتت الكل تحت تأثير المفاجأة ولا نعرف إذا ما استطاعت أن تتجمع فيما بعد؟

ـ والخليفة السي مبارك بن علال؟

ـ لا أحد يعرف ما حدث له. الروايات تتضارب، هناك من يقول إنَّه أُخذ سجيناً وهناك من يقول إنَّه راوغ بوهراوة وسلك طريق تافنة ليقود بقية الدائرة نحو شط الغرب، وهناك أخبار سوداء تقول إنَّه قُتل بعد أن قاوم كالأسد

ـ فيما أعرفه عن هذا الرجل، يموت ولا يسلِّم نفسه للاموريسيير أو لأحد ضباطه. نفسه عزيزة عليه كثيراً ولا يطيق المذلَّة. حتى عندما صارت الدنيا مظلمة في عينيه، لم يعرف طريق الاستسلام الذي سلكه آخرون. رجل ونص، إذا مشى النص يبقى الرجل.

كان عليهم الانتظار ليلاً لمواصلة الرحلة ولقطع السهول التي تجعلهم يتحرَّكون بسهولة أكثر.

ـ يبدو لي أنَّهم لم يسلكوا الطريق الذي نعرفه جيداً. على كل السي مبارك يعرف الطريق، ما هوش ولد البارح. لقد سلكها العديد من المرات، وعينه ميزانه. وقت الحاجة يدرك جيِّداً ما يجب فعله.

لقد بدأ الخريف ينسحب بخطى حثيثة مخلِّفًا في طريقه علامات قاسية لشتاء كان يطل بعنف شديد كانت السماء قد اسودَّت من كثرة الغيوم التي تجمعت ولم تسقط، وصار النهار نفسه تحت كثافة اللون الرمادي مظلماً يميل نحو سواد عميق.

بعد يومين ونصف اليوم من السير، عندما وصل الأمير فوجئ بهول الفاجعة. حكى له بعض الناجين تفاصيل الأحداث التي لم يستطع أن يتحمَّلها شعر برجفة في كامل جسده وبالدم يتجمَّد في عروقه وهو يحاول أن يترجَّل وأن يقف مستقيماً بصعوبة كبيرة.

كانت أوراق الخريف تنزل ثقيلة على الأجساد وتكسوها مضمخة بمياه المطر حتى لتكاد تغطيها إلى نهايتها كانت الجثث منتشرة على مرأى العين، الدائرة في معظمها أبيدت. كان العد مقلقًا وجارحًا للأمير ولقادته. أربعمئة قتيل، ثلاثمئة سجين وستمئة بندقية وسيف حرب سلبها الفرنسيون ومئة وخمسون حصانًا قطعت أوصالها، ماتت أو كانت تموت في العراء والبرد والجراحات الغائرة وعدد لا يحصى من البغال التي بدأت الذئاب والكواسر في فتح بطونها

كان يسير بين الجثث عندما جاءه أحد جنده وهو يركض بصوت متقطع:

ـ سيدي وجدنا جثة السي مبارك ولكنّها.

ـ بدون رأس. يحاسبوننا ولكنّهم ليسوا أفضل منّا اللّه يرحمه.

ـ هو يا سيدي.

ثم سار الأمير في أثر الجنديٍّ الذي كان يسير بصعوبة من كثرة الجثث المنتشرة هنا وهناك. عندما وقف على ما تبقى من جثة ابن علال تبكش فجأة وهربت من لسانه كل الكلمات ولم يلمس إلاً الفراغ والضغينة. كز بقوة وتصلب على أسنانه طويلاً حتى سمع تقاطعها وقرقعتها الحادّة. شعر ببعض الذنب. لا أحد يدري لماذا انفصل قليلاً عن كل محيطه وأخرج منديلاً وبقي واقفاً كالشجرة المعزولة في صحراء قاحلة، مدة تحت الأمطار حتى ابتلّ لباسه عن آخره ثم عاد نحو جيشه المكوّن من فيلق صغير من الخيّالة بينما بقية الدائرة لم تتوقف أبداً، فقد واصلت طريقها نحو شط الغرب لتفادي المخاطر واللقاء مع عساكر بوهراوة الذي كان يتشمم خطى الأمير أقيمت صلاة الغائب في العراء تحت حراسة مشدّدة، وتمّ دفن كل الذين بقوا على الأرض عرضة للحيوانات الضارية والكواسر والأمطار والفيضانات التي تكثر في مثل هذا الفصل حيث تلتقي رياح آخر الخريف ببداية أمطار الشتاء الباردة.

تجمع الخيّالة من جديد وقسم من المشاة ثم تحرّك الجميع تحت ضغط الصمت وتكسُّر الأمطار الباردة التي كانت تصفع الوجوه بعنف وقوة. ساروا باتجاه شط الغرب، بمحاذاة الحدود المغربيّة في محاولة لإدراك الدائرة أو ما تبقى منها، شيء واحد بقي يدور برأس

الأمير: ماذا سيفعلون برأس بن علال الذي لم يتوانوا عن قطعه، سحبوه للتأكيد لقادتهم بأنّ خليفة مليانة قد قتل بالفعل؟ على رواية بعض الناجين من المعركة الذين تخفوا بالصخور والأشجار أو اختلطوا بسكان الخيام المجاورة ولم يخرجوا إلاّ بعد سماعهم بوصول الأمير وجيشه إلى المنطقة.

البقية لم تكن معقدة كثيراً فقد كان الأمير يعرفها جيِّداً أو يتحسسها بقلبه وذاكرته المتعبة.

لم يكن في حاجة إلى سماعها، فالذئاب الجائعة التي لم تكن بعيدة عنه، لم تترك له فرصة للتأمل.

* * *



الوقفة الثامنة

ضيق المعابر



- ١ -

لم يكن مونسينيور ديبوش يعرف أنَّ الوقت الذي كان يمر بسرعة، مثل الداء القاتل، كان يأكله من الداخل. عبثًا بحث عن قسط من الراحة، إثر عودته من الكنيسة بعد أن قضى اليوم بكامله مع رعاياه يستمع إلى اعترافاتهم ويعمِّد الصغار. وضع حقيبته المثقلة بالوثائق الكثيرة والصحف وأوراقه الخاصة على الطاولة الخشنة. ثم استعدّ للدخول إلى الحمام وهو يهمهم بكلام يكاد لا يسمع:

ـ أعذرني يا حبيبي جون، عليك أن تتحمَّلني ما دمتَ قد اخترتَ هذا الطريق الشاقّ معي. يبدو أنَّنا هكذا، لن نعرف الراحة إلاَّ عندما ننسحب على رؤوس أصابعنا للمرة الأخيرة، تاركين وراءنا الذين أحببناهم والذين أحبونا

ـ أنا رهن أوامر سيدي، لا تكلِّف نفسك كل هذا العناء.

ـ لا اليوم سترتاح قليلاً أنت كذلك. أعرف أنَّ آلام ظهرك زادت عليك بين البارحة واليوم. يجب أن تعتني بنفسك قليلاً رأيتك تقف في الكنيسة بصعوبة كبيرة. الصحة يا عزيزي جون عندما تذهب، يصبح من الصعب تقبُّل الحياة براحة وسعادة. يجب أن تعطي جسدك قليلاً من حقّه وإلاّ سيتخلّى عنك مثلما يفعله الآن معي.

لقد لاحظ مونسينيور انكساري إلى الأمام كلّما مشيت أو صعوبة انحنائي كلّما حاولت أن أحمل شيئًا من الأرض. أحيانًا يبدو لي عمودي الفقري ناقصًا من بعض الفقرات وحلّ محلّها الفراغ والكثير من الآلام. وفي أحيان أخرى أجمد تمامًا وعليَّ التحرك بهدوء ومداراة درجة الألم شيئًا فشيئًا، حتى لا يزداد ألمها المعذب القاسي وتنسحب بهدوء رويداً رويداً

ـ وأنت يا سيدي، من حقّ جسدك كذلك أن يرتاح قليلاً أراك يوميًّا تحمِّله أكثر مما يطيق. لقد صرت أخشى عليك يا سيدي.

ـ سأحاول. سأغتسل من شطط اليومين الماضيين وأدوِّن ملاحظات اليوم، ثم أعود إلى رسالة الرئيس نابليون التي يجب أن أنتهي منها قبل حلول الربيع. لم يبق هناك مسلك آخر لحل المعضلة، كلهم تراجعوا خوفًا من الرأي العام وخوفًا على مناصبهم.. وينسون أن هناك وقتاً للحرب وآخر للسلم. اليوم كل شيء انتهى

ـ ووضعك المالي يا سيدي، هل وجدت له حلاً مرضيًا في الشهور القليلة الماضية زاد ضغط الدائنين، ويبدو أنَّهم مصممون على إيذائك؟ الجشع يا سيدي يعمي الأبصار ويقلّل من النور في قلوب الناس وفي عقولهم.

كنت أقصد وضعه المالي المتدهور. بدأت في الآونة الأخيرة تكثر التهديدات التي كانت تصل حتى درجة السجن والمتابعة القانونيَّة، وبدأ بعض الملل واليأس يزحف نحو قلب مونسينيور الذي يرفض دومًا أن يقع تحت ضغط الشأن اليومي.

ـ وضعي على كل حال ليس أسوأ من سجين قصر أمبواز. هؤلاء سيأخذون حقوقهم اليوم أو غداً. الشيء الوحيد المؤكَّد، هو أنِّي لا أشعر بذنب كبير تجاههم، فأنا لم آخذ شيئًا لي وكل ما فعلته كان من أجل الآخرين الذين ينتظرون منَّا أن نكون أوفياء للّه وللخير. أنا مثلهم كذلك، كنت ضحية وعود فيها الكثير من الكذب والجحود.

ثم غاب داخل الحمام. استغللت الفرصة لتحضير كأس الزهورات التي يحبها دافئة، لا حارَّة ولا باردة ولكن بين الاثنين، ولإخراج المرهم الذي جاءتني به إحدى أخوات الكنيسة. مسدت كل جسدي وبذلت مجهوداً كبيراً لكي أصل إلى فقرات ظهري التي أحسست أنَّها غادرت مواقعها وبدأت تنزلق نحو اليمين قليلاً ثم لففت الجزء العلوي من جسدي في قطعة قماش لتسخينه وتمددت قليلاً على بطني فجأة نزلت عليَّ راحة كبيرة قليلاً ما أحسست بها

أحيانًا أتساءل إذا لم يكن مونسينيور ديبوش ينتحر ليس فقط محبة في اللّه ولكن كذلك هربًا من دنيا لم تعطه الكثير فقد تجدَّدت تهديدات مطالبيه من المدينين بحقوقهم الماليَّة. وعدهم بحلّ هذه المعضلة إما بالاتصال بالحكومة أو بالرئيس شخصيًّا، ولكنَّه لم

يجد الوقت الكافي لفعل ذلك والتغيير من وضعيته الهشَّة من الناحية القانونيَّة. عندما تشتدّ آلامي وتبدأ نارها تعبر الجسد، من أعالي الرأس حتى آخر فقرة، أرى مونسنيور قد وجد ضالَّته في الأمير لنسيان هوس الناس بالمال. ربما كان يحاول إنقاذ نفسه من منفى محتوم كان مونسينيور يعيشه بقسوة. لقد خرج من الجزائر تاركًا وراءه كرومه التي رعاها وقطّر عنبها وحرث أرضها، التي كانت مجرد سبخات ميتة لا تنجب إلاّ الحشرات والناموس الذي لا يخلّف إلاّ الأمراض. ثم عندما عاد من الجزائر لم يزر حتى مدينته، من طولون حيث نزل من السفينة الثقيلة، فتح مباشرة أول أبواب المنفى القاسي. وأشعر به اليوم كلّما زار قصر أمبواز، ازداد إصراره لكسر قيود الأمير. فلم يكن الأمير إلاّ صورته الأخرى في الجراحات التي عاناها. وعندما تنتهي آلام الظهر، أعود إلى صفائي فأستغفر اللّه على ظنوني السيئة وأعتذر خفية من مونسينيور وأقنع نفسي أنَّ إحساسي كان عن حسن نيّة وليس عن سوء قصد.

عندما استيقظت من غفوة الألم ولذة الراحة التي أحسست بها بعد أن سكنت آلام الظهر، كانت الليلة في منتصفها ومونسينيور يذهب ويجيء في الحديقة تحت قنديل زيتيّ قديم كان يتدلّى تحت الشرفة. كان أحيانًا يتحوَّل إلى مجرد ظلّ وفي أحيان أخرى يظهر بكامله. كنت أريد أن أناديه ولكنِّي تركته لراحته، قبل أن يعود وينغمس في كتاباته ويرشف من كأس الزهورات التي بردت، ولكنَّه يشربها حتى القطرة الأخيرة مع إضافة الكثير من السكر. يقول:

ـ السُكّر يصرّف كل شيء، حتى الأشياء المرَّة التي يصعب ابتلاعها.

يحدث معي أن لا أكلِّمه وأن أتركه لحركته وهو يبحث عن جمله الهاربة جيئة وذهابًا، لأنِّي كلَّما كلمته قفز في مكانه كالطفل الصغير الذي أُخرج من إغفاءة كم هو في حاجة ماسَّة إليها ولهذا أفضِّل أن أتركه حتى يناديني ليطلب منِّي شيئا أو يشركني فيما يفعله أو ينوي القيام به في اليوم التالي. فيدعوني للتفكير معه.

عندما أغمضت عيني بصعوبة مرة أخرى بعد معاودة آلام الظهر، رأيته قد انكفأ قليلاً مقوَّسًا ظهره إلى الأمام على عادته. لم أر بعدها إلاَّ البياضات والقصص الكثيرة التي حكاها لي عن الأمير عندما خسر الأصدقاء والأعداء.

* * *

ـ ٢ ـ

موقع مقام لالة مغنية صغير، محاط بقليل من أشجار الصنوبر التي تغطيه وتغطي المقبرة الصغيرة التي تحيط به من كل الجهات يزورها الناس أيام الجمعة أو في أوقات الفراغ لطلب بركاتها يتدثرون ببعض التربة ثم ينسحبون ولا يبقى إلاَّ الرجل الأحدب الذي لا شغل له إلاَّ كنس المقام من الأتربة وترتيبه وإنارته ليلاً ببعض الشموع، قبل التوغل عميقاً بين الأشجار لتنظيف شجيرات الصنوبر وتحضير الشاي للزوار بالشيح والشهيبة والنعناع عندما يتوفر.

على الرغم من الجو الممطر، ألحَّ الجنرال لاموريسيير والجنرال بيدو أن يمرا أولاً على الولية الصالحة التي تشفي من أخطر الأمراض. أرادا أن يحادثا الرجل الأحدب ولكنَّه عندما أعلمهم بلسانه المقطوع تركاه لشأنه وحاولا أن يبحثا عن غيره.

الناس يحكون قصصاً كثيرة عن الرجل الأحدب. يقولون إنَّه كان لا يعرف التوقف عندما يبدأ الكلام، وإنّه تسبب في أذى الكثير

من الناس. ولهذا ذات ليلة، أثناء مرور الأمير وبعض قادته الذين قضوا الليلة هناك، تعرف بدون قصد منه، على الكثير من أسرارهم وخباياهم. في الصباح كان يقبض على لسانه بخرقة احمرَّت من كثرة الدم. قال لآغا المنطقة إنَّه لا يستطيع أن يصمت وإنَّه سيحكي للزوَّار كل ما سمعه عن الأمير وإنَّه من الأحسن قصّ لسانه. لم يتساءل الآغا كثيراً، أحضر سكيناً وقطع لسانه بكل برودة ثم وضع عليه الدهن المغلي وأحرقه بنصل احمر رأسه من كثرة الحرارة حتى اشتعل اللسان عندما وضع النصل على جزئه الأمامي الذي قُص. لم يتوقف النزيف إلاّ بصعوبة حتى كاد يموت لولا تربة لالة مغنية التي ظلَّ يضعها كل صباح على ما تبقى من لسانه حتى شُفي نهائيًّا البعض يروي قصصاً أخرى عن خادم المقام. إنَّه كان يريد أن يتزوج بنتاً من شيخ معروف، وعندما عرف الشيخ بفقره رفض تزويج ابنته له. وحتى تبور ويتزوجها، ظلَّ خادم المقام ينسج حولها القصص الكثيرة ولكن أهلها قتلوها بينما قُطع هو لسانه عقاباً له على القصص الكاذبة التي رواها عن المرأة المقتولة. منذ ذلك اليوم، لا يغادر المقام أبداً إلاّ لتنظيف القبور أو الإتيان بالحطب اليابس لتحضير الشاي للزوَّار.

صعد الجنرال لاموريسيير وبيدو نحو مرتفع لالة مغنية ليتعرَّفا على مدى تقدُّم الأشغال في الحصن لتضييق المعابر على الأمير عندما وصلا، وجدا العمَّال غارقين في وضع سقوف الحصن الصغير الذي يطلّ على سهل مغنية بكامله، الذي كان يترامى على مرمى البصر بلا حدود، ممتداً حتى يتوغل عميقًا في جبال عصفور والأراضي المغربيَّة.

ـ مغنية، من هنا سنراقبه ونغلق عليه الطريق. لقد صار مكشوفًا ولم تعد له مسالك كثيرة. سيسقط بين أيدينا إن عاجلاً أو آجلاً

قال الجنرال لاموريسيير لبيدو الذي كان يصعد قمة الجبل ويراقب السهل الممتد من تحته، الذي لا توجد به إلاَّ بعض الأكواخ والخيام المتناثرة هنا وهناك والهضاب الكثيرة التي يخترقها الجزء الغربي لوادي التافنة، الذي كان يبدو من بعيد كالجرح في عمق الأراضي متوغِّلاً حتى يلتقي مع وادي المويلح، حيث يبدأ نهر الملوية الذي ينسحب باتجاه الأراضي المغربيَّة التي لا تظهر إلاَّ قليلاً من خلال المعسكرات الصغيرة المنتشرة هنا وهناك لمراقبة المنطقة وحراسة الناس الذين يدخلون ويخرجون عن طريق المعابر الجبليَّة.

ـ عسكر سلطان المغرب يراقب ويتحرَّك. هناك نوع من الارتباك. يقولون إنَّ هذه السهول لهم أو هكذا يظنون.

ـ لا المسألة غير قابلة حتى للتعليق. ردَّ لاموريسيير عن تساؤل بيدو. حتى الآن نعمل على الحدود التي خلفها النظام التركي في هذه المناطق. والخرائط التي أنجزتها وزارة الحربية تدرج هذه المنطقة كجزء من الممتلكات الإفريقيَّة.

ـ الطيب القناوي، قايد وجدة لا يتوقف عن إرسال الوفود بعد اصطدام قبة سيدي عزيز بالقرب من الملوية الذي وقع بيننا وبينهم. يريد إقناعنا بأنَّ هذه الأرض تابعة للمملكة. ويدعونا للانسحاب إلى ما بعد وادي التافنة وإلاَّ ستكون العواقب وخيمة، هكذا يقول.

ـ العرب هكذا، الأراضي لا تعني لهم شيئًا مهمًا، ولكنَّهم عندما يرون شخصًا بدأ يهتمّ بها، تتغيَّر قيمتها وتزداد أهميَّتها. لا تهتم سينتظم كل شيء مع الوقت. ونعرف كيف نجعل من الطيب القناوي صديقًا يساعدنا على تدمير العدو المشترك: الأمير.

ـ على ملك المغرب أن يكون واضحًا في علاقته مع عبد القادر ومشكلة الحدود ستصفى قريبًا إذا أبدى استعدادًا للتعاون. لقد بعث بيجو برسالة إلى سلطان المغرب، عن طريق قنصل فرنسا بطنجة ليرسل مفوضًا عنه لتدارس مشكلة الحدود. فالأمور إذا تطوَّرت سلبًا ستزيد من مصاعبنا

ـ لا تهتم. مناورة فقط، فقد حفظوا الدرس جيِّدًا. حادثة الولي سيدي محمد الوسيني هزتهم، ولكنَّها وضعتنا أمام مسؤوليَّة ضرورة إيجاد حلّ حاسم مع السلطان أو مع قايد وجدة الطيب القناوي. إذا تعصب المغاربة لموقفهم سنجد أنفسنا أمام حرب مؤكّدة وليس فقط المناوشات الصغيرة التي يمكننا اليوم تطويقها الأمير يجتهد باتجاه تعميم الحرب. كل المراسلات التي وصلتنا أو تلك التي عثرنا عليها مع الجواسيس تؤكِّد على ما نظنّ أنَّه الحقيقة ولكنَّنا سنعرف كيف نفشل ذلك.

ـ لا أدري كيف؟ القناوي يريد خروجنا بدون جدل، ونحن نؤكِّد لهم أنَّهم بتعنُّتهم هذا، يسهِّلون المهمة لعدو مشترك، يثير القلاقل على أرضهم وسرق حقّ الخلافة منهم والإمارة على القبائل البربريَّة. مشادات سيدي محمد الواسيني كادت أن تتحوَّل إلى معركة كبيرة لا نريدها، ولكنَّها إذا حُتِّمت علينا لن نتردَّد في

خوضهـا حتى محاولة بيجو السلميَّة لم تأت بأيّ شيء. المغاربة يرفضون اعتماد مغنية كنقطة متقدّمة لنا في حرب لم تكن تعنيهم. الإنجليز صمتوا، فقد أقنع غيزو[1]، عن طريق سفير فرنسا في لندن الكونت سانت ـ أولير[2]، أن يخبر صاحبة السمو الملكي أنَّ المسألة لا تعدو أن تكون مناوشة طارئة على الحدود المرتبكة وليست تدخلاً في دولة مستقلة.

ـ يبدو لي أنَّنا بدأنا نسير شيئًا فشيئًا نحو حرب حقيقيَّة ضدّ المغرب. ملك المغرب لم يفهم بعد أنَّ العالم تغير، وأنَّ بريطانيا نفسها التي يحسب حسابها لها مصالحها الخاصة هي بدورها وتقدم منفعتها المباشرة على كل شيء. هو حساب الأمير نفسه عندما حاول إغراء الإنجليز ببعض الموانئ مقابل منحه الأسلحة.

ثم نزل بيدو ولاموريسيير من أعالي الهضبة على رأس فيلق صغير من الخيَّالة بينما بقيت القوات في معسكرها، تراقب الحركة من بعيد وتنتظر وصول المؤونة التي تأتي من ميناء الغزوات محروسة من طرف قبائل السواحليَّة.

---

١ ـ Guizot

٢ ـ Saint-Aulaire

- ٣ -

هذه المرة لم يدخِّر شهر أوت جهداً في اشتعالاته وحرارته. دخل دفعة واحدة بجراده وذبابه وأمراضه وحروبه وروائحه الكريهة التي لا شيء يمحوها إلاَّ رائحة البارود التي عندما تستقرّ في الأنوف لا تغادرها مدة طويلة.

كانت قوات بيجو ترى على مرمى العين من بعيد وهي تنتظم في السهل. بعد أن قطعت كل المسافات الطويلة، من ميناء الغزوات إلى معسكر لالة مغنيَّة قبل المرور عبر الوديان والتوغل عميقًا باتجاه وادي إيسلي، الذي ظلَّ بالنسبة لبيجو هو نقطة الفصل بعد فشل كل المحاولات لإجبار سلطان المغرب على التوقيع على اتفاقية الحدود كان بيجو يحس بفخر وهو يتفحَّص الترتيبات الأخيرة لهجومه على ولي العهد سيدي محمد

Avec cette force de frappe et cette organisation on culbutera même les anglais s'ils viennent fourrer le nez là où il ne faut pas.

قالها بيجو وهو يترجّل ليختفي داخل خيمته لوضع الترتيبات الأخيرة مع قادته، الذين ظلّوا ينتظرون أوامره بعدما تمّ تحضير كل شيء. كان الجميع في انتظاره. بعد تحية سريعة، أخرج خريطته المطوية عدة طيّات ثم فتحها وسرحها عن آخرها على الطاولة الصغيرة. ثم بدأ يخط عليها بمختلف العلامات بحبر مخالف وقلم الرصاص:

- Après demain, mes amis, on écrira une nouvelle gloire pour notre armée. l'attaque ne se fera que sur mes ordres. Je donne à ma petite armée la forme d'une hure de sanglier. La défense à droite, c'est Lamoricière la défense à gauche, c'est Bedeau, le museau, c'est Pellissier, et moi , je suis entre les deux oreilles. Qui pourra arreter notre force de pénétration? Ah, mes amis, nous entrerons dans l'armée marocaine comme un couteau dans le beurre.

تضاحك لاموريسيير وبودو وبلّيسييه عاليا وهم يتفحّصون الخريطة ويرون السخريّة والجديّة التي كان حاكم الجزائر، الجنرال بيجو يتكلّم بها قبل أن يوقفهم بصرامته المعهودة التي يعرفها عنه أعداؤه وأصدقاؤه:

ـ لا نستهن بالعدو فهو يملك أسبقية معرفة المكان وطبيعة الأرض. لكنّنا نملك القوّة الضاربة والحضارة والنظام.

ـ كل شيء على ما يرام يا سيدي. ننتظر إشارتك لبدء الزحف وترتيب الهجوم وفق الخطة المقترحة

ـ مصمم قبل عودتي إلى أرضي في البيريقور وتقاعدي إذا بقيت حيًّا، أن أنتهي بشكل صارم من قضية الحدود وأحسم هذه

الحرب التي طالت، وكان بإمكاننا التقصير في مداها لو كانت أمورنا أكثر وضوحاً فيما بيننا عبد القادر سيحصر في مربَّع ضيِّق. عندما يغلق وسط كمَّاشة ويشعر المغاربة بقسوة الحرب، سيطردونه ويخرجونه من أرضهم وقتها سنقطفه كالتينة اليابسة. ولي العهد الدوق دومال قام بما يلزم لتدمير تحصينات طنجة ويستعدّ لدخولها في الأيام القليلة القادمة. على سلطان المغرب أن يوقِّع على هذه المعاهدة لنتفرَّغ للأمير

مرة أخرى تضاحك القادة قبل أن ينغمسوا الليلة بكاملها في دراسة الاحتمالات وأنَّ الحرب لن تكون نزهة خصوصا وأنَّ ولي العهد الذي يسمِّيه الأمير العقون، حضَّر كل العتاد اللازم لهذه الواقعة بمساعدة خفية، إنجليزيَّة وإسبانيَّة خصوصاً بعد قصف الدوق دومال لموانئ طنجة ومحيطها في السادس من شهر أوت.

عند الثانية صباحاً من فجر ١٤ أوت، كانت القوات الفرنسيَّة قد تخطت وادي أيسلي نهائيًّا بكلّ عتادها وأحصنتها وخيَّالتها ومشاتها ولم تتلق أيَّة مناوشة ممَّا سهل مرورها حتى الجو الذي كان ساخناً طوال النهار، خففته الرطوبة الليليَّة. مع تباشير الصباح الأولى، كانوا على رأس مرتفعات الجرف الأخضر. من هناك بدت لهم قوات ولي العهد واضحة تماماً بعتادها ومدافعها وفي مرمى مدفعيتهم بعيدة المدى. وانفردت في وسط الجموع المتراصة، الخيمة الأميريَّة والشمسيَّات التي تحدِّد موقع سيدي محمد ضمن المعسكر.

أعاد ولي العهد تنظيم فرقه بعد انسحاب جيش الأمير بأمر منه. فقد رفض أن يدخل جيش الأمير بجانبه حتى لا تقول القبائل إن وراء نصره المؤكَّد يتخفى رجل أتعب الجيوش الغربية الأكثر نظاماً

وصرامة. أكثر من ذلك كلّه، فقد بعث ولي العهد في إثره بعض قادته وجزءاً من قبائل بني إزناسن يترجونه أن لا يتدخل فيما لا يعنيه وأنّه كفيل بسحق أعداء اللّه وحده. حاول الأمير أن يجد مسلكًا نحو ولي العهد ولكن عبثًا. عندما زاره وفد من المغاربة الأشراف، نصحهم وهو في خيمته مع بعض خلفائه:

ـ لقد قاومت جيوشهم في أرض إفريقيا وأعرفهم جيداً الجيش الفرنسي قوي ولا يمكن أن يُكسر بسهولة. وأظنّ أنَّ السلطان في حاجة ماسَّة إليّ إذا أراد أن يكسر شوكتهم.

ـ هذا ليس سهل متيجة يا أمير المؤمنين. الفرنسيون لن يتحمّلوا نيران الصيف وحشرات وادي إيسلي القاتلة.

ـ لا تخطئ أيُّها القائد العدو مجهَّز بأحدث الأسلحة والوسائل المساعدة وعليكم أن تضعوا بجانبكم كل الحظوظ. الثقة العالية هي التي هزمتنا وهي التي علَّمتنا عدم استصغار الأعداء.

ـ قوة مولانا معنا وسينصرنا اللّه على أعدائه، ولهذا نطلب منك، حفاظًا على الودّ والضيافة، أن لا تتدخل بجيوشك فتجلب غضب مولانا عليك.

ـ لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة. لا تقتربوا كثيراً من معسكرهم واغلبوهم بالبعد والحيلة. ولا تأخذوا معكم، عندما تخوضون الحرب، لا مدفعيِّين ولا مشاة كثيرين، اعتمدوا على المباغتة والسرعة لتشتيتهم ومن كل الجهات لبعثرة قوتهم. واهربوا أمام خيالتهم لجرهم نحو الشرك الذي تكونون قد نصبتموه لهم لا تغتروا بأعدادكم، فالمواجهة قاتلة للضعيف عتاداً وليس شجاعة.

ـ أيُّها الأمير كل الذي تقوله نعرفه وقد اتخذنا كل تدابيرنا بأنفسنا. لو كان ما تقوله مفيداً لنجح هناك، على الأرض التي تركتها وراءك.

ـ على كل حال إفعل ذلك حتى لا يحدث لكم ما حدث لنا.

ـ ارتح بعيداً وسآتيك برأس بيجو وأذرع قادته الكبار.

ـ وفَّقكم اللَّه وسدَّد خطاكم.

وخرج قائد الأشراف ساحبًا في إثره خيَّالته وبني إيزناسن وسار بعيداً وهو يعرف في أعماقه أنَّ الحرب خادعة. بعد لحظات من خروج الأشراف بدأ خيَّالة بني إيزناسن يطوِّقون جيش الأمير خوفًا من هجوم مباغت على ولي العهد، الذي كان مصممًا على خوض الحرب لوحده مهما كلَّفه الأمر

تمتم الأمير وهو يحاول أن يفهم حركة العقون:

ـ عقون يسوق مصير أمة؟ اللَّه يحفظ جيش السلطان من جنون هذا المصروع.

قال الأمير وهو يحاول أن يكتم غيضه، لأنَّه حُرم من فرصة كبيرة ليعود إلى الحرب ويفكّ الحصار المضروب عليه هنا والمضروب على خلفائه القليلين الذين حاول نجدتهم، ولكنَّه في كل مرة يجد نفسه في مواجهة فيالق مجهَّزة وهو لا يملك شيئًا وسلطان المغرب يرفض مساعدته بل ويطالبه بدفع ديون سابقة أو مغادرة أرضه التي تحتلها دائرته.

شعر الأمير بالضيق الكبير، سلطان بدأ يطلب رأسه، قبائل كبيرة ارتدَّت عليه وما بقي ثابتًا يعاني الأمرين. خليفة بلاد القبائل على حافة الاستسلام إذا لم يكن قد فعل، إذا لم تصله الإمدادات. خليفة القبائل يظنّ أنَّ الأمير يمكن أن يكون قد مات في الهجمات الفرنسيَّة الأخيرة، وأنَّ الذي يكتب ويراسل الخلفاء في الداخل إنما هي أمه. صمتُ الأمير يدفع بالخليفة إلى تأكيد هذا الظنّ. البركاني قُتل بالقرب من طازة، ليس بعيداً عن مليانة. الأخبار التي كانت تصل الأمير تباعًا، دفعت به إلى الكمد. لقد أصبح بين نارين مهولتين، نار العدو الذي يتربَّص به في كل مكان ونار الأخ الذي يتحين الآن الفرص لتدميره نهائيًّا.

ما كان مجرد مناوشات أوليَّة سرعان ما تحوَّل فجأة إلى حرب حقيقيَّة. أعداد جيش سيدي محمد لا تُحصى وهو ما زاد من ثقته العالية ورفع من همة جيشه الذي كان ينتظر إشارة بدء الهجوم. الفيلق الأول للخيَّالة المغربيَّة الذي اندفع لمواجهة بداية زحف قوات بيجو سرعان ما انكسر حتى قبل أن يلامس راس القوات المندفعة أمامًا ضربات المدفعيَّة الأولى لم تتح فرصة له للتقدُّم، فتشتت ثم انسحب من بقي حيًّا لم يكن ذلك إلاَّ مناورة أولى، فقد فوجئت القوات الفرنسيَّة بهجوم من الجهة الخلفيَّة حيث الحراسة كانت محدودة والمدفعيَّة تحتاج إلى تحرُّك جديد لكي تضبط قذائفها. بدأت الاختراقات تتم من كل الجهات مما أربك خطة بيجو التي بنى عليها كل مشروع هجومه. كان خيَّالة سيدي محمد يدخلون في عمق الصفوف الفرنسيَّة كالسهام الملتهبة ويخوضون معاركهم باستماتة. كان يقين سيدي محمد كبيراً في دحر القوات الغازية والزحف بقوَّاته

باتجاه مغنية واستعادتها نهائيًا وغلق الحدود مع فرنسا حتى يتم ضبط كل شيء. وعلى الرغم من الهجومات الجانبيَّة فقد ظلَّ هجوم منخار الخنزير منظَّمًا ومستمرًا ومحميًّا بقوات بيدو من الجهة اليسرى، بينما الجهة اليمنى ظلَّ فيها لاموريسيير ثابتًا بقوة. والمنخار الهجومي الذي كانت على رأسه قوات بيلّسييه يحاول جاهدًا أن يعبد الطريق. الخسارات الفرنسيَّة المتواصلة لم تفكك المواقع أبدًا. المدفعيَّة الجبليَّة ساعدت قوات بيجو على تفادي الهزيمة أمام هذا الهجوم الواسع الذي أتى من كل الجهات.

عندما استعاد بيجو زمام المبادرة، وإعادة تنظيم القوات وفق الخطة المبدئيَّة، دفع بأحسن قادته من السيَّافين يوسف وطارطاس وموريس، لخوض هجوم كبير يجمِّد قوات الملك في مكانها ولا يمنحها فسحة الانبناء والتحرك. كان الهجوم صاعقًا بعدده وعدَّته. لم يتوانَ يوسف الذي يعرف ثقافة الشرق في الهزيمة من إذلال قوات وليّ العهد وتكسيرها في عمودها الفقري، ممّا اضطرّ ولي العهد إلى التراجع ثم الانحدار عميقًا في الأراضي المغربيَّة باتجاه طازة مبعثر القوات، في فوضى عارمة، تاركًا وراءه قرابة الألف قتيل من الفرسان وألفي جريح بعضهم لم ينجُ من رصاصة الرحمة، التي يجد يوسف دائمًا لذَّة في إطلاقها على من بقيت فيه إمكانية للحياة، والكثير من الأحصنة التي اخترقها الرصاص وشظايا المدافع التي ظلت تئن في أمكنتها.

كانت فكرة يوسف أن لا يتوقف الهجوم ولكن بيجو أعطى أوامره للاهتمام بالموتى والجرحى والأحصنة المجروحة. عادة يوسف أن

لا يتوقف عندما يكون منتصراً عندما سئل عن المساجين الذين جاء بهم من هجومه الأخير، والذين تمَّ تجميعهم بالقرب من خيمة المستشفى، قال متهكماً:

ـ للأسف، لم أحصل على أيّ منهم، ولكنِّي حصلت على خيمة سيدي محمد وثماني عشرة راية وإحدى عشرة قطعة مدفعيَّة وشمسيَّة ولي العهد، كلُّها هدية لسيدي بيجو، أما عن الجرحى.

لم يتم جملته والتفت نحو موريس:

ـ موريس أكثر جرأة منِّي، هو يعرف جيِّداً ماذا يفعل بهم في مثل هذا الحالات.

ـ الحرب قاسية، ولكن لها حدّ أدنى من الأخلاق يا يوسف.

ردّ موريس وهو يمسح جبهته من البارود الذي التصق بها مسوِّداً الجزء العلوي من وجهه المتعب والمتعرِّق.

ـ صحيح، ردّ يوسف، ولكن في الحرب أيضا، عدوك إذا لم تقتله معناه أنَّك أعطيت المبادرة له لكي يقتلك في المرّات القادمة. والعرب يفعلون ذلك بدون تردُّد، تعلَّمت هذا من الأتراك ومن مختلف المعارك التي خضناها لم تنجني إلاَّ سرعتي. وأنا هنا لا أوهم نفسي مطلقاً، جئت لأُقتل أو أقتُل. هكذا علَّمتني الحروب الفائتة.

ـ ولكنِّي لا أتجرأ على قطع رأس عدوي وهو موجود تحت رجلي، جريح وغير قادر حتى على الحركة ومجرَّد من أي سلاح.

ـ هذه الرومانسيَّة لا أعرفها يا موريس. أسأل نفسي دائماً هذا السؤال: ماذا كان سيفعل بي لو وُجدت في وضعه نفسه، وعلى

اساس ذلك أتخذ كل القرارات كلّما كان ذلك ممكنًا نحن في حرب وعلينا أن نربحها وأن لا نترك أيَّة فجوة للآخر. ابن الملك لم يأت هنا لكي يلعب معنا، ولكنَّه كان يخطِّط لدحرنا بعيداً عن مغنية وليس فقط عن وادي إيسلي.

صمت موريس وانسحب نحو فيلقه من الجرحى ليداويهم في الخيمة المخصصة لذلك، ويراقب حالة بقايا الجرحى المغاربة الذين كانوا يئنون من شدّة الألم وكانوا تحت إمرته.

في اليوم نفسه كانت أخبار الدوق دومال تصل تباعًا ودقيقة. فقد توغل عميقًا في طنجة ونواحيها واحتلَّ بواسطة فيلق من ستمئة عسكريٍّ مدربين لخوض مثل الحروب الانتحاريَّة، جزيرة الموقادور بعد أن دمرت البحريَّة كل تحصيناتها وقلاعها التي كانت تحتمي بها من الهجمات الافتراضيَّة. كان الخوف من إسبانيا وربما حتى من الإنجليز فجاء الهجوم من فرنسا بدون مبرّر ظاهر وسابق.

* * *

- ٤ -

- هاه؟ هذا واش كان يحب هذا الوغد، قال الأمير وهو يضرب بكفّه على الرسالة التي كانت بيده، خشونة الرأس والجهل الكبير. كنت أعرف أنَّ العقون سيقود بلاده إلى الخراب ولكنِّي لم أتوقَّع أن يتم كل شيء بهذه السرعة. جيش نظامي ويعرف المنطقة شبراً شبراً لا يُهزم بهذه السهولة، لا بدّ أن يكون خلل عقل العقون أكثر مما تخيَّلت.

- يستأهل. عندما قدمنا له يد المساعدة، عضها

ردّ الخليفة مصطفى بن التهامي وهو يخرج كلماته متقطِّعة وحادَّة كالشفرة، هو الذي لا يتحدَّث إلاَّ قليلاً أو عندما يُطلب منه فعل ذلك.

ما كان يخافه الأمير وصله في الوقت الذي كان يتهيَّأ فيه للدخول باتجاه بلاد القبائل لنجدة ابن سالم الذي بدأ ييأس، ولم يعد أمامه حلّ آخر بعد أن ارتدَّت عليه الكثير من القبائل المحيطة والهجومات المتكرِّرة وغياب العتاد العسكري.

أحس بأنَّ الناس تعبوا كثيراً وبدأوا يتخلَّون عن شجاعتهم وعن كل ما كسبوه من مقاومة، ومصائرهم صارت معلَّقة في الهواء.

كان الأمير محاطًا بقادته وخلفائه. بقي لحظات طويلة وهو يتأمَّل الرسالة التي حوت بنود الاتفاقية بين ملك فرنسا ومولاي عبد الرحمن التي تدعوه للخروج ومغادرة الأراضي المغربيَّة أو تسليم نفسه. كانت الوثيقة مكوَّنة من ثماني نقاط، تعتبر في مجملها الأمير خارجًا عن القانون. شعر كأنَّ من وراء ذلك مكيدة عليه أن يصفيها وأن يكشفها للعيان.

ـ أشعر أنَّهم يلعبون بسلطان المغرب. مولاي عبد الرحمن ليس بهذه الغباوة. سأحاول أن أزوره وأقنعه باللعبة التي هو ضحية لها من حيث لا يدري. لا يمكن أن يُترك مولاي عبد الرحمن بين أيد تريد هلاكه وخراب ملكه. وسنكشف معًا الشخص الذي يبث الضغينة بيننا

ـ لكن يا مولاي، الاتفاق مع بيجو وسلطان المغرب لم يعد سرًّا، وبموجبه، اعتبروك خارجًا عن القانون. يجب أن ترى الأمور مثلما تتبدى وليس مثلما تشتهي. لقد اختار مولاي عبد الرحمن طريقه ويمكن أن يقع لك مكروه لا قدر اللّه إن أنت ذهبت إليه.

ـ أنا متأكِّد أنَّ مولاي عبد الرحمن رجل مؤمن ولا يمكنه أن يبيعنا بهذه السهولة. متأكّد من أنَّ العقون يكون قد أعطاه صورة سيِّئة عن عدم دخولنا الحرب التي لو دخلناها لما حدثت البهدلة التي وقعت له وهو يدخل قصره شبه عار. كان عليه لو كان رجلاً أن يأتي بحبل من القنَّب ويعلق نفسه على أقرب شجرة.

ـ المسألة تعقّدت كثيراً يا مولاي، لم تعد تتعلّق فقط بالعقون، هناك اتفاق واضح ضدك وهذا ما يخيفنا ولا يمكن أن نتركك تنتحر بهذه الطريقة.

ـ لا قدرة لنا لإرجاء حكم اللّه.

تدخل البوحميدي مرة أخرى وهو يحاول أن يجد مخرجًا للمأزق.

ـ حمّلني بما تريد وسأذهب إلى السلطان وسنرى بالفعل صدق نواياه. لا يمكنك أن تذهب يا سيدي والوضع على ما هو عليه، ثم إنّنا في هذا المكان نحتاج إليك، لقد صرنا بين نارين، نار القريب ونار البعيد والكل يتربّص بنا شرًّا.

ـ هكذا يا البوحميدي. رجولة عالية وشجاعة لا تضاهيها شجاعة. ما زلت عند رأيي، السلطان واقع تحت تأثير خطير وما وصله عنا أرهقه. انكساره ليس فقط بسبب هزيمته في طنجة أمام ابن الملك أو أمام بيجو في وادي إيسلي، الأمر معقّد جداً وعلينا بمدّ يد المساعدة له.

ـ كل هذا لا يقتضي وجودك. سأقوم بالمهمة على أحسن وجه. الناس يا سيدي يحتاجونك بجانبهم خصوصاً في هذه الظروف الصعبة.

انتهى النقاش باقتناع الأمير بضرورة البقاء.

في اليوم التالي، خرج البوحميدي محمّلاً برسالة طويلة من الأمير، مع فرقة صغيرة باتجاه فاس محروساً بفرقة متواضعة من الخيّالة وقلبه غير مطمئن مما كان يدبر من مكائد للأمير ولدائرته.

ظلّ الأمير ينتظر الردّ على رسالته المفصَّلة إلى سلطان المغرب. كان على يقين أنَّ السلطان بمجرد معرفته للحقائق سيلحق صفوفه بصفوف الأمير لتبدأ المعركة الحقيقيَّة والجهاد الكبير.

تحرشات العساكر الفرنسيَّة المرابطة ليس بعيداً عن قبائل بني إيزناسن، لم تتوقف أبداً. ومناوشاتهم تضخَّمت أكثر بالتهديدات المتتالية بملاحقة الأمير على الأراضي المغربيَّة إذا لم يتمّ تطبيق بنود الاتفاقيَّة. عندما وصلته أولى الأخبار، شعر بانتكاسة كبيرة أقعدته الفراش أكثر من أسبوع. قرأ في جريدة الأخبار ليوم ٢٤ جوان ١٨٤٥ التي عرضت وقائع الجريمة التي ارتكبها بلّيسييه في حقّ سبعمئة وستين ضحية في غار جبال الظاهرة. كل شيء بدأ عندما تجمع سكان أولاد الرياح في المغارة درءاً لهجومات العساكر الفرنسيَّة عندما تمَّت محاصرتهم من كل الجهات وسدّت عليهم كل المنافذ هي المغارة القديمة نفسها التي كان يهرب إليها أجدادهم خوفاً من الأتراك حين يعجزون عن دفع الضريبة. يتخبَّأون عادة مع أملاكهم حتى تمرّ العاصفة. لكن هذه المرة كان قائد بلّيسييه ومرشده هو سيدي العريبي وخيَّالته، كان يعرف جيِّداً مخابئهم. استطاع أحد المساجين أن يغادر المغارة، فأخبر سيدي العريبي باستعداد المحجوزين للتفاوض والخروج. نقل هذا الأخير إلى بلّيسييه القصة كاملة كما رويت له. وبدأت المفاوضات التي دامت أكثر من سبع عشرة ساعة. طلبوا الأمان فكان لهم ذلك. وخوفاً من الفرنسيِّين، فضَّلوا أن يسلِّموا أنفسهم لسيدي العريبي. لكن بلّيسييه رفض، وأعطاهم ربع ساعة للخروج قبل أن يتّخذ القرار بحرق كل شيء ودفنهم في الأدخنة. التفت بلّيسييه نحو سيدي العريبي وهو يقول بتهكُّم كبير:

ـ يجب أن يخرجوا وإلاّ سأشويهم مثل الفراخ. ليسوا في وضع إملاء الشروط. الأفضل أن تعمل على إقناعهم، فأنت أعرف بهم.

التفت سيدي العريبي نحو الرسول وأفهمه بلهجة صارمة كلام بلّيسييه وتهديداته. كان الرسول قد عرف ذلك من جحوظ عيني بلّيسييه وهو يتكلّم.

ـ سأحاول يا سيدي. اللّه يهديهم.

كانت الفوضى عارمة داخل المغارة. الرسول لم يفعل شيئًا ولم يستطع إقناعهم. وظلُّوا يصرُّون على ابتعاد بلّيسييه الذي كان قد أعطى أوامره بحرق المغارة. مُلئت المداخل بالزيوت الحارقة والزفت ثم أُشعلت النيران وعلت ألسنتها في كل مكان حتى الصخور متوغلة في أعماق المغارات. وظلّت ألسنة اللهب تتسابق برؤوسها نحو السماء المغبرة بالأتربة والأدخنة والخوف حتى انطفأت لوحدها مع تباشير الصباح. عندما فُتحت المغارات، كانت الجثث ملتصقة بالصخور: نساء، رجال، أطفال، بهائم محروقة، الكل مختلط ومتفحم بقوّة الأدخنة والنار والحرارة الخانقة.

الخبر الثاني الذي نزل عليه كالصاعقة والذي وصله من أحد رسله، هي الصعوبات التي كان يعانيها ابن سالم، خليفة القبائل الذي يئس من انتظار الأمير وبدأ يستعدّ لتسليم نفسه وفق شروط مسبقة.

ـ لا يمكن أن نظل في حالة اللاحرب واللاسلم وناسنا هناك كل يوم يموتون يأسًا وكمدًا. يجب أن نقلب موازين الأشياء، لا أدري كيف! ولكن يجب أن نفعل شيئًا يردّ الآمال إلى اليائسين ويُسكت الخونة.

ـ لكنّها مغامرة غير مأمونة الجانب.

ـ كل حروبنا التي خضناها ونخوضها كَمٌّ من المغامرات المتتالية، من منَّا كان يضمن عودته عندما يخرج من بيته فجراً أو ليلاً، حتى لا يرى الدمع المحتقن في عيون أبنائه وزوجته؟ الناس يا السي مصطفى ينسون بسرعة.

ـ ولكن خروجك يا سيدي متسرِّع، هذه المرة.

طلب الأمير من خدمه تسريج عوده وأعواد فرسانه والاستعداد للذهاب نحو بلاد القبائل لإرجاع المرتدِّين إلى جادة الصواب وتأديب كل الذين خانوا.

عبروا الملوية وبلاد امسيردا قبل أن يجانبوا ليلاً مدينة تلمسان على الرغم من المعسكرات الكثيرة المحيطة بها وفرندا وبوغار قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى مرتفعات بوغني ويتوغلوا في غاباتها استطاع، قبل أن يصل الأمير ومن معه إلى صهره وأبي زوجته، ابن سالم، أن يتفادى كميناً نصب له في الطريق وكاد أن يودي بحياته. كان بيجو قد سمع بوجود الأمير بجرجرة، فصعد بسريَّة تامَّة إلى المرتفعات حيث كان الأمير يعقد اجتماعاً موسَّعاً في برج بوغني بين القبائل البربريَّة، ولكنَّه أخطأه بساعات قليلة، كانت كافية للأمير بأن ينطفئ في عمق الغابات الكثيفة. كان الأمير، باجتماعاته الكثيرة، يريد جاهداً أن يسحب وراءه سكان الجبال للجهاد، ولكن التعب كان يبدو واضحاً على الجميع، والإرهاق أخذ منهم كل مأخذ. عين آغا منهم برضى الجميع، الشيخ الحسين بن عراب من تيزي راشد وطلب منهم الولاء له. في الليلة نفسها غادر منطقة القبائل وعاد نحو الجنوب الوهراني، مؤدباً في طريقه القبائل المرتدَّة ساحباً وراءه غنائم كثيرة كزكاة من القبائل التي توقفت منذ مدة عن دفع ما عليها للمجهود الحربي في منطقة التيطري.

الوحيد من قادة بيجو الذي تحسس عودة الأمير وعرف مسالكه هو الكولونيل كامو، الذي لحق به عند مخارج المدينة ونشبت بينهما معركة كبيرة خسر فيها الأمير أكثر من سبعين فارساً ومئتي حصاناً وألف جمل ورؤوساً لا تُحصى من الأغنام والآغا ابن كليخة الذي استمات دفاعاً عن ميمنة الجيش قبل أن يسلِّم الروح إثر رصاصة أحدثت ثقباً كبيراً في صدره. عندما رأى الدم يسيل من فمه، رفع أصبعه للشهادة ولكن الأمير كمش يده في يده، فارتعشت كالعصفور البردان:

ـ لا تخف يا السي ابن كليخة، الموت ما يزال بعيداً إنَّه البرد فقط.

ـ يا سيدي، خرجت الكلمات متقطّعة من فم ابن كليخة، الموت مثل الأفعى، يتسلَّل بدون إحداث أي صوت باستثناء علامات صغيرة على الأرض تثبِّت مروره. إنِّي أحسه وهو يخترق الجسد كالرصاصة. عائلتي ومالي أمانة في عنقك.

عندما التفت الأمير صوب الجهة الغربيَّة لم ير إلاَّ أحصنة تتقاتل قبل أن تنهار على الأرض وفرساناً يغيبون ويظهرون داخل الأغبرة المتناثرة هنا وهناك.

في المساء نفسه، عندما انسحبت قوات الكولونيل كامو باتجاه معسكرها خوفاً من ردة فعل الأمير، كان هذا الأخير يبحث عن مأوى ليلة أو ليلتين عند أولاد نايل الذين أحاطوه بكل الرعاية.

* * *

ـ ٥ ـ

قبل أن يطوي البوحميدي الرسالة، قرأ الجملة الأخيرة:

«يجب أن يلحق بي البوحميدي في بلاد أولاد نايل. ويتولى السي مصطفى بن التهامي شأن الدائرة قبل فوات الأوان. وأن يؤمن المساجين في مرتفعات بني إيزناسن. الحالة ما تعجبش».

ـ يجب أن نجد مخرجًا له. أولاد نايل سيفشلون في الدفاع عنه إذا لم نلحق به. وقد يسلمه بعض الخونة لبيجو الناس في أيام الشدّة هذه لا يُؤتمنون

قال ابن التهامي للبوحميدي وهو يعيد قراءة الرسالة التي بعث بها الأمير. الرسالة كانت واضحة ولا تحتمل أيَّة شكوك. يجب إيجاد مسلك للأمير عند أولاد نايل. إما نجدته أو تركه يموت تحت التهديدات التي كانت تأتيه من القبائل المرتدَّة التي علمت بوجوده في المنطقة، أو من عسكر فرنسا الذين كانوا يتشمَّمون وجوده في

كل الأمكنة من خلال العيون التي نصبوها في كل الزوايا الأوامر كانت واضحة.

ـ وماذا أفعل الآن بالمساجين؟ وهل نأمن شرّ بني إيزناسن؟ قال ابن التهامي والحسرة بادية على وجهه.

ـ أحتاج أولاً إلى التفكير في وضعية الأمير قبل فوات الأوان، بعدها يأتي دور المساجين. المهم أن لا يصابوا بأذى.

ـ باش؟ حتى البركانيّ الذي اتكلنا طويلاً على شجاعته وشهامته، استسلم لسلطان المغرب. ذهب بقبائل بني عامر لتسلم الأرض التي وعد بها السلطان كل من يأتي نحوه ويسلِّم سلاحه. ماذا نفعل؟ كل شيء صار غامضاً وضدّنا؟ المساجين نفسهم لم نجد ما نعطيه لهم، منذ أيام ولالة الزهراء تنزع من أكلها وتسلمه لهم قبل أن يشرعوا في أكل الحشائش وعروق النباتات والبقوقا.

تأمل البوحميدي وضعية الدائرة التي كانت كل يوم تتضاءل قليلاً وتنقص. لم يقل شيئًا ولكنَّه عندما اعتلى حصانه هو وخيَّالته، التفت نحو ابن التهامي:

ـ الأجدى أن تتركهم يذهبون.

ـ قصدك؟ لم أفهمك جيِّداً؟

ـ أطلق سراح المساجين. تتحرَّر أنت منهم ما دام بيجو نفسه لم يعد معنيًّا بهم ولم يرد على رسالة أمير المؤمنين. أنت لم تعد قادراً على حراستهم وإطعامهم. ذلك الزمن تغير حيث كنَّا نحافظ على السجين مثلما نحافظ على عيوننا. من الأفضل أن توصلهم حتى

الملوية وتتركهم يذهبون، هناك من يقوم بهم من وراء الحدود أحسن منًّا جميعًا، وإلاَّ ستضطر لقتلهم واحداً واحداً تفادياً للعار وسقوطهم بين أيدي العقون الذي سيتاجر بهم على ظهورنا.

ـ ما عندي ما ندير. بيجو وغد، عندما راسلناه لم يردّ وظن أنَّ سلطان المغرب سيقوم بإنقاذهم، وها هو ذا اليوم يحاول أن يبيدنا مقابل إرضاء الذين طلبوا منه ذلك. راح يشوف واش قادرين ندير.

ـ ولهذا فإطلاق سراحهم يقيك من هذه المسؤوليَّة ونربح على الأقل محبة السجناء، ولا نترك فرصة للعقون لكي يأخذ شهادة حسن السلوك على عاتقنا

ـ إطلاقهم هكذا في الخلاء؟ سيلقاهم العقون ويكرِّمهم ثم يأخذ على كل واحد منهم الشهادة التي يريد، أو ربما قد يقتلهم ويمسح كل شيء في ظهورنا

ـ ومع ذلك لا يوجد حل آخر. فكر جيِّداً في الأمر وشوف الحل المناسب.

ـ الأمير لم يأمر بذلك.

ـ ولم يأمر بعكسه. الأمير في وضع صعب جداً وقاس ويحتاج إلى من يساعده لإخراجه من هذا المأزق. حياته بالنسبة لي أهم من كل شيء. اللّٰه يعينك.

ثم لكز البوحميدي حصانه ولم يلتفت وراءه، فتبعته بقية الخيَّالة.

بقي ابن التهامي وحده، مندهشًا في جسارة البوحميدي الذي لا يكن له حبًّا كبيراً. قرابته من الأمير لم تكنْ لتسعده. عليه أن يسيِّر وضعًا لا أحد يستطيع مواجهته إلاّ الأمير. حركة عساكر سلطان المغرب في نواحي بني إيزناسن لم تكن تبشِّر بخير أبداً انفصل في خيمته حتى آذان العشاء. العزلة لم تقوِّ لديه إلاّ الشعور المتكرر الذي ظلَّ ينهبه من الداخل كالنار: سلطان المغرب يعتزم الهجوم على الدائرة وتسريح المساجين وتسليمهم لبيجو لمحو آثار الضربة التي تلقاها في طنجة ووادي إيسلي. رأى الهزيمة والصرخات المكتومة للأمير وغضبه الذي كان يخرج من فمه وتلويحة يديه مثل البركان: أين كانت عيونكم حتى يأتيكم عقون، نص ابنادم ويأخذ مساجينكم ونساءكم. الموت أجدى لكم. ثم رأى الأمير وهو يحشو سلاحه في لحظة يأس ويذهب لوحده، رافضًا أيَّة مساعدة باتجاه قوات بيجو في عمل انتحاري.

لم يخرج ابن التهامي من غفوته وهواجسه إلاّ عندما نودي لصلاة العشاء.

بعد الصلاة، عاودته كوابيس السجناء خصوصًا عندما أكَّد له معاونوه أنَّ ابني السلطان وحفيده يهيِّئون لجيش كبير لطرد الدائرة وتحرير المساجين. ضاقت الحدود وانعدمت الرؤية. التمعت في ذهنه حلول كثيرة ولكنَّها كلّها تضاءلت أمام الحلّ الحاسم والنهائي. تذكر الحلّ الذي اقترحه عليه البوحميدي ولكنَّه بدا له حلاً بليداً، المقصود من ورائه إغراقه أمام الأمير. ثم فجأة، في عمق الظلمة ومتاعب قلة النوم، التمع في رأسه الحلّ النهائي. إنَّها الحرب العمياء، حرب المهزوم واليائس من النصر الذي صار كل يوم يزداد بعداً.

بعث بفريق من المشاة المدربين على معارك الميدان. كانت الأوامر واضحة فيما يخصّ المساجين الذين كانوا قد قسموا إلى مجموعات صغيرة لتفادي سقوطهم جميعاً بين أيدي جيوش سلطان المغرب. عندما دخلوا عليهم، ارتسمت على وجوه المساجين سعادة غامرة مشوبة بالحذر. كانوا يظنُّون أنَّها ترتيبات الخروج من أسر السجن خصوصاً بعد الوعود التي قطعتها أم الأمير لالة الزهراء على نفسها. كانت ألبستهم رثة ولا يأكلون إلاَّ نادراً، بعض الحساء والماء الساخن والزرع المجروش الذي يتقاسمونه في الكثير من الأحيان مع الأحصنة، ومع ذلك كانت عيونهم تبرق حياة وسعادة عندما دخل عليهم العسكر ملثمين لإخراجهم الواحد تلو الآخر. مما دفع بأحدهم إلى طرح سؤاله القلق:

ـ كم نحن في التاريخ اليوم يا سيدي؟

ـ ٢٤ أفريل.

ـ ياه؟ لم تبق إلاَّ ساعات قلائل ويدخل صباح ٢٥ أفريل وينتهي كل شيء. هل سنذهب عند لالة الزهراء لكي نشكرها على حسن صنيعها؟

ارتعش الحارس ولم يدر ما يقوله.

ـ ننتظر أوامر سيدي. أجاب الجندي بشكل جاف.

جُرُّوا نحو بعض الأكواخ القديمة التي تشبه المخابئ على ضفة أحد الوديان. لم يكونوا يعرفون لماذا زُمَّت أفواههم بكتان الخيش الذي يمتصّ الريق والصرخات، وأغلقت عيونهم وكُتِّفت أياديهم،

وهم لا يفهمون لماذا كل هذه الإجراءات غير المعهودة، ربما تحفّظًا، لكي يمنعوا من تحديد دائرة الأمير؟ هكذا تساءل الكثير منهم في غفوته بحثًا عن مبرر يربطهم بالحياة. في الظلمة الدامسة لم يُر إلاّ بريق السكاكين وهي تلمع تحت ضوء القناديل الزيتيَّة الخافتة ولم تسمع إلاّ الصرخات المكتومة والحشرجات الكثيرة التي ظلّت تملأ المكان بصوت أشبه بالأنين. كانت السكاكين تنغرس في الرقاب المتعبة بدون مجهود كبير إلاّ عندما تلاقي عظام الرقبة، حتى انّ الكثير منهم كانت رؤوسهم تنخلع بسرعة ولا تكفي الجلدة الهشّة للحفاظ عليها ملتصقة. انسحب فيلق المشاة بعد أن رمى الجثث في الوادي المجاور للأكواخ. ظلّ الشخير يُسمع من بعيد مئة وسبعون رقبة مرّت عليها السكاكين الحادّة. مكوِّنة بركًا من الدم في كل مكان. في الصباح كان كل شيء قد انتهى على الرغم من رائحة الموت التي ظلّت تملأ الأمكنة.

لم يتكلّم أحد عن الحادث. فقد حمل المذبوحون أسرارهم معهم إلاّ الرجلين اللذين نجيا من المجزرة وقصّا تفاصيل القصَّة لتخرج إلى الصحافة فيما بعد

عندما عاد الأمير من حصار أولاد نايل، كانت الصحراء منفذه الوحيد كان قلبه ممتلئًا السنة التي قضاها بعيداً عن الدائرة بين القبائل وسكان الجنوب أكّدت له ما كان يخشاه، تعب الناس ومشقّتهم وعدم استعدادهم لخوض الجهاد كما كانوا يفعلون في الأوقات السابقة، آخر هؤلاء كانوا سكان أولاد سيدي الشيخ الذين طلبوا منه وترجّوه أن يعفيهم من مهمة الجهاد التي لم تعد تعنيهم

بيانًا. أكرموه وفي الليلة التالية سار نحو القفر بحثًا عن مسلك آخر، لكنّ الزمن كان قد توقف نهائيًّا. لم يعد الناس هم الناس الذين عرفهم من قبل. أحس وهو يعبر الصحراء الخالية، أنّ الزمن الذي كان يعيشه هو هذا الزمن الرملي القاسي الذي لا يرحم أحداً، يأكل كل شيء حتى الحديد والحجر. ماذا بقي من الزمن الذي انسحب بسرعة منكسراً في أعز ما لديه؟ لا شيء سوى بعض الوجوه التي كلّما تذكرها زاد إصراراً على الوقوف على رجليه. لم ير أبناءه منذ أكثر من سنة، أمه، زوجاته وابنه محمد الذي بدأ يسأل عنه. لا يهم. هناك من لم يُكتب لهم العمر لشرب جغمة ماء وهي على مسافة شبر، لأنّ الرصاصة التي اخترقت رؤوسهم وصدورهم لم تتح لهم فرصة الزحف. ولو لمسافة شبر فقط للارتواء والموت بعدها، لا يهمّ.

عندما وضع حصانه حدوته المتعبة في عمق الرمل الساخن، شعر بتعبه. طلب الأمير من قواده أن يستريحوا قليلاً وترتاح الأحصنة المنهكة.

سأل خليفته البوحميدي الذي لم يغادره أبداً منذ أن التحق به:

ـ هل ترى مسلكًا آخر يا السي البوحميدي أفضل من هذا؟

ـ لسنا بعيدين عن فقيق يا سيدي.

ـ لا أتحدَّث عن هذا الطريق فأنا أعرفه، الذي لا أعرفه الطريق الذي نحن فيه.

لم يفهم البوحميدي جيِّداً أو أنَّه تغابى قليلاً:

ـ سلطان المغرب خرج عن الإسلام لأنَّه يناصر أعداء الإسلام فوجبت محاربته.

ـ بماذا؟ أما يزال لدينا ما نحارب به الآخر، أم فقط ما نحمي به أنفسنا

ـ نحمي أنفسنا ممن؟ وضعنا أسوأ من وضع طارق بن زياد، هو على الأقل كان أمامه العدو ووراءه البحر، أما نحن علينا أن نجد المنفذ الذي لا أحد يعرفه، البحر أمامنا وتحتله البوارج الفرنسيَّة التي قصفت طنجة، السلطان على ظهورنا والمراسلات الأخيرة تؤكِّد على أنَّ السلطان قد أمر العقون، ولي العهد وحاكم فاس أن يتحرك صوبنا ليدفعنا إما إلى الاستسلام له أو الذهاب نحو الفرنسيين ونُقتل هناك وتتحرر القبائل من أسرنا كما يقول، فأين المفر يا ابن أمي؟ أينه؟ دلني عليه وسأذهب نحوه مغمض العينين.

لم يجب البوحميدي، فقد هرب الكلام منه فجأة. تأمل قليلاً حالة صمت الأمير وهو يرقب الشمس وهي تغيب قبل أن يُرفع المعسكر من جديد ويدخل منطقة فيقيق التي كانت طرقها ما تزال سالكة

ـ لماذا لا نحاول مع السلطان مرة أخرى.

ـ أحياناً أقول لنفسي الكلام نفسه، وفي أحيان أخرى أقول إنَّك ستتلقى الإجابات نفسها التي تلقيتها وتلقاها ابن عراش وتلقاها الآخرون، لقد صمموا أن ينتهوا معنا أصبحنا كلُّنا في صف الخارجين عن القانون وكأنَّ هذه الأرض أو تلك ما يزال بها قانون. لقد ضاقت الدنيا علينا يا البوحميدي وانعدمت الرؤيا أو تكاد.

ـ ومع ذلك فأنا مستعد للذهاب إلى السلطان وتصفية الأمور معه. بيننا وبينه قدر من الاحترام. أحياناً أقول إنّ الضغط الفرنسي هو الذي يدفع به إلى مثل هذه الردود العلنيَّة.

ـ عقلي يقول اذهب وقلبي يخاف عليك من أذاهم. المهزوم ينتقم دائماً ممن هو أضعف منه بأبشع الوسائل.

قطع الأمير فيافي فيقيق في أقسى درجات الحرّ بعد أن شقها في وسطها كانت السماء الصافية ونجمة الراعي هي دليله الوحيد للدخول بدون السقوط بين أيدي الفرنسيين أو أيدي سلطان المغرب وأولاده.

بعد أسبوعين من السير والركض وصلت خيَّالة الأمير محمَّلة بالغنائم والانكسارات، في أخريات الليل. كانت الدائرة ملفوفة بحالة تشبه الغشاوة. قبل أن يرى أبناءه طلب الأمير من ابن التهامي وكل الخلفاء المتبقين أن يصلي معهم صلاة العشاء ليخبرهم ويخبروه بكل ما غاب عنهم وعنه.

بعد الصلاة، حدَّثهم عن الأوضاع القاسية التي توجد فيها الدائرة وكيف أنّ الحلول الممكنة لم تمت، ما يزال هناك منفذ يجب ترتيب كل الأمور باتجاهه. لكنّ الخلفاء والآغوات بقوا صامتين أمام الوصف الذي قدمه الأمير. حالة الصمت الكبير أدهشت الأمير نفسه وأعادته إلى التعامل مع الأشياء بشيء من الإيجابيَّة كما فعل دائماً حتى في أقسى الظروف التي تنغلق فيها كل الأبواب:

ـ على كل حال ليست هي المرة الأولى التي نوجد فيها في هذه الحالة. اللَّه دائماً يفرجها. علينا فقط أن نذهب نحو الأمكنة

التي تضمن حداً أقصى من الأمن للدائرة. فكرت في نقل معسكرنا إلى عين الزهرة، على الضفة اليسرى من وادي الملوية، الأراضي المحيطة طيبة ثم إنَّ المرتفعات الجبليَّة تضمن لنا حدًّا من الدفاع عن أنفسنا وذوينا أنا أفترض الحالات الأكثر سوءاً. لقد حادثت بعض الخلفاء وقادة عساكرنا ووصلنا إلى النتيجة نفسها

ـ عين الزهرة، قال أحد الخلفاء، هي أفضل مكان للإقامة والدفاع، خصوصاً وأنَّ سلطان المغرب يحاصرنا ويمنع القبائل من الاتجار معنا الأمور صارت الآن أكثر وضوحاً. يريدون قتلنا جوعاً قبل الإجهاز علينا.

ـ على كل، ردَّ الأمير، لدينا ورقة لم نلعبها بعد، ورقة المساجين. يمكن أن نقايض بها مرورنا نحو الصحراء. كاتبت الماريشال بيجو مرة أخرى وسلطان فرنسا، ربما جاء الفرج عن هذا الطريق، من يدري؟ فالفرنسيُّون حسَّاسون لهذه القضايا لا يمكنهم أن يتركوا مساجينهم في حالة جوع وإذلال.

ـ ولكن يا سيدي..

ثم توقف ابن التهامي فجأة عن إتمام الجملة إذ تعلثم ورفضت الكلمات الخروج من حلقه، أكملها أحد الأغوات بالتفصيل ذاكراً الأسباب وكأنَّه تهيأ سابقاً لقول كل ذلك. فذكر الصغيرة والكبيرة عن حادثة الذبح.

نكس الأمير رأسه في انكسار كلي واصفر وجهه كالميت.

ـ لم نكن مخيرين يا أمير المؤمنين ورقابنا أمامك. كنَّا بين أن يأخذهم سلطان المغرب ويقايض بهم على رقابنا أو ننزع عنه هذه

الفرصة ونتحرَّر منهم لكي نستطيع أن ندافع عن الدائرة وعن ذوينا وعن شرفنا المهدد.

صمت الأمير طويلاً قبل أن ينزع كفيه من على وجهه الذي امتقع من التعب والجوع والأسئلة التي ظلت عالقة بقلبه وبتجاعيد جبهته:

حاول أن يهدِّئ الوضع كعادته كلَّما كان المصاب كبيراً

ـ يبدو أنَّ الأقدار كلّها تتكاتف لكي تعلن عن هلاكنا ماذا نقول لعائلات هؤلاء الذين ذُبحوا؟ ماذا أقول لأولادهم الذين ينتظرون عودتهم منذ أن عرفوا أنَّهم في حوزتنا؟ ماذا أقول للذين رأوا فينا قدوة تتبع تجاه المساجين. ها قد عدنا لإسلام لا يعرف إلاَّ الحرق والتدمير والقتل والإبادة والغنيمة كما ألصقت هذه الصورة بنا. لقد أمضيت كل سنوات الحرب أثبت للآخرين بأنَّنا نحارب ولكن لنا مروءة ورجولة. لقد دفعنا أعداءنا لتقليدنا ولكن في رمشة سكين ذهب كل شيء مع الريح.

ـ يا أمير المؤمنين، لقد حملتني بما لا طاقة لي به وحدي.

قال ابن التهامي الذي هربت كل الكلمات من فمه وبدا كأنَّه ضيع كل شيء.

ـ أعطيتك مسؤولية حماية المساجين وليس ذبحهم. الآن اللي صار صار وعلينا أن نفكر في ما سيأتي وما سنفعله.

ـ المسالك كانت ضيِّقة يا أمير المؤمنين وعندما يضيق المسلك تنطفئ الرؤية، ألم تقل هذا يا سيدي في الكثير من المواقف؟

ـ لم أقل اقتلوا الناس من غير حقّ أو اذبحوا السجناء العزّل.

ـ ما هي مسافة الحقّ والباطل في وضع كهذا؟

ـ المسافة هي إطلاق سراحهم على الأقل.

ـ لكي يبيعهم العقون للفرنسيِّين.

رد مصطفى بن التهامي بدون تفكير كبير وكأنَّه كان يريد تبرئة ساحته.

ـ أفضل مليون مرة بيعهم على قتلهم.

لم يضف شيئًا آخر، ولكنَّه عاد إلى صمته ومسبحته التي لا تغادر يده. ثم أغمض عينيه وانطفأ داخل صحراء العطش والخوف والإبل المحروقة والضباع. نهض الخلفاء والأغوات والقواد ولم يبق بجانبه إلاَّ حرسه الخاص. في تلك الليلة لم ير أهله ونام في المكان الذي مال فيه برأسه على الوسادة الكبيرة إلى الوراء قليلاً، قبل أن ينطفئ على وجه ابن عربي وهو يصرخ في حضرة ابن تيمية: يا سيدي الإمام، لقد ضاق المسلك وانطفأت الرؤية. انغلقت عليك السبل فدخلت الفتوحات المكية بمفاتيح غير مفاتيح المكاشفة ولهذا خسرت محبة اللّه ومحبة الناس.

* * *

الوقفة التاسعة

انطفاء الرؤيا وضيق السبيل



- ١ -

لم ينس مونسينيور ديبوش كلمة الأمير التي صارت اليوم بعيدة بعد كل السنوات التي مرت: *حيث يسيل الدم بغير حقّ، تسقط الشرعية*. شعر وهو يعبر بهو قصر أمبواز أنَّ هذه الجملة تأسره بحكمتها وجبروتها لأنَّه من الصعب التخلُّص من سلطانها. كانت هذه الكلمة مدرجة ضمن رسالة طويلة بعث بها الأمير مع الأب سوشي.

في زيارته الأخيرة، رأى مونسينيور ديبوش في عيني الأمير ضبابة حزن لم يكن قادراً على نسيانها حتى عندما سأله عنها أجابه بتهرب كبير:

ـ إنَّها الأقدار يا مونسينيور، تصنع بنا ما تشاء ولا نملك لها حولاً ولا سبيلاً.

كان الأمير في الصالة لوحده ينتظر مونسينيور ديبوش ومجيء ابن التهامي لمواصلة تدوين سيرته التي بدأها معه منذ مدة. ظلّ مونسينيور يدور في مكانه. هو يعرف جيداً أنَّ الأمير لا يمكنه أن يكون سعيداً لذبح سجناء سيدي إبراهيم وعين تموشنت. الأمير كان في حاجة إلى انتصار يعيد له ثقته في نفسه وفي الناس الذين ينتظرون منه الكثير لهذا عندما رآه في ذلك الصباح لم يمر عبر الطرق الملتوية. أعاد مونسينيور سؤاله مرة أخرى لإخراج الأمير من غفوته التي طالت حتى تحوَّلت إلى حالة سهو كبيرة، كتلك الإغفاءة التي كانت تحدث له عندما يتحدَّث عن ابن عربي الذي عندما تنطفئ الدنيا في عينيه، كما يقول الأمير، تضيق العبارة فيدخل في الإغفاءة التي تفتحه على نور خاص:

ـ مونسينيور، أشعر بك هذه المرة أكثر انشغالاً؟ الأكيد أنَّ ما تحمله ثقيل هذه المرة كذلك. كلَّما تقدَّمنا في الحديث، زاد الوضع تعقيداً.

ـ سيدي السلطان، أخشى أن أكون قد أثقلت عليك كثيراً اللّه يشهد أنِّي لا أريد من وراء ذلك إلاَّ خيرك وخير الجميع.

ـ مونسينيور، الدنيا أحياناً ظالمة، ومع ذلك نقول لكي نتوازن مع أحزاننا، لا يصيبنا إلاَّ ما كتب اللّه لنا في الوضع الذي أنا فيه لم يعد في الدنيا شيء يخيف. مثل شيخي الأكبر، عندما تعوزني العبارة، أترك نفسي للصمت والبياض إلى أن يحين قول ما في القلب وجرح الذاكرة. قل ولا يهمك.

ـ أنت تشجعني دائماً على الذهاب بعيداً في غوايات الكلام.

ـ أنت تسعدني مونسينيور بهذا الكلام وأشعر بالصداقة الكبيرة التي تجمعنا والتي أتمنّى أن تستمرّ إلى أن يأخذنا الله بجواره.

ـ سيدي السلطان، كما قلت لك في المرة الأخيرة وأجبتني بالأقدار وحكمها، إلى اليوم لم أفهم لماذا ذُبح أكثر من مئة وسبعين سجيناً كانوا لديكم في بني إيزناسن. أتساءل ولا أجد الأجوبة المقنعة، في أي شيء كان يمكن أن يفيدك في حربك على الذين احتلوا أرضك قَتْلُ هؤلاء الأبرياء؟ وأعرف أنَّ دينك يمنعك من قتل النفس إلاّ بالحقّ، وأتذكر جملتك الكبيرة التي بقيت عالقة في القلب والرأس: *حيث يسيل الدم بغير حقّ، تسقط الشرعيّة*.

ـ ما زلت إلى اليوم عند قناعتي: النفس عالية ولا نملك حقّ إتلافها ومن يتلفها بغير حقّ، سيخسر بكل تأكيد مستقبله أو شيئاً منه. تسميم سقراط هو الذي هلك أثينا، نيرون الذي أحرق روما هو الذي منحها الحياة الجديدة من رمادها. الذين قاتلوا ابن خلدون هم أول من منحه شرعية الحياة والاستمرار. وغير هؤلاء. ولديكم في المسيحيّة أمثلة كثيرة. ربما أنت تصدقني. فأنت سيِّد العارفين وبادلتني السجناء في أصعب الظروف وأقساها. مقتل سجين واحد يؤذيني فما بالك بكل هذا العدد.

ـ وإذن لمن نعزو هذه الجريمة؟

ـ هي جريمة بلا شك، ولكن يجب أن توضع بجانبها جرائم أخرى كتلك التي ارتكبها بلّيسييه بحرقه في جبال الظاهرة لقبيلة بكاملها ببشرها وغنمها وزرعها. التاريخ إذا لم نره في كلِّيته يا

مونسينيور، سنكون مصابين بسوء النظر والقصور البصري. عندما رشح بيجو نافخ البوق إيسكوفيي[1] الذي اهتمت به والدتي ورعته أكثر مما ترعاني، لرتبة عسكرية عالية، كنت أنا من وضع له الأوسمة. وضعتها له وكأنَّه كان واحداً من جيشي. القتل ليس من أخلاقي. الحرب حرب والسجين إنسان مجرد من كل دفاع. كنت بعيداً عن بلاد المغرب حيث دائرتي، كما تعرف. الحالة حالة حرب. الحسابات التي حسبها خلفائي كانت صعبة ولم تكن مخطئة. سلطان المغرب وأولاده باعونا وتناوروا على رأسنا والماريشال بيجو سقط في لعبتهم وتخلّى عن السجناء الذين كان يمكنه إنقاذهم بقليل من الحكمة.

ـ قرأت شيئًا من هذا. يبدو أنَّ بيجو كان يظنّ أنَّ من وراء ذلك مناورة ستقنع بموجبها القبائل العربيَّة بأنَّ هناك مفاوضات سلام بين الفرنسيِّين وبينك وهذا ما يسمح لك، كما تصور بيجو، بالحصول على مزيد من المصداقية لدى هذه القبائل التي كانت قد بدأت تتخلَّى عنك. لكن الحكومة كالعادة دافعت عن نفسها باتهامك بتدمير العمليَّة. ولكن كلّ هذا لا يحلّ المشكلة من حيث المبدأ السجين لا يُقتل وإلاَّ ما جدوى سجنه إذا لم يكن وسيلة للتبادل أو الضغط. بعض الذين يعرفونك والذين سمعوا بك يحمِّلونك المسؤولية الكاملة عن هذا الفعل القاسي والمشين.

ـ الكلام سهل لأنَّه لا يكلِّف الشيء الكثير. كيف وأنا كنت على مسافة أكثر من ستمئة كيلومتر، بين فكَّي القبائل المرتدة ورتل

١ ـ Escoffier

الجيش الفرنسي؟ قبائل بني عامر تركت الدائرة واحتمت بسلطان المغرب في فاس الذي منحها الأرض وما تعيش به. أعذرهم، فالجوع وهمجية الريافة كانا قد وصلا إلى حدّ لم يعد يطاق. الخلافات بين البوحميدي ومصطفى بن التهامي قد تعمَّقت وزادت شدّتها الأول منفتح زيادة والثاني مشروط بأوامري. أحتاج إلى قرابة الشهر للعودة مع صعوبات المسالك. الأحداث وقعت، كما تعرف مونسينيور، في ليلة ٢٤ إلى ٢٥ أفريل. في ٢٤ ماي، كنت ما أزال في جبال الجنوب الغربي، بين يدي أولاد سيد الشيخ المنهارين لإقناعهم بمزيد من المقاومة. من عيونهم وحزنهم وطيبتهم وكرمهم، عرفت أنَّ الحرب انتهت. عندما ترى رجالاً أشاوس مثل أولئك قد استسلموا للأقدار، أدركْ أنَّ الدنيا تغيرت وأن عليك أن تتأمَّل الأشياء بطريقة أخرى. حتى قبائل بني عامر التي أرادت أن تعود بعودتي مُنعت، بل أبيدت. عندما سمع سلطان المغرب بتحرُّكها نحو معسكرنا، بعث إليهم بالقائد إبراهيم بن أحمد لكحل، اسمه يدلّ على سواد قلبه. عندما أوقفهم قالوا له: نحن قوم خرجنا من دائرة أميرنا لأمر اقتضى ذلك، والآن أردنا الرجوع إلى إخواننا وأهالينا فلا سبيل لكم إلى منعنا، لا شرعًا ولا قانونًا. عندما أغار عليهم دافعوا عن أنفسهم يومًا بكامله ولكن قوة الجيش السلطاني شلَّت حركتهم فاعتصموا بربوة وراء موتاهم وظلُّوا يدافعون عن حريمهم. ثم هاجموا بشكل انتحاري واشتبكوا مع الجيش. وعندما يئسوا من الانتصار قتلوا أبناءهم وبناتهم مخافة السبي ثم قتلوا أنفسهم. ومن بقي حيًّا منهم باعه رجالات السلطان في أسواق مراكش وفاس بأبخس الأثمان.

ـ عذراً لتحريك مواجعك. أعرف يا سيدي الأمير بأنَّ أمثالك يُطعنون في الظهر ولا يخونون ثقة الناس. لكنِّي كنت أريد أن أعرف الحقيقة الغائبة. أعرف أنَّ الناس قساة. عندما يتعلَّق الأمر بالاتهام يميلون نحو السهولة. هذه السهولة جربتها وعرفت وقعها مثلك لم آخذ من تلك الأرض الطيِّبة إلاَّ المحبة والآلام. ومثلك خرجت منها كأيِّ سارق.

ـ لقد أديت ما كان عليك أن تؤديه. أنا متأكِّد اليوم أنَّ الناس الخيرين يذكرون أعمالك بمحبة كبيرة. هل كان عليك أن تترك الناس يموتون أم تجتهد حتى ولو خدعك الاجتهاد؟ ماذا كان عليك أن تفعل عندما أُغلقت في وجهك وفي وجه الكنيسة سبل المساعدة والرحمة؟ واجبك الكبير هو الذي دفعك إلى تحمُّل هذه الديون على ظهرك. لقد بنيت وأنقذت اليتامى ولم تسأل يوماً لا عن لونهم ولا عن جنسيَّتهم ولا عن قناعاتهم. يكفيك هذا

ـ لكن المنفى قاسٍ، مثلك لم أشته مغادرة تلك الأرض، الظروف القاسية هي التي دفعتني. أمنيتي أن أعود لها لأموت هناك فقط. شيء منها، صار في دمي.

رأيت الأمير يحني رأسه ويصمت قليلاً قبل أن يواصل:

ـ الطيور العظيمة تجوب الدنيا وتعود إلى عشّها الأول الذي حماها لكي تموت فيه. من يدري، قد نلتقي على تلك الأرض التي لاقتنا فيها الحروب والنيران والمآسي لنرتاح قليلاً حتى ولو كان كل واحد فينا في مكان ما في أرضنا، لا شيء يمنعنا من أن نلتقي الأموات على الأقل لا يؤذون أحداً الله قبل أن يكون شيئًا آخر، فهو

قوة خير ومحبة. أعرف جيداً حزنك وجرحك، أن تدخل بلاداً كفارس وتخرج منها كسارق هو أصعب ما يمكن أن يحصل لإنسان في مدة سبع سنوات من العمل تركت وراءك جزءاً من رفات القديس أوغسطين، أرجعته من هجرته ومنفاه وسيمينار بالجزائر العاصمة يديره قساوسة سان لزار ودير به أكثر من عشرين أب ودار للسيدات بالساكري ـ كور لتربية الشباب، ومدرسة لإعادة تأهيل البنات التائبات، ولحمايتهن من السقوط في الغوايات. وثلاثة بيوت للأخوات سان ـ فانسون دو بول للتخفيف من آلام الناس، ودار لليتامى بالجزائر، وهران، جيجل، قسنطينة وسكيكدة، بونة، وتنس ولا يوجد مكان لم تزره ولم تخفف فيه من آلام الناس. أعمالك تذكرك يا مونسينيور بكل الخير

ـ لم يكن في نيّتي أن أترك الأمكنة التي شيّدتها بآلامي وثقة الناس الذين كانوا معي، لكن في الكثير من الأحيان يتخلّى عنك أقرب الناس إليك، وفي هذه الحالة، يجب أن ننظر للأشياء بمنظار آخر في ٢٢ جويليه ١٨٤٦ عندما غادرت تلك الأرض كنت منكسراً بعد إقامة شبه سرّيّة عند صديقي البارون دو فيالار[١] خرجت في ساحل مصطفى في زورق صغير باتجاه السفينة بصحبة هذا الرجل الطيِّب الذي لا يتركني أبداً وحدي: جون موبي، الذي لم أقل له إلاّ جملة واحدة وقتها: **أكون سعيداً إذا قاسمتني مصيري حتى الموت**. خرجت أكثر فقراً مما دخلت تلك الأرض. نزلت مثلك في ميناء طولون ومثلك لم أذهب نحو من أحب في بوردو، ولكنّي سرت نحو منفى آخر، سرت نحو طوران Turin إذ لم يكن أمامي إلاّ

١ ـ Le baron de Vialard

ذاك المسلك عند صديق هو كذلك ذاق مآسي المنفى. مصائر الناس صعبة حتى الأبطال منهم، خذ مثلا المارشال دو بورمونت[١]، بعدما سلم للجنرال كلوزيل قيادة الأمور في الجزائر، اضطر هو بدوره لمغادرة تلك الأرض ليلاً، في سفينة نمساوية بئيسة ولم يأخذ معه إلاّ قليلاً من أغراضه الشخصيّة ومأساة ابنه، قال وهو يرفع حقيبته: هذا هو الكنز الوحيد الذي آخذه معي. المنفى كان مآله مثله مثل حسين باشا حاكم هذه البلاد. شيء ما في الأقدار يصعب التحكُّم فيه وعلينا أن نسير في خطه.

ـ هناك، في أقصى درجات الألم نفس واحدة لا تغادرنا، تظلّ معنا في أحلك الظروف وأصعبها توأمنا في لحظات العزلة والبرودة والخوف يا مونسينيور ظلّ جون موبي الطيب بجانبك ولم يتركك حتى عندما خيرته. وظلّ معي ابن التهامي وآخرون حتى اللحظة، في وقت تخلّى عنّا الكثير من الأحباب واحد في القلب أكثر من مئة على اللسان فقط. أنت تفهمني جيِّداً يا مونسينيور عندما أظلمت السبل وأنا أبحث عن المسالك لإخراج الدائرة من الهلاك فكرت كثيراً في الذهاب نحو سلطان المغرب ووضع رأسي بين يديه مقابل أن ينقذ الناس الذين معي، لكنِّي في الأخير وبعد طول تفكير، اخترت مسلك الحرب إلى اللحظة الأخيرة لكي لا أحمل ديناً على ظهري تجاه شعبي، ولا يشتمني من يأتي بعد زمن قادم لا ريب فيه ويقول عنِّي إنِّي قصَّرت في حق شعبي.

التفت الأمير نحو ابن التهامي الذي عدَّل من جلسته وبدأ يقدِّم الشاي بالنعناع ويستعدّ للكتابة. سعد أنَّ مونسينيور لم يعد

١ ـ Maréchal de Bourmont

لقصة السجناء. طوال فترة حديث الأمير، لاحظت أنَّه لم يكتب شيئًا كان كأنَّه معلق على شفتي الأمير وعلى ما كان يقوله مازحه هذا الأخير:

ـ هاه يا السي مصطفى، بدأت السيرة وأنت مازلت مع الشاي؟

ـ لا يا أمير المؤمنين، أنا أنتظر إشارتك. أنا مع رأي مونسينيور، هذه الحياة يجب أن تُكتب وأن يعرفها الناس منا قبل أن يسمعوها من غيرنا

ـ وهذه القسوة من سلطان المغرب؟

ـ هو يظنّ، واللّه أعلم، أنَّه بإمكاني تحريك القبائل ضده وأنِّي إذا خسرت الجزائر سألتفت نحو أرضه. هو لا يعرف بأنِّي أنا كذلك تعبت من هذه الدنيا كان في رأسي شيء واحد، أن أرتاح من هذه الحرب للتفرغ للقراءة والكتابة. الظروف أوجدتني وكان عليَّ أن أفي بالوعد الذي قطعته أمام الأحياء والأموات، ونفذته إلى آخر لحظة. وبدل الحوار معنا، كما يفعل الناس عندما تكون الأمة مهدَّدة في كيانها، خرج العقون من فاس في ١٤أكتوبر ١٨٤٧ على رأس جيش جرَّار مكوَّن من خمسة عشر ألف رجل لم يخرجوا حتى في معركة وادي إيسلي. الهدف كان واضحًا: إبادتنا نهائيًا أو دحرنا باتجاه الجزائر حيث كان الجنرال لاموريسيير ينتظرنا بآلته الفتَّاكة. وتم تسليح سكان وجدة والريف حتى لا تُترك لنا أيَّة فرصة للنفاذ تضاعف عدد العساكر بمرورها عبر القبائل المنصاعة لإرادة السلطان عبد الرحمن. عرفت أبعاد المناورة بواسطة ضباطي وجواسيسي. لم

يكن هناك حل آخر، إما الموت أو القبول بالتصفية الجسديَّة، لأنَّ الميزان من ناحية العدد والقوة كان مختلاً تمامًا فما كان عليَّ إلاَّ التحرُّك في ٩ نوفمبر بكل أفراد الدائرة باتجاه زايو، على بعد ٦ كيلومترات من الملوية. كان سكانها متعاطفين معنا إلى حدّ بعيد زد على أنَّ المنطقة محصنة، فهي تتكئ على مرتفعات كبدانة حيث كنَّا نخبِّئ مؤونتنا من القمح والشعير والتبن. ولكنِّي فوجئت بجزء كبير من قبائل بني إزناسن قد مشى بدوره في ركاب السلطان. وانغلقت الدنيا علينا أصبحنا وسط كماشة لا يعلم ضيقها إلاَّ اللَّه في الشمال لا شيء سوى البحر ووعود عمر بن الروش بإرسال سفينة لنجدتنا، في الغرب وفي الجنوب الغربي كانت تتمركز القوات الشريفيَّة، عسكر السلطان، وفي الجنوب الشرقي، قايد وجدة وبعض قبائل بني إزناسن وبعض الأحلاف الذين ناصبونا العداء لأنَّنا كنَّا ندافع عن أنفسنا باستماتة من نهبهم وغزواتهم المتكررة.

ـ وضعية صعبة، وربما مستحيلة؟

ـ رحمة اللَّه واسعة. في أصعب اللحظات وأدقها، يأتي دائمًا من يضع أمامك فرصًا لم تفكر فيها أبداً. لم تكن أمامنا حلول كثيرة. محمد بن عيسى البركاني قتل في طازة، سيدي مبارك بن علال قتل ببطولة عالية، بومعزة سلَّم نفسه لسانت آرنو قبل أن يؤخذ إلى فرنسا حتى ابن سالم سلَّم نفسه لبيجو بوعد مسبق تمّ احترامه. طلب أن يبعث إلى الشرق فكان له ذلك، فاقتيد إلى الشام. ماذا بقي لي سوى استماتة كمشة من الخيَّالة مصممة على الذهاب معي إلى أقصى الدرجات إلى الموت؟

ـ وماذا حدث إذن؟ تساءل مونسينيور ديبوش وهو يحاول أن يقرأ حيرة الأمير الذي كان وجهه بارداً ولكنّه ظلّ صافياً وهادئاً

ـ الذي حدث لم يغير في الأمر شيئًا ولكنّه فتح أعيننا بشكل نهائي على الحقيقة التي كان علينا التعامل معها بوضوح بعيداً عن العواطف. لم يعد مهماً في هذه الحرب أن تكون مسلماً أو تكون بربريًا، أنت مطلوب ويجب أن تقتل أو تسلم للجنرالات الذين ينتظرون مرورك عبر الملوية. في غمرة اليأس والانتحار الجماعي بخوض حرب ميئوس منها، تقدّم منّي قائد الأحلاف محمد بن عبد الرحمن وقال لي: لماذا لا تجرب مرة أخرى أن تعرف الحقيقة من السلطان نفسه وتستعطفه. وتحمس البوحميدي خليفة تلمسان السابق كعادته في المواقف الصعبة للذهاب مرة أخرى نحو السلطان ما أزال إلى اليوم أرى دمعة الفراق وحزنه وكلمته الأخيرة: **إذا لم أعد، أذكرونا بخير** خرج مساء ولم يعد عندما يمّم صوب الصحاري لم يلتفت وراءه مخافة أن يتراجع عن سفره، فقد ظلت عيوننا مرتشقة فيه حتى غاب نهائيًا عنّا هو ومن معه. سجن بمجرّد وصوله ثم وصلنا أنّه قُتل في حبسه ولا أحد يعرف التفاصيل بدقّة. الأخبار التي نفذت إلينا في بدايات شهر ديسمبر قَطَعَتْ مع كل الشكوك. قُتل البوحميدي مسموماً في سجنه. يقال إنّهم رأوه يتلوّى في مكانه وأمعاؤه تتمزّق. وظلّ يتمرغ حتى فارق الحياة ورُمي للكلاب الجائعة في أنفاق السجن. ذلك المساء الذي غادرنا فيه للمرة الأخيرة، أستحضره اليوم مثلما أستحضر الناس الذين افتقدتهم على هذه الأرض التي سرقت جزءاً مهمًا من أعمارنا وأحبابنا.

استمع مونسينيور بشجن إلى الأمير ولم يقاطعه أبداً. كان معجباً بروايته ونسي أنَّه كان يبحث عن حقيقة ما ضائعة بين الجرائد وأفواه الناس. حتى عندما غادرنا الأمير لم يذكر أبداً قصة السجناء، كان ما يزال في حالة صمته وتأمُّلاته. وعندما تربَّع مونسينيور وراء طاولته، كان ملتصقاً بوجه الأمير الذي ظلَّ محافظاً على صفائه على الرغم من درجة الألم التي كانت تتجلَّى من ورائه. لم يستفق من إغفاءته إلاَّ عندما فتحت ستائر البيت الذي زادت دكنته وتسرب هواء بارد:

ـ يجب أن تمشي قليلاً يا مولاي. أنت لا تتحرَّك كثيراً إلاَّ بين الكنائس والأمير، أخرج قليلاً لتشم هواء آخر واهتم بصحتك. رسالة الرئيس ستأخذك قبل أن تنهيها إذا واصلت بهذه السيرة

ـ أنت تضخِّم الأشياء يا جون العزيز.

ـ لا يا سيدي لو شاهدت نفسك وأنت غائب عن الناس والمحيط، لعرفت سر حيرتي. يجب أن تسمح للدم لكي يتحرَّك في عروقك. تحتاج إلى قليل من الراحة يا سيدي. يجب أن ترحم جسدك

ـ الأعمار بيد اللَّه يا جون وهو من يأخذها أو يحميها ونحن لسنا إلاَّ أدوات صغيرة، كل خير نقوم به تجاه الناس يُحسب لنا أنا كذلك أشعر أنَّ صحتي بدأت تخونني ومتاعب التنقلات والمنافي أدفع الآن ثمنها ولكن ماذا تريد يا جون، إنَّها الحياة كذلك.

ـ سأحضِّر لسيدي زهورات، فهي جيدة لحالات الضعف والوهن.

ـ تُشكر يا جون، فارس كعادتك.

ثم التفت نحو أوراقه وجرائد المونيتور والأخبار وغيرهما، التي تحدثتْ عن الوقائع والتفاصيل التي وصل من خلالها الأمير إلى قطع وادي الملوية في أقصى حالات فيضاناته. عندما رنت في رأسه كلمات الأمير الأخيرة، رأى النهر والأحصنة وصرخات النساء والأطفال والرجال الذين اختلط عليهم الإحساس بالموت والحياة ولعلعة الرصاص والبنادق العمياء والخناجر وهي ترتشق في الصدور وتحفر طريقًا للموت في الأجسام وحسرة الألم وحدة الأسنان وهي تتقاطع بقوة متحمّلة الضربة القوية أو مرور الرصاص وهو يعبر الأحشاء بسرعة كبيرة كخيط من النار الحارقة، قبل أن يستقرّ ويبرد قليلاً.

ـ أيعقل يا عزيزي جون أن يتوصّل إنسان مجرد من كل شيء إلاَّ من رحمة ربه وإرادته اليائسة، إلى اختراق جيوش منظَّمة وقبائل متوحّشة، تناصبه كل العداء والطمع وتنتظره بفارغ الصبر لقتله؟ لا بدّ أن يكون في القدرة البشريَّة الكامنة عميقًا فينا شيء لا نعرفه ولا نعرف منبته.

ـ اليأس يا مولاي يصنع الأعاجيب ويحفر الطرقات في الجبال والصحارى.

ـ لا بدّ أن يكون شيء أكبر من اليأس. أكبر من اليأس. أكبر بكثير.

تمتم مونسينيور ديبوش قبل أن يغرق كعادته في تفاصيل ذلك اليوم الذي أشعره ببرودة تسري في عروقه كالماء البارد التي لم يستطع

حيالها أي شيء. حتى حركات جسده الكثيرة وهو جالس على الكرسي لم تنفعه، إذ لم يجد الوضعية المناسبة والأقل ألمًا فقد قام وجلس قبل أن يغمض عينيه ويكزّ على أسنانه بقوة ويغرق في الكتابة التي كانت تمنحه بعض الراحة، على الرغم من ذلك الخيط البارد الذي كان من حين لآخر يخترق رقبته ثم ينزل بسرعة البرق نحو آخر فقرة في الظهر.

* * *

ـ ٢ ـ

لم تبق على الاجتماع الكبير إلاّ ساعات. قلة قليلة كانت تعرف مكان الأمير الذي غاب عن الأنظار منذ أنَّ بدأت فكرة الاجتماع الكبير تجد مسلكها بين أفراد الدائرة. هناك أخبار تسرَّبت تقول بأنَّ الأمير سيذهب بنفسه، إن لم يكن قد فعل في سرِّيَّة تامة، نحو السلطان مولاي عبد الرحمن لحماية الدائرة أو ما تبقى من جيشه. آخرون لا يتوانون عن ذكر إمكانيَّة خوض المعركة المصيريَّة ضدّ العقون والقبول بالموت الجماعي لأنَّ الانتصار على الجيش السلطاني مستحيل. فريق ثالث أكثر تعقلاً يقولون إنَّ الأمير سيحلّ جيشه ويسلِّم نفسه هو وقادته إلى سلطان المغرب بشرط صغير هو تحرير الدائرة ويتفادون بذلك سقوطهم بين أيدي النصرانيين. أشياء كثيرة قيلت عن هذا الاجتماع الذي لا يعرف أحد شيئًا عن مكان انعقاده، وإن كان الكل يميل إلى عقده في أحد أكواخ بني إيزناسن المنتشرة في قمم الجبال الكثيرة.

كانت الغيوم تتلوّى مثل الأفاعي في سماء فقدت كل لون.

الأدخنة التي كانت تتصاعد من الخيام خفتت.

جُلب كل التبن الذي كان في المناطق المحيطة بعين الزهرة ووُضع داخل الدائرة وأُفرغت أغلبيَّة المطامير التي خُبِّئ فيها الشعير والقمح طوال السنة الماضية وبدأت النساء في جرش الحبوب ووضعها في أكياس محكمة الإغلاق. الدائرة، لمن يراها من مرتفعات كبدانة، تبدو كمجموعة من النقاط المتقاربة التي لا تفصل بينها إلاّ خطوط رقيقة يختلط لونها بلون التربة الآجوريَّة للمنطقة، بدون حدود، بأدخنتها وحركتها التي قلت في الأيام القليلة الماضية. الكلّ يعرف السبب وحالة الخوف التي تطبع الوجوه.

منذ أيام عديدة لم يخرج الأمير من خيمته مع قادته وعسكره، ولم يظهر مع الجماعة للصلاة أو لرواية الأحاديث وشرح بعض الآيات القرآنيَّة.

منذ حادثة محاولة اغتياله من طرف أحد خدام العقون والأمير يتأمَّل الناس والدنيا طويلاً، ويتساءل عن الكم من القطران الموجود في أعماق العقون. يتساءل عن القوة التي منعت العبد من أن يدفن في ظهره سيفه بينما كان هو منكفئًا في قراءة القرآن. لقد رفع العبد الضخم يده ولكنَّه سرعان ما تركها تهوي وكأنَّها كتلة ميتة، بدون حراك، وينحني عند رجلي الأمير طالبًا الصفح عنه:

ـ يا أمير المؤمنين، لقد كلفت بقتلك وها أنذا أفشل في رفع سيفي ولا أدرى لماذا، مع أنِّي كنت لوحدي كما ترى؟ عندما

هممت بفعل ذلك رأيت هالة من النور، غمرتني ولم أعد أرى شيئًا أبداً، فقلت هذه علامة من علامات اللّٰه.

قال الأمير بهدوء ورزانة.

ـ سبحانه. أترك سيفك فلست بحاجة إليه وارتح هنا بجانبي قليلاً، هنا بالضبط على الزربيَّة نفسها التي كنت أصلي عليها واقرأ كلام اللّٰه الذي لا أشكّ في أنَّك تعرفه. لقد شاء اللّٰه أن تدخل المكان قاتلاً وتخرج منه كريمًا مؤمنًا

لم يستطع الشاب أن يوقف دمعه. شعر بتمزق داخلي هو وحده كان يعرف درجة قسوته وبانكسارات جعلت جسده يهوي مثل الصخرة.

ـ يا أمير المؤمنين، إنَّهم يريدون قتلك وهم مصممون على ذلك دعني أساعدك على الهرب، فأنا أعرف كل المسالك في المنطقة

ـ وهل ولي العهد على علم بذلك؟

ـ هو من جهّز كل شيء. إنَّهم يريدون رأسك بأيّ ثمن. دعني أساعدك يا سيدي على الهرب علَّني أصل إلى التكفير عن ذنبي.

ـ والدائرة؟ أيَّة مرآة أرى فيها وجهي والأطفال والأمهات لا منقذ لهم؟ لا تهتم يا ابني، إذا شاء اللّٰه أن يمدد عمري فلا أحد يستطيع أخذه وإذا شاء عودتها إليه فهي رهن إشارته. لم يبق من العمر أكثر ممَّا مضى. لقد ذهب الكثيرون ممَّن نحب وعندما يذهبون يتركون فراغًا مهولاً وعقدة في الحياة وكأنَّنا لم نفعل ما كان يجب

فعله. لا تهتم يا ابني، الأعمار بيد اللّه. سأوصي بك خيراً، لا تستطيع أن تعود للسلطان بدون رأسي، سيقتلك.

خرج الشاب، لكنَّ الحرس بعد لحظات قليلة عادوا به مكتفًا مسلسلاً إلى الأمير الذي كان ما يزال في وضعه الأول، راكعًا ويسبح:

ـ يا أمير المؤمنين يقول إنَّه يعرفك جيداً وإنَّك أنت من أطلق سراحه، ويبدو عليه أنَّه جاسوس جاء ليتعرَّف على مواقعنا

ـ أطلقوا سبيله، لو كان يريد قتلي لفعل منذ أكثر من ساعة حيث لم يكن إلاَّ هو وأنا، فهو واحد منَّا إذا شاء وإذا شاء أن يعود لذويه، أعطوه حصاناً وساعدوه على تخطي الحواجز المنصوبة.

ـ لكن هذا العبد النجس حاول قتلك يا سيدي.

ـ ولكنَّه لم يفعل ولهذا فهو حر طليق. لا أقتل رجلاً حماني من موت كان يحمله بين يديه وفي رأسه اتقوا اللّه دمه صار في أعناقنا

عندما حاول الأمير أن ينام شعر بأنَّ الزمن كان يسير بسرعة كبيرة وكل شيء كان محسوباً ولم يكن أمامه الوقت الكافي.

انتظر الناس طويلاً خروجه حتى شكك الكثيرون في حضوره وحضور مصطفى بن التهامي وقدور بن علال، قبل أن يدخل عليهم وهو في لباسه الحربي وسيفه ومسدسه مع خلفائه. كان الأمير هو أول من أخذ الكلمة أمام أمرائه وضبّاطه وهو يحرِّك سبحته بعصبيَّة على الرغم من اصطناعه الهدوء. سعد الناس أنَّه كان في صحة جيدة بعد

محاولة الاغتيال التي تعرَّض لها، ولم يكن طوال هذه المدة شيء على الألسن إلاَّ هذا الحديث وكيف حمته الملائكة بتسليط ضوء يعمي الأبصار على قاتله فشلته بقوة، أو قصة ذهابه إلى السلطان بنفسه لإنقاذ الدائرة من مخالب المتربصين بها

ـ ها هو ردّ السلطان الذي وصلني ويجب أن تعرفوه: إما الاستسلام له أو الخروج إلى الصحراء وإما الحرب. لقد رأيتم وأحسستم وعشتم أنَّ اخوتنا يحضرون لقتلنا الحصار كبير والأخبار التي تصلنا لا تدع مجالاً للشكّ في أنَّ الهجوم وشيك وربما هم الآن بصدد التحضيرات الأخيرة له. وماذا نستطيع فعله بهذه القوة المحدودة؟ حياتي لم تعد مهمة أبداً، خوفي كلّه منصبّ على ما تبقى من الدائرة، إما أن ننقذها وننقذ معها ذوينا وإما أن نموت جميعا الجيش الشريفي وخلفاؤه أبادوا قبيلة بني عامر التي هاجرت نحو هذه الأرض وناصرتنا، احتماؤها بالسلطان مولاي عبد الرحمن لم ينفعها في شيء. سجنوا رسلنا، قتلوا البوحميدي وعقدوا صفقة مع أعدائنا ودفعونا بدعاياتهم وترهيبهم إلى ارتكاب حماقة فعل ما لم نكن نريد فعله: ذبح المساجين.

ـ المشورة لك يا أمير المؤمنين ونحن معك في أيّ اختيار تختاره.

قال الخليفة قدور بن علال الممتلئ حياة وحيوية.

ـ جيشهم المكوَّن من أكثر من مائة وخمسين ألف عسكري وعتاد كبير هو الآن، وفي هذه اللحظات بالذات ينقسم كالخليَّة إلى ثلاثة أقسام في شكل كماشة، جهة يديرها ابنه مولاي محمد العقون

والجهة الثانية يديرها ابنه الثاني مولاي سليمان، والبقية مكوَّنة من شتات من القبائل الريفيَّة وبني إيزناسن وليسوا إلاَّ على بعد ثلاث ساعات فقط. وهم يرابطون الآن في قلعة سلوان الأثريَّة. وما لدينا إلاَّ ألف ومئتا خيَّال وأقلّ من ألف فرد من المشاة وعلى عاتقنا خمسة آلاف نفس في الدائرة علينا إنقاذها بكل الوسائل. فماذا نفعل؟

ـ يا سيدي نثق فيك ونعمل ما تراه صالحًا للدائرة. ولكن نتمنى أن لا تقودنا نحو السلطان. الذين اختاروا طريق السلطان ساروا نحوه، والذين بقوا معك يثقون في خياراتك التي تقترحها عليهم.

ـ إذن، اتفقنا في المجلس الحربي على ما يلي: إما أن نسلم أنفسنا للملك ونقبل بالمهانة والموت لنا ولأولادنا، أو نخترق جيش الملك اليوم وليس غداً، ونفتح طريقًا في عمقه ليلاً لأنَّه إذا أدركنا الصباح، الأفضل أن نسلم أنفسنا بدل الانتحار الجماعي غير المفيد

اندهش الجميع وابتلعوا ريقهم بصعوبة كبيرة.

ـ مغامرة غير ميمونة، لم نحضر لحرب من هذا النوع بالشكل الكافي. ثم الليل الصعب. هجوم مثل هذا يحتاج إلى أيام، هكذا عودتنا يا مولانا

قال أحد الخلفاء.

أتمنَّى أن يقدِّم لي أحدكم حلاً آخر وسأتبعه مغمض العينين. سيطأوننا في هجومهم الأول بخمسة عشر ألف عسكري فجر الغد هذا الكلام مؤكَّد ولا شكّ مطلقًا فيه. ماذا نفعل؟ نستعدّ لمواجهة

هذا الجيش الجرار؟ ليكن. ولكنّنا سنطحن وسيباد أطفالنا وتسبى نساؤنا أم نجرب الوسيلة الوحيدة الممكنة وإن كانت الأكثر خطراً وهي المرور المفاجئ حيث لا ينتظرنا أحد

صمت الجميع ولم يتكلّم أحد، قبل أن يواصل الأمير حديثه

ـ قلوبنا مملوءة بالإيمان. الأعمار بيد اللّه. كان من المفترض أن أموت قبل هذا اليوم، أطال اللّه في عمري، فما بقي منه أسخِّره لإنقاذ ما أمكن من الدائرة وتلك الأرض التي لا يفصلنا عنها إلاَّ وادي الملوية. الليلة وليس غداً غطاؤنا الليل ونباتات الكريش وأشجار الزيتون وقصب الوديان والجمال التي نطليها بالقار ونكسوها بالتبن والحلفاء ثم نشعل فيها النار وندفع بها صوبهم. سيفاجأون بها ويطلقون نيرانهم عليها. المباغتة في الحرب تشلّ مبادرة العدو وقوته. بعدها نهجم بالخيالة لفتح الطريق، من يصل منّا ضفة الملويّة يفتح المنافذ الأولى للدائرة التي ستكون محميَّة من طرف المشاة. فكَّرت طويلاً مع غالبيَّة الضبّاط ولم أجد حلاً غير هذا قد يكون يائسا ولكن لا حلّ لنا غيره. إذا صبَّح الحال علينا ونحن هنا، ستسحقنا المائة والخمسون ألف عسكري الذين لا ينتظرون إلاَّ اللحظة الأخيرة للهجوم النهائي سنسبقهم، هذه هي وسيلتنا، ليس أمامنا وقت كبير.

كانت جلّ الترتيبات قد اتخذت بهدوء وبدون أن يعلم الناس وجهة الدائرة التي جهزت بأطفالها ونسائها وشيوخها. الفكرة الوحيدة التي كانت تدور داخل الدائرة هي أنَّ الأيام القليلة القادمة ستكون حافلة بالمفاجآت، وأنَّ الدائرة ستتوجَّه نحو فاس أو مراكش

لتعلن ولاءها من جديد للسلطان وتستسمحه وتبوس يده وتطلب غفرانه. كان الأمير، منذ أن اتضحت فكرة الهجوم المباغت مع مجلسه الحربي الضيق، سرَّب هذه الفكرة بين كل الناس بما في ذلك سكان الدائرة والجواسيس أنفسهم. كان يريد أن يحافظ على ما نوى عليه طي الكتمان وتأخير ما أمكن هجوم الجيش المغربي.

بعد صلاة العشاء التي أقيمت بخشوع كبير، ومع بدايات الليل تحرَّكت الجمال المطلية بالزفت والقار والمغطاة بأكوام الحلفاء والتبن متبوعة بأكثر من ألف خيَّال هم من خيرة ما تبقى للأمير ونواة جيشه، الشجاعة والاستماتة والتضحية. بعدها بمسافة، تحركت الدائرة محاطة بكل المشاة القادرين على حمل السلاح والدفاع عن النفس، بعد أن تخلت وراءها عن كل شيء ولم تحتفظ إلاَّ بالأحصنة الخشنة التي يمكن أن تعوّض الأحصنة التي تسقط في المعركة. كان من الصعب على سكان الدائرة أن يتخلوا عن صوفهم وقمحهم وشعيرهم وتبنهم وأوانيهم وأغنامهم ومع ذلك، فكل واحد كان يشعر بضخامة الخطر والمسؤوليَّة الملقاة على العاتق. ودَّعوا كل شيء بأعينهم.

بدأت المسيرة في عمق الظلمة. لا شيء كان يسمع إلاَّ هسهسة الريح ونقرات المطر التي بدأت تزداد قوة، ولكنَّها كانت عاجزة عن إعاقة الجمال والخيل. من حين لآخر كان يسمع صوت مولود جاع سرعان ما يسكت بالثدي الذي صار جلدة فارغة أو بتمرة موضوعة في كتان شفاف مثل اللهاية، يمتصها إلى أن ينام، أو بعض الهمهمات التي تموت وسط الصمت والظلمة والخطوات المبعثرة للحيوانات والمشاة الذين كانوا يطوقون الدائرة.

شيئًا فشيئًا بدأت الأمطار التي قويت تخف إلى أن توقفت نهائيًّا المطر الكثير يعيق كل خطة الهجوم. بعد ساعتين من التحرُّك بدون توقف ولا عوارض، أوقفت الجمال. نظفت من الماء حتى صارت ناشفة تمامًا ثم طليت بالقطران وغطيت بالحلفاء الناشفة التي احتفظ بها بعيدة عن الماء. تحسس الفرسان بنادقهم وسيوفهم للمرة الأخيرة. فقد أوكلت لهم مهمة دفع الجمال وفتح الطريق. كانت أضواء المعسكر تبدو من بعيد واضحة ومحدَّدة كما وصفت لهم بكل مواقعها كان كل التفكير منصبًا على توجيه الضربة الأولى في القلب تمامًا لشلّ ردة الفعل الممكنة من عساكر السلطان وسجن العقون إن أمكن للمقايضة به عند الضرورة تقدَّم قائد الجمال وسحبها بهدوء هو وأعوانه حتى وصل بها مدخل المعسكر وهناك أشعل النار في القطران والحلفاء التي كانت تكسوها، فبدا كأنَّ الليل اشتعل فجأة وبدأت كتل النار تتَّجه بعنف وصراخ حادّ تجاه قلب المعسكر ساحبة في أثر حركتها كل ما كانت تصادفه ولا تتوقف من شدّة الألم. كانت الخيام تُسحب بقوة وتَحترق بكاملها عندما يمسها القطران الذي تلتصق به النار فتعلو ألسنتها ناشبة في الخيمة المجاورة. كانت الخيام منصوبة في فوضى كبيرة مما سهل اشتعالها الرصاص والهلع في كل مكان. من حين لآخر، كانت الجمال عندما تحرقها رصاصات العسس المتقاطعة، تتهاوى مثل كرات النار، متلِّقبة ساحبة في أثرها كل ما تصادفه بعنف وقوة.

وقبل أن يعرف العسكر السلطاني ما كان يحدث، كانت فرق الخيَّالة الأولى قد توغلت عميقًا كالسهام مخترقة كل الحواجز البشريَّة التي لم تجد فرصا حتى لتعمير بنادقها الخيل وحدها كانت تعرف

أين تضع حوافرها. قبل أن يتبعها الفريق الثاني من الخيَّالة الذي أتم عمل الفريق الأول. لا شيء يسمع وسط الليل إلاَّ الأنفاس المتقطعة ولعلعة الرصاص والسيوف التي كانت من حين لآخر تلمع تحت البروق الكثيفة التي كانت تهيِّئ لأمطار قويَّة وعواصف هالكة. كانت نداءات الاستغاثة تأتي من كل الجهات بدون أن تجد من يردّ على طلباتها غير السكاكين ونيران البنادق. فوضى عارمة. المجموعات البشريَّة تقوم فازة من النوم كالعميان، تبحث عن سبلها للخروج من جهنم التي كانت في أوجّ اشتعالاتها كان الفارس البوخاري بجانب الأمير يتلقّى عواصف الضربات مرتين باستماتة كبيرة: عندما سقط حصان الأمير ميتاً برصاصات اخترقت صدره ثم عندما وضع سيفه بينه وبين الضربة التي كانت ستقسم ظهره عندما التفت الأمير، كان العسكري المغربي يتضرج في دمه. في المرة الثالثة، عندما لوَّح البوخاري بسيفه في الفضاءات عالياً مكوِّناً هالة من النور على رأس الأمير، ليساعده على تفادي ضربة السيف العمياء التي كانت تتقصد رأسه، حماه ولكنَّه لم يستطع حماية جانبه الأيسر الذي اخترقه سيف أحد قادة الجيش المغربي. عندما حمله الأمير على حصانه ودفع به إلى مؤخرة الخيالة للاهتمام به شعر بحزن عميق وأنَّه افتقد رجلاً ثميناً قبَّله على جبهته متمتماً:

ـ لقد كنت أعظم صديق يا السي البوخاري.

ـ لا تتقدَّم كثيراً يا مولاي.. لا تتقدَّم كثيراً أرجوك واحم ظهرك وجوانبك. يجب أن لا تسقط وإلاَّ سينتهي كل شيء.

ـ لا تهتم يا السي البوخاري. تهمنا صحتك أولاً.

وأمر بإبعاده باتجاه الدائرة لمعاينة جرحه وركب حصانه الرابع والتحق ببقية الخيَّالة. أمام الموت يتساوى كل شيء إلاّ الحب الذي نكنه للآخرين، تمتم الأمير وهو يبحث عن مسالكه داخل الظلمة والبارود الأعمى ولسعة السيوف الباردة.

مع أولى إشراقات الشمس الصباحيَّة كانت رائحة الدخان والأجسام المحروقة تملأ المكان. بدأ شيئًا فشيئًا يتّضح هول ما حدث. وكعادة الأمير، بعد كل معركة، أول شيء يقوم به هو وعسكره، دفن الأموات الذين بقوا بعين المكان. كانت الأحصنة والجمال والأجساد منتشرة في كل مكان. عندما هرب عسكر بني ايزناسن والريافة تاركين وراءهم المعسكر والأسلحة وموتاهم، أمر الأمير بعدم جمع الغنائم والاكتفاء بجمع الأسلحة والبارود والتحضير لعبور الملويَّة والبحث عن أقرب مكان أقل فيضانًا

في الليلة نفسها تمّ نصب الأخشاب وجذوع الأشجار في عمق الوادي في شكل أعمدة ثم بدئ بعدها بوضع كل ما كانوا يعثرون عليه من هياكل حيوانيَّة وأكياس الحبوب والأحجار لسدّ المياه وإنجاز معبر يسمح بمرور الدائرة. كان العمل شاقًّا بسبب الأمطار التي عادت إلى التساقط من جديد الخيَّالة أعادوا بسرعة تنظيم صفوفهم في انتظار الهجوم المحتمل من طرف قوات العقون الذي كان ينتظر الصباح لترتيب هجوم جديد أهم شيء بالنسبة للأمير هو أنَّ البحر والملويَّة صارا أكثر أمنًا وقربًا مما كانا عليه قبل الهجوم وأنَّ الدائرة لم تصب بأيّ أذى.

تفقَّد الأمير وتيرة العمل لإنجاز ممرات عبر الملويَّة للعبور باتجاه مسالك طريفة التي كانت مؤمنة، وما يزال للأمير بها أناس سبق أن وعدوه بالمساعدة. طلب برفع الوتيرة أكثر قبل هجوم العقون:

ـ أينك يا طارق يا بن زياد؟ البحر والحرب وشعلات السفن المحروقة؟

تمتم الأمير وهو يقف أمام الرجال والنساء وهم يكونون معبراً في عمق الملويَّة التي كانت مياهها تتدفَّق بغزارة.

ـ يجب أن نسرع. الأيام القليلة القادمة ليست في صالحنا. العقون يحضر لهجوم كبير. سيخبره الريافة وبني ايزناسن بما حدث لهم وسيعمى بصره. يجب أن نخترق الملويَّة قبل فوات الأوان، فلا خيار لنا ولا أحد كان ينتظر هجومنا ولا أحد ينتظر عبورنا نحو طريفة. السرعة وحدها تنقذنا وتنقذ أهالينا العقون لن يبرأ ولمدة طويلة من هذه الهزيمة النكراء.

كان الأمير يحاول أن يقمع حزنه وانكساره. فقد فقد أكثر من خُمسِ خيالته والكثير من المشاة الذين دافعوا باستماتة عن الدائرة حتى تمرّ بسلام لوضعها في منأى عن ضربات العدو نُصب المعسكر بعيداً عن الدائرة في وضع متقدّم قليلاً مما يسمح للدائرة بالتحرُّك في وقت يتكفَّل الخيَّالة بالدفاع عن الكل، فهم رأس الحربة كالعادة.

و بدأوا جرّ كل شيء صلب باتجاه الممر، الحيوانات الميتة والتبن وجذوع الأشجار لترمى في مصبَّات الملويَّة الصخريَّة لتقوية المعبر الذي صنعوه بأنفسهم وبوسائلهم الخاصة. كانت الدائرة قد تجمَّعت بكاملها في المصب النافذ على البحر الذي انتظر منه الأمير وصول

شيء ما كان قد وعده به قنصل فرنسا لدى إسبانيا، ليون روش، ولكن بدون جدوى، إذ منعت العواصف البحريّة السفينة المزعومة من الرسو. تذكر، في كل حروبه، أنّ الاعتماد على الأشياء التي تأتي ولا تأتي معناه الهزيمة. لا شيء أكبر مما في اليد فقط ومعرفة تسييره بحنكة وذكاء.

وهو على الحصان، بانت له طلائع طارق بن زياد قادمة من بعيد وطارق على رأسها، يحث الذين تردّدوا إما على قطع البحر أو القبول بالموت الرخيص. شم رائحة الأخشاب وهي تحترق وسمع السيوف وهي تتقاطع في الفضاءات اليابسة والخالية من كل رحمة.

«لماذا أحرقت سفنك يا طارق، لو تدري كم نحن في حاجة إليها لعبور مياه الملوية؟ لماذا أشعلت النار يا صاحبي في كل شيء؟»

ولكن الزمن كان قد تغير كثيراً وشعر بالمسافة الكبيرة التي عبرت ذاكرته: لا سفن له لحرقها كما فعل طارق بن زياد عندما اشتدّت عليه المصاعب والمزالق والخيانات الكثيرة، ولا حل إلاّ أن ينقذ الدائرة كما فعل الأوائل أو يموت دون سواها

* * *

- ٣ -

الغيوم الثقيلة منعت الشمس من الظهور هذا الصباح. بدأت شيئًا فشيئًا تظهر أولى العلامات الطبيعيَّة، الجبال المحيطة، البحر بهديره الذي لم يكن يأتي من بعيد، ثم بعض التفاصيل التي كانت تتداخل مع الهضاب المحيطة بمعسكر الأمير قبل أن تظهر آلاف الخيول وهي تتجمع لتعيد تنظيم هجومها ضدّ قواته. بدا المعسكر الملكي، في الجهة التحتيَّة، في فوضى عارمة. فقد كان في أواخر الليل والفجر الأول، عرضة للنهب والسرقة. كان الناس يأتون من كل الجهات، يسرقون ثم يختفون في عمق الجبال القريبة. عندما انتظمت أولى طلائع الخيَّالة الملكيَّة، كان السرَّاق قد التحقوا بمخابئهم

قال الأمير وهو يتأمَّل بقايا المشهد

ـ كان يمكن لو انتظرنا حتى الصباح أن نكون في مكان المخزن المهزوم.

ـ عساكرهم بدأت تتجمع في الهضاب المقابلة يا أمير المؤمنين.

ـ كنَّا في حاجة ماسَّة إلى هذه الزاوية وقد كسبناها وعلينا الآن أن ننتهي من الممرات، فهي صعبة جداً إذ يكفي أن يرتفع منسوب المياه أكثر ليسقط كل ما قمنا به. ومع ذلك لا حلّ لنا إلاَّ هذا المسلك. وسنجتهد فيه قدر ما نستطيع. ننتظر عودة الشيطان ونرى ما يمكن فعله. إذا استطاع أن ينفذ، سيعطينا بالتفصيل مواقعهم وعدد قواتهم المتبقية.

ـ فرق المشاة تشتغل مجموعات مجموعات. من يقص الأشجار، من يسحب البهائم الميتة، من يأتي بالحجارة والرمال والأتربة. يمكن أن ننتهي من الأعمال في يوم أو يوم ونصف. نستطيع وقتها أن ندفع برأس الدائرة إلى الأمام.

ـ الدائرة هي الأزمة الوحيدة في هذه الحرب. سيهجمون علينا قبل نهاية النهار لأنَّهم يعرفون أنَّ الليل ليس في صالحهم، ولهذا علينا أن نكسر نظامهم ونتوغل أكثر حتى الفيلق الثاني حيث يوجد العقون، وإذا استطعنا أن نختطفه سنقايض به السلطان. خسرناه في الهجمة الأولى، في هذه يجب أن لا نخطئه.

ـ في الهجوم مخاطرة. مخاطرة غير مأمونة.

ـ وما نحن فيه، مأمون؟ منكسرون وهم الآن بصدد تنظيم كل قواتهم. أنا متأكِّد أنَّهم سيتحركون صوبنا، لن يتركوا هزيمة البارحة بدون انتقام حتى يثبتوا لبيجو أنَّهم الأقوى وأنَّهم شريك حقيقي في حوار المستقبل.

زادت قوة الأمطار بعنف وتعمّق الشلاط الشرقي الذي كان يسحب في أثره كل شيء. كان منسوب المياه يتصاعد في الملويَّة كلّما زادت قوة الأمطار وكلّما قلت هبط قليلاً

كانت السهول تستقبل الخيَّالة الملكيَّة القادمة من عمق البلاد، منذ الفجر الأول. فجأة رأى الأمير، بين فلقتي الجبل، فارساً يخترق الوادي عرفه من هدة حصانه.

ـ الحمد للّه، السي ابن يحيا الشيطان. اللي سماه الشيطان ما اخطاش. فلت من كل السجون والمغامرات وخرج دائما حيًّا بعمر آخر. شيطان بسبع أرواح. يقول مازحًا، إنَّ الموت في الوقت الحالي ليس في حاجة إليه، فهو يأخذ من هم أهم منه ولهذا فهو لا ينشغل به كثيراً

قال الأمير وهو يتهيَّأ للنزول لاستقبال الفارس ابن يحيا الذي وصل. كان منهكًا لأنَّ الأمطار كانت قويَّة وثقيلة وتعيق حركة الأحصنة. عندما وقف أمامه، حياه ثم اقتاده صوب خيمته:

ـ ماذا وراءك يا السي ابن يحيا؟

ـ كما توقعت يا أمير المؤمنين. إنَّهم يهيئون لهجوم كبير ولا أدري كيف سنكسرهم أو على الأقل نعطلهم الوقت الذي يسمح على الأقلّ للدائرة بأن تمر. سيأكلوننا ويأكلون بناتنا وأولادنا إذا لم نحسن الدفاع. أكثر من ذلك فقد بعث لاموريسيير لهم عن طريق قايد وجدة، وقايد الريافة العشرات من البغال المحمَّلة بالأسلحة والبارود. ما يريدون فعله هو تطويق كلِّي لنا لمحونا تماماً وحرقنا أحياء، هذا هو رأيي ورأي عيوننا المنتشرين في السهل.

ـ إذا شاءت قدرة اللّه أن ننتهي على هذه الأراضي القاسية، فلها ذلك. ولكنّنا لن نكون لقمة سائغة للعقون، أشرس عدو هو الذي لم يعد له ما يخسره، ونحن في هذه الوضعيّة تمامًا الآن صار لدينا معبر وسنمر عبره. سندافع عنه باستماتة مهما كان الثمن.

ـ ومن الجهة الأخرى؟ في سهل طريفة، ماذا نفعل؟ بماذا ندافع إذا استطعنا العبور يا مولانا؟

ـ ليس أنت من يقول هذا الكلام يا الشيطان. قبائل غرابة وحميان وبني بن زاغو وبعض القبائل اليزناسنيّة مستعدون لتقديم المساعدة حتى النهاية لتمرير الدائرة نحو امسيردا ثقتي فيهم كبيرة ولم يعد لدينا ما نخسره. مداخل الصحراء غير مسدودة وسنعرف كيف نمرّ إلى هناك عبر معبر القربوس الذي لا تصله إلاّ النسور المدربة

في منتصف النهار كانت ترتيبات الهجوم الملكي قد بدأت كان الأمير يعرف أنّ الحروب تربح أحيانًا بالخدعة تأتي عدوك من حيث لا ينتظرك وفي الوقت الأقل احتمالاً نزل فيلق الخيّالة في شكل صفوف متوازية ناحية المنفرج الواقع بين جبال كبدانة متبوعًا بجزء يسير من المشاة قبل أن ينقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم ظلّ يسير في طريقه بين المنفرج، بينما فيلق آخر دار وراء الجبل، الثالث ظلّ يسير على مرأى القوات المغربيّة التي كانت قد بدأت حركتها عندما اقتربت طلائع خيّالة المخزن، أطلق الفيلق الثالث العنان لفرسانه عائدًا بين الممر، وسط الجبل الذي يبدو مشقوقًا إلى شقين بمعبر ضيِّق. تبعه خيّالة المخزن لمنعه من الهرب بسرعة كبيرة. عندما صار الجزء الأكبر من خيالة المخزن في الممر، تمّ تطويقه من طرف الفيلق الأول والمشاة الذين توزّعوا وراء الصخور في انتظار بدء الهجوم. وسدّت عليه

المعابر من الجهة الأخرى. استمرت المواجهة إلى أكثر من خمس ساعات تم فيها كسر جزء كبير من عساكر الملك، بينما سار الفيلق الذي كان الأمير يقوده بنفسه باتجاه المعسكر الذي صارت أبوابه مفتوحة بعد أن تركه الحرَّاس وركضوا وراء جيش الأمير، فداسه بقوة وبدون توقف. لم يكن المعسكر مهيًّا لاستقبال هجوم مباغت كهذا. كان على يمين الأمير السي ابن يحيا الشيطان، على حصانه الحمياني الذي لا يعرف التوقف. وعلى يساره قدور بن علال الذي كلَّما دخل حربًا، طلب أن يموت فداء لأمير المؤمنين. كان خيَّالة الأمير يحصدون بلا تردُّد كل من كان يعيق طريقهم في حيرة تامة لعساكر ولي العهد سيدي محمد التفت ابن يحيا الشيطان صوب الأمير عندما رأى الخيمة البيضاء التي يدير العقون عادة منها هجماته:

ـ خيمة العقون، سآخذه مثل الفرخ في عشه نهبزه من حجر محظياته. وهو في أيدينا، سيكون حماية مؤكَّدة لنا وللدائرة

تفادى الشيطان كل الأحصنة التي وقفت في طريقه وكل المشاة المبعثرين بفوضى في كل مكان من المعسكر. عندما دخل إلى المعسكر الثاني، أصبحت خيمة العقون في قبضته. زاد من هجومه متجاوزًا كل من كان معه. لكن حصانه الحمياني، على الرغم من شجاعته، لم يتحمَّل أنظمة الدفاع المحيطة بالخيمة البيضاء المطرَّزة، فاخترقت صدره. وجرح الشيطان جروحًا بليغة قبل أن تسنده خلفيَّة الأمير وتضعه على حصان ليخرج من ضيق الحرب. بينما كان الأمير قد اخترق مباشرة الخيمة البيضاء التي لم يجد بها إلاّ بعض العبيد والحريم المنكفئ على نفسه، ينتظر الموت. سأل عن ولي العهد، قيل له إنَّه هرب هو وعائلته، أخرج العبيد والمحظيات وأشعل النار في الخيمة

وعاد قبل أن تنتظم خيَّالة الملك ومشاته الذين كانوا يتحرَّكون في كل الاتجاهات. كثافة النيران منعت فرق الأمير من التوغل عميقًا في المعسكر الثالث حيث ابن الملك الثاني، مولاي سليمان. سحب الأمير الموتى والجرحى باتجاه الدائرة. من أعالي القمة بدا البشر في المعسكرين المحروقين كالنمل، يسيرون في كل الاتجاهات ووسط الأوحال والمطر وصعوبة المسالك. الكثير منهم انسحب نحو الجبال المقابلة أو هرب عميقًا في الأراضي المغربيَّة.

عندما تجمعت كل القوى على مرتفعات الهضبة المقابلة للمعسكر، لم ير الأمير إلاَّ حرائق الخيام والأجسام المشتتة ووجه ابن يحيا الذي ازداد صفاء على الرغم من بقع الدم التي نزلت قويَّة من فمه وصدره وكلماته الأخيرة:

ـ لقد فعلت ما استطعته ومنحني اللَّه فرصة الشهادة بجانبك ورؤية النصر قبل الذهاب. الشيطان هذه المرة جاء دوره ليسافر يا أمير المؤمنين. أبنائي وأهلي في عنقك وأعناق إخوتي من المجاهدين.

ـ وعد الحرّدين، إما أن نصل جميعا نحن والدائرة أو نهلك جميعًا. لن نغادر هذا المكان إلاَّ عندما تخرج الدائرة سالمة.

ـ إنَّ شاء اللَّه ستصلون جميعًا. لن تقوم لهم قائمة إلاَّ بعد أسبوع. خسارة، العقون فلت من يدي وإلاَّ كنَّا شرَّبناه كل مياه الملوية.

ـ هوِّن على نفسك يا السي ابن يحيا، جروحك بليغة ويجب أن لا تجهد نفسك، ما زلنا في حاجة ماسة إليك وإلى ذكائك.

ـ آه يا أمير المؤمنين، لم يبق في العمر بقية، إنّي أسمع أبواق ملائكة الموت تناديني لو أمهلتني يومًا واحداً فقط؟ ما أقسى قلبها

كانت الأمطار خيطًا من السماء. غسلت وجه ابن يحيا من البارود والأتربة والأوحال والدم، فبان شعره الأحمر وحاجباه المقرونان وعيناه الواسعتان اللتان أغلقهما الأمير على سماء لم تكن رحيمة معه هذه المرة. كان وكأنّه نائم تحت المطر، يستمتع بنغماتها وإيقاعاتها التي صارت الآن أكثر انتظامًا لم يتحرّك لا الأمير ولا الخيّالة ولا حتى المشاة الذين تحلّقوا بكل الشهداء الذين استطاع الأمير أن يخرجهم من مواقع المعركة، أما الجرحى فقد أُخذوا باتجاه الدائرة حيث يتكفّل بهم الجرّاحون على الرغم من كثرتهم. صلّى الجميع صلاة الغائب على الثلاثين فارسًا الذين سقطوا في معركة مضيق كبدانة وتمّ دفن كل من استطاعوا أخذه من فكي المخزن.

عندما عاد الأمير في نهاية النهار نحو الدائرة، كانت الشمس التي برزت قليلاً قد اندفنت من جديد في عمق سماء منكسرة وشاحبة، مثقلة بغيوم سوداء ظلت تتقاطع فيما بينها عبثًا كانت وجوه سكان الدائرة متعبة ومرهقة من الأموات ومن الأمطار التي لم تتوقف إلاّ قليلاً ومن العمل المستمر للانتهاء من تثبيت حواجز المعابر التي لم يتحمل الكثير منها قوة اندفاع المياه

تفقد الأمير تقدم الأعمال ولاحظ تفاني الناس واستماتتهم في إنجاز الممرات في وقت قياسي سأل مهندس الأعمال الذي تعلّم الصنعة من الإيطاليّين الذين صاحبهم في تكدامت:

ـ كيف الحال يا السي البوعناني؟

ـ صعب جداً، ولكن نستطيع أن نقول إنّنا ردمنا الكثير في هذا المعبر الضيق الذي يمكن أن يصبح عمليًا في وقت قياسي على الرغم من الأمطار. على اللّه أن لا تخذلنا المرتكزات الخشبيّة التي يرتكز عليها كل شيء.

ـ الوقت محسوب يا البوعناني وجيشنا لم يعد كافيا للمقاومة.

ـ أنت تعرف يا سيدي أنّنا نفعل المستحيل. الأيادي والأحصنة والبغال والعبيد لا تكفي لجرّ الأخشاب الثقيلة والأحجار وأكياس الرمل. ومع ذلك، نستطيع أن نقول إنّنا ثبّتنا الأرضية وأخشاب الإسناد وبعدها تبقى عمليات الردم، شيء سهل، أو على الأقل نستطيع أن نمر عند الضرورة القصوى. الأمر يا أمير المؤمنين لا يتعلّق بفرد واحد وإلاّ لهانت ولاكتفينا بالأحبال، ولكن بقافلة ثقيلة تحتاج إلى أن يكون الممرّ قادراً على المقاومة والتحمّل مدة أطول.

ـ البركة فيكم يا البوعناني، ربي يحفظكم من أي مكروه.

ثم انسحب الأمير نحو أمه التي لم يرها كل هذه المدة وزوجاته. قبل أن يعود بسرعة نحو المعسكر لمراقبة حركة جيوش السلطان التي بدأت تطلق النار من بعيد في فوضى ظاهرة، بدون أن تصل إلى معسكر الأمير. الهجوم الصاعق جعل جيش السلطان يفكر بأنّ عدد خيّالة الأمير كان على غير ما يظهر عليه، ولهذا تريّث كثيراً في هجومه النهائي حتى يضمن لنفسه نهاية المعركة الحاسمة.

* *

ـ ٤ ـ

كانت ليلة العشرين من شهر ديسمبر مظلمة وممطرة.

لا شيء في الأفق البعيد لا شيء إلاَّ الظلمة الحالكة. الظلمة التي كلَّما عسعس الليل ازدادت ضراوة وتوحُّشًا. لا شيء سوى الصمت وحركة الدائرة والأحصنة والمياه والسواد الذي تخترقه من حين لآخر البروق ورشقات الرصاص الآتيَّة من معسكرات السلطان وردود فعل خيَّالة الأمير، وهسيس الرياح التي كانت تعبر الأنفس باردة قاسية منهكة. العيون مرشوقة على ممرات الملويَّة وعلى الترتيبات الأخيرة للعبور. لا شيء يُرى في الظلمة إلاَّ حامل القناديل الزيتيَّة بأدخنتها التي كانت تظهر جزءاً يسيراً من معابر الملويَّة. منسوب المياه كان في وضعه الذي انتهى به في المساء ممَّا سهَّل على البوعناني اختبار الفيلق الأول من العابرين بعدما أعطى الأمير أوامره بالمرور. عبرت الفلول الأولى من الدائرة وعلى رأسها بعض المشاة وأخو الأمير سيدي مصطفى.

لم يغادر الأمير مجلسه الحربي إلاّ ليتأكّد بأنّ عمليّة العبور بدأت بالفعل ويعود له من جديد ليخبر جنده بآخر المستجدات.

ـ لقد بدأنا أصعب مرحلة في حياتنا ونستطيع أن نقول اليوم إن صبرنا بدأ يُكلّل بالنجاح. جزء من الدائرة هو الآن في طريقه إلى أراضينا ونتمنى أن يسعفنا اللّه لإتمام كل شيء. قد تكون حربنا خاسرة وقد نموت ونفقد الكثيرين منّا، ولكنّنا الآن نقاوم لكي لا نسقط بين أيدي العقون وأعوانه ولإخراج الدائرة من النار والموت، وعندما نصير على الضفة الأخرى في سهل طريفة، نتّفق على ما ترونه صالحًا، العبور إلى الصحراء أو الدخول إلى بلاد امسيردا وانتظار مساعدة القبائل التي ما تزال تناصرنا، أو تسليم أنفسنا لفرنسا بالشروط التي نراها إذا انعدمت كل السبل ولم يبق أمامنا إلاّ ذلك. الآن بيننا وبين الضفة الأخرى دائرة يجب أن تمر بكاملها أعطوني وعداً بأن لا تتخلوا عن ذويكم وتنفذوا فقط بجلودكم. مصيرنا من الآن صار واحداً، خيالة ومشاة ودائرة. وأيّ تردّد سندفع ثمنه جميعًا

ـ نعدك يا أمير المؤمنين، إما أن نموت جميعًا أو نمر جميعًا اللّه أكبر. اللّه أكبر. اللّه أكبر. اللّه ينصر الأمير. اللّه ينصر الأمير.

تعالت الأصوات القليلة المجتمعة في خيمة الأمير بالمعسكر المتقدم.

ـ جيش المخزن بدأ زحفه وستكون المعركة قاسية لأنّ صدورنا ستكون تقريبًا عارية ولا شيء معنا إلاّ جرأتنا وقناعتنا الكبيرة بالحقّ،

لأنَّ جزءاً من المشاة يتكفَّلون الآن بحماية الدائرة لكي لا تُمس بسوء. وسنخرج إن شاء اللّه من هذه المحنة أكثر قوة مثلما كنَّا دائماً، ومن استشهد منَّا فجزاؤه عند اللّه كبير وأبناؤه وذووه دين على عاتق كل الأحياء منَّا.

ـ ماذا نفعل إذا هاجمنا العقون هذه الليلة؟

ـ أجبن من أن يفعل ذلك. هجومه القادم سيكون كاسحاً لنا، هكذا يريده. لن يتحمَّل ضربة ثالثة. نحافظ على تنظيمنا وخططنا منذ بداية هذه الحرب. المطر والظلمة يعيقانه ولكنَّه مع الفجر الأول سيأتي لسحقنا ومحو آثار الهزائم المتكررة.

في اللحظة نفسها دخل البوعناني، كان يقطر ماء. ألبسته في حالة يرثى لها ووجهه مليء بالوحل والرماد. استأذن واعتذر على هيئته. قام الأمير من مكانه وخلع عليه برنسه الخشن.

ـ عذراً يا مولاي.

ـ ضعه على ظهرك، سيقيك من قسوة برد ديسمبر يمكنك أن تدخل علينا متى شئت وبدون استئذان لا حرج عليك في هذا الوقت الصعب. ماذا وراءك يا السي البوعناني؟

ـ المعابر صعبة قليلاً ولكنَّها تحمَّلت القافلة الأولى المكونة من المشاة وجزء من الدائرة، بدون عناء يذكر. وضعنا العديد من المشاة والشعب القادرين والخدم الأقوياء في الممرات الصغيرة لمساعدة من يسقطون أو يساعدون الجمال والبغال المحمَّلة على المرور. رسولنا يقول إنَّ الدفعة الأولى من المشاة والخمسين نفراً التي يقودها سيدي

السي مصطفى قد وصلت وأمَّنت طريق المرور لبقية الدائرة، من قطّاع الطرق وسرَّاق الريف وبني ايزناسن.

برقت عيون الحاضرين لأول مرة بسعادة ظلَّت مكتومة طوال الأيام الماضية.

ـ الحمد للَّه، إنَّه لا يخلف وعداً لقد أصبح بإمكاننا اليوم أن نزداد شراسة في الدفاع عن أنفسنا وعن أهالينا. يجب أن تسهر يا السي البوعناني على عبور جميع أفراد الدائرة هذه الليلة مهما كان الثمن. وكيف حال منسوب المياه الآن في الملوية؟

ـ لم يتغيَّر كثيراً على الرغم من الأمطار. فهو في وضعه الحالي مساعد لنا أملنا أن يظل كذلك حتى الصباح.

ابتسم الأمير وهو يبحث عن جملة أضحكت الجميع.

ـ أنت يا السي البوعناني تطلب من اللَّه أن يخفَف الأمطار لكي تعبر الدائرة بسلام وحتى لا تفيض الملويَّة وتمنعكم من المرور ونحن نطلبه لغرض آخر، أن يجعل هذه الأمطار أكثر طوفانيَّة حتى يؤخر من زحف العقون الذي يتربَّص بنا في الهضاب المقابلة. ويبدو أنَّ اللَّه سمع لقلوبنا جميعًا، فكثَّف الأمطار بدون إحداث فيضان في الملويَّة. فمرّ جزء من الدائرة ومنع العقون من الحركة.

الأمير كان يعرف جيِّداً أنَّ معسكره ودائرته سيتعرَّضان لهجوم مدمِّر وصاعق في أيَّة لحظة. هجوم المهزومين. كل التقارير التي وصلت إليه تقول إنَّ مناورات العقون الماضية كانت تحضيراً لهجوم كاسح يمحو خيالة الأمير ويضع الدائرة في مرمى من السرَّاقين

والنهّابين. المواقع المتقدِّمة لمعسكر الخيَّالة كانت تعطي نوعًا من الحرية للدائرة وللمشاة للتحرُّك بدون معوقات عبر الملويَّة. خطوط الدفاع الثلاثة التي وضعها الأمير، سمحت لجزء كبير من الدائرة حتى الآن بالمرور فالوقت المتبقي لم يكن كافيا قبل الهجوم الكبير، بعد تجميع الجيوش الثلاثة لمولاي محمد ومولاي سليمان والتحاق حفيد السلطان بهم.

بسبب الأمطار التي تهاطلت قويَّة، والفوضى التي عمت جيش العقون بعد هجوم الأمير، أُجِّل الهجوم إلى الغد

كانت ليلة ٢١ ديسمبر قاسية في ظلمتها وبرودتها وأمطارها كانت رتل العابرين تسير في خط مستقيم وبنظام كبير بحسب القبائل والسكان والمجموعات المنتسبة إلى عائلة الأمير. لا أحد يلتفت إلى الخلف. الكل يتتبع الفوانيس التي كان يحملها الخدم على طول الجسر الذي تمّ بناؤه بسرعة، لمساعدة الجمال والبغال على معرفة المسلك وتفادي السقوط في النهر ممّا يعطِّل حركة الرتل بكامله. لا تُسمع إلاَّ التنهدات المتقطعة والأنفاس المتهالكة التي تخبئ بصعوبة خوفاً مضمراً.

في عمق الليل سمعت أولى الطلقات قبل أن تتحوَّل إلى ضربات مدافع كانت تسقط بعيدة نسبيًّا عن معسكر الأمير. ثم رشقات البنادق الجافَّة قبل أن تتسارع أكثر وتصبح حادَّة وقريبة من مواقع الأمير الذي كان قد غير المكان بدون أن يغيِّر المعسكر. الخيَّالة بعددهم الذي صار محدوداً، جعلوا حركة الأمير خفيفة. فهو يعرف جيِّداً أنَّ الكثافة العسكريَّة تخلق أحيانًا الكثير من الفوضى خصوصًا

عندما يتمّ اختراق هذه القوى في عمودها الفقري. إطلاق الرصاص من أمكنة مختلفة كان يعطي الانطباع بوجود قوّة عسكريّة كبيرة، ممّا عطّل بداية الزحف على معسكر الأمير. ولي العهد لم يكن يأتمن القبائل الريفيّة وبني إيزناسن الذين يناصبونه العداء ويرون في الأمير قدوتهم للتحرّر من مظالم السلطان وحاشيته. أكثر ما كان يخشاه هو هذا التلاقي المخيف.

الرسول الذي أُلقي عليه القبض أخبر الأمير بأنّ قايد وجدة كلّف أخاه بإخبار لاموريسيير بحركة الدائرة ومشاة الأمير وقدّم له مخططًا افتراضيًّا عن حركتهم. شعر الأمير بأنّ التسريع بالعبور أصبح أكثر من ضرورة بالنسبة للدائرة.

استطاع بعض خيّالة الأمير، وعلى مدار مرتين، أن ينطلقوا بقوة برقيّة على الرغم من الظلمة في عمق الجيش السلطاني، تاركين وراءهم سيلاً من الفوضى وارتباكًا بين الجند.

لم يكن الأمير يملك أكثر من الحيلة في انتظار الانتهاء من مرور الدائرة وانبلاج الصباح الذي لم يكن بعيداً.

زاد عدد الفوانيس الصغيرة التي كانت تظهر ظلالاً تشبه أرتالاً من الحيوانات والبشر وهي تمرّ عبر الملويّة. كانت القوات المساعدة على الجنبات تتبادل الأدوار، إذ إنّ نصف أجسادها كان داخل الماء والنصف العلوي في الخارج، تقف على كتلة من الصخور تسمح لها بالاحتفاظ بأياديها حرّة. أحيانًا تدفع بعطوش ما على جهة واحدة وفي أحيان أخرى تُخرِج قوائم الجمال التي تلتصق بين الأخشاب المرصوصة أو تخترق أكياس الرمل الموضوعة في المكان. لولا القناديل

الزيتيَّة التي وضعت عبر كل الممرات والمسالك، تحت الظلمة والغيوم السوداء والأمطار الغزيرة كل شيء.

كان الليل قد تجاوز نصفه عندما عبر الجزء الأخير من الدائرة الملويَّة محمّلاً بالبارود وبقايا أسلحة المشاة التي أخذت في الهجمة الأولى على جيش العقون وجمعت للدفاع النهائي عن الدائرة.

تحت ضوء الفوانيس الزيتية التي قاومت الأمطار والرياح القويَّة، التفت الأمير نحو خيَّالته. لاحظ لأول مرة أنَّهم كانوا قلّة قليلة وتضاءلوا إلى أكثر من الخُمس منذ الهجوم الليلي بالجمال المطليَّة بالقطران. لقد مات الكثير منهم. تأمَّلهم وكأنَّه يراهم للمرة الأولى. لقد تغيرت وجوههم وملامحهم كثيراً وشاخوا بسرعة.

ـ لقد كان الثمن غاليًا لكن الحمد للّه لقد صارت الدائرة في مأمن وسنتبعها الآن، فقد توغلت باتجاه وادي كيس، وجزء منها تجاوز بني إيزناسن ويقترب من وادي كيس ولكنَّه ليس واديًا كبيراً ويمكن عبوره بسهولة، حتى الأمطار لم تعد قويَّة.

أُطلق البارود احتفاء بهذا العبور كانت الوجوه مكدودة من قلّة النوم والخوف والأوحال التي لطَّخت ألبسة الخيَّالة في الهجومات الليليَّة المتقطِّعة على مواقع العقون وأخيه.

فجأة بدأت القوات المغربيَّة تزحف نحو معسكر الأمير الذي كان قد أُخلي ولُغم في العديد من أجزائه. في البداية طوَّقوا المكان ثم هاجموا الخيام الأماميَّة التي وُضعت بها بعض الأغنام والمؤن التي لم يكن بإمكان الدائرة نقلها ولتلهية جيش السلطان وربح بعض الوقت. ثم توغَّلوا في عمق المعسكر بكلّ ثقة. فجاة بدأت

الانفجارات تتوالى، بشدّة كبيرة، مصحوبة برشقات البنادق التي كانت تأتي من بعض قبائل بني إيزناسن الذين تطوَّعوا لحماية عبور الأمير قبل أن يندفنوا في جبال كبدانة وغيرها في عمق الظلمة.

الفيالق السلطانية الأولى تبعثرت وتشتّتت بقوة قبل أن تعوِّضها فيالق المشاة اللاحقة وتزحف باتجاه بقية المعسكر قبل أن تقترب من معابر الملويَّة.

وعندما صار خيَّالة الأمير على الضفة الأخرى من الملويَّة، تأمَّلوها طويلاً وتأمَّلوا الخط المستقيم من الفوانيس التي كانت تنير المسالك. ابتعدوا عنها قليلاً، وعندما التفت الأمير نحوها للمرة الأخيرة كانت المعابر تتطاير في الهواء بعد أن فجرها البوعناني الذي كان يعرف مرتكزاتها الأساسية ولغّمها واحدة واحدة بما تبقى من بارود العقون. فصار كل شيء مظلما من جديد كانت الأخشاب والأكياس وجذوع الأشجار والصخور تتطاير في الفضاءات مشتعلة كالنيازك. لم يتجرأ الجيش السلطاني الموحَّد أن يقترب منها ظنًّا منه أنَّ المنطقة كلّها كانت ملغمة ويمكن أن تنفجر في أيَّة لحظة.

عندما توغَّل الأمير في عمق سهل طريفة وبدأ انحداره باتجاه قادة قبائل بني ايزناسن، الذين ساعدوا الدائرة على العبور، لشكرهم ومعرفة تفاصيل ما غاب عنه ومحاورتهم حول إمكانية المرور إلى الصحراء عبر ممر القربوص الضيق، كانت القوات المغربيَّة تحزم أمتعتها للعودة إلى مواقعها الأصليَّة، لترفع معسكراتها نهائيًّا وتعود إلى فاس أو مراكش، حيث غضب مولاي عبد الرحمن كان يتدفق مثل حمم البراكين.

ـ ٥ ـ

حمرة الفجر في سهل طريفة المائلة نحو السواد تعطي الإحساس باشتعالات في الأفق. كانت طيور الغاوية التي فقدت بياضها بسبب الدكنة والأمطار التي بدأت تتوقف، تتَّجه جماعات جماعات باتجاه البحر الذي لم يكن بعيداً. التفت الأمير وفرسانه باتجاه الملويَّة، لم يلحظ الشيء الكثير إلاّ ألسنة اللهب التي كانت ما تزال تُرى من بعيد تمنّى أن ينسى كل شيء وأن لا يتذكر أبداً ما حدث في تلك الليلة. لم يكونوا كثيرين، وجوههم متعبة ولكن سعادة ما كانت تعطي حياة خاصة لعيونهم البرّاقة تحت النور الخافت للقنديل الزيتي. الأمير، مصطفى بن التهامي، خليفة معسكر وصهره، عبد القادر بن كليخة، قايد تكدامت، قدور بن علال، حفيد سيدي مبارك الذي قُتل في إحدى المعارك، وغيرهم من الفرسان القليلين.

الأخبار التي وصلت الأمير في هذه الليلة وهو يحاول أن يقطع الضفَّة اليسرى من وادي الملويَّة، لم تكن مبشِّرة بخير. فأخوه السي مصطفى وأكثر من خمسين نفراً من الذين كانوا معه، قد سلَّموا أنفسهم للاموريسيير بعد أن فشلت كل محاولات المقاومة وطلبوا الأمان الذي أُعطيَ لهم موقعًا رسميًّا ومختومًا بعلامة لاموريسيير.

شعر أنَّ من واجبه أن يخبر الجميع بما حدث.

ـ يا جماعة الخير، لم أكن أريد إرباككم وأنتم تقاومون الجيش السلطاني ببسالة وقوَّة. الدائرة سلَّمت نفسها لبوهراوة وهي الآن بين أيدي مولاها وتحت رحمته ولا مسلك لنا أمام أقداره.

ـ نعرف ذلك يا مولانا ولم نكن نريد إرهاقك بمزيد من الأخبار المقلقة.

ردّ الخليفة السي قدور بن علال. لم يعلِّق كثيراً على ذلك ولكنَّه واصل حديثه وكأنَّه لم يسمع شيئًا مما قيل له.

ـ المهم أنَّ الأخبار تقول إنَّ الدائرة بخير ولم يتضرر منها أحد. لقد طلبوا الأمان ووفق عليه مبدئيًّا وقد يسلِّمون أنفسهم نهائيًّا في الأيام القليلة القادمة إذا سارت الأمور مثلما يريدون. أعرف أنَّ الأوضاع صعبت جداًّ ولكل نفس ما تراه وما تشاء. أحيانًا، على الرغم من القلق والحزن على أولادنا ونسائنا، أقول الحمد للَّه أنَّهم لم يسقطوا بين أيدي المخزن وإلاَّ لحدث لهم ما حدث للبوحميدي الذي ذهب مفاوضًا وانتهى سجينًا قبل أن يُعدم. عدو واضح أحسن بكثير من صديق يبيع ويشتري على رأسك. اليوم أعترف لكم وأفضي بما

كان ينتحر في القلب، مولاي عبد الرحمن باعنا بالرخيص في اللحظة التي وقّع فيها ضدّنا على الوثيقة التي تعتبرنا قطّاع طرق.

ـ لكن يا سيدي، ماذا نفعل الآن؟

ـ تسألني يا السي قدور السؤال الذي تمنيت فيه أن أكون مكانك لأقول بحريَّة ما أفكِّر فيه. نحن الآن أمام مفترق الطرق وعلينا أن نفكِّر جميعًا في الحلّ الذي يُرضي الجميع. أهلنا بين أيدي من سرقوا أرضنا، نساءنا، أولادنا، إخواننا وأموالنا أو ما تبقى منها من الجهة الأخرى ممر القربوس يفتح مسالكه ونستطيع أن ننسى أنَّ لنا أهلا ونتوغَّل في عمق القبائل التي نعرفها ونعاود تكوين جيشنا من جديد من أهالي الجنوب. اختاروا؟

ساد الصمت مدة طويلة قبل أن تمزق بعض الطلقات الناريَّة عمق هذا الفجر الذي لم يتخل بعد عن سواده. عرف الأمير أنَّها آتية من مضيق القربوس حيث كان ينوي العبور. تأكَّد له من حاسَّته أنَّ المضيق الذي كان ينوي العبور منه تمّ احتلاله. تنفس عميقًا ثم التفت نحو أحد خلفائه:

ـ شيء يقول لي إنَّ السبايسيَّة الذين يحتلُّون مضيق القربوس ليسوا إلاَّ مصيدة. لا يمكن لقوات صغيرة مثل هذه أن تكون هي البادية بإطلاق البارود إذ لم تكن لديها حماية. لكن المؤكَّد أنَّهم عرفوا مكاننا وينتظروننا.

ـ قصدك أنَّهم ينصبون لنا كمِّينًا؟

ـ لا يوجد عندي أدنى شكّ في ذلك. لا بدّ أن تكون القوات الحقيقيَّة مرابطة خلف القربوس. يريدون أن يسحبونا نحو هذا المكان

بهذا الطعم وبعدها تنقض علينا القوات الحقيقيَّة المرابطة في المكان نفسه.

انتظرت المجموعة قليلاً حتى عاد الشوّاف الذي بعثه الأمير يتشمم الأمكنة ويسأل القبائل عن آخر الأخبار.

ـ ها هو موح الطويل اليزناسي قد عاد.

عندما وصل، كان يحمل معه تأكيدات أوصلت الأمير إلى اليقين، بأنّ كل ما كان يحدث هو مجرد تخطيط لشيء يستهدفهم للقضاء عليهم نهائيًّا.

ـ وهل عددهم كبير يا موح الطويل؟

ـ من ثلاثة إلى خمسة آلاف عسكري مدجَّجين بالأسلحة والمدافع ولا ينتظرون إلاّ وصولكم. أمَّا ما ترونه فهم السبايسيَّة تحت قيادة الخليفة ابن كرويَّة والآغا إبراهيم للتمويه بأنَّهم خيالة عرب أتوا لمناصرتكم. أخو قايد وجدة أخبر لاموريسيير بمروركم عبر مضيق القربوس وسلَّمه خريطة تحرُّككم.

ـ أين هم بالضبط؟

ـ جزء كبير مختبئ وراء الهضبة، ليس بعيداً عن السبايسية.

ـ وأخبار الدائرة؟

ـ قاومت يا مولاي ولكنَّها استسلمت. سيدي مصطفى لعب دوراً كبيراً في الحفاظ عليها من الشتات وقد تلقى وعوداً رسميَّة من لاموريسيير، زكَّاها ولي العهد حاكم الجزائر الدوق دومال. لم تمسس بأيّ أذى. البعض منها تسرَّب عبر القبائل وجبال امسيردا وما تبقى تمَّ

الحفاظ عليه، بعد مقاومة شرسة أبداها حماة الدائرة الذين استشهد أكثريَّتهم.

ابتلع الأمير ريقه بصعوبة. كان الفرسان المحيطون بالأمير بين الخيبة والرجاء، تحت أمطار قويَّة عادت إلى التساقط من جديد. رفع رأسه فرأى أنَّ لا شيء تغير، وأنَّ الأمطار لا تسكن إلاَّ لتعود ثانية إلى التساقط بقوة أكثر والرعود ازدادت قوتها والرياح كانت تشقّ الظلمة التي ازدادت سواداً. التفت نحو الخيَّالة والخليفة مصطفى بن التهامي والخليفة السي قدور ولد سيدي مبارك والآغا بوكليخة وغيرهم من الذين تحلَّقوا به:

ـ الوعد الذي أعطيتموه لي وبقيتم أوفياء وصل إلى حده. كان من واجبي أن أفي بما قطعته على نفسي أمامكم، حتى لا يتهمني أي مسلم بأنِّي تخلَّيت عمَّا وعدت به لنصرة القضية الكبرى. إذا كنتم ترون أنَّه ما تزال لدينا القوَّة لنصرة الحقّ، قولوا بصدق ولنسر جميعنا نحو المصير الذي اختطه اللّٰه لنا، وإذا كنتم ترون أنَّ كل شيء قد انتهى أرجو أن تعفوني من هذا العهد الذي قطعته على نفسي يوم طالبتكم بذلك. أريد أن أسمع آراءكم.

ـ يا أمير المؤمنين لقد فعلت المستحيل لنصرة هذا الحقّ، لكن الأقدار شاءت غير ذلك. آلتهم قويَّة وما نملكه اليوم قاصر عن أداء ما نريده أنظر خلفك قليلاً واحكم بحكمك. نستطيع أن نذهب نحو الموت مثلما ذهب الذين من قبلنا ولكن ما الفائدة؟ الدائرة بين أيديهم وكل المنافذ مغلقة.

كانت الكلمات تخرج من فم السي مصطفى بن التهامي مقطّعة منكسرة.

ـ إذا كانت هذه هي رؤية الجميع، فلم يبق أمامنا إلاّ ثلاثة حلول ممكنة، إما أن نغمض عيوننا ونخترق مضيق القربوس، ونمر على أجساد الخيّالة الذين يحرسونه، ويجب أن تدركوا أنّ الفرنسيّين هيأوا كل شيء لمنعنا، أو نسلك طريقاً آخر يسمح للخيّالة بقطع الجبل ولكن في هذه الحالة علينا أن نعلم بأنّ النساء والأطفال والجرحى أو ما تبقى منهم على الأقل، لن يصلوا وسيسقطون بين أيدي النصارى، أو أن نقبل بتسليم أنفسنا بالشروط التي نمليها لأنّنا ما زلنا أحراراً.

ـ فداك يا سيدي. ليهلك أهلنا وزرعنا ولتبق أنت أيها الأمير.

أجابته أصوات أغلبيّة القادة لتبديد حيرتها.

ـ لقد شاء اللّه أن تنتهي هذه الحرب. يجب أن نقبل بهذا القدر قاتلنا مدة خمس عشرة سنة لإنقاذ شعبنا من غطرسة الغزاة، فماذا يمكننا اليوم أن نفعله في هذه الأوضاع التي نحن فيها؟ ماذا تستطيع فعله القبائل أمام جيش قوي لا يتردّد أبداً في استعمال كل وسائله لهلاكها، فهي بين سيفي وسيف العدو؟ الحرب أتعبت الجميع وأنهكتهم. سيأتي يوم، وفي ظرف آخر غير هذا، سيولد فيه رجال يحملون راية النصر والحريّة مثلما فعلنا

ـ ولكن يا أمير المؤمنين، هل نسلّم أنفسنا للنصارى ونحن نعرف ماذا فعلوا بأرض الإسلام؟ ألا يوجد مسلك آخر غير هذا؟

ـ نحن بين مولاي عبد الرحمن والعودة له وطلب الصفح وبين الفرنسيّين، يمكنكم أن تختاروا، فيما يخصني فقد اخترت وانتهى

أمري. أفضِّل أن أسلِّم نفسي لعدو حاربته وانتصرت عليه في الكثير من المعارك وقبلت هزائمه، على أن أقدِّم رأسي لمسلم خانني وقت الشدة. وسأطالب بأن أنقل إلى أرض إسلاميَّة مع عائلتي، ومن أراد أن يرافقني فله ذلك. ولكنِّي لا أجبر أحداً. من أراد البقاء بين ذويه سنعمل على ضمان سلامته وسلامة عائلته وأمواله.

ـ نشكّ يا مولانا أن يحفظ بوهراوة وعوده. لنفرض أنَّه لن يقبل بشروطنا، فماذا نفعل في هذه الحالة؟

ـ المبادرة في أيدينا، قطعنا الملويَّة ولا شيء يمنعنا من التفكير في مسلك آخر غير ممر القربوس. كل ما نراه يدلّ على الوفاء بوعودهم. ابن سالم استسلم ولبى بيجو كل شروطه. وإلاَّ سنخترق الحواجز ومن بقي منَّا حيًّا يعبر نحو الجنوب ويواصل جهاده مع إخوانه. فإذا كنتم موافقين، نبعث للاموريسيير بالمقترح ونرى ماذا يجيبنا

ـ وهل نرى غير ما يراه مولانا.

قرَّب أحد الخدم القنديل الزيتي من الأمير. حاول أن يكتب الرسالة، لكنَّ الأمطار كانت قد زادت حدتها ولم يعد ممكنًا تدوين أي شيء بدون تبللها حتى الشجيرات التي كانوا يقفون تحتها لم تكن كافية لتغطية الأمير. الريح كانت ترفع البرانس عالياً وتقذف بها إلى الأمام أو ترمي بها على الأكتاف والوجوه. وضع الأمير ختمه على الورقة بصعوبة وطلب من موح اليزناسني ومبعوثين اختارهما من خيرة من يثق فيهم ليذهبوا بها نحو الآغا بن خويا الذي لم يكن بعيداً، ويوصلوا له الشروط التي طالب بها الأمير مقابل استسلامه هو ومن معه.

عندما انطفأ موح اليزناسني والمبعوثون في عمق الجبال كذئاب البراري، توجهت المجموعة باتجاه القبائل المناصرة لإخبارها بما تم الاتفاق عليه.

أمضى جيش الأمير أو ما تبقى منه، بقية الليلة في مأمن، في زاوية بوتشيش اليزناسني حيث كان ينتظرهم أكثر من ثلاثمئة رئيس قبيلة وكلُّهم قد أصيبوا بخيبة كبيرة. كانوا ينتظرون من الأمير أن يقبل بيعتهم ليصبحوا درعه في الجهة الغربيَّة هم الذين رفضوا دفع الضرائب لمولاي عبد الرحمن. كانت المرارة تبدو واضحة على عيونهم التي لم تنم الليل بكامله وهي تتابع آخر الأخبار. الكثير منهم خرج ليبكي بعيداً عن الأنظار ويتظاهر بأمطار السماء التي ملأت وجهه.

ـ يا سيدي الأمير، نرجوك أن تتريَّث قليلاً ونجمع جيشًا آخر تسترجع به الأرض التي سرقت منك ولن نتركك لوحدك. آمالنا فيك كبيرة ولا يمكن أن ينتهي كل شيء بهذه الصورة القاتمة.

ـ هذا هو قدر اللّه وعلينا أن نقبل به!

قال الأمير وهو يحاول أن يجد كلماته الضائعة للرجل الطيِّب الذي استضافهم، السي حمزة بن الطيب بن الماحي.

ـ نرجوك يا أمير المؤمنين أن لا تثق في الفرنسيِّين. إذا أردت أن تبقى معنا سنحميك من سلطان المغرب وإذا شئت أن نتبعك في مقاومة الغزاة نحو الصحراء سنفعل ذلك، ولكن لا تسلم نفسك لهم، سيشمتون فيك وفينا جميعًا.

ـ لقد حاربتهم وسوَّدت معيشتهم وعندما تخلّى عنّي أهلي، طلبت من سلطان المغرب مساعدتي فباع رأسي لأعدائي. اليوم لم يعد لي ما أقدِّمه لهذه الأرض. لقد انتهيت. خمس عشرة سنة أنهكتني عن آخري، بالنسبة للرغبة في السلطان فقد غسلت يدي بالماء والصابون، لم يعد يعنيني مطلقاً.

ـ إذا كنت تشكّ يا سيدي في ثقتهم، ما تزال المبادرة بين أيدينا

ـ لامورِيسيير كغيره من الضبَّاط الفرنسيين، يحافظ على وعده إذا تقدَّمنا له بذلك. وعلى كل حال الأفضل أن نتأكَّد من الضمانات، فما يزال لدينا إمكانيَّة للخروج من هذا المأزق. إذا رفضوا مطالبنا، سنحارب ونخترق طريقاً من داخلهم، دليلنا الظلمة ومعرفة الطريق.

ـ لكن، سيدي مصطفى سلَّم نفسه، ومن معه فعلوا الشيء نفسه والأخبار التي وصلت تقول إن لامورِيسيير أعطاه الأمان وسينفذه مثلما فعل بيجو مع سيدي ابن سالم في جبال القبائل. أعتقد أنَّنا سائرون نحو هذا الحلّ.

ـ لو كنت قبالة بيجو لوافقت مغمض العينين. كان قاسيا ولكنَّه كان صاحب كلمة. أخلاقه العسكريَّة تمنعه من التردُّد. ولكن بيجو لم يعد، حلّ محلّه الدوق دومال الذي كسر جيوش السلطان في طنجة. مهما يكن، فالمحارب يا ابني هو من لا يسلم نفسه بشروط عدوه مهما كانت الظروف. يجب أن تدرك بإصرارك بأنَّ لديك قوة خفيَّة تمنعك من الاستسلام بسهولة حتى ولو كان ذلك مجرد وهم.

لا حلّ، إما أن تذهب نحوه عاريًا، فانت مهزوم ويقوم هو بتعريتك أكثر أو تكسو نفسك بشرفك ولا تقبل بالمهانة الكلّية.

تدخّل قدور بن علال الذي ظلَّ صامتًا طوال هذه المدة.

ـ أشعر بحزن يا سيدي، أخاف من هؤلاء النصارى الذين دخلوا غزاة إلى هذه الأرض ولم يدخلوها طالبي أمان. الثقة فيهم صعبة. لقد قتلوا وشردوا وذبحوا ونزعوا الرؤوس لكل من قاومهم أو خالفهم الرأي.

ـ أو تظنّ أن شكوكك ليست شكوكي؟

ـ أعرف. ولكن ألا يوجد حلّ آخر، ألا يمكن أن نهرب أو على الأقل أن نفعل شيئًا آخر يشفي الغليل مثلما يقترح شيوخ القبائل. عندما أردنا أن نقاوم خمسة آلاف مخازني سلطاني، فعلنا ذلك وخرجنا سالمين وأنقذنا الدائرة من الهلاك.

ـ بأي ثمن؟ كم بقي من خيالتنا ومشاتنا منذ ليلة ١١ ديسمبر؟

لم يزد قدور بن علال ولا كلمة، ولكنَّه لم يستطع أن يكفكف دمعات سبقته إلى الانطفاء على وجهه الطفولي الذي أحرقته الشموس القاسيَّة وجليد شهر ديسمبر. مسح الأمير على رأسه بدفء:

ـ ومع ذلك يا وليدي قدور، الزمن تغير، لم يعد السيف والشجاعة كافيين، نحتاج إلى شيء آخر لم أعد اليوم أعرفه، ربما القوة التي انسحبت منًا وراحت نحو عدونا لأنَّه عرف كيف

يسخِّرها. أنظر ماذا بقي لنا؟ طبعًا كان بإمكاني أن أهرب بمجموعتي هذه من المطاردة المزدوجة المحمومة، ما نزال نملك مع فرساني الشجعان الكثير من الحيل التي تنجينا من شرّهم، وقبائل الجنوب الكبير التي أعرف الطريق الموصل إليها، لن تستكثر فينا قليلاً من الحنطة وكأس حليب، بل كان بإمكاني وعلى ظهر جوادي أن أصل المدن المقدّسة التي عبرتها في طفولتي مع المغفور له والدي، ولكن أمي؟ النساء؟ أطفال هؤلاء الناس الطيبين المتفانين في الخدمة؟ المشايخ والعدد الكبير للجرحى الذين يرافقوننا والذين بين أيديهم؟ ما هو مصيرهم؟ أترك الإجابة لك يا وليدي قدور، فأنت بشبابك، سيِّد العارفين.

تنفس قدّور طويلاً ثم دفن وجهه بين يديه لكي ينسى أنَّه بعد قليل سيكون بين أيدي من حاربهم مدة من الزمن وقتلوا أهله، وسرقوا رأس السي مبارك بن علال وعلَّقوه على أبواب مدينة مليانة ليخيفوا به السكان ويهزموهم في الصميم.

تأوَّه كمن يشقّ صدره سكين حاف ثم ترك نفسه يغيب في نوبة من السواد:

ـ لا حول ولا قوة إلاّ بالله. يا ربي ارزقني صبر أيوب لكي لا أرتكب حماقة في حقّ نفسي وفي حق غيري.

* * *

ـ ٦ ـ

في الأراضي الغربيَّة، يأتي فصل الشتاء ضاريًا وقاسيًا الناس يعرفونه من أمطاره الأولى التي تهطل باردة كالصقيع وتنفذ إلى الأجساد مسامير حادَّة. الأمطار التي استمر هطولها طوال الليل لم تتوقف قطّ والرياح زادت قوَّة وعنفًا كانت كلَّما هبت، بدا وكأنَّها تنزع الأشجار من جذورها.

سمع الكولونيل مونطوبان[1] خشخشة غير عادية من بين الأشجار وكأنَّ هناك إنسانًا كان يحاول أن يتسلّل عبر المسالك. حاول أن يتأكَّد بنفسه مع عسسه، وينفذ بين الأشجار ويفلّي نباتات الديس للتأكُّد من أنَّ لا شيء يختبئ في الداخل أو أنَّ أرنبا بريًّا يحاول أن يخرج من الضيق الذي تحصره فيه النباتات العالية:

ـ آه لو لم تكن الحرب، الأرانب هنا تبحث عن صياديها.

١ ـ Le colonel Mantauban

قال الكولونيل مونطوبان موجِّهًا كلامه لقائده لاموريسيير، الذي كانت عيناه مثبتتين على كل الأشياء التي تحركها الرياح التي كانت كلَّما توغلت الفيالق في الجبل تزداد عنفًا وقوة:

ـ أمامنا أرنب آخر يا كولونيل، أكثر خطورة وأكثر صعوبة.

ـ هذه المرة لن يفلت منَّا، كل المنافذ أغلقت عليه.

رد الكولونيل مكماهون[1] الذي لم يجد صعوبة كبيرة في السير بالمشاة باتجاه المعبر الذي يقود مباشرة نحو القربوس، حيث تتَّجه كل القوات لتدعيم الفرقة الموجودة هناك.

لاموريسيير يعرف المنطقة جيِّداً حتى في الظلمة. عندما وصلت المقدمة إلى القمة تحسس الأمكنة بحواسه الحادّة وذاكرته. بدت له السهول من تحت بكل اتساعها مبعوجة في الأطراف بمرتفعات لا شيء يحدها إلا جبال زندل أو الجبال التي تسير بشكل متسلسل عبر سواحل امسيردا أخذ لاموريسيير نفساً عميقًا ثم ترك بصره يتمادى في الظلمة ويتحسس جبال امسيردا التي صارت الآن على مرمى حجر ولم تعد بعيدة:

ـ نحن في سباق مستحيل معه. قد يكون من الصعب علينا تحديد مكان العبور، فالمرتفعات كثيرة ويعرفها جيداً، لكن بحسب المعلومات التي وصلتنا يجب غلق مضيق القربوس نهائيًّا رسالة قايد وجدة مؤكَّدة وسيمر من هناك يجب أن نغلق عليه كل الطرق المحتملة وإلاَّ فلت منَّا هذه المرة كذلك.

ـ ١ Le colonel Mac-Mahon

ـ قد يكون الآن عند بني ايزناسن، يستعدّ للتوغُّل نحو الجنوب. صعوبته الوحيدة هي عبور وادي الملويَّة وقد فعل وفشلت كل خطط سلطان المغرب. صار الآن أكثر سرعة وخفة بعد أن تخلَّى عن جزء كبير من الدائرة.

قال مونطوبان، وهو يمسح بعرف زيتون، الأوحال التي أثقلت حذاءه الخشن الذي لم يعد قادراً على تحمّله.

عمليَّة التطويق لم تترك شيئًا للصدفة. سهول الطريفة وسيدي إبراهيم وجبال امسيردا والمناصب ووادي كيس صارت شبه مغلقة ومضيق القربوس قد سُدَّ تمامًا أكثر من خمسة آلاف عسكري من خيَّالة لاموريسيير ومشاته ومدفعيته قد احتلوا كل الأمكنة تحسُّبًا لأيّ طارئ محتمل. القوات الفرنسيَّة لا تستطيع أن تعبر الأراضي المغربيَّة التي لا تعرفها تنتظر الأمير حيث أشار قايد وجدة الذي جعل من تصفية الأمير انشغاله الكبير، وأصبح يبعث المعلومات بشكل متتابع مقتفيا كل خطواته عن طريق الشوّافين الذين سخرهم لهذه المهمَّة.

كان لاموريسيير ينتظر الأخبار إلى أن جاءه الكومندان بازير[1] بصحبة موفد قايد وجدة مرة أخرى، كان ملطخًا بالأوحال.

ـ مبعوث من قايد وجدة يا سيدي يريد رؤيتك. كاد أن يسقط بين أيدي بني إيزناسن المناصرين للأمير، ولكنَّه استطاع أن يفلت بصعوبة وهو يؤكِّد بأنَّ الأمير قطع الملويَّة ويتجه الآن نحو الصحراء تخمينات القايد حول مرور الأمير عن طريق القربوس صارت مؤكَّدة.

---

١ ـ Le commandant Bazer

ـ متأكِّد من ذلك، قال لاموريسيير، وهو الآن قريب أو عند القبائل الموالية له التي تنتظره بفارغ الصبر. فهي ناقمة على السلطان الذي أرهقها بالضرائب. ومنذ أن بدأ الأمير تحرُّكه من الجهة الغربيَّة، انضمَّت له ورفضت الاعتراف بالسلطان حتى أنَّ بعضها بايع الأمير. بينه وبينها روابط قبليَّة معقَّدة وأسطورية. يظنونه من سلالة الرسول وأنَّ القوى التي تساعده، قوى خارقة وينسجون قصصاً عجيبة حول انتصاراته.

عندما انتصر الأمير في سيدي إبراهيم في آخر معاركه مع الفرنسيِّين، الكثير من الناس قالوا إنَّهم رأوه يجابه الغزاة بصدر عار والدم ينزف من أطرافه وبجانبه سيدي إبراهيم نفسه. كان مرفقًا بهالة من النور تعمي الأبصار، يرسل أتربته باتجاه النصارى فيرديهم ويمحو أحصنتهم حتى قضى عليهم ومن اختبأ وراء الأشجار والصخور فضحته هذه الأخيرة بأن أعلنت عن وجوده وراءها، فسجن. الزوايا والأسواق والزيارات والحروب تنقل هذه القصص بسهولة. وعن عبوره وادي الملويَّة قيل في الليلة نفسها، إنَّ شيئًا غريبًا قد حدث حتى قبل بدء العبور. الشمس أشرقت من الغروب فأوحت للأمير بأنَّ مكروهًا سيحدث وفي منصف النهار بدأت البروق تشقّ صدر السماء بقوة فعرف أنَّ ما ينتظر فرسانه وعسكره كبير. كانوا قلّة فتعددوا، وعدوهم كان لا يُحصى، فصار لا يذكر. قيل إنَّ مطراً حميمًا سقط على جيوش السلطان فأبادها وجعلها كعصف مأكول. وقيل إنَّ الأمير وجد نفسه محصوراً في مياه الملويَّة فبعث اللّه له بملائكة مجنحة لإنقاذه وإنقاذ دائرته من هلاك مؤكَّد، وأنَّ الملائكة التي أعمت بصيرة ولي العهد العقون وأخيه سليمان هي نفسها التي بعثت بطيور أبابيل

وأشعلت النيران في جيوشهم. هكذا يقول بعض الذين سمعوا عن ذلك اليوم ولم يروه. وأصبحت ضرورة مساعدة الأمير عند جميع الناس، أمراً محتوماً، وإذا حدث وأن سلّم الأمير نفسه للنصارى، سيدفع المسلمون الثمن الذي دفعه اليهود عندما سلّموا سيِّدنا المسيح للرومان لقتله. الكثير من القبائل دفنت سكاكينها في انتظار مرور الأمير حتى تلك التي بدأت في التعاطي مع السلطان والفرنسيين، الكثير من قادتها تراجعوا. صار الخوف والقلق يملآن القلوب.

بدأ جيش لاموريسيير يتوزَّع بانتظام في سرِّيَّة تامَّة، بعيداً عن نظر القبائل التي كانت تراقب المنطقة وتنقل الصغيرة والكبيرة للشوَّافين. وُضعت المدفعيَّة الجبليَّة في مواقع الهيمنة والرؤية الجيدة بينما اختبأ الجزء الأكبر من المشاة في المنخفض الذي يطلّ على القربوس.

ـ يجب أن ندرك أنَّنا في سباق كبير مع الأمير المؤكَّد أنَّه ليس بعيداً عن مواقعنا أو ربما هو الآن يشرب قهوته مع رؤساء قبائل بني ايزناسن أو أهل طريفة وآل امسيردا ولكن يجب أن لا نسهو لحظة واحدة وإلاَّ تبخر كل شيء.

قال لاموريسيير وهو يحاول أن يواصل بحثه في كل المناطق المحتملة.

ـ من الصعب رؤية الأمير فهو لا يتحرَّك إلاَّ ليلاً لأنَّه يعرف أنَّه تحت مراقبتنا الأحسن أن نتحرَّك للبحث عنه مع الاحتفاظ بمضيق القربوس محروساً بدقة.

ـ سنتحرك قليلاً إلى الأمام ربما اعترضنا سبيله، الجواسيس منتشرون في كل الأماكن. من الصعب عليه أن يتفادى هذه الشبكة العنكبوتيَّة.

زحف لاموريسيير بجزء من قواته باتجاه الحدود المغربيَّة وحاول أن يتوغل عميقًا بمحاذاة جبال بني ايزناسن. فجأة سمع طلقات ناريَّة تأتي من أمكنة قريبة، فعرف أنَّها محاولات أخرى لجرّ الأمير ومن بقي معه نحو المصيدة ولكنَّه لم يظهر في أي مكان. لا شيء في الأفق. حتى لاموريسيير بدأت تداخله الشكوك لماذا لا يكون الأمير قد هرب عن طريق الجبال المغربيَّة نحو الجنوب الكبير؟ فرضيَّة بعيدة ولكنَّها ممكنة.

كانت الساعة قد بدأت تزحف بثقل نحو الثالثة صباحًا البرد وصهيل الأحصنة الذي يأتي من بعيد وطلقات البارود المتباعدة التي تبدو مكتومة بسبب السلاسل الجبليَّة المحيطة التي كانت تمتصها أصاخ لاموريسيير السمع. أوقف كل قواته لتحديد المكان بالضبط.

أعطى أوامره للكولونيل مونطوبان لكي يقتفي خطوات ما تبقى من دائرة الأمير التي حدَّدت مساراتها باتجاه المناصب، بعد أن قطعت وادي كيس الذي لم يعق حركتها على الرغم من سيول الأمطار. بينما بعث بالكولونيل ماك ـ ماهون صاحب عيني الديك لحراسة آبار سيدي بوجنان بمساعدة الزواف والفيلق التاسع ومنع الأمير من المرور من هناك، فهي النقطة المحتملة التي يمكن أن يمر عن طريقها، حاجته إلى الماء كبيرة.

بدا على ابن خويا وهو يعود بسرعة أنَّه كان هذه المرة يحمل أخباراً غير عاديَّة، ولهذا لم يستأذن للمرور نحو لاموريسيير. كان بصحبة رجلين من أكثر الناس قربًا من الأمير

عندما وقفا وجهًا لوجه أمام لاموريسيير، تكلَّم أكبرهم سنًّا:

ـ السلطان يطلب منكم الأمان مقابل تسليم نفسه هو وجماعته.

قال الرجل المسن المصاحب لابن خويا. برقت عينا لاموريسيير بشكل حادّ وغير معهود وانجلت كل المتاعب والشكوك، ومع ذلك فقد كتم اندهاشه.

ـ وهل بعث معك الأمير بشيء يستحقّ أن نوليه أهمية؟

ـ معي رسالة عليها ختمه، للأسف الأمطار والرياح الكبيرة، منعته من الكتابة.

في لحظة قصيرة شعر لاموريسيير بأنَّ أيَّام الأمير أصبحت معدودة وأنَّ سقوطه ليس بعيداً. لكن وضعه لم يكن أحسن من وضع الأمير، الخلاء وغياب الورق والأقلام والأختام التي تركها بالمعسكر وهذه الأمطار التي لا تعرف التوقف:

ـ بلِّغوه الأمان، أنا لا أحمل أيّ شيء معي إلاّ سلاحي، ولكن شهادتي الوحيدة هي سيفي أضعه بين أيديكم، عُربوناً عن حسن نيتي.

ثم استلَّه بقوة وكأنَّه يستعد لمبارزة ثم نادى ضابطه بازير:

ـ بازير، سلمني ختمك.

أخرجه هذا الأخير من غمده القماشي وسلَّمه للاموريسيير بدون تردُّد. التفت من جديد نحو ابن خويا الذي بقي مسمّراً في مكانه ينتظر هو والسبايسيَّة المرافقون له وموفدو الأمير:

ـ للمزيد من الأمان، سلَّمه سيفي الذي لم أعطه لأحد قبله وختم بازير معاوني الأساسي وأعطه الأمان من طرفي، له ولكل من معه.

ثم انطلق المبعوثان نحو الأمير بصحبة ابن خويا وأربعة سبايسية.

عندما صعد لاموريسيير نحو معسكره إلى رأس القربوس، كان التعب قد أنهكه. ومع ذلك كانت سعادته كبيرة على الرغم من الشكوك التي كانت تساوره من حين لآخر. فهو يعرف جيِّداً كيف استطاع الأمير أن ينجو من أوضاع ميئوس منها كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحاً بقي هناك في انتظار الردّ.

وما كاد لاموريسيير أن يرتاح قليلاً مع ضبّاطه حتى عاد ابن خويا من جديد بصحبة المبعوثين، في يده رسالة إضافة إلى سيف لاموريسيير وختم بازير. كانت الشمس قد خرجت من وراء جبال امسيردا العالية.

فتح لاموريسيير الرسالة وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه ويكاد لا يصدق أنّ الأمير صار في وضع مثل هذا، وهو الذي خرج دائما من الموت وفلت منه كالشعرة في العجين، ها هو ذا الآن يطلب تأكيدات للوعود. عرف من خط الرسالة أنَّها لخليفته ابن التهامي:

ـ يطلب رسالة واضحة فيها التزام دقيق من طرفكم.

قال ابن خويا الذي كان سعيداً أن يكون وسيطًا في هذه الحلقات الأخيرة من رحلة حياة دامت مدة من الزمن وأمام أسطورة تخلَّت عن الأسطورة لتصبح مجرد حكاية يرويها الناس في الأسواق الشعبيَّة.

طلب لاموريسيير أن يأتوه بحميد السقّال قائد تلمسان، وطلب منه أن يردّ على الأمير وأن يطمئنه بكلمة لاموريسيير. وأن يبعث برسالة الأمان التي أملاها لامويسيير عليه كلمة كلمة:

«لديّ الحقّ من ابن ملكنا لإعطائك الأمان الذي طلبته مني والسماح لك بالتنقل من جامع الغزوات إلى الإسكندريَّة أو عكا ولن نقودك إلى مكان آخر غير الذي طلبته في رسالتك...»

ثم اختلى لاموريسيير في خيمته هو وبازير وطلب من حرّاسه أن لا يُزعج إلاّ في الحالات الخاصة جداً. كان على يقين الآن أنّ الأمير يريد بالفعل تسليم نفسه وأنّ المسألة هي مسألة وقت لا أكثر كان يريد أن يطرح أسئلة كثيرة على بازير وأن يعرف رأيه في كل ما كان يحدث أمامه، ولكنّه فضّل الكتابة مباشرة إلى ولي العهد، حاكم الجزائر، الدوق دومال ليزكي ما قام به:

«الناس الذين حادثتهم هذا المساء أكّدوا لي حالة الضياع التي يوجد فيهاعبد القادر وتظهر جليًّا حالة الفوضى التي أحدثتها في صفوفه الطلقات الناريَّة لهذه الليلة. بدأت في صياغة هذه الرسالة وأنا تحت وقع هذه الأخبار المتضاربة عندما جاءني ابن خويا بصحبة مبعوثي الأمير كان يحمل سيفي وختم الكومندار بازير إضافة إلى رسالة من الأمير كتبها صهره، مصطفى بن التهامي. أُردف نسخة منها مترجمة صحبة هذه الرسالة وجوابي عليها. وجدت نفسي مجبراً لاتخاذ هذه الالتزامات تجاه عبد القادر ولي الثقة الكاملة في سموكم والحكومة في تزكيتها إذا وثق الأمير في الأمان الذي أعطيته له...»

* * *

- ٧ -

الصمت وسماء مقفرة مثل الموت.

لم يتكلم أحد.

هذا اليوم، ٢٣ ديسمبر، لم يكن يشبه أيّ شيء آخر. لقد اختزل كل السنوات السابقة، مليئًا بالصمت والحيرة والرعشة التي تسبق الموت عادة. الأيام كذلك تشبه البشر في أحزانهم وخيباتهم. كان الصمت يلفّ مقام سيدي إبراهيم الواقع على هضبة صغيرة، فوق وادي يستحم فيه الزوار عادة كلّما زاروا المقام الذي يسيجه القصب وشجر الرمان. كانت الرياح قويّة على الرغم من أنّ الأمطار قد توقفت لكي تترك بعض الأشعة تتسرّب من بين الشجيرات التي تخترق ساحته، نحو الوجوه التي لفحها الجوع ومتاعب المعارك والانكسارات.

تقدّم الكولونيل مونطوبان من الأمير منحنيًا احترامًا له، على رأس خمسمائة خيّال. ثم أعطى أوامره لفيالقه لكي تبتعد قليلاً عن

طريق الأمير وجنده. حيَّاه تحيَّة عسكريَّة ثم تركه يمر نحو جامع سيدي إبراهيم لتأدية الصلاة الأخيرة في هذا المقام كما اشتهى ذلك. اعتذر الأمير ممن كانوا يصحبونه، ثم نزل عن حصانه الأسود الذي أحنى رأسه قليلاً وصهل ثم استقام برجليه الأماميتين ولم يتحرَّك. سلَّم سيفه لأحد مرافقيه. انحنى الأمير قليلاً عند البوابة المنخفضة ثم دخل مقام الولي الصالح قبل أن يتسلَّل بعده الخليفة مصطفى بن التهامي والقايد قدور بن علال الذي لم يتوصل بعد إلى إطفاء جمرة كانت تتحرق في داخله وهو يقرأ الأوجاع التي ارتسمت على كل الوجوه المحيطة بهم.

استقام الأمير في مقدمة المجموعة بدون أن يلتفت وصلّى ركعتين. جلس قليلاً ورفع يديه ثم تمتم بصمت. اشتعلت في داخله الحرائق الأخيرة. شعر بألم قويّ يصعد من ساقه حتى ظهره. رفع برنسه قليلاً، كان الجرح ما يزال ينزف على الرغم من قطعة القماش التي حوّط بها رجله اليمنى. بقايا عبور الملويَّة. أراد أن ينظر إلى السماء ولكنَّه لم يفعل. أغمض عينيه قليلاً، ثم استغفر وقام. تبعته المجموعة الصغيرة من القادة التي اصطفت وراءه انتعلوا أحذيتهم الطويلة وارتدوا برانيسهم ثم ركبوا خيولهم، وساروا في وسط القوات الفرنسيَّة بصحبة الفيالق التي كانت تطوقهم عن بعد باتجاه جامع الصخرة بالغزوات، الذي لم يكن بعيداً عن مكان لقاء ولي العهد الدوق دومال الذي كان ينتظر الجميع هناك.

حلَّقت فوق رؤوسهم أسراب طيور الغاويَّة بأجنحة مفتوحة عن آخرها وكأنَّها كانت تسابق الريح بحثًا عن أرض أخرى أكثر دفئًا وأقل كآبة:

التفت الأمير نحو القايد قدور بن علال الذي كانت ملامحه مشدودة عن آخرها:

ـ شفت يا السي قدور، الطيور نفسها تهاجر عندما تنغلق في وجهها سبل الدنيا يغفر شبابك وسنّك لحزنك ولكآبتك. ما يزال في الدنيا متّسع لكي تنفع أرضك وبلادك بالشكل الذي تشتهيه.

ـ نعم يا أمير المؤمنين، قلبي يؤلمني كثيراً. ولكن يا سيدي لا شيء فوق الطيور إلاّ السماء ولا شيء تحتها إلاّ الأرض، أما نحن. عذراً، لم أفكّر جيّداً عقلي لم يعد معي. الهزيمة مرّة.

أراد الأمير أن يقول له: لم نُهزم ولكنّه لم يفعل. التفت نحو الفيالق المحيطة بهم التي كانت تتسرسب وراءهم كالثعبان الذي له العديد من الرؤوس المتجددة. كانت بعيدة قليلاً ولكنّها كانت تسير بانتظام محكم وهدوء واتزان كبيرين. تذكر الأمير تكدامت التي لم تعد الآن إلاّ بقايا حلم اندثر:

ـ معك حق يا ابني، لا شيء يضاهي الحريّة، لكنّ الأقدار أحياناً أقوى من كل الإرادات لسنا أول من يختار حل المنفى على الهزيمة المرّة التي تبقى في الذاكرة مدة طويلة.

ـ الشهادة يا أمير المؤمنين ليست هزيمة ولكنّها حياة وعبرة لمن يأتي بعدنا

ـ الشهادة يا ابني تأتي ولا نطلبها هي استحقاق يمنحه اللّه لمن يشاء. لم يكن ذلك من حظنا هذه المرة مرات عديدة وصلنا إلى عنق الموت ثم خرجنا بقدرة قادر. وفي هذه الحالة يجب أن لا نحاسب اللّه لأنّه وهب لنا حياة جديدة.

لم يجد قدور بن علال ما يردّ به على الأمير ولكنّه واصل تأملاته مخترقًا الأرتال التي كانت تغطي عنه الجبال والأمكنة التي قطعها في آخر معركة بسيدي إبراهيم. كان يشعر بانقباض كبير في داخله.

كانت الجبال تنسحب بسرعة، الواحد تلو الآخر.

تأمّلها الأمير وشق تربتها وأشجارها بعينيه وسماءها التي فقدت فجأة دفأها تذكّر في لحظة من اللحظات أنّه عبر منحدراتها واحداً واحداً وقاسم أهلها الآلام والسعادات الصغيرة. كانت الأحاسيس واللغة الصامتة تنسلُّ بصعوبة من أعماقه. شعر فجأة بالوحدة القاسية على الرغم من أنّه كان مسيّجا بالعساكر ومحوّطًا بما تبقى من رجاله: مصطفى بن التهامي، خليفة معسكر السابق وعبد القادر بن خليفة، قايد تكدامت، قدور بن علال حفيد سيدي مبارك الذي استشهد في السبخة وهو يسير بالدائرة نحو الأراضي المغربيّة، وسيدي أحمد السقال قايد تلمسان السابق الذي استقبلهم في سيدي إبراهيم، والقايد بن خويا الذي كان وراء المفاوضات الصعبة التي كادت أن تسقط وتتبخر لولا رزانة بن خويا الذي قدّم عنقه للقبائل إذا حدث أي مكروه للأمير، وأعطى كل الضمانات الممكنة قبل أن يحسم الأمير النقاش بكلمة كانت كافية أمام الرؤساء الذين لم يبلعوا استسلام الأمير على الرغم من الضمانات المقدّمة، المكتوبة منها والشفهيّة:

ـ اللي بقى في عمره نهار، مات. هكذا يقول الذين سبقونا واختبروا الحياة قبلنا أعطيت كلمتي والفرنسيون استجابوا لمطالبنا سأسلّم أمري للّه، أنا ومن معي

كان الارتباك باديًا على العيون التي ظلت ترفرف دهشة مما كان يحدث أمامها. لا أحد كان بإمكانه أن يصدّق ما كان يحدث

أمام عينيه. كانت الوجوه باردة كوجوه الأموات وهي تودِّع الأمير في خروجه الأخير صوب المجهول.

سكنت الأشجار والعصافير والريح.

سارت القافلة صوب جامع الصخرة. في المساء نفسه التحق الدوق دومال ولاموريسيير بالبقية، مصحوبين بالمترجم الرئيسي روسو[1] زاروا الأمير الذي كان جالساً في زاوية حجرة صغيرة تحت نور خافت لقنديل زيتي لا يتوقف عن بعث أدخنة خانقة. بدا وجه الأمير نحيفًا وغميقًا تحت تأثير الضوء القليل، وتعمَّقت الأخاديد التي نبتت في جنبات وجهه وزادت لحيته التي حاول تهذيبها قليلاً تشتتاً على وجهه فالتهمت أجزاء كثيرة من بهائه المعتاد وتوهجه.

أراد الأمير أن يقوم من مكانه لتحيتهما ولكن لاموريسيير مدَّ يده بحنو إلى الأمير لكي يبقى في مكانه ولا يزعج نفسه، وانحنيا هو والدوق دومال أمامه:

ـ مرحبًا بك أيها السلطان، قال الدوق دومال وهو يبحث عن كلماته. نتمنى أن تكون كل الأشياء صارت على ما يرام وكما أردتها

ـ الحمد للّه يا سيدي. ما كنت تتمنى حدوثه أنت وجيشك الكبير، قد حصل، لا سلطان لنا على الأقدار هذا ما أراده اللّه لنا.

بعد لحظات من الصمت بدت طويلة، أجاب الدوق دومال:

ـ الجنرال لاموريسيير أحاطني علمًا بكلّ ما حدث بينك وبينه وأعطاك الأمان بأن لا تظل سجيناً لدينا وستنقل إلى الإسكندريَّة أو

---

١ ـ Rousseau

عكا. فأنا أزكي هذا الالتزام وأثمن حكمتك. وبمشيئة اللّه ستسير كل الأمور بما يرضي الجميع. ولكن كما تعرف، ننتظر موافقة الملك ووزرائه للتأكيد وتنفيذ ما اتفقنا عليه نحن الثلاثة. مسألة وقت لا أكثر.

ـ إن شاء اللّه.

في تلك الليلة لم يتحدَّث الأمير كثيراً ولكنَّه انفصل في زاوية وظلّ يقرأ القرآن ويتمتم بخفوت كبير، إلى أن جاءه الكولونيل مارتيمبري[1] مصحوباً بطبيب. تفحص ساقه المجروحة. وضع عليها بعض المساحيق والمراهم ولفَّها في شاش أبيض يمنعها من التعفن. ثم خرج الرجلان بعد أن اعتذرا للأمير على الإزعاج.

كانت الحيطان مغلقة ولا شيء يسمع إلاَّ هدير البحر وعواء السفن الخشنة وهي ترسو في الميناء المحاذي لمكان حجز الأمير. في تلك الليلة نام باكراً على غير عادته، في الزاوية التي كان يتَّكئ عليها من الحجرة الصغيرة التي أظلمت عندما انطفأ القنديل لوحده بعدما انتهى زيته، في ساعة متأخِّرة من الليل. لم يكن يسمع شيئًا إلاَّ خطوات العسكر وحركة السيارات المنقولة بأحصنة والأوامر العسكريَّة التي تناهت إلى سمعه في تلك الليلة الشتوية. كانت أمواج البحر تصطدم بالحيطان القريبة من مرقده وكأنَّها كانت تضرب على رأسه وجسده المنهك بقوة وبلا رحمة مثل الأيادي الخشنة.

في الصباح، ارتدى ألبسته التقليديَّة، حايكًا شديد البياض وبرنوسًا قهوياً وطلب من خدمه أن يأتوه بحصانه الأسود. مسَّد على ظهره قليلاً ثم التفت نحو صهره ابن التهامي:

---

١ ـ Martimprey

ـ يخون البشر وهذا الحصان لا يخذل صاحبه. لقد حفظني من الموت العديد من المرات وها أنذا اليوم أُجبر على تركه على هذه الحافة من البحر.

ـ الفرنسيون لن يعترضوا إذا شاء سيدي أن ينقل حصانه معه إلى الإسكندريَّة أو عكا، هذا ما فهمته من لاموريسيير وكبيرهم.

ـ لا يا السي مصطفى، عندما نريد أن ننسى ألمًا عميقًا علينا أن نتخلص من كل ما يمكن أن يوقظه. الساعة عندما تتوقف، انتهى الأمر. لا يمكن أن نمدّد زمنها ولو ثانية واحدة، وساعتنا توقفت على هذه الحافة. دخل المترجم روسو قبل الوقت بقليل، مصحوبًا بمجموعة من الضباط ليخبر الأمير بأنَّ كل الترتيبات جاهزة والجميع في انتظاره في الميناء.

ـ سيدي السلطان، صاحب السمو الملكي الدوق دومال والقادة العسكريُّون في انتظارك لتحيَّة الوداع والإعلان عن نهاية الحرب رسميًّا والدخول في عهد جديد نتمنى أن يطول كثيراً

انسلَّ الأمير من مجوعته وسار باتجاه الدوق دومال والشخصيات العسكريَّة والمدنيَّة، وسط كتائب اصطفت على الجنبات لتحيَّته.

كان يسير وحيداً. بدت له المسافة طويلة وكأنَّه كان يقطع الصراط المستقيم، ملفوفًا في برنسه الثقيل الذي لم تحرِّكه الرياح التي زادت قوتها منذ الصباح، وراءه خادمان يقودان حصانه الأسود عندما توقف بالقرب من ولي العهد، أحنى هذا الأخير رأسه قليلاً ثم رفعه، فالتقى وجهه بوجه الأمير الذي التمعت في عمق عينيه الزرقاوين خمس عشرة سنة من المقاومة دفعة واحدة، كالبرق. انعكست في نظرته الهادئة التي سرقت من البحر لونه، الأشجار التي

مالت بقوة مع الرياح. أخرج الأمير يده اليمنى ثم أخذ الرسن من الخادمين والتفت نحو الدوق دومال:

ـ أهديك أعز شيء لديَّ الآن وآخر ما ملكت يداي. هذا آخر حصان ركبته ولي تجاهه عاطفة خاصة. أتمنَّى أن يقودكم دائمًا نحو السلام والخير.

ـ أقبل به كضمان لتوقيفك الحرب وكرمز لنسيان الماضي.

بعد الرسميات عاد الأمير وذووه إلى مكان الحجز في انتظار السفر

بأمر من الأمير وموافقة السلطات الفرنسيَّة، باع أحمد السقال الجمال والبغال والخيام والأحصنة وكل ممتلكات الدائرة بعد انفراط الجزء الأكبر منها، لسلطات الميناء. الممتلكات لم تكن كلُّها له وكان عليه تصفية كل شيء وتعويض من كان معه قبل السفر ستة آلاف فرنك أضاف لها لاموريسيير أربعة آلاف فرنك لكي تصبح عشرة آلاف، بينما قدَّم له الأمير آخر سيوفه كهدية وعربون اعتراف لكرمه.

بعد الظهر ركب الجميع، الأمير وحاشيته وأمه لالة الزهراء وزوجاته: خيرة وعيشة ومباركة وخلفاؤه وما تبقى من قادته الذين اختاروا المنفى معه والدوق دومال ولاموريسيير، على متن السفينة الثقيلة الصولون[1] لتنقلهم نحو سفينة الأصمودي[2] التي كانت في انتظارهم في مرسى الكبير بوهران.

* * *

١ ـ Solon

٢ ـ Asmodée



- III -
باب المسالك والمهالك



الأميرالية (٣)

مدَّ الصياد المالطي يده إلى جون موبي وسحبه قليلاً نحو حافة الأميراليَّة. المقهى لم يكن بعيداً عن مكان نزولهما لفلف جون لباسه. كانت الحركة قد بدأت فجأة تدبّ في المكان:

ـ خسارة، المسافة كانت قصيرة. لم تنه لي قصة مونسينيور ديبوش. أعتقد أنَّ ما لم يُقل عن هذا الرجل الطيِّب كثير.

ـ ذاكرة هذه الأرض ستحتفظ ولمدة طويلة بوجه هذا الرجل الطيب. فقد كان هو والأمير وجهين لعملة واحدة. انتهيا نحو المنافي والعزلة. مونسينيور عاد إلى الأرض التي أحبَّها وأتمنَّى أن يجد الأمير يومًا مكانًا له على هذه الأرض التي أعطته من تربتها وأعطاها من لحمه. هل تريد أن تشرب معي قهوة قبل أن أنسحب نحو الكنيسة في انتظار بدء المراسيم.

ـ كنت أريد أن أدعوك لذلك ولكنَّك سبقتني.

ربط المالطي مركبه. وعندما سلَّم له جون موبي النقود، رفضها ولكنَّه نزل معه في منحدر الأميراليَّة لشرب قهوة الصباح. كانت رائحة القهوة المحمَّصة والسمك المشوي والحمص والذرة تأتي من بعيد، من ميناء الجزائر المتآكل والممتلئ بالحركة التي لا تتوقف أبداً، تجار، بطالون، سماسرة، بائعو الحشيش، هزية للنساء والرجال وصيادون فقراء وبحَّارة محترفون.

سحب المالطي كرسيًّا له وآخر لجون موبي وراح يجرهما ليس بعيداً عن حافة البحر، قريباً من زوارق الصيد. حكَّ جون موبي رأسه كمن نسي شيئًا ثم وجده. شعر فجأة بالزغب يملأه ويعطيه نوعًا من الشيخوخة المبكرة. حاول أن يستعيد عبثًا اليوم الذي اضطرّ فيه مونسينيور ديبوش إلى مغادرة الجزائر تحت ضغط الدائنين. لم يجد الخيط الرابط إلاَّ عندما رأى عائلة بكاملها تتَّجه نحو السفينة وكل واحد يحاول أن يجرّ الآخر نحوه لإبقائه قليلاً قبل الذهاب الذي قد يكون بلا عودة. الناس في هذه الأرض، كلَّما اشتدّ الحال عليهم، يخرجون. وفي الأغلب الأعم لا يعودون على الرغم من وعودهم.

التفت جون موبي نحو الصيَّاد المالطي بسرعة كمن يكتشف السر الذي نام في أعماقه طويلاً:

ــ هل تعرف أنَّ الدنيا أحيانًا ظالمة.

ـ ظالمة وغير رحيمة أبداً طبعًا أعرف ذلك. لولا رحمة اللّه التي تأتي حيث لا أحد ينتظرها لكانت جحيمًا لا يطاق.

ردّ المالطي بدون أيّ تردّد كمن خبر الدنيا طولاً وعرضا وعرف أسرارها.

ـ الدنيا التي نعيشها لا تمنحنا دائما ما نريد. مونسينيور ديبوش عندما دخل إلى الجزائر كان مصمّمًا على تغيير وجهها

ـ حماسه دفع به إلى تحويل المساجد إلى كنائس أو إلى مستشفيات. هذا لم يحببه فيه الكثير من المسلمين. رأوا فيه رجلاً غير محقّ في عمله، ولكنّهم لا ينسون خيره في إطلاق سراح المساجين والتكفل بالأيتام ومساعدة المعدمين.

ـ مونسينيور رجل متحمّس وفي حماسه ربما قد ارتكب الكثير من الأخطاء في حقّ نفسه أولاً ثم في غيره. لكنّه منذ أن تعرف على الأمير تغيّر كثيراً. فهو من ركض طولاً وعرضًا ليعطي الأمير وحاشيته مكانًا يصلّون فيه ويقيمون آذانهم في قصر أمبواز وعودته إلى الجزائر ليست إلاّ جزءاً من ذلك. عندما دخل على الأمير كان يحلم بتمسيحه، بل إنّه وصل إلى التفكير في ضرورة اصطحابه لروما وتقديمه للبابا لتعميده، لكنّه عندما خرج من عنده في المرة الثانية، ازداد يقينا أنّ الأمير جيد في مكانه، وأنّ كليهما يخدم الناس واللّه بطريقته. وربما بنفس الحماس والعزيمة.

عاد المالطي إلى تساؤلاته الأولى:

ـ كنت تريد أن تحدّثني عن ملابسات خروجه من الجزائر.

ـ من كثرة حماسه وتأخّر وصول التعويضات ضغط عليه الدائنون بقوة وطالبوه بالدفع. الشيء المؤكّد الذي لم ينكره عليه حتى ألد أعدائه، أنّ كل ما قام به كان من أجل اليتامى والفقراء وتأثيث الكنائس في الجزائر ومساعدتها على الظهور بأفضل وجه يرضى عليه اللّه. وجد نفسه فجأة يسير أكثر من ستة عشر مستشفى

وثلاثًا وعشرين مقاطعة سكانيَّة بين الأمراض والجوع، في حاجة ماسة إلى زياراته. أضف إلى هذا، السجون ودور اليتامى وبيوت اللّه لاستقبال الذين لا مأوى لهم. ما مُنح له كان أقل بكثير من حاجته الحقيقيَّة. في غياب التوظيف، استعان بقساوسة متعددين ليجد نفسه أمام وضعيَّة معقَّدة وهي كيفيَّة الدفع لهم. فتح مدارس دينيَّة وغير دينيَّة وعجز عن تسييرها. حلمه كان أكبر من إمكانياته. الكثير مما وُعِد به ذهب نحو المجهود الحربي. وحتى جهاز نشر الإيمان[1] أوقف مساعداته التي كان يخصِّصها للكنيسة الجزائريَّة أو للقساوسة.

ـ عجيب؟ لا أفهم لماذا يفعلون ذلك وهم يعرفون الحاجات الماسَّة.

ـ أكثر من هذا. في ١٨٤٤ سكان مزغران فتحوا اكتتابًا لبناء مكان يصلون فيه على الأقل، بسبب فقره، تبرع مونسينيور بحصانه. وعندما أخفق المشروع، لم يُرجع له الحصان بل وطُلب منه دفع ستمئة فرنك فرنسي كتعويض للجهات المتضررة. ومقابل مطالباته لم يتلق إلاَّ كلمة: Fait accompli! وجد نفسه في دائرة من حديد جشع الدائنين لم يمنحه أيَّة فرصة للحلّ. حتى عندما منحت له الدولة قطعة أرض بـ ١٢٠٠٠ متر، فكَّر بالاحتفاظ بقسم منها لمؤسسة الأبيار بينما يبيع الجزء المتبقي ويدفع به الديون المتراكمة، قيدته بتفاصيل إداريَّة كانت تتجاوزه. يوم التوقيع مع المشتري، جاءه المسؤول عن أملاك الدولة ومنع عمليَّة البيع. تحت هذا الضغط، بعث في ٩ ديسمبر

ـ ١ L'œuvre de la propagation de la foi

١٨٤٥ استقالته إلى روما وانعزل في معتزل[١] سطاولي متمنيا أن ينهي حياته في صمت وحدة. ولولا تدخل مونسينيور دوني لانتهى وضعه إلى السجن. فقد طلب هذا الأخير من كل رجال الدين الذين يعرفهم ووزير الأوقاف، الوقوف بجانبه وجمع له ما خفف عنه الضغط. وعندما استُقبل الأب مونتريا[٢] من طرف الملك لويس فيليب أثناء زيارته لباريس، عرض عليه وضعيَّة مونسينيور ووعد بمساعدته ولكن الرسالة التي وصلت من الملك لمونسينيور ديبوش كانت تتأسّف عن عدم تمكُّن الكنيسة من مساعدة مونسينيور وأنَّ هناك تفكيراً جديًّا لحلّ أرشوفيشي الجزائر العاصمة لأنَّها مكلفة جداً للخزينة. وحتى زيارة مونتريا للمقر بروما لم تفد في شيء. اضطر في الأخير أن يذهب مونسينيور إلى صديقه البارون دو فيلار Le baron de Vilard ويستقرّ عنده مدة من الزمن. قبل أن يصمم على ترك كل شيء والخروج من الجزائر ذات فجر بارد ومضبب، ويترك وراءه هذه الكلمات التي مازلت إلى اليوم أحفظها عن ظهر قلب **اخترت ما اقترحه عليَّ أصدقائي المقربون ممن أثق فيهم، أكثر الحلول مرارة، وهو مغادرة أرض الجزائر بعد سبعة أشهر ونصف الشهر من التردد والألم مجدداً أسفي لهم وحزني الصادق على عدم الوصول إلى تنفيذ ما كنت أوده. واعداً دائنيَّ بأنّي سأدفع لهم حقوقهم حتى المليم الأخير. واللّه المعين. ثم ترك لي هذه الكلمات:**

Mon cher Jean, je ne vous fais aucune proposition; mais je serais heureux si vous vouliez partager mon sort jusqu'à la mort.

---

١ - Trappe

٢ - L'abbé Montréa

كانت هذه آخر كلماته في هذه الأرض الطيِّبة والصعبة. وخرج فقيراً معدماً من الحدود الدنيا للحياة وهو الذي أعطى البلاد كل ما ملك من خير، ولم يكن أمامي إلاَّ أن أتبعه في ترحاله ومنفاه الذي لم يتوقف حتى موته. عندما ذهب لم يلتفت وراءه أبداً في مثل هذا الشهر، ٢٢ جويلييه ١٨٤٦ في فجر بارد يشبه الليل في كل شيء مثل هذا الفجر الذي قطعنا فيه البحر. ركبنا مركبة صغيرة قطعت بنا ساحل مصطفى لتقودنا نحو السفينة الراسيَّة في عرض البحر. كنَّا برفقة قسين عزيزين على مونسينيور ديبوش: مونتريا وكيستيل[١]

ـ إنَّ الأقدار من الغرابة بما يكفي خرج في الشهر نفسه وتقريبًا في اليوم نفسه الذي عاد فيه إلى هذه الأرض. وتختار أنت الفجر لذر رماده وتربته في البحر في وقت خروجه نفسه. المسلمون يسمُّونه هنا المرابط الكبير، ولهذا يحفظون له كل الأعمال الخيريَّة التي قدَّمها لهم.

ـ كان خيره فوق الأديان.

شرب جون موبي قهوته، ثم التفت نحو البحر الذي كانت موجاته تتدحرج لتصل حتى الحافَّة التي كانا يجلسان على طرفها ليس بعيداً عنهما، تبدو سفينة الطاميز راسيَّة بعد أن رمت مرساتها الضخمة وبدأت تستقبل حركات المركبات الصغيرة التي لا تتوقف جيئة وذهابًا نحوها تفرغ حمولاتها الكثيرة في عمقها وتعود محمَّلة بسلع أخرى.

---

١ ـ Il s'agit des deux prêtres, deux amis dévoués de Monseigneur Dupuch: Montréa et Questel.

ـ غداً في مثل هذا الوقت، إذا سار كل شيء بشكل طبيعي وكانت الطبيعة رحيمة معنا، سننطلق باتجاه ميناء مارسيليا أو طولون، لا أعلم. وبعدها اللّه يعلم البقية. سأكون مرتاحًا على الأقل اتجاه مونسينيور الذي منحني الحياة وراحة البال. وسأكون قد أديت ما كان واجبًا علي

ـ لماذا لا تبقى هنا، هذه كذلك أرضك.

ـ لا لم أعد أعرفها منذ أن غادرتها وعندما نغادر أرضًا في ظرف قاهر، إما أن نتشوّق لها أو تزداد توحُّشًا في أعماقنا لن أعود حتى لبوردو ولكن سأذهب إلى ضيعتي، فهناك الكثير ممن أحب. العمر يزحف والطيور عندما تريد أن تموت تقترب من أعشاشها الأولى. وعشي صار هناك.

هزّ الصيَّاد المالطي رأسه ولم يقل شيئًا ولكنَّه رمى نظره بعيداً في عمق البحر الذي كان صافيًا كمرآة، ينزلق على سطحه الهواء الصباحي خفيفًا كالروح الطيِّبة.

بينما كان جون موبي قد انغمس من جديد في وجه مونسينيور ديبوش الطيب الذي زاد إشراقًا ونورًا وصفاء مع الأشعة الباردة التي انعكست على المياه بشكل فضي، فاغمض عينيه قليلاً من قوة البياض وترك نفسه يغرق شيئًا فشيئًا في عمقه، في لذة سعيدة قليلاً ما يشعر بها في لحظات انكساره وحزنه.

*



الوقفة العاشرة

سلطان المجاهدة



- ١ -

كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا عندما تخطّى مونسينيور مدخل الصالون، تحت أقواس القصر العالية، منحني الرأس كعادته كمتعبِّد بوذي، فتدلَّى صليبه على صدره بشكل ظاهر. عندما رفع رأسه، رأى صورة له مكبّرة قليلاً مبرزة في إطار خشبي مغسول بماء الذهب، هو بلحيته والصليب الواضح الذي يتدلَّى من عنقه. عندما حاول أن يتساءل، أجابه الأمير الذي استقبله تاركًا وراءه ضيوفه ينتظرون قليلاً:

ـ أهلاً بأخي العزيز. أهلاً بالمرابط الكبير.

ـ لي كل هذه المعزة أيُّها السلطان الكريم في قلوبكم؟

ـ كانت صورتك السمحة دائمًا مطبوعة في عمق قلوبنا جميعًا، ولن تمحى أبداً ولكنَّنا سعدنا لوجودها على مرأى من عيوننا باستمرار.

ـ سعيد بهذا الشعور النبيل وأملي أن لا أكون قد أزعجتك.

ـ أنت تعرف أنّي أنتظرك.

كان الأمير هذه المرة في استقبال أناس خاصّين أغلبهن من نساء الطبقات الراقية في المدينة، أو اللواتي يأتين من بعيد لملاقاة هذا الرجل الذي أنقذ أزواجهن أو أهلهن من موت مؤكّد أيام الحرب القاسية. التفت مونسينيور ديبوش باتجاهي. شعرت بأنّه سيؤنبني لأنّي لم أعلمه بانشغال الأمير كما جرت العادة قبل عبوره البهو. قبل أن أبدّد حيرته، قام الأمير بفعل ذلك:

ـ لا تهتم يا مونسينيور، أنا قلت لجون بأنّي فارغ الشغل. لا أريدك أن تنتظر، لقد انتهيت مع ضيوفي، دقائق وسأكون لك.

ـ لا أريد أن أقلقك مع ضيوفك، بإمكاني أن أذهب ثم أعود لك.

ـ لا يوجد أيّ إزعاج. هل نمت جيّداً في هذا القصر الكبير.

ـ أنت تعرف يا سيّدي بأنّ زاوية صغيرة وسط هذا الفضاء اللامحدود تكفيني. أحيانًا حتى هذا الجزء الصغير نحارَب فيه. نحن لا نطلب أكثر من شبر يستر أجسادنا عند الضرورة. الحياة قاسية أحيانًا ولكنّها تستحقّ أن نمحنها كل ما تستحقّه من اهتمام.

ـ معك حقّ يا مونسينيور تفضّل معنا، لا نناقش أسراراً كبيرة.

ـ أخشى أن أعطّل عليك استقبالاتك.

ـ أبداً، يشرفنا حضورك. والناس هنا ليسوا غرباء عنك. مكانك كبير عندهم، تفضل معنا، ثم أنت ضيفنا هذه الأيام وليس هناك ما يستحقّ أن تعتذر عليه. أنت وجون صاحبا البيت. كنَّا نتحدَّث قبل مجيئك عن أشياء كثيرة وعن الحريَّة التي لا شيء يضاهيها يا مونسينيور والشقوق التي يحدثها فقدان الأرض الأولى فيها، وأنت سيِّد العارفين.

ـ أعرف أيُّها السلطان الطيِّب أنَّ الإنسان عندما يغادر تربته كأنَّ جلده يُنزع وهو حي. عشت قليلاً مما تعيشه أنت اليوم. ربما اختلفت الأسباب ولكنَّ الأحزان واحدة. ومن جهة أخرى، هذه الآلام وهذه الجراحات النازفة دومًا هي ما يصنعنا ويقوينا لمواجهة ما تبقى من شطط الحياة الصعبة.

ـ تفضَّل، اجلس.

جلس مونسينيور وانزوى يستمع باهتمام بعدما حيًّا برأسه كل الحضور:

ـ Mesdames, Messieurs.

ثم التفت الأمير نحو المرأة التي كانت تحاوره:

ـ أنا هنا ونستطيع أن نواصل.

ـ طيِّب. ألا يربككم سؤالي الأخير أيُّها السلطان. سؤال أخير وأترككم لضيفكم الكريم، لا أريد أن آخذ أكثر من وقتكم.

ـ لم يعد هناك ما يربك. كلي آذان صاغية.

ـ أرى أنَّ الزواج عندكم محكوم بفوضى كبيرة؟

ـ أفصحي قليلاً، لم أفهمك جيِّداً. فهناك من يتهمني بالانضباط الزائد في علاقاتي وزواجي ولا أشبه أسلافي.

ولم يستطع أن يكتم ضحكته الخجولة التي انسلّت من شفتيه.

ـ طيِّب. لأقلها لك بدون مواربة ولا انزلاقات لغويَّة. لماذا تتزوَّجون نساء كثيرات وليس واحدة مثلما نفعل نحن في ثقافتنا.

ابتسم الأمير بحياء مرة أخرى، ثم مدَّ يده نحو لحيته، مسَّد عليها قليلاً ثم أجاب بثقة كبيرة ولم يبد عليه ما يربكه كما كانت السيِّدة تتصور:

ـ قولك في ثقافتنا يبيِّن أن هناك عادات وتقاليد وثقافات وخصوصيات. كل دين له ميزة المكان والقوم الذين نزل فيهم. ومونسينيور يتَّفق معي، لقد تذاكرت معه في هذا الموضوع طويلاً وأعرف رأيه جيداً. لا توجد أديان خارج الناس الذين احتضنتهم ورسخت أشواقهم وأفكارهم وحنينهم إلى الكمال.

هز مونسينيور رأسه بالموافقة بدون أن يتدخل. بينما واصل الأمير ترتيب إجابته للمرأة التي كانت تبحث عن الإحراج أكثر مما كانت تبحث عن إجابة ترضي فضولها

ـ سيدتي الطيِّبة، نقوم علانيَّة بما تقومون به سرِّيًّا بين المرأة والرجل سحر رباني خاص وجاذبيَّة لا تُقاوم. الإنسان قد يحب امرأة من أجل عينيها، وأخرى من أجل شفتيها، وثالثة لجسدها وأخرى لنور علمها وفكرها وانفتاح قلبها، عندما نعثر على امرأة تحمل كل

هذه الصفات مثلك، سنكتفي بواحدة ولن نختار غيرها ونقبل أن نموت في أحضانها. الجمال خلقه اللّه للرجال والنساء وديننا ودينكم لم يعملا إلاّ على تهذيب العلاقات بدون إقصائها هل هذا يكفي أم أضيف شيئًا آخر.

ـ شكراً يا سيدي، يكفي لهذا اليوم. كلامك طيِّب ومقنع.

ثم سكتت وعيناها تبرقان أنَّها وصلت حتى الأمير وطرحت عليه ما تصورت أنَّه سيحرجه، ولم تضف كلمة أخرى، ولكنَّها تركت ابتسامة مشرقة تنزلق بهدوء على شفتيها.

عندما انتهت المساجلة، قامت هي ومن كان معها لتدخل إلى دار النساء، فقد كانت ضيفة لالة الزهراء أم الأمير التي كثيراً ما استقبلت نساء كثيرات يردن النقاش مع الأمير حول أمور شتى من السياسة حتى المسائل الأكثر حميميَّة. عندما خرجت جاء مصطفى ابن التهامي وجلس في مكانه المعتاد، بالقرب من الأمير ليستعدّ للتدوين بينما ظلّ مونسينيور ديبوش مقابلاً له، عيناه مليئتان بالأسئلة التي ما تزال تبحث عن إجاباتها

ـ مونسينيور هل من جديد في رسالتك للرئيس.

تساءل الأمير كعادته.

ـ أنا بصدد الانتهاء منها في هذا القصر، هذه الليلة وأبعث بها غداً إذا أراد اللّه. ستكون الرسالة مرافعة طويلة سأقرأها عليك عندما أنتهي منها، ربما استطعتَ أن تضيف لها شيئًا جديداً من عندك. سأنتهي منها ولو كان ذلك دائما على حساب الرجل الطيب عزيزي

جون موبي الذي يوفر لي كل ظروف الراحة والعمل ويعاملني كطفل صغير.

ـ حاشا سيدي أن أكون قد فعلت أكثر مما يمليه عليَّ الواجب.

تمتمتُ وسكتُ.

ـ البركة كل البركة فيك يا مونسينيور. واصل الأمير. أعتقد أنَّنا قلنا كل ما كان يجب أن يُقال. استماتتك في الدفاع عن قضيتي لا يجزيك عليها إلاَّ اللَّه، أما أنا فعاجز حتى أن أردّ لك متاعبك ومشاكلك بسببي واستيقاظك الباكر ونومك المتأخر.

ـ لم أقم إلاَّ بما يمليه علي حسي الإنساني وضميري. ومع ذلك، إلى اليوم يا سيدي لم أفهم حالة التردُّد في الوفاء بالوعد الذي قطعته فرنسا على نفسها لا أفهم جيِّدًا كيف نعطي وعداً في مكان هو أصدق شهادة على الرجولة، ساحة المعركة، ثم ننسى كل شيء. الكلمة صعبة والأمان أصعب. مسؤوليَّة أمام اللَّه وأمام الإنسان، عندما يخرجان من فم الإنسان، يجب أن يجدا صداهما في المحيط.

ـ نحن نقول إنَّ الكلمة مثل الرصاصة، عندما تخرج لا يمكنها أن تعود إلى غمدها، ولكنَّ الناس لا يتشابهون. هم يخافون أن أعود لحمل السلاح. في الحروب، لا نخاف ممن وضع سلاحه اختياريًّا لكن الخطر في الناس الذين حوَّلوه إلى رمز وإلى سلطة بسبب الظلم والحيف، وهذه لا نستطيع تجاهها أيّ شيء. على فرنسا إذا شاءت البقاء هناك أن تدمِّر هذا الرمز فقط. أن تحكم بالعدل، لأنَّه سيأتي زمن، لا أحد يعرف ملامحه، أكثر تطرُّفًا وأكثر قسوة مما عشناه وهذا اللَّه وحده يعرف نتائجه. ليس من السهل أن نختار بلداً ونذهب إليه

بقوة السلاح والموت. الانتصار ممكن بالقوة، لكن البقاء تنهزم أمامه أخطر القوى وأشرسها.

ـ كان يمكنك أن تكتب لهم تعهُّداً لطمأنتهم على الأقل.

ـ كتبته. ولا أدري اليوم إذا كنت قد أحسنت صنعًا قلت لهم لا أملك دلائل أخرى على حسن نيتي. ولو لم أرد أن أسلِّم نفسي وأواصل الحرب، ما كنت هنا، في هذا المكان بالضبط الذي هو اليوم أقرب إلى السجن منه إلى القصر. جئتهم إذن بمحض إرادتي وهذا أكبر برهان على حسن نيَّتي. أتعرف ماذا كان جواب السيد أراغو[1] وزير الحربيَّة في الحكومة المؤقتة: **إنَّ الجمهوريَّة لا ترى نفسها مقيَّدة مع عبد القادر بأيّ تعهد ومن هنا سنتعامل معه بحسب وضعيته السابقة، أي كسجين.** في كل الحقب التي تعرفها عن هذا البلد، حافظت فرنسا دائمًا في إفريقيا على كلمتها التي هي دليل حقيقة وميثاق شرف. وأنا مندهش من تصرُّفها اليوم وهذا اللعب بالنار، فمثل هذه الممارسة ستنجر عليها نتائج وخيمة، فلن يصدقها أحد مستقبلاً

ـ مخجل وأولى لمن نطق بمثل هذا الكلام أن يصمت، ولا يقول مثل هذه الحماقات التي تهين وطنه قبل أن تهينه.

ـ لا أفهم؟ أو لنقل لم أعد أفهم جيداً بلد بهذه العظمة ينسى تاريخه ووعوده التي قطعها؟ ألا توجد لديهم محاكم مكلَّفة بسماع شكاوى المظلومين؟ إذا كانت موجودة فليُدْعَ لها كل علمائهم الأجلاء وسأتكلَّف بمواجهتهم بواسطة حججي وحقي. ما أبعدهم يا

١ ـ Arago

سيدي عن ذلك السلطان المسلم الذي عندما أصيب بحالة صمم، بدأ يبكي ويجيب عن أسئلة الذين سألوه عن السبب فقال: أبكي لأنَّه لم يعد بإمكاني سماع شكاوى المظلومين.

ـ يذكرني هذا تماماً بقصة نابليون. هل تعرف ماذا حدث له. لقد عانى الأمرَّين وقصته من القسوة ما يدمي القلب خيبة وحزناً

ـ لقد تحادثت مع الكابتن الطبيب بواسوني[1] طويلاً وعندما كنت أقاوم، كانت جرأة نابليون وشجاعته دائماً في رأسي ووجدت أنَّ ظلماً كبيراً قد نزل عليه، بعد أن وعده الإنجليز بوضع أفضل. بعث برسالة احتجاج إلى اللورد كيث[2]: **إنِّي أحتجّ بشكل صارخ، في وجه السماء والرجال ضدّ العنف الذي مورس ضدّي، ضدّ انتهاك أكثر الحقوق قداسة باعتقالي بالقوة وحجر حريتي. جئت مخيراً نحو سفينة بليروفون Bellérophon، لست سجيناً، فأنا ضيف إنجلترا. لقد جئت بنيَّة طيِّبة لأضع نفسي تحت القوانين الإنجليزيَّة وما كدت أجلس على متن البليروفون حتى أصبحت في بيت الشعب البريطاني. إذا كانت الحكومة هي التي أعطت الأمر لقائد البليروفون بأن يستقبلني بهذه الطريقة أنا وحاشيتي فقد وضعت نفسها في مأزق. لقد داس على الشرف وبهدل سفينته.** أرأيت؟ قرار الجنرال لاموريسيير بعدم تعليمي الفرنسيَّة وتاريخ فرنسا كلّه لم يفده كثيراً، لقد تعلمت الشيء الكثير. لا أحد يستطيع أن يحجب النور مهما أوتي من قوة.

١ ـ Capitaine Boissonnet

٢ ـ Lord Keith

لم يستطع مونسينيور ديبوش وهو يبتسم من جملة الأمير الأخيرة إلاّ أن يندهش من المعلومات الدقيقة التي كان يملكها فيما يتعلّق بحالته. السنوات سمحت له بأن يرى ما لم يكن يراه على الرغم من آلام المنفى القسري التي كان يعانيها

ـ رجل كبير مثل لاموريسيير لا يشرِّفه مثل هذا الكلام. نابليون خُدع. لم يكفّ أبداً عن الصراخ حتى موته: التاريخ وحده سيقول إنّ رجلاً حارب الإنجليز مدة عشرين سنة قبل أن يأتي بمحض إرادته، في حالة عزلته، ويطلب الانضواء تحت القوانين الإنجليزيّة. هل هناك دليل أقوى كعربون عن احترامه وثقته في إنجلترا؟ كيف كان الجواب أمام هذا السخاء؟ حرم من يد الضيافة وعندما سلّم نفسه، سجن كما يسجن أي رجل مطلوب. ألم يقل سيدي الأمير إنّ الإنسان عندما يغادر أرضه فكأنّه سُلخ جلده وهو حيّ؟

ـ الظاهر أنّ التاريخ لا يفعل الكثير في البشر. يعيشونه، يحسونه عندما يكونون قريبين منه، ولكن عندما تزداد الشُقة بعداً ينسونه ويرتكبون الحماقات نفسها وكأنّ شيئًا لم يكن. النسيان وقت السلطان هو أكبر عاهة يعاني منها الحاكم الظالم

ـ في حالتك، كل شيء كان واضحاً وافقوا منذ البداية على طلباتك ولا مبرر أبداً لعدم احترام وعود قطعوها على أنفسهم.

ـ الموازين تنقلب بسرعة ولا سلطان لنا عليها في مثل هذه الحالات، هناك دائما شكوك تساورنا، يتّضح فيما بعد إذا كانت صحيحة أم لا عندما ركبت الأصمودي من مرسى الكبير، كان الجو عاصفًا وكانت الأمواج تصل إلى أعالي السفينة، وكنت حزيناً

ومرتبكًا ورأسي مملوء بالأسئلة التي لم أكن أملك لها أيَّة إجابات. في لحظات اليأس تمنَّيت بكلّ بساطة أن يسحبنا اللّه نحو ملكوته الأرضي. شيء ما فيَّ كان يوقظ تخوُّفًا كبيرًا من مستقبل غير واضح، وكان عليَّ أن أقنع نفسي بأنَّ كلّ شيء قد انتهى. الأمور كانت واضحة منذ البداية لكنَّ النيَّة لم تكن طيِّبة. كل شيء كان يوحي بالخديعة وإلاَّ كيف نفسِّر التصرفات التي تلت وصولنا ميناء طولون؟ أُخذنا مباشرة نحو قلعة لامالق Lamalgue التي بدت لهم المكان المناسب لاستقبالنا أنا وحاشيتي المكوَّنة من ثمانية وثمانين شخصًا وحشروني كأيّ سارق أو رهينة. لو سقطت جريحًا في قلب معركة ساخنة من على حصاني، مجرَّدًا من أيّ سلاح، لوجدت يدًا محاربة تمتد إلي ولعاملتني بنبل. أقنعوني بالانتظار قليلاً ريثما يتمّ الاتفاق مع الدول المستقبلة، ولولا رفقة الكولونيل دوما القنصل السابق في معسكر وعارف للغة العربيَّة والقبطان بواسوني، اللّه يكثر خيرهم، يئست نهائيًا وأيأست معي محيطي. ولم يبق أمامي سوى الصلاة والحديث مع أمي في لحظات الخلوة وتربية ابني محمد ومحيي الدين على محبة الخير واللّه ودعوة من كان معي بالتحلي بمزيد من الصبر. وعلى الرغم من أنَّ الملك أكَّد لي عن طريق مساعد معسكر الدوق دومال، الليوتنانت كولونيل بوفورت[1] بأنَّه سيشرِّف وعد ابنه. لم أتلق إشارة تجعلنا نفرح. حتى ذهاب الملك لم يغيِّر في الأمر شيئًا. بل زاد الطين بلَّة. عندما ألحق بي إخوتي الثلاثة الذين سلَّموا أنفسهم قبلي، بهدلوهم. عندما نزلوا في ميناء طولون، قطعوا المسافة نحو قلعة لامالق على أرجلهم، هم وعائلاتهم. تخيَّل منظرهم وهم

١ - Le lieutenant colonel Beaufort

يقطعون جسر ليفيس بين الجندرمة والعسس، تركض وراءهم كوكبة من الفضوليِّين الذين حفظوا كل شتائم الإهانات لقد التحقوا بي على أساس أن نذهب جميعاً إلى بلد مسلم ولا يمكن أن تكون هناك خديعتان ضدي وضدهم؟ لماذا يدفِّعونهم ثمن خياراتي؟ لم يأخذوا السلاح يوماً. سلاحهم الوحيد كان كتاب اللّه والمسبحة. ولكن لم يسمعنا أحد. من هنا فكَّرنا يوماً في الانتحار الجماعي على الرغم من أنَّ اللّه لا يحب ذلك. لم نكن نريد الهروب ولكنَّ الموت الجماعي حتى يغطي دمنا الشرف الفرنسي ويبقى لطخة في جبينه. أنت جرَّبت ألم الظلم في منافيك وعرفت الأسرار الكامنة في أعماق الناس. في مثل هذه الحالات القاسية نصاب بحالة عمى، لا شيء أمامنا إلاَّ ضبابة بيضاء تشبه إلى حدّ بعيد القطنة الضخمة التي كلَّما دخلناها ازددنا توغُّلاً في بياض يعمي الأبصار، ثم نتساءل ماذا بقي فينا من تلك الأرض البعيدة: وجوه الأحياء؟ الأموات؟ في النهاية يتساوون لأنَّهم يصيرون كلّهم أحياء فينا، ذكراهم تجرحنا ويملأنا الإحساس بأنَّنا عندما نعود لهم سنلقاهم جميعاً ستقول لي: وهم جميل. ليكن. وهل نملك غير ذلك للاتكاء عليه عندما تنغلق سبل الدنيا في أعيننا خروجي من هنا نفسه أصبح وهما. صرنا في حاجة ماسَّة له لكي نقاوم مسالك الانتحار الذي أصبح قريباً منَّا

ـ الانتحار قاس والأديان نفسها تمقته. وماذا كنتم ستفعلون وأنتم سجناء؟ هل الانتحار لم يكن عملاً هيِّناً ومتاحاً بسهولة.

ـ وهو كذلك. بكلّ بساطة، فكَّرنا برمي أنفسنا في أحضان الحرس لا للهرب، فلم تكن لدينا القوة الكافية لذلك، ولكن للموت

بكلّ بساطة. بين الأمل واليأس مسافة صغيرة يصنعها البشر. بعدها أُخذنا إلى قصر هنري الرابع وأنت تعرف البقية. بقينا أياماً، وعندما بدأنا نتعوَّد على المكان غيَّروه، ولا أدري تحديداً لماذا

ـ قالوا لإعادة ترميمه وإصلاحه.

ـ أنت سيِّد العارفين يا مونسينيور السبب غير مقنع. كلَّما انتقلت عائلتي من مكان لمكان، شعرت بقوة الإهانة.

ـ أنا أشهد على المبالغة التي حدثت بل المغالطة. محضر الأول والثاني نوفمبر يبيِّن عكس ذلك تماماً. لا أريد أن أقول أكثر من هذا، لديّ الكثير من التفاصيل الحزينة لقولها السلام على من غادرونا ولم يعودوا اليوم بيننا على هذه الأرض.

ـ السلام عليهم. إنَّا للَّه وإنا إليه راجعون

عبرت سحابة قلب الأمير فتذكَّر أوجه كلّ الذين ماتوا من ذويه، من لامالق إلى هنري الرابع إلى أمبواز بسبب الإهمال وغبن المنفى والفقدان. صمت قليلاً قبل أن يحتضن بقوة مونسينيور ديبوش الذي ظلّ واجماً في فراغ لم يستطع تحديده.

عندما وقف على عتبة الخروج، كان مونسينيور منكسراً، لأنَّه سيخرج هو ومن معه ليترك القصر بارداً وفارغاً التفت الأمير نحوه:

ـ أرأيت؟ القصر بدونك بارد ولا حياة فيه مطلقاً

ـ سنبقى على اتصال. بيننا الرسائل. أرجو ألاّ تتوقف عن فعل ذلك كل ما كان ذلك ممكناً. أنتظر منكم إشارة، الأخوات يبقين معكم حتى يفرج اللَّه كربتكم.

ـ هكذا إذن، ستغادرنا وكأنَّك لم تبق معنا لحظة واحدة. كم تهرب الأيام بسرعة. إذن عد لنا بسرعة، قلبي لم يشبع منك. في كل يوم نسترق السمع للإنصات إلى خطوات صديق يعبر هذا البهو بمحبة. أنت تعرف أنَّنا اليوم دفنا الفقيد الخامس والعشرين على هذه الأرض.

ـ ألم تقل دائمًا إنَّ أرض اللّه واسعة.

ـ هي واسعة، لكنَّ البشر ضيَّقوها حتى صارت مثل خرم إبرة.

ثم خرج، عندما التفت مونسينيور وراءه. لم ير الأمير، ولكنَّه رأى ظلّه ينسحب باتجاه فراغ القصر المهول الاتساع.

كنت قد سبقت مونسينيور إلى الكاريولا التي جُهِّزت منذ الصباح. ركبها ثم أمر بالانطلاق. وصلنا إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل. كان مزهقًا جلس مونسينيور في مكانه المعتاد يدبج آخر الأسطر في رسالته إلى سيدي نابليون مضيفًا لها آخر ما سمعه من الأمير. لم يكن متحمِّسًا إلاَّ لشيء واحد، هو الانتهاء من الرسالة وتوجيهها إلى رئيس الجمهوريَّة في أقرب وقت ممكن. منذ أكثر من سنة وهو يحس بثقل في جسده. يعرف جيِّدًا أنَّ مرضًا ما بدأ يأكل داخله بهدوء وبثبات كبير مثل النار.

ـ يجب أن ترتاح يا سيدي حتى تصبح أكثر قوَّة غداً. مشاغلك كثيرة وإقامتك لدى الأمير أخذت منك الكثير وأخرت مشاريعك، وتحتاج إلى قليل من الراحة لكي تتمكن من مواجهتها بدءاً من نهار الغد.

ـ يا عزيزي جون، أنت تشيِّخني، ما زلت قادراً على تحمُّل ثقل الأشياء. صحيح البرد يؤذيني وأحتاج إلى قليل من الدفء لكي أتمكَّن من مواصلة ما بدأته والانتهاء من هذه الرسالة. مسؤوليَّة أمام اللَّه وأمام الأمير

بدت له الدار باردة على غير العادة مثل قبر. رأى الموت في بعض زواياها ينظر إليه بعينين مدورتين مثل عيني غراب. عندما وضعتُ فروع الصنوبر والدالية المجفَّفة في عمق المدفاة، اشتعلت بسرعة. سرى الدفء في البيت وفي جسد مونسينيور التمعت ألسنة النار في عينيه اللوزيتين فبدأت الحياة تدبّ فيهما شيئًا فشيئًا لم يطلب منِّي أن أحضر له كأس الزهورات كالعادة ولكنِّي فعلت ذلك من تلقاء نفسي لم يلتفت وأنا أضع الكأس بجانبه، فقد اندفن في قلب التفاصيل التي عرفها من الأمير والرسائل والصحف الكثيرة، المونيتور، الكريدي، المبشر وغيرها، لترتيب آخر المعلومات التي كانت تملأ قلبه وذاكرته، والتي سمع الأمير يرويها بألم شديد

«النهايات دائمًا قاسية وصعبة التحمُّل. تحمَّلوا بردّ ديسمبر وخيبة الوعود». تمتم مونسينيور وهو يخطّ أولى الملاحظات عمَّا تبقّى من رحلة الأمير.

* * *

- ٢ -

٢٥ ديسمبر.

رياح بدايات الشتاء الباردة التي تهزّ كل شيء في طريقها لم تتوقف منذ ليلة البارحة. كانت حادَّة وعنيفة، تسحب وراءها بقايا خريف مر مليئًا بالخيبات، وتنظِّف الأراضي والبحر والبراري من كل الزوائد المتراكمة. حتى السماء كانت مثقلة بغيوم تتلوَّى كالثعابين قبل أن تسقط في شكل سيول وفيضانات على الأراضي المنهكة بصيف حارّ وخريف كنس كل شيء، حتى الأفراح الصغيرة في القرى والمداشر.

ازدادت الرياح عنفًا هذا الصباح. كانت السفينة البخاريَّة «**الأصمودي**» تهتز بعنف كبير وهي تفتح أبوابها الكبيرة وتحاول أن تحافظ على توازنها بصعوبة. كان الركاب يقفون في استقامة وراء بعضهم بعضاً في انتظار عمليَّة بدء الركوب. بينما البحَّارة كانوا قد

بدأوا غلق الأبواب الحديديَّة الخلفيَّة الثقيلة التي ملئت مخازنها بالقمح والمواشي والأحصنة وكأنَّنا في سوق شعبيَّة.

عندما انتُهي من فوضى الشحن، أُذن لعائلة الأمير وأتباعه وعائلاتهم بالركوب، خمسة وأربعون فرداً من عائلته وسبعة وخمسون من المرافقين له الذين اختاروا طريق المنفى بصحبته، متبوعين بالكولونيل بوفورت[1] مساعد معسكر الدوق دومال، والمترجم الأساسيّ لجيش إفريقيا روسو بعدها أُغلقت كل الممرات والبوابات الثقيلة التي بقيت مفتوحة.

بدت السفينة وكأنَّها سجن كبير عوَّام على سطح البحر لم يكن بالأصمودي شيء يثير الرأفة، حتى عواؤها لم يذكّر الأمير إلاَّ بالذئاب التي كثيراً ما اقتفت خطواتهم في انتظار موقعة يسقط فيها الناس لتنقضَّ على الجثث كالكواسر. يراها في الليل بعيونها البرَّاقة الفسفوريَّة تتبع عن بعد كل خطواتهم. أحياناً كانوا ينزعون الجثث من أفواهها. للمرة الثالثة سمع نعيق الباخرة الطويل وبدأت المحركات تشتغل بقوّة أكثر وهي تهتز في مكانها كالطاحونة. تناهى بوضوح كبير إلى سمعه الحادّ صوت السلاسل الثقيلة، وهي تصعد شيئاً فشيئاً من الماء لتستقرّ في النهاية في جوف السفينة، أو وهي تسقط على أرضيتها بعنف في الطبقات السُفلى.

كان الأمير جالساً في قمرته. يتأمَّل البحر وهو يرجع إلى الوراء والطيور وهي تنسحب شيئاً فشيئاً من المشهد طلب منه قدور بن علال أن يقوم إذا شاء لكي يسرح رجليه قليلاً ويودِّع بعينيه مدينة

---

١ - Le colonel beaufort

وهران الممتدَّة على مرمى العين بسهولها وبحرها وبناياتها الإسبانيَّة والسانتا كروث التي كانت تبدو من بعيد كطائر يتهيَّأ للتحليق، ولكنَّه اعتذر بأنَّه يريد أن يرتاح قليلاً ولا يريد أن يرى وهران تهرب من عينيه كأنَّه يراها للمرة الأخيرة.

ـ كما تحب يا سيدي، لا أريد أن أثقل عليك، هل تريد شيئًا آخر؟

ـ لا شيء يا السي قدور. والو علينا أن نتحمَّل الرحلة لمدة خمسة أيام. أتأمَّل هذه الدنيا بنت الكلب. صعبة. أتذكر دائمًا كلام زهير بن أبي سلمى. كان محقًّا مسكين اللي جاء في طريقها. شيء ما لا يريحني في هذه الرحلة. ألم يكن من الأفضل لهم ولنا بعثنا مباشرة إلى الإسكندريَّة بدل هذه الدورة المعقَّدة.

ـ يقولون إنَّ الضرورة هي التي حتَّمت ذلك. لا يهم. لكل شيء بداية ونهاية. وكما قلتَ الدنيا كبيرة وواسعة وسيأتي من يلم شتات القبائل الضائعة ويضمد الجراحات الصعبة.

ـ نحتاج لذلك إلى زمن طويل لكي ننسى ولكي تلتئم جراحنا نحن ولكي نصدِّق ما حدث. أحيانًا يخيفني السؤال، ما جدوى الدم الذي ضاع والأحباب الذين لو يعودون اليوم، سيحاسبوننا بلا رحمة بسؤال بسيط: ماذا فعلتم بنا؟ الزمالة ضاقت حتى صارت دائرة بأقلّ من عشرة آلاف نسمة، ثم ضاقت ليتبعثر ما تبقى منها بين جبال امسيردا وجبال بني إيزناسن ووهاد الطريفة وزندل وسيدي بوجنان. وها هي ذي الكمشة الأخيرة التي لا أحد يريد استقبالها تهيم في دنيا اللّه على وجهها. الأشجار يا صاحبي، مثل الطيور، تموت واقفة.

ـ يا أمير المؤمنين، لم نترك قوة فينا إلاّ واستغللناها، ألم تقل هذا؟ لكن سلطان القوة كان أكبر ورحمة اللّه واسعة. يبدو أنّه علينا من هذه اللحظة أن نتعلم كيف نقبل بالواقع الجديد الذي نحن فيه.

ـ لقد أراد اللّه والأقدار أن نتوقف، المواصلة معناها القبول بالانتحار. ثم ما جدوى قيادة حرب يناصبك فيها أقاربك العداء؟ ربما كان سلطان القوة هو الذي قادهم إلى هذه الردَّة، ولكن ماذا نفعل سوى العقاب المستمر لأناس فقدوا كل أمل في الخروج منتصرين؟ يبدو أنَّ عدواهم لحقتنا نحن كذلك.

ـ في أعماقي كنت ألومك يا سيدي، ولكن مع الوقت شعرت بجدوى حكمتك. لا سلطان لنا على مشيئة اللّه.

ـ لست في حاجة لقول هذا الكلام، فقد قرأته في عينيك في أول يوم ونحن نقبل بانكسارنا. لكنّي أوعزته إلى عزة فيك وشباب فياض.

ـ أنا خجول يا سيدي مما بدر مني. لقد أزحت عنّي ثقلاً كبيراً ونحن نعبر هذا اليأس. كنت كبيراً حتى في حالة اليأس.

ـ لا تهتم، ربي يجيب الخير حيث لا أحد ينتظره. أما الآن، فيجب أن نبدأ في ترتيب حياتنا للمدَّة التي سنقضيها هناك. يبدو أنَّ الأمور لن تُحل بسهولة. الاتصال بالبلدان المستقبلة يحتاج إلى وقت غير بسيط.

ـ المشورة لك يا سيدي.

ـ سنرى ذلك فيما بعد. الآن أريد أن أرتاح قليلاً.

ثم التفت صوب البحر والسماء من خلال نافذة الباخرة الثقيلة. تأمَّل المياه المتدفقة التي كانت تتمزَّق على جنبات السفينة. لم يعد يرى أسراب الطيور التي شاهدها، لأول مرة وهو يمدّ رجله على سلم الأصمودي، ترفرف ثم تغيب في الأفق المسود. لم يعد يسمع صوت المؤذن عندما كان يقطع بهو السفينة متَّجها نحو مقصورته. لا شيء سوى الأمواج المتعددة التي كانت تنكسر على حافة السفينة.

اتّكأ بظهره، ثم فتح الكتاب الذي لم يغادر يده **الإشارات الإلهيَّة**، وتوقف قليلاً عند فصل الغريب الذي ملأ قلبه وعينيه:

يا هذا... فأين أنت عن غريب طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟ أين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به على الاستيطان؟ قد علاه الشحوب وهو في كن، وغلبه الحزن حتى صار كأنَّه شن: إن نطق نطق حزيانًا متقطعا، وإن سكت سكت حيرانًا مرتعدًا، وإن قرب قرب خاضعًا، وإن بعد بَعُد خشعًا، وإن ظهر ظهر ذليلاً، وإن توارى توارى عليلاً، وإن طلب طلب واليأس غالب عليه، وإن أمسك أمسك والبلاء قاصد عليه، وإن أصبح أصبح حائل اللون من وساوس الفكر، وإن أمسى أمسى منتهب السر من هواتك الستر، وإن قال قال هائبا، وإن سكت سكت خائبًا وقد أكله الخمول ومصّه الذبول وحالفه النحول.. قيل الغريب من جفاه حبيب، وأنا أقول: بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل الغريب من ليس له من الحقّ نصيب، فإن كان هذا صحيحًا، فتعال حتى نبكي على حال أحدثت هذه الهفوة وأورثت هذه الجفوة.

رأى في غفوته أبا حيان التوحيدي وهو يحرق بألم شديد كل ما كتب، يشعل النار عاليًا في كتبه ثم يجلس قبالتها مثل البوذي ويتأمَّل ألسنتها وهي تتصاعد عاليًا حتى تمسّ السماء التي خبأتها الأدخنة، ثم يلتفت الأمير مرة أخرى نحو الكوة الصغيرة التي كانت من حين لآخر تتضبب بزبد الأمواج العاتية. فكر أن يكتب قليلاً ولكنَّه لم يستطع. رأى في غفوته الثانية ضمن ما رآه، التوحيدي وهو يأخذ سطل الماء البارد ويكبّه على رأسه ليطفئ النار الأخرى التي كانت تشتعل في داخله. نار الخيبة. رأى في غفوته ما يراه الرائي في حلمه، ابن عربي وهو يبحث عن مكان صغير له يختبئ فيه قليلاً من صهد الشموس التي كانت تحرق الأخضر واليابس وتبدِّد كل حنينه إلى الدَّهشة والغياب.

أغمض عينيه، تمتم: لماذا الحزن، أليس هو من اختار هذا المسلك؟ كان يمكن أن يكون أنانيًّا ويموت ويدفع معه إلى الهلاك أناسًا كثيرين في حرب يائسة تمامًا. حرب كان العصر العربي والفروسيُّ ما يزال يمجِّدها ولكنَّها توقفت على حافة القرن الجديد أصبحت للحروب لغة أخرى لم يكن قادراً على إتقانها كان يمكنه أن يحمل سيفًا ويظلّ يخترق به الهواء والفراغات، ويحارب المهزومين، الذين إذا بايعوه اليوم، خانوه غداً! لماذا الحزن وأبواب مكة تنفتح على مصاريعها مشرعة ضوءها الأبدي على كل شيء بما في ذلك القلب المنكسر؟ هو يعرف المسالك، فقد قطعها عندما جرَّه والده في رحلة دامت زمنًا طويلاً

رأى يفاعته الأولى مع والده ها هو ذا يسير عبر المسالك نفسها التي قطعها قبل عشرين سنة مع والده. وترك موجات الروح

تهدهده وتقوده إلى مشارف الإسكندريَّة قبل أن تتدحرج به نحو أرض الحجاز

عندما قام من غفوته، اعتدل في جلسته وطلب أن يأتوه بابنيه: محيي الدين ومحمد وضع كل واحد على ركبة. تذكر محنة سيدنا علي، وخديعة الأقربين. رأى عليًّا وهو يسقط تحت ضربة النصل القاسية، ثم رأى الفتن التي طارت فيها رؤوس كثيرة، رأى الحسن والحسين يندثران في لعبة كانت أكبر منهما. تمتم وهو لا يدري إن كان قد سمعه أحد

ـ الزمن القادم سيكون عنيفا وقاسيا وسنكون فيه بعيدين. الشقة بيننا وبينهم صارت هوَّة. لقد طاروا وانكسرت أجنحتنا الصغيرة.

وضع رأسه بين رأسي ابنيه وحاول أن لا يرى إلاَّ ما تشتهيه العين. ولكن عبثًا فقد كانت الدنيا أكثر قسوة من الصمت الذي كان يلفّه ويقوده إلى الهرب بعيداً عن هذا المكان المغلق الذي كان يسرق حريته.

عندما غفت عيناه قليلاً وترك نفسه تنزلق في عمق النوم، دخلت المربيَّة الطيِّبة نورا عليه وسحبت الطفلين من ذراعيه بهدوء، ووضعت كتاب الإشارات في غلافه الجلدي كالعادة مثل الذي يحاول أن يحفظ ذهبًا من التلف، وهي تتمتم في وجه محمد الذي كان بين اليقظة والنوم، عيناه نصف مغمضتين:

ـ سيدي لا يحب أن تبقى الكتب عرضة للغبار والريح.

ثم انسحبت على رؤوس أصابعها باتجاه القمرة المجاورة. نورا هكذا، لا تدخل إلاّ في الأوقات الحادّة والحساسة مثل الظل حيث لا يحس بوجودها أحد، تقوم بشغلها مثل الملاك ثم تنسحب بهدوء كبير.

كان ظلام البحر قد نزل مبكراً في قمرة الأمير ولم يعد يرى الشيء الكثير إلاّ الظلال التي كانت تنكسر على الممرات المضاءة قليلاً

* * *

ـ ٣ ـ

عندما استيقظ الجميع على عواء السفينة للمرة الثانية، كانت الأسئلة في الذهن قد زادت تعقيداً وتشابكاً. دخل بواسوني إلى قمرة الأمير ليخبره بضرورة الاستعداد هو ومن معه لأنَّ **الأصمودي** سترمي المرساة بعد قليل. وأنَّ الرياح الشماليَّة العنيفة قلَّت قليلاً وأنَّ النزول سيكون أفضل من الرحلة المتعبة. كانت تعلو وجوههم صفرة كبيرة، الكثير منهم لم يتحمَّل مشقَّة البحر فتقَّيأ كثيراً. أسئلة كثيرة اخترقت الرؤوس، لا أحد كان قادراً على مواجهتها، كيف ستكون بقيَّة الرحلة الحقيقيَّة؟ لا أحد كان يعرف. المترجمان، على الرغم من طيبتهما، لم يكونا يعرفان ما يجب فعله سوى انتظار الأوامر.

ـ أتمنَّى يا سيدي أن لا تكونوا قد تعبتم كثيراً، تمتم روسي.

ـ لا بأس، لا بأس.

ردّ الأمير، غير مقتنع بما كان يقوله، ولكنَّه أضاف بدون أن يستطيع كتم حيرته مما كان يحدث حوله من حركة غير طبيعيَّة:

ـ هل سنبقى كثيراً في طولون؟

ـ لا أدري يا سيـدي، ربما الوقت الذي تنتـهي فيـه كل الترتيبات لاستقبالكم هناك. الاتصالات الجارية بين ملك فرنسا والباب العالي بتركيا ستنتهي حتماً إلى نهاية سعيدة، على الأقل هذا ما نتمنَّاه.

ـ كم تستغرق يا سيد بواسوني كل هذه الترتيبات، أنتم متعودون على مثل هذه الأمور، لست أول رجل تصحبونه؟

شعر بواسوني بنوع من الإحراج وهو المكلَّف بالإجابة على كل أسئلة الأمير، أو على الأقل هكذا يتصوَّر.

ـ إنها المرة الأولى التي أقوم فيها بهذا العمل. واللَّه يا سيدي أنا أجهل كل شيء. فنحن في وضع يتجاوزنا ولا أريد أن أقول كلاما غير دقيق، هم على علم بما يجب فعله والملك هو الذي طلب بنقلكم إلى طولون حتى يتم حل المشكل رسميًّا بالتشاور مع الدول المستقبلة وتذهب معزَّزاً مكرَّماً

ـ معك حق، أنت مأمور ولا أريد أن أثقل عليك بكثرة الأسئلة.

رتَّب لباسه ثم جلس من جديد ينتظر ما تسفر عنه اللحظات القادمة. جاءته إلى أنفه رائحة أدخنة السفن الراسية في ميناء طولون، قويَّة وحادَّة. كان يشعر بتعب كبير ولكنَّه ظلّ يكابر. بدا البحر واسعًا وبعيداً. فوجئ أنَّهم لم ينزلوا في الميناء المعتاد ولكنَّهم وُضِعوا

داخل زوارق، تكدّسوا بداخلها كالأثاث القديم، واقتيدوا إلى مكان يشبه الجزيرة المعزولة، كان في الأزمنة الغابرة يستقبل مرضى النار الفارسيَّة التي تأكل لحم المفاصل والوجه، والمصابين بالجذام والأمراض المعدية.

حاول أن يجهد نفسه قليلاً لكي يرى ما لم يكن يودّ رؤيته ويتفاءل قليلاً ويعتبر ذلك مجرد ترتيبات ضرورية، ولكن الجوّ العام بدا له كئيباً ومظلماً تمتم وهو يرى هذه الحالة المغمومة التي نزلت على المكان فجأة:

«لم يكن مخطئا الرحّالة الذي قال عن أراضي الشمال: قوم لا يرون الشمس وبلادهم جميلة ولكنّها قليلة النور».

بدت له السفن الراسية كثيرة. تمنّى أن تكون إحداها تستعد للذهاب نحو الإسكندريَّة أو عكا أو إلى أي مكان آخر قادر على استقباله ليرتاح قليلاً ريثما يعود إلى كتبه ويقوم بترتيب أفكاره من جديد تساءل وهو يبحث عن مسالكه في الظلمة التي غزت عينيه فجأة:

« وهل هي الصدفة؟ لماذا اختاروا هذا الميناء الثقيل والمزدحم بدل ميناء مرسيليا؟ من هذا الميناء جاؤوا بنا ومنه أخرجونا. سبحان اللّه. لماذا؟ هذا الميناء سلّمه الملكيُّون لإنجلترا في سنة ١٧٩٣ لضرب الجمهوريين واسترجعه نابليون. هل هي الصدف الملعونة؟ »

عندما دخل الليوتنانت ـ كولونيل لورو[١] ، قام الأمير من مكانه واستقبله مثلما يستقبل الضيف. حفاوة الليوتنانت ـ كولونيل

---

١ ـ Le lieutenant colonel L'Heureux

لورو جعلت وجه الأمير يشرق قليلاً بعدما كان ذابلاً بسبب الأسئلة المتزاحمة في ذهنه:

ـ ملك فرنسا وشعبها يرحبان بكم ويعترفان لكم بشجاعتكم الكبيرة ونبلكم في كتم صوت البارود والحرب والموت.

ـ أنا ممتن يا سيدي، وأشكركم على حفاوة استقبالكم.

قالها الأمير بنوع من الانكسار كان باديًا على وجهه المشدود والبارد بدون أن يرفع عينيه تجاه محدِّثه الذي كان يقف عند رأسه.

كان الكولونيل أوجين دوما والقبطان بواسوني ملتصقين بالأمير، يحاولان أن يترجما ويقرِّبا له العادات الفرنسيَّة وطريقتهم في التعامل مع الضيوف، خصوصًا الكولونيل دوما أراد الأمير أن يسأل السؤال الذي كان يشغله منذ بداية الرحلة، ولكنَّه تراجع إذ بدا كلامه غير طبيعي أمام ملك يرحِّب به. تدارك لورو وهو يبحث عن الكلمات التي تخرج الأمير من شكوكه وحيرته:

ـ ننتهي من الترتيبات الرسميَّة في التعامل مع الدول المستقبلة وبعدها تصبح الأمور سهلة. ننتظر موافقة الباشا أو الباب العالي.

ثم طلب الليوتنانت ـ كولونيل لورو من الأمير ومن كان معه التحرُّك. كانوا محاطين بفرقة من الجندرمة وبحضرة بعض الفضوليين الذين اصطفوا على أطراف الميناء لرؤية الأمير الذي حكت عنه صحافتهم كثيراً، فصورته أحيانًا مجرمًا كبيراً وفي أحيان أخرى رجلاً مسالًما وبطلاً يعترف بقوة أعدائه وجبروتهم. توزع الثمانيَّة والثمانون شخصاً على العديد من العربات واتجه الجميع باتجاه قلعة لامالق La-

malgue كـانت الاهـتـزازات عنيـفـة جـداً على أم الأمـيـر ومـربـيـتـه والأطـفـال الصـغـار بـسـبب الطرقات السيّئـة والمرتفعـات والمنخـفضـات الكثيرة. الكثير منهم انتهى إلى النوم بعد متاعب الرحلة والبحر وبعد أن تقيأً بدون توقف حتى أُنهك.

عندما غابت العربات وسط الجموع قبل أن تأخذ طريقها نحو منعرجـات قلعة لامالق، كـانت أشـيـاء كـثـيـرة قد بدأت تتـبـخّر. لم يتكلّموا كل واحد ظلَّ واجماً مع نفسه لا يدري إلى أين تتّجه بهم العربات المثقلة بالبشر إنَّ معرفة أنَّ تريزل صار وزيراً للدفاع وحـده كانت كافية لتعمِّق حيرة الأمير. ولكنّه استطاع أن يبدِّد قلقه بقليل من التبصر. فهو يعرف أنَّ الضباط الفرنسيِّين يتحرّكون داخل سياسة دولة وأنَّ قناعاتهم الفرديَّة لا تؤثِّر كثيراً على ما قطعوه من وعود. فهم يفرِّقون بين ساحات الحرب وساحات السلم.

كان كل شيء قد انتهى.

عندمـا طغت أسـئلة القـادة الذيـن صـحـبـوه حـول أوضـاعـهـم المسـتـقـبـليَّـة ومـا ينتظرهم ومـتى يغـادرون هـذا البلد وهل سـيلتـزم الفرنسيون بما وعدوا به، تمتم الأمير واضعًا حداً لكل هذا القلق وهذه الحيرة:

ـ نحن الآن في يد الله، والله وحـده يعـرف مـصـائرنا لقـد وُعـدنا خيـراً وسنتنظر البقـيَّـة. لا أحـد يملك الإجـابات حتى الذين يصحبوننا. الذي أعرفه وحتى هذه الساعة هو أنَّهم احترموا دائمًا وعودهم وسهروا على تنفيذها

ـ لا أفهم إلى الآن إذا ما كنّا ضيوفًا أم سجناء؟

تساءل قدور بن علال بشكل شبه جاف.

ـ لنقل إنَّنا ضيوف حتى نرى ما تسفر عنه الأيام القادمة.

ـ قلبي غير مطمئن يا سيدي.

ـ ليس قلبك وحده ولكن دمك الحارّ، وشبابك الذي لا يقبل بحياة أقلّ من حياة رجل حرّ. أترك عنك هذه الشكوك الآن واعتصم بحبل اللّه، إنَّها اللحظة المناسبة التي يمنحنا فيها اللّه الراحة الكاملة.

ثم انكفأ الأمير على وجهه لينام بين حبّات مسبحته التي كانت تترامى الواحدة بعد الأخرى بدون توقف وكأنَّ سرًّا عظيمًا كان يتخبَّأ بينها وكان عليه اكتشافه. الحبّات تتسابق إلى الذوبان بين أصابعه، تنزلق كقطرات ماء صاف أو حبّات رمل ذهبيَّة لم تطأها رِجْل إنسان. واصل بدون أن يوقف تمتماته التي زادت تسارعًا بينما كانت أبواب قلعة لامالق الرطبة وقصر هنري الرابع[1] تنفتح عن آخرها كمدخل قبر فرعوني.

* * *

١ ـ Henri IV

- ٤ -

عندما عبر أوجين دوما البهو الطويل الذي يقود إلى الصالون الصغير من قصر هنري الرابع[١]، شعر بالبرد القويّ ينخر عظامه. كان عليه أن يركض حتى يخفِّف من رعشة البرد الذي كان يدخل الجسد مثل المسامير. لاحظ أنَّ الأمير كان منهمكًا في صلاة المغرب، ملفوفًا في ألبسة خشنة وأنَّ المدفأة لم تكن مشتعلة وأنَّ الحيطان كانت تشبه أطراف قبر مفتوح على آخره. شغله الدق الذي كان يأتي من عمق قصر هنري الرابع، فلم يستطع تفاديه. اقترب قليلاً من العامل الذي كان يحفر النوافذ بمطرقة خشنة ويضع على واجهتها قضبانًا حديديَّة.

لم يستطع الكولونيل دوما أن يكتم انزعاجه وغيظه.

ـ ماذا تفعلون في هذا القصر؟

---

١ ـ Henri IV

ـ وهل يعتقد سيدي أنَّ الأمر منِّي؟ سيدي الكولونيل نحن مجرَّد عمَّال. تلقَّينا أمراً من وزارة الحربيَّة بغلق النوافذ حتى لا يهرب الأمير وأتباعه. نقوم بتنفيذه، مثلكم تماماً

ـ معك حقّ، ولكن هل هناك من يستطيع الهرب من هذا القبر؟

ـ كما ترى يا سيدي.

ترك العمل ثم عبر البهو المؤدي إلى الصالون حيث يجتمع عادة الأمير بضيوفه وبعض قادته من الذين سلكوا معه معابر المنفى. بقي في الزاوية الخلفيَّة للصالون ينتظر الأمير حتى ينتهي من صلاته. عندما سلَّم الأمير التسليمة الأخيرة، التفت نحو أوجين دوما كان وجهه بارداً وأزرق مثل وجه ميت.

ـ لا تنزعج يا كولونيل، منذ أيام وهذا الدقّ يتردَّد في آذاننا لم نعد قادرين على النوم. يتحدَّثون عن إصلاحات في القصر ولكنَّنا عرفنا فيما بعد بأنَّهم يغلقون كل شيء بالقضبان الحديديَّة. يخافون أن نهرب وكأنَّنا مازلنا نملك هذه الطاقة.

لم يعلِّق الكولونيل دوما على أيّ شيء. فهو يعرف حساسيَّة الأمير منذ أن اشتغل معه كقنصل فرنسي في مدينة معسكر. ويعرف جيِّداً أنَّ الأمير يتسامح مع الصمت والتأمُّل أكثر من تسامحه مع الكذب والبهتان وإخفاء الحقيقة الصارخة.

ـ أتمنَّى أن لا أكون قد أوقفتك عن صلاتك.

ـ لا الفرض عندنا يمرّ قبل كل شيء، حتى قبل حياة الفرد. في الكثير من الحروب قُتل أناس كثيرون وهم يصلُّون ولم يستطيعوا

توقيف صلاتهم للدفاع عن أنفسهم. الصلاة مثل الرحلة، عندما تبدأها، يجب أن تسلكها حتى النهاية مهما كانت العوارض.

ـ لم تغيِّرك فرنسا كثيراً وهي التي كانت تحلم بأن تجعل منك مواطناً من ذويها. المجلس يتردَّد في قبول التعهد الذي قدَّمه لك لاموريسيير، الملك تمنَّى لو استطاع أن ينفِّذ ما زكَّاه ابنه ولكن عبثًا، تمنَّى والحال هذه، أن تتبنى هذا البلد ويلحق بك أهلك وأقاربك بالجزائر مقابل التخلي عن التعهد علانيَّة.. ولكن هو نفسه سحقته آلة الزمن التي لا ترحم أحداً

قال الكولونيل دوما مازحًا. لاحظ أنَّ الأمير لم يولِ اهتمامًا لما كان يقوله، بل كان يحاول أن يتلفلف أكثر في برنسه بحثًا عن الدفء.

ـ من ناحية إلحاق الأهل فقد ألحقوهم. لقد جاؤوا بإخوتي وابنتي وسجناء سان ـ مارغريت إلى هذا المكان الرطب الذي منذ أن يدخله الإنسان، يبدأ في الموت البطيء. أنت تعرف جيِّداً أنِّي لا أقبل بهذه المقترحات. فليفعلوا ما بدا لهم، هم سادة الشأن والقرار. ولا يمكن أن أتخلى عن المطالبة بالوفاء بالعهد ما دمت حيًّا ومن عجب ما يُسمع أنِّي كنت أرى نفسي ضيفكم فجعلتموني أسيركم وأخذتم تعددون عليَّ أموراً قمت بها دفاعًا عن أهلي وأرضي وديني.

ـ أعرف كل هذا. ربما يتمّ التفكير لقيادتك إلى باريس لاكتشاف حضارتنا وقوَّتنا مثلما فعل إبراهيم باشا، خديويّ مصر، لتغيِّرْ قليلاً من هذا اليأس وهذه الرطوبة.

ـ لا إبراهيم باشا رأى باريس وغيرها من أمصار فرنسا متنزَّهًا له يمرح فيه كيف شاء، أما أنا فلا أرى فرنسا الآن إلاّ سجنًا لي ولمن معي، فلا فرق إذن عندي بين هذا القصر وباريس.

ثم اندفن الأمير من جديد في عمق لباسه وبدأ يعطس بشكل متواصل. انتبه دوما إلى الحالة التي كان عليها:

ـ الجو في البيت بارد جدًّا والمدفأة منطفئة على غير العادة ومن الصعب تحمُّل هذا البرد الشتوي. وصحتك ليست على ما يرام.

ـ منذ يومين وأنا على هذه الحال، يبدو أنَّ الرطوبة وراء ذلك كلّه. ثم ماذا نستطيع أن نفعل أيُّها الصديق غير الاستكانة إلى الوضع. لقد انتهى كل شيء، الأخشاب والفحم وعلينا أن ننتظر حتى يمنوا علينا ولا أريد أن أضيِّق على رفقائي بأخذ القليل ممّا عندهم.

ـ في هذه لا تشبه أسلافك الذين كانوا بحكم السلطان يقهرون شعوبهم ويستنزفونها ويأخذون كل ممتلكاتها.

ـ أو تظن أنَّهم كانوا سيتبعونني لو عاملتهم بهذه الطريقة؟ كما ترى، إنَّنا نُعامل هنا كذلك، في بلد حضاريّ وعريق، أقلّ من سجناء، مع أنِّي أعطيت وعداً للمحافظ العام للحكومة المؤقتة السيد أوليفيي[1] بأنِّي لن أعود إلى الجزائر حتى يطمئن قلبه، فأنا منذ أن وضعت السلاح أعتبر نفسي في عداد الموتى. ولا أملك دليلاً آخر على حسن نيَّتي إلاَّ كلمتي، التي أموت دونها. طلب منِّي إذا كنت

١ ـ M. Olivier, commissaire général du gouvernement provisoir

مستعداً على القسم القرآني والتوقيع على تعهدي، فقلت سأوقِّع بعيني إذا لم تكف يدي وأصابعي. ووعدني بأن يدافع عنِّي في اجتماعات الحكومة المؤقتة إن أنا أكّدت على حسن نيَّتي برسالة وقد فعلت وها هي النتائج كما ترى. لم يكف البرد والظلمة ووحشة المكان، الآن يسدُّون هذا الجزء الصغير من القصر حتى من رحمة الله، الهواء والشمس. تصور؟ بحجّة أنِّي أعدُّ العدَّة للهرب إلى إسبانيا؟ إسبانيا وكأنَّ أرض الله ضاقت إلى الحدّ الذي أهرب فيه إلى بلد يسلِّمني في اليوم التالي إلى جلادي؟

ـ لم أعد أفهم ما يحدث هذه الأيام! البلاد في فوضى والحكومة المؤقتة لا تعرف جيداً ما يجب فعله من السهل إسقاط حاكم، لكن من الصعب تسيير الأوضاع التي خلَّفها ونحتاج إلى وقت آخر لكي يعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي.

ـ هذا صحيح، وأنا داخل كل هذه الفوضى، ما هو وضعي؟

أحنى دوما رأسه ولم يعرف ماذا يقول وهو الذي جاءه اليوم للحديث في موضوعات سبق أن فتحها معه حول المرأة في الإسلام والأحصنة العربيَّة التي اكتشف فيها حنكة الأمير ودقَّته المتناهية.

ـ الأمر يزداد كل يوم سوءاً. البارحة اشتكى لي صهري من زوجته، أختي، التي ترفض البقاء معه وتفكر في العودة إلى معسكر ابنتي زهرة بدأت تصاب بالخبل بسبب الخوف والرعب الذي لحق بها في معتقل سانت ـ مارغريت، تعتريها ليلاً حالات لا ترى فيها إلاَّ الموت ولا تسمع إلاَّ حوافر الخيل وهي تطأ الأسطح وصرخات النساء في الخارج وهن يقاومن الموت والاختطاف والاغتصاب وهناك

مجموعة أخرى من العائلة تفكر في انتحار جماعي بأن يرموا أنفسهم وسط الحرس لا ليهربوا ولكن ليُقْتَلوا.

ـ ولكن هذا حرام في دينكم. وكبيرة الكبائر مثلما هو الحال في ديننا؟

ردّ الكولونيل دوما بانفعال كبير لم يستطع كتمه.

ـ بدون شكّ. الروح عند اللّه مقدّسة ولا تؤخذ إلاّ بالحقّ، ولكن هناك حالة يغفر فيها اللّه لمرتكب هذا الفعل، عندما يجبر المسلم على ترك دينه.

ـ لم نصل إلى هذه الدرجة اليوم يا سيدي.

ـ هذا صحيح اليوم، لكن لا أحد يضمن الغد أبداً في الوضع الذي نحن فيه من الظلم والحيف كيف تريد أن نظلّ في وضع طبيعي ويأسنا بدأ يتحوَّل إلى مرض. لقد وصل اليأس بين أهلي إلى درجات قصوى لم يعد أحد قادراً على تحمُّلها أشعر بأنّي أذنبت في حقّ الجميع، فلولاي لما حدث لهم اليوم ما يحدث على كلٍ ربي يجيب الخير. خلّنا نعود إلى موضوعنا عن الخيل فهو أجدى ويعطي الإحساس بأنّنا ما زلنا نصلح لشيء.

ـ وهو كذلك.

كان دوما قد دخل مع الأمير في الحديث عن أكل الخيل وتربيتها عندما وقف عسكريّ عند مدخل الصالون. استأذن ثم وضع بين يدي دوما رسالة ثم أحنى رأسه وانسحب حتى قبل أن يسأله دومًا:

ـ متى وصلت هذه الرسالة، قال الكولونيل أوجين دوما

التفت العسكريّ ثم استقام في مكانه قبل أن يردف:

ـ في البريد المسائي يا سيدي، ولم نرد تركها للغد لأنَّها رسالة مستعجلة.

ـ شكراً، خرجت الكلمة آليًّا من بين شفتي دوما

ثم انسحب نهائيًّا علامة مستعجل دفعت بالكولونيل إلى فتحها بسرعة. كان يظنّ أنّها تخصّ الوضع المرتبك الذي كانت تعاني منه البلاد ولكنَّه فوجئ بمحتوياتها والعصبيَّة التي كتبت بها عندما انتهى من قراءتها إذ لم تكن بها إلاَّ ثلاث جمل، بقي صامتاً وحتى عندما حاول أن يتكلَّم خانته لغته:

ـ هذا الوضع الزفت سيقتلنا بالسكتة القلبيَّة الواحد بعد الآخر

ـ هل الوضع سيئ إلى هذه الدرجة. هل هناك انقلاب آخر؟

ـ أسوأ قليلاً

ـ لم أفهمك جيِّداً.

لم يستطع دوما أن يضيف كلمة واحدة، ولكن علت وجهه صفرة لم يرها الأمير على محيَّاه إلاَّ عندما كان وكيلاً لديه في معسكر، ويكلَّف بمهمة صعبة لدى الأمير يتردَّد كثيراً قبل أن يقول خبراً صعباً، يلتجئ إلى طرق ملتوية مخافة أن يرهق الأمير شعر هذا الأخير بأنَّ الزمن الذي مضى صار قريبا منه وكأنَّ الدنيا لم تتغيَّر إلاَّ قليلاً.

ـ ربما كانت الرسالة تخصني. لا تهتم يا كولونيل. لم يعد شيء يفاجئ بعدما تحوَّل هذا القصر إلى سجن مسيج من كل الأطراف.

صمت دوما أكثر مما أكَّد للأمير بأنَّ الأمر يخصّه بالفعل. استجمع الكولونيل دوما كل قواه ليعلن له عن فحوى الرسالة المستعجلة، التي لم يكن بها ما يوحي بالخير.

ـ يبدو أنَّ الخبر أسوأ مما أتصور!

ـ كلّها حالات مؤقتة. لا تهتم يا سيدي. في الحقيقة كنت أتمنَّى أن آتيك بخبر إطلاق سراحك ولكن الظاهر أنَّنا مجبرون على الانتظار قليلاً سينقلونك إلى قصر أمبواز، هذا ما كُلِّفت بتبليغك إيَّاه. يقولون بأنَّهم يريدون ترميم القصر ولا أعتقد أن هذا سببٌ حقيقيٌّ ولكنَّها الأوامر.

ـ المفروض أن يقتصدوا في حيلهم. إنَّهم يكلّفون أنفسهم مجهودات هم في غنى عنها منذ أيام وهم يزفِّتون النوافذ والبوابات الثانويَّة لغلقها نهائيًّا، ما الفائدة من ذلك؟

ـ كنت أتمنى أن أختصر عليك هذه المتاعب ولكني لم أستطع. سأجتهد لتوفير وسائل نقل مريحة لكم ولعائلتكم. حتى مهمتي أُنهيت عند هذا الحدّ

ـ يؤذيني ذهابك أكثر من تغييري المكان. أتمنَّى فقط أن لا تنقطع زياراتك. الأطباء يشفون ضر الجسد أما أنت فتشفي الروح بكلامك الطيِّب وحنانك الكبير

ـ ما بيننا كبير وسيستخلفني رجل طيِّب تعرفه جيِّداً، الكابتن بواسوني. إنسان كبير النفس ويعرف عادات البلاد جيِّداً ومثقف من الطراز العالي. معرِّب بمعنى الكلمة كما عرفتَه، بل وألَّف بلغتكم كتباً كثيرة من بينها **قانون الشريعة** ويتقن جيِّداً اللغة البربريَّة. فهو أول من عرف بأبجدية التفيناغ القديمة التي يستعملها الطوارق لكتابة لغتهم.

صمت الأمير طويلاً قبل أن يبدي ملاحظة مريرة:

ـ خيار الناس. رجل يستأهل كل خير. حتى اللحظة هذه كنت أظنّ أنّ الحكومة المؤقتة ستحلّ المشكل نهائيًّا ولكنّ الظاهر أخطأت. فيما يتعلّق بوضعي يتساوى الجمهوريُّون والملكيُّون. ربما كنت المكان الوحيد الذي يلتقيان فيه بدون خلافات تذكر

عند المخرج المؤدِّي إلى البهو الذي تعوَّد أن يأتي منه الكولونيل دوما، التفت هذا الأخير نحو الأمير، لأول مرة يرى عينين منكسرتين، انسحب منهما فجأة كل أثر للحياة:

ـ ومع ذلك يجب أن لا نستسلم لليأس. نحتاج فقط إلى بعض الوقت. كما ترى، البلاد كلُّها في حالة ارتباك عام ويبدو أنَّها ما زالت تبحث عن مسالكها التي تزداد كل يوم صعوبة وتعقداً. آه. رئيس بلديَّة بو Pau السيد بيجي[1] أعدَّ حفلاً صغيراً لتوديعك وأتمنَّى أن تستجيب للدعوة، فهو يحمل لك ودًّا كبيراً كما رأيت ذلك بنفسك أثناء زيارته لك مع نوابه. يجب أن نثق في الوقت.

---

١ ـ Bégué, maire de la ville de Pau

ـ الوقت.   الوقت دائماً.

تمتم الأمير وهو يلتحق بالكولونيل دوما ليرافقه حتى الباب الذي كان يحرسه أكثر من خمسة حرَّاس، ويودِّعه ثم يعود بسرعة إلى فراشه لينام قليلاً، فقد نزل عليه فجأة إرهاق لا يقاوَم وخيبة وصلت حتى القلب.

في ذلك المساء الذي تأخَّر قليلاً لم يكلِّم أحداً، حتى ابنته زهرة التي كانت تطلب نجدته ظلت تصرخ في الحجرة المجاورة وتضرب رأسها على الحائط مخافة أن يأخذها الخيَّالة الفرنسيُّون الذين كانت تراهم في كل مكان منذ الهجوم على الزمالة، قبل أن تهجع قليلاً وتنام بين ذراعي أمها ويغطّ هو في نوم لا شيء فيه إلاَّ البياض والرغبة الكبيرة في فقدان الذاكرة.

* * *

- ٥ -

تأمَّل الأمير جريدة لو كريدي[١]، عدد ١٦ جانفييه ١٨٤٩، أي يومين بعد دعوة لويس ـ نابليون مجلسًا استثنائيًّا لمناقشة وضعية الأمير، ودعي له الماريشال بيجو والجنرال شانقارنيه، وبعد ستة وعشرين يومًا من وصوله إلى سدّة الحكم. منذ صلاة الفجر والأمير يتحرَّك بين الصالون والبهو الطويل المفضي إلى الفراغ. لم ينم إلاَّ بعد أن كتب ردًّا بالقسوة نفسها التي دخلت دمه وقلبه.

كان الأمير ينتظر عودة الكابتن بواسوني ولكنَّه تأخر على غير عادته بعدما استُدعي بشكل عاجل. قلَّب الرسالة في يده طويلاً قبل أن يفرشها على الطاولة ويبدأ في تفحص كلماتها التي لم يفهمها جيِّداً ولم يعرف تفاصيلها إلاَّ عندما تُرجمت له على عجل. عرف أنَّ ما ينتظره شاق جداً. زيارة بيجو المقررة أُلغيت إذن. السبب،

١ ـ Le Crédit

الأوضاع التي تمرّ بها البلاد، وقد دُعي في مهمة عسكريَّة عاجلة، مما دفع به إلى كتابة رسالة للتخفيف من انتظار الأمير وإعلامه بما كان يودّ قوله.

عندما دخل عليه بواسوني كان مرهقًا جلس قليلاً وعرف أنَّ الأمير في غير وضعه المعتاد للحديث عن الثقافة والفكر والعقل والأدب. صفرة وجهه عمَّقت نحافته.

ـ وضعك يقول إنَّك سمعت شيئًا لم يرق لك.

ـ أنا منزعج جدًّا ، متألم كثيراً

ـ من غياب الماريشال بيجو وضعه العسكري يمنعه من الحركة الحرَّة. يحتاجونه في وزارة الحربيَّة للسيطرة على القلاقل التي نشبت في باريس.

ـ أنا منزعج من رسالته أكثر من انزعاجي من وضعه. صحيح أنَّه وعدني بزيارتي في ٢٩ جانفييه وتدارس وضعيتي معه، وأتفهم الحالة الاستثنائيَّة التي تعيشها البلاد التي اضطرته إلى التوقف في مدينة ليون والاكتفاء بالكتابة ولكن ما كتبه لي جرحني في العمق. وكان من الأفضل أن يتفادى كتابة هذه الرسالة التي لم تزدني إلاَّ غربة على هذه الأرض. ردَدْتُ عليه بالقسوة نفسها وأريدك أن تترجم الرسالة بالدرجة نفسها من الوفاء التي كُتبت بها.

ـ أليس من الأفضل أن تتريَّث قليلاً حتى تفهم الدوافع؟

ـ بواسوني، حبيبي، لا توجد دوافع بل تصورات وأفكار مغلوطة عنِّي. أنا لا أفعل شيئًا سوى الدفاع عن نفسي بما تبقى لي من طاقة.

ـ طيِّب، سأترجم رسالتك. ولكن من الأفضل أن أطلع على رسالة بيجو من جديد، لقد نسيت كل تفاصيلها.

قدَّمها له الأمير بدون تردُّد. غرق فيها الكابتن بواسوني لحظات طويلة حتى أنَّه ترك الشاي الذي قدِّم له يبرد على الطاولة بدون أن يمسه. ثم رفع رأسه من غير أن يبدو عليه أيّ انزعاج:

ـ ربما فكر بيجو بمنطق المصلحة. لم يجدوا حلاً بسبب اعتراضات وزير الحربيَّة رولهيير[1] وتنفيذاً لرغبة نابليون وجد هذا الحلّ القريب إلى العقل. يقول: **لقد قُلب الملك الذي سبق وأن أكَّد لي على تسريحك وتسهيل ذهابك إلى مكَّة. الحكومات التي أعقبت وجدت نفسها تحت ضغط الرأي العام فتخلَّت عن هذا الوعد. أرى من واجبي أن أحدِّثك بصراحة الصديق الحقيقي. سيمر وقت طويل قبل أن يُسمح لك بالذهاب إلى مدينة النبي. الصراحة أحسن من الأماني الكاذبة. الأفضل هو أن تتَّخذ قراراً متماشياً مع الوضعيَّة التي اختارها اللّه لك. أتمنَّى أن تصل إلى قرار تبني فرنسا كوطن لك وتطلب من الحكومة أن تمنحك أنت وعائلتك قطعة أرض غنيَّة وستكون لك حياة مساوية لحياة أي مواطن فرنسي محترم. أعرف أنَّ مقترحًا مثل هذا قد لا يغريك كثيراً ولكن فكِّر أكثر في مستقبل أبنائك وحاشيتك. أنت ترى، أنَّهم يموتون يوميًّا مللاً وكمداً.**

قفز الأمير من مكانه وبدون أدنى تفكير:

ـ واللّه لو جُمعت كل كنوز الدنيا في برنسي وطُلب مني أن أضعها مقابل حرِّيتي لاخترت حرِّيتي. لا أطلب لا شفقة ولا منَّة، أطلب فقط تطبيق الالتزامات التي اتُّخذت تجاهي. طلبت أمانًا

---

١ ـ Le général Rulhière, ministre de la guerre

فرنسيًّا فأعطي لي من طرف جنرال فرنسيّ، بدون قيد ولا شرط. وزكّاه جنرال آخر هو ابن الملك. لا لو كنت أودّ أن أختار هذا النوع من الحياة لفعلت ذلك منذ اللحظة الأولى. لقد تلقيت اقتراحات من هذا النوع قبل العديد من السنوات ورفضتها، فكيف أقبلها اليوم؟

ـ لأنّ الوضع اليوم صار معقّداً بسبب التغيُّرات الداخليَّة.

ـ يا حبيبي بواسوني، لا يمكن أن نتحدَّث بهذه اللُّغة مع رجل سلّم نفسه طوعاً.

كان الزبد يتطاير من فمه وهو يتكلّم كأنّه كان يحتجّ. منذ أكثر من شهر وهو ينتظر هذه الزيارة له. هذه المرة أصيب بخيبة كبيرة لم يكن قادراً على مقاومتها لم يجد الكلمات التي تعبِّر عن حزنه ومرارته.

لم يجد بواسوني بما يجيب به.

ـ أرأيت؟ لا بد أن يكون جنونٌ ما قد مس هؤلاء الناس. كنت أنتظر إخراجي من مأزق يسيء إلى فرنسا أكثر ممّا يسيء إليَّ، فوجدت نفسي أمام حالة سجن مؤكَّدة. هل لمثلي يُقال هذا الكلام؟ لا يُعقل.

ـ ربما ليس بيجو سيِّد أمره! البلاد مثل البركان اليوم. لم نعد نعرف من يحكمنا غداً من كثرة التغيرات. أنت ضحيَّة كل هذه التحوُّلات.

قالها الكابتن بواسوني بالكثير من الطيبة والودّ التي تطبع عادة كل محادثاته مع الأمير كلّما رآه في حالة من الانهيار والحزن.

ـ عل كل حال، قل في ردّك كل ما تريد وسأبعث به في أقرب وقت. هذا ما أستطيع فعله بلا تردُّد.

ـ وهو كذلك. لن أقول أكثر مما قلته لك قبل قليل. ليكن، ما دامت الأمور قد وصلت إلى هذه الحالة.

في المساء، عندما أُشعلت الأنوار في أبهاء قصر أمواز والمدافئ، كان الأمير أكثر إشراقًا وصفاء. فقد تخلّص من ثقل الرسالة التي كانت تقف في حلقه بمرارة. غسَّل وجهه وصلّى ثم استعدَّ لاستقبال بواسوني الذي تعوَّد أن يزوره في مثل هذا الوقت للانتهاء من كتابة **تنبيه الغافل**.

بواسوني نفسه لاحظ التغيُّرات التي طبعت محيًا الأمير عندما لاقاه هذا الأخير عند الأقواس العالية للقصر المؤدِّية مباشرة إلى الصالة الكبرى.

ـ هل نواصل ، قال بواسوني وهو يبحث عن قلمه.

ـ نواصل.

ـ تحدَّثنا في الباب الأول في العلم والجهل وعرفنا أنَّ على العاقل أن ينظر في القول ولا ينظر إلى قائله. فإن كان القول حقًّا قبله، سواء كان قائله معروفًا بالحقّ أو الباطل. فالعاقل يعرف الرجال بالحقّ ولا يعرف الحقّ بالرجال. وذهبنا في تعريف العقل أنَّه منبع العلم وأساسه ومطلعه. فقوة العقل هي إحدى القوى الأربع التي إذا اعتدلت في الإنسان، يكون إنسانًا كاملاً وهي قوة العقل وقوة الشجاعة وقوة العفَّة وقوة العدل. وأنهينا الباب الأول بخاتمة.

اندهش بواسوني من دقّة الأمير ووضوح أفكاره الكثيرة. بينما كان ابن التهامي منغمسًا في تسجيل كل ما كان يسمعه كلمة، كلمة.

ـ سندخل الباب الثاني.

ـ سيكون بابًا دينيًا بحتًا في إثبات العلم الشرعي. هناك حقائق لا يُهتدى إلى الاطلاع عليها إلاّ بتصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد إليهم. بمعنى أنّ علوم الأنبياء زائدة على علم العقل. لا تجعلوا الكمال وقفًا على العقل فوراء كمال العقل كمال آخر أعلى منه.

استمر الحديث طويلاً، أنسى الأمير شجنه وأحزانه. ظلّ صاحيًا طوال مدة المناظرة ولكن عيني بواسوني بدأتا تنغلقان شيئًا فشيئًا مثل عيني طفل. لولا أنّ بادره الأمير لظلّ يقاوم هذه الحالة خجلاً من توقيفه.

ـ كابتن بواسوني، أنت مرهق، نتوقف عند هذا الحدّ من الأفضل أن ترتاح الليلة وغداً نواصل. أنتظر الوقت الذي نصل فيه للحديث عن فضل الكتابة. فهي عنصر مهم في حياة الأمم. فهي أشرف وأنفع من الإشارة واللفظ لأنّ القلم وإن كان لا ينطق فإنّه يسمع أهل المشرق وأهل المغرب. فما جُمعت العلوم ولا قُيِّدت الحكمة ولا ضُبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب اللّه المنزلة إلاّ بالكتابة. ولولا الكتابة ما استقام للناس دين ولا دنيا

ـ صحيح، من الأفضل أن أتركك ترتاح وغداً نفتح موضوع الكتابة. لنا في ثقافتنا وجهة أخرى في مسألة الكتابة، فقد قتلنا في

الأزمنة الغابرة الكثير من حملة القلم قبل أن نستيقظ من بؤسنا وندرك حماقة الجهل التي كنَّا فيها. للكتابة سحر يا سيِّدي لا يعرفه إلاَّ من أحس عمقه.

ـ هذه غابت عنِّي؟

ثم قام بواسوني ونزل إلى مرقده بدون أن يتمكَّن حتى من التعليق على سؤال الأمير كما جرت العادة في مثل هذه المواقف، ولا حتى بدون أن يوقظ زوجته التي نامت بصحبة لالة الزهراء في تلك الليلة.

* * *



الوقفة الحادية عشرة

فتنة الأحوال الزائلة



- ١ -

أخبار الليالي الماضية لم تكن سارّة.

كان مونسينيور ديبوش غارقًا في صفاء غريب يشبه صفاء الموت، حزينًا إلى حدّ كبير لمرض الكوليرا الذي كان يأكل الأخضر واليابس، الفقير والغني ولم تكف كل صلواته عندما دخلت عليه وأنا ألوّح برسالة الأمير. كان يعرف أنّ حزن الأمير سيكون كبيراً ومفجعًا فقد خسر في شخصيّة بيجو خصمًا عنيداً وصديقًا تقاسم معه سعير الحرب. لقد أمضى الليلة بكاملها منكسراً هو يعرف جيّداً أنّ ما حدث قد يغير كثيراً في نظام الأشياء. الأخبار التي سمعها كثيرة ومتضاربة وهو أمر لا يُبشّر بخير

ظلّ مونسينيور صامتًا ولم يقل شيئًا كبيراً

سألته عن حيرته بنوع من الارتباك وكنت خائفًا من أن يكون المرض قد عاوده:

ـ حيرتك يا سيدي مقلقة. خير؟

ـ أيّ خير يا عزيزي جون؟ هذه الانقلابات الكثيرة ليست جيِّدة على البلاد التي تحتاج إلى استقرار ما يحدث قد يُنسي الناس وضعية الأمير.

شعرت فجأة بمونسينيور يغرق في تفاصيل بدت لي بعيدة وهو يركِّز عينيه في فراغ وحده كان يعرف حدوده. تذكَّر كلمات الأمير التي قالها له في آخر زيارة له وقد بدت نغمة اليأس فيها كبيرة.

ـ «مصيري في يد اللّه، عندما يشاء أن يُفرج كربتي سيكون له ذلك»

لكن الأوضاع تغيرت ووضعك الآن على غير ما كان عليه في البداية. لنقل إنَّه تحسَّن قليلاً عمّا كان عليه»

ـ «مونسينيور، أنت سيِّد العارفين، لا شيء يماثل الحريَّة. لو خُيِّرت بين القصر مقيداً والجوع حراً، لاخترت أن أتضور جوعًا وأبقى رجلاً حراً».

لم يعط مونسينيور قيمة كبيرة لحضوري إلاَّ عندما سلَّمته رسالة الأمير:

ـ سيدي أراك حزينًا جداًّ وكأنَّ رسالة صديقك عبد القادر لم تفرحك.

ـ لا يا عزيزي جون لا أنا سعيد أنَّ الأمير يتذكَّر أنَّ له أصدقاء يحبونه في هذه الأرض التي انغلقت عليه فجأة وفي هذه الظروف الصعبة. إنَّ أقسى إحساس ينهش الإنسان من الداخل هو

ذلك الشعور الصعب بأنّنا صرنا وحيدين في هذه الدنيا وعندما يتركنا الذين نحبهم إلى الأبد تزداد هذه الوحدة توحُّشًا. وتنهار كل الإرادة القويَّة التي خزّنّاها عبر الزمن.

ـ يبدو أنّه لا حول لنا على مظالم الدنيا.

ـ هناك شيء في البشر ظالم منذ البداية. أُنظر، كلُّهم صنَّاع تاريخ لم يختاروه، وعندما أتيحت لهم فرصة الاختيار التقوا كأصدقاء واضعين وراء ظهورهم قسوة الحروب التي أكلت الأخضر واليابس من الطرفين. كم أحلم يا جون أن أعود إلى تلك الأرض وأغمض عيني وأنام هناك للمرة الأخيرة بعيداً عن هذه الانشغالات والديون التي تتبعنا ولا ترحم أبداً إلاّ إذا حرمتنا حقّنا في راحة البال.

ـ مشكلة الديون في طريقها إلى الحلّ النهائي.

ـ ننتظر الإجابات. أنا رجل لا يتعلم. كل ما يصلني يذهب نحو الأعمال الخيريَّة والكنائس وأديرة الأخوات وإلاّ ما دورنا في هذه الدنيا إذا لم نفعل هذا؟ احتمال كبير أن أذهب نهائيًا إلى أورليان[١] لتعويض مونسينيور دوبانلوب[٢]، قس مدينة أورليان الذي بدأ مرض العيون وضعف البصر يرهقه وفكَّر في من أجل تعويضه. ربما سأذهب إلى هناك في شهر أفريل من السنة القادمة. على كلٍ ما تزال الشقة بعيدة ما يزال لدينا بعض الوقت لتأمل هذه الرحلة ولكن موافقتي المبدئيَّة أعطيتها وأنتظر الترتيبات الأخيرة. أملي أن يجد الأمير طريقًا للحرية. لن أغادر هذا المكان إلاّ بعد الانتهاء من إنجاز هذه الرسالة

١ ـ Orléans
٢ ـ Dupanloup

ودفعها إلى الرئيس وإثارة قضيَّة الأمير على أعلى مستوى. يجب أن يعرف الجميع أنَّ فرنسا، الدولة العظمى، تخلَّت عن عهودها وعليها أن تتدارك هذه الممارسة التي لا تنتمي لتقاليدها المغرقة في القدم.

عندما شعر بآلام الظهر، انسحب مونسينيور نحو الزاوية القريبة من النور، المطلة على الحديقة، وتمدَّد قليلاً على الصوفة القديمة. فتح رسالة الأمير الأولى التي وصلته عندما كان محجوزاً في بو Pau. أعاد قراءتها حتى قبل أن يفتح الرسالة الجديدة التي وصلته من الأمير كان يحاول أن يعيد قراءة خطوطها الملتوية بعينين متعبتين ويحاول أن يفهم المعنى من الترجمة المرفقة:

...في بداية هذه السنة الجديدة، نرجو من اللَّه أن ينشر رحمته على كل من يحبوننا ويفكِّرون فينا. نتمنَّى أن تعود لنا قريبا ونرجوك أن لا تتأخَّر حضورك كما تعرف ذلك جيِّداً يمنحنا الفرح والسعادة. وإذا لم تستطع المجيء سنرد ذلك إلى مشيئة اللَّه وسنحمده على نعمه، ولكنَّنا لا نتوقف عن التمنِّي بأنَّ زيارتك لنا قريبة وأنَّ هذه المرة ستبقى معنا مدة أطول... إنَّنا في شوق كبير ونرجوك أن لا تتأخر في المجيء وأن تأتي في أقرب وقت...

من عبد القادر بن محيي الدين. اليوم الرابع والعشرون من شهر صفر من عام ١٢٦٥

تململ قليلاً في مكانه، ثم قام واتكأ بظهره على الصوفة. مسح على وجهه وكأنَّه كان يريد أن يزيل عنه غشاوة الصور القديمة. ثم، فتح الرسالة التي جئته بها كانت مرفقة كالعادة بترجمة بواسوني. حاول أن يفكّ حروفها التي بدت له متراصَّة كالحجارة الصغيرة الموضوعة هنا وهناك:

الحمد للّه وحده، من الذين يعانون آلام الهجر والوحدة. السلام على من نحبه جميعا كأب، إلى صديقنا وحبيبنا صاحب الغبطة ديبوش، قس الجزائر السابق. وحده يعرف الحزن العميق الذي في القلوب والحرمان الكبير والحاجة. ويعرف كيف يخفف سطوة الأحزان والآلام. السلام عليك. لقد وصلتنا كلماتك الطيِّبة وإصرارك على طباعة كتابك عن المسيحيَّة في الجزائر هذا الخبر يسعدنا ونتمنَّى أن يزكِّي اللّه هذا التصنيف ليصبح مرجعا لكل مستعمليه.

يمكنك أن تحدِّثنا قليلا عن أخوات الأعمال الخيريَّة اللواتي تركتهن معنا واللواتي باشرن أعمالهن الطيِّبة. كم نحتاج إلى معونتهن، رجالاً ونساء لأنَّنا جميعًا نتألَّم كثيراً.

كان من المفترض أن نجد في كل ما قيل لنا منذ حبسنا، العدل والصراحة ولكن هيهات، الطموح يعمي قلوب الرجال في أغلب الأحيان، ويدفع بهم نحو الظلم. السلطان يمنعهم من رؤية الحقيقة وتصديق الآخرين ويشوِّه كل شيء في عيونهم.

سعدت كثيراً أنَّ رسالتك للرئيس وصلت إلى نهايتها. عذراً، لقد أدخلتك في مسالك عذاباتي وأنت نفسك في حاجة إلى قليل من الراحة. مرضك الذي حدَّثتني عنه وحرارة جسمك غير الطبيعيَّة يقلقانني. أحيانًا أقوم مذعوراً من نومي، إذ أسمع صوتك يأتيني من وراء أبواب القصر الموصدة. أملي أن تجد رسالتك أذنًا صاغية تقدِّر حرقتها وأنينها.

أما أنا أيُّها الحبيب الغالي، لقد سلَّمت أمري للّه ولم يعد شيء يعنيني من الحياة سوى تلك الرغبة التي تنتاب المنفي المنكسر، الخلاص أخيراً من عزلته والسماح له باختيار موته على الأرض التي يشتهي أن ينطفئ على تربتها.

أحس مونسينيور ديبوش بألم عميق. شعرت بالحزن يرتسم بين خطوط وجهه وفي عمق عينيه.

قام من مكانه واستقام على كرسيه للانتهاء من رسالته التي لم يبق على ختامها الشيء الكثير. ثقته ازدادت أكثر في أنَّ الرئيس سيأخذها بعين الاعتبار على الرغم من أوضاع البلاد التي زادت تعقيداً وارتباكًا.

ـ يجب أن نختمها اليوم يا عزيزي جون. اليوم وليس غداً الظروف قد تكون مناسبة لسماع نداءات الأمير.

ـ يجب أن تعطي لنفسك قسطًا من الراحة لكي تعرف كيف تدافع عن صديقك.

ـ أصعب ما في الكتابة أحيانًا الجمل الأخيرة.

تململ مونسينيور في مكانه طويلاً قبل أن يستقر على وضع يناسبه للكتابة.

ـ مونسينيور، هل تسمح بالكلام. مشقتك كل يوم تزداد أكثر. يبدو أنَّ ما تكتبه ليس رسالة ولكنَّه مرافعة طويلة.

ـ أنت تعرف يا حبيبي جون، مجهودي لا قيمة له إذا لم يُختتم بإطلاق سراح الأمير. إنَّ المرض كل يوم يحتلّ في جسدي مسافة ليأكلها نهائيًا، ومع ذلك سأقاوم حتى النهاية. وسأذهب نحو ما يريده الخاطر والقلب قبل أن تركض وراءنا الإدارة البائسة التي لم تتوقف عن المطالبة بأموالها وكأنِّي سارق أخذ منها حقّها.

ـ وهل يمكننا أن نقول اليوم إنَّك انتهيت من كتابتها نهائيًا؟

ـ اليـــوم، في الليلة الفـاصلة بين ١٤ و١٥ مـــارس ســأضع اللمســات الأخيـرة على هذه الرسـالة الموجـهـة إلى فـخـامـة رئيس الجمهورية الفرنسيَّة: لويس ـ نابليون بونابارت.

ـ أتمنَّى يا سيدي أن لا تصاب بخيبة. الوصول إلى الرئيس صعب وظروف البلاد لا تبشِّر بخير أبدًا أنت ترى الأحداث المتسارعة.

ـ قوة الإنسان في عدم استسلامه لصعوبات الدنيا

لأول مرة يشعر مونسينيور بأنَّ للكلمات ثقلاً كبيرًا رأى عيني الرئيس وهما تقلبان الكلمات واحدة واحدة بحثًا عن معانيها الدفينة، ويبني في الوقت نفسه، من خلالها، صورة جديدة لرجل سرقت منه الوعود جزءًا كبيرًا من حياته وبقي صامدًا أمام عوارض الأيام القاسية.

وضع مونسينيور ديبوش أوراقه الأخيرة بين يديه وبدأ يخط كلماته الأخيرة. كان مرهقًا ومتعبًا. شعر بأنَّ أمد هذه الرسالة قد طال كثيرًا، فهو لا يريد أن يكتب شيئًا غير مؤمن به على الإطلاق تأمَّل القلم الذي بين يديه وأعاد النظر في كل كلمات الرسالة منذ البداية:

ـ إما أن تتعلَّم كيف تقول الحقّ ولو على نفسك وإلاَّ الأفضل أن تنتفي. فلا خير في قلم لا يعتبر وينشر الكذب.

ـ أملي أن تنتهي من هذه الرسالة وترتاح نهائيًّا.

في الليل حدث ذلك، مثلما حدّده. في اللحظة الفاصلة بين يومين. دقائق بعدما دقت الساعة آخر دقاتها الليليَّة، ناداني إلى جانبه وكنت قد حضَّرت له كأسًا رابعة من الزهورات:

ـ تعالى يا جون، الليلة سهرتك معي.

ـ أنا بجوار سيدي.

ـ اسمع هذه الخاتمة:

«عبد القادر، مثل نابليون متدين وهادئ وبسيط في ملبسه ومعشره، حيويّ وشجاع وسيِّد نفسه، صادق وعبد لوعده، ولا شيء يفقده صوابه مثل الكذب والبهتان. مثل نابليون، متفان في خدمة عائلته ويمارس نوعا من السحر على كل الذين يقتربون منه. وسخاؤه أهل لكل مديح. وهناك ملمح آخر للشبه هو الحنان وتقدير يكاد يكون مثل الدين لأمه. وأخشى أنّي إذا واصلت في ذكر مناقبه أن أبدو بدوري مأخوذًا بسحر هذا الرجل بحيث أعجز عن أن أظهر موضوعيًّا في حكمي، على الرغم من قناعتي مما رأيت ولمست بنفسي منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا...

« من ذا الذي عندما ينتهي من قراءة هذا الكلام لا يصرخ معي: إنَّ عبد القادر اليوم رهينة مثله مثل المحارب العظيم نابليون. لكن، لدي القناعة الكاملة أنَّه لن يستمر طويلاً على هذه الحال لأنَّه بكل بساطة ليس حبيس الإنجليز ولكنَّه بين يدي سيدي العظيم لويس نابليون؟»

ليلتها لم أقل أي شيء، كنت مستمعا فقط. فقد كان سيدي مأخوذًا بسعادة غامرة. ولكنِّي في أعماقي كنت خائفا من أن لا تجد الرسالة يدًا رحيمة تضعها في مكانها الحقيقي وتوصلها إلى قلب نابليون.

في اليوم التالي طلب منِّي سيدي بعث الرسالة عن طريق البريد ودفع ما يستوجب دفعه لكي تصل بأقصى سرعة ممكنة إلى الرئيس لويس نابليون. الرسالة كانت ثقيلة، كتاب. مرافعة في صالح الأمير واستنزفت منه جزءاً من راحته وعمره ووقته.

* * *

- ٢ -

بعد انقلاب ٢ ديسمبر ١٨٥١ بزمن قصير، وعلى الرغم من حالة الشطط والإنهاك ومحنة المنفى التي مر بها، زار مونسينيور ديبوش الأمير للمرة الأخيرة استجابة لرسائله الكثيرة.

كانت الرياح الشتويَّة عاصفة في ذلك الصباح وكأنَّ المساء حلَّ فجأة قبل الأوان. الجوّ يكاد يكون مظلمًا وأمطار الشتاء مثقلة بالأتربة والأسئلة المستعصية.

عندما دخل عليه، كان الأمير ما يزال يقلِّب صفحات كتابه بين يديه بشكل يكاد يكون عصبيًّا وآليًّا لم يكن يقرأ ولكنَّه كان يرى شيئًا آخر حساسيَّته زادت مع الوقت. لم يعد يتحمَّل البرد ولا ثقل الجو ولا الغيوم التي تحوِّل زرقة السماء إلى مساحة غير محدودة من السواد. كل ذلك يرجعه إلى اليوم الذي يريد أن ينساه وأن يمحوه من الذاكرة. اليوم الذي وقف فيه عاريًا من كل شيء، من الأهل والأصدقاء، تحت شجرة تشبه الهيكل العظمي بعدما انسلَّت كل

أوراقها، وبدأ يخط رسالة لم تسعفه الأمطار والرياح لكتابتها وكأنَّها كانت تنذره بما سيحدث لاحقًا. مر على ذلك الزمن وقت طويل ولا شيء في الأفق إلاَّ زيارات بعض الأصدقاء والكثير من الفضوليِّين الذين يريدون معرفة هذا الرجل الذي تحدَّثت عنه الصحافة، أحيانًا كمسيح جديد وفي أحيان أخرى كشيطان رجيم لا يرتاح إلاَّ إذا ارتوى بالدَّم. الملاك الذي حام على قلوب المرضى فداواها والقاتل الذي استلَّ سكينه ذات ليلة لينزع أكثر من مئة رقبة كانت تنتظر نجدة لم تصلها أبدًا.

عندما رآه، ركض نحوه كالطفل وترك نفسه تتهاوى بين ذراعيه. لم يجد مونسينيور الذي كان بصحبة طبيب الأمير كلماته التي تخونه دائمًا في مثل هذه المواقف.

ـ مونسينيور؟ هل تعلم معزَّتك؟ غيبة طويلة، كيف أسعفك قلبك كل هذا الزمن؟

ـ سيدي السلطان، أنت تعرف الدنيا، نقف أحيانًا أمام ظروف الحياة مجرَّدين من كل سلاح. لقد سُرق منَّا كل شيء، وربما سنضطرّ بعد مدة قصيرة إلى دفع أتاوى للتنفس فقط.

ـ هل يُعقل أن يقول هذا الكلام مونسينيور الذي علَّمنا كيف نقف في وجه مصائب الدنيا التي ليست إلاَّ اختبارات متتالية لفحص قدراتنا على التحمُّل؟

ـ ليس هذا قصدي مطلقًا، هناك وقائع لا نملك حيالها أيّ حلّ، فهي تتجاوز إرادتنا ومع ذلك نقاومها، وجودي هنا بجانبك ليس إلاَّ ثمرة لهذه المقاومة.

ـ تعال معي. اشرح لي، كلامك يفتح الأبواب الموصدة.

تشبث بيده طويلاً حتى جرّه نحو الزاوية حيث تعوَّد الأمير أن يجلس ويستقبل ضيوفه الذين يحبهم ويقاسمهم أشواقه الخاصة جداً.

ـ الأمور بدأت تسودّ في الأفق. أخشى أن لا يكون هذا الانقلاب في صالحي وربما ليس حتى في صالح البلاد. الأحداث الخطيرة التي سمعت بها تجعلني أخاف كثيراً كلما وقع شيء، نحتاج إلى زمن قبل أن يستتبّ الأمر وننسى نحن مؤقتاً في زحمة الأحداث المتتالية وتفقد قضيتنا درجة الاهتمام التي يليق بها

ـ لا أعتقد جريدة المونيتور تتحدَّث عن حلّ المجلس الانتخابي وأعتقد أنَّ هذا سيكون في صالحك. لن يعود هناك ما يعترض سبيل البرنس Prince لاتخاذ قرار نهائيٍّ فيما يخصّك. معضلتك لم تكن في البرنس ولكن في الذين كانوا يشكلون الغرفة، والذين كانوا يعترضون باستمرار على تسريح سبيلك. الآن صار هو سيد الموقف ويستطيع أن يفعل ما يشاء.

ثم التفت مونسينيور نحو طبيب الأمير وسأله مازحًا:

ـ كيف حال الأمير، أما زال شاباً؟

ـ شاب، كان دائمًا كذلك، ولكنَّه يرفض أن يخرج ويستنشق هواء حدائق القصر على الرغم من إصراري عليه بضرورة فعل ذلك، ولكنَّه لا يسمع. ربما استطعتَ أنت إقناعه يا مونسينيور

لم ينتظر الأمير طويلاً للتدخل والدفاع عن رأيه:

ـ أنت تعرف يا مونسينيور أنَّ الذي ينام بين أسوار الحجر، محرومًا من حريّته لا تزيده مثل هذه الفجوات إلاَّ قلقًا وحزنًا أكبر عدّو للصحة هو فقدان الحرِّية وأنا في هذا المكان أفتقدها ولهذا عوَّدت نفسي على الصبر ولا أريد أن أعوِّدها على كذبة دقيقة ثم أعود من جديد إلى السجن. أحتاج إلى قليل من الحرِّية فقط.

قالها واضعًا يده على ركبة بواسوني الذي كان بجانبه للترجمة كما هي العادة في أغلب الأوقات عندما يزوره ضباط أو شخصيات كبيرة من المجتمع المدني.

ـ على كلٍ، رحمة اللّه واسعة. اللّه يشهد مونسينيور، فقد اشتقت إليك ولكنَّ اللّه غالب، العين بصيرة واليد قصيرة.

ـ أنا من يعتذر لك، لقد قضيت كما تعرف كل المدة الأخيرة في إسبانيا لم يكن لدي حلٌ لمشكلة الديون، فاضطررت إلى الخروج. قل لي ماذا فعلت طوال هذه المدة، أريد أن أسمعك؟

ـ لا شيء سوى أنِّي كتبت كثيراً وقرأت كثيراً وقد ساعدني بواسوني في الاطلاع على ثقافتكم وعلومكم وأصبحت قريبًا منكم. لقد كان أستاذي الفاضل وتحمَّل ثقل طالب مسن ومشى معه خطوة خطوة

ـ لا هذا غير صحيح. الأمير رجل جادّ، تدخل بواسوني مازحًا، لو يبقى معنا ثلاث سنوات أخرى سيكون أحسن حتى من الكثير من الفرنسيين.

ـ لا يا عزيزي بواسوني. للعمر قانونه. وجودك بجانبي أعطاني رغبة كبيرة ليس فقط في الحياة ولكن كذلك في التعلم. كنت

أعرف قليلاً عن الفلسفة اليونانيَّة، سقراط، أفلاطون وخصوصا أرسطو الذي حفظه من التلف أحد أكبر مفكرينا: ابن رشد، عندما كان ظلام اللاتسامح ينخر أوروبا من الداخل. ولكن اكتشافي لديكارت قرَّبني من هذه الأرض، روسو حبب إليَّ المجتمع وهو على حقّ فيما يتعلّق بالحرِّية. حزنت لغاليليو، كان يُفترض أن يبقى على رأيه وأن لا يتراجع أمام القضاء وهو سيد الحقّ. كلِّمني عنك قليلاً يا مونسينيور.

ـ كنت دائمًا في ذاكرتي.

ـ رسائلك الطيِّبة كانت تملأ قلوبنا وكنَّا نعرف انشغالاتك، ثم إنَّ عمل جون موبي في إيصال الرسائل كان كبيراً

شعرت بالإحراج أمام هذا الإطراء من الأمير تمتمت: شكراً، وأعتقد أن لا أحد سمع تمتمتي لأنَّها لم تتجاوز شفتي.

ـ رسائلك أنت كذلك كانت لنا بمثابة الراحة الكبرى. أعرف أنَّ الرسائل وحدها التي نقرأها العديد من المرات هي التي تفك الأحزان المتكرِّرة. لقد عدت مباشرة من أسبانيا لزيارة نوتر دام دو فردولي Notre Dame de Verdelais التي حمتني كل هذه المدة ووضعت ثقتي الكبيرة فيها لم أفعل شيئًا طوال هذه المدة إلاَّ الصلاة في وحدتي المتواضعة كنت مقيمًا في مدينة إيرون Irun الحدوديَّة مع إسبانيا حتى أكون قريبًا من هذه الأرض. كان موبي الذي يمر يأخذ رسائلك يأتيني بها، يقطع الوادي ويضعها في البريد وأضع أنا رسائلي وآخذ ما يتركه لي، وأكتب عليها إلى السيد جون دو سوفتير A M. Jean de Sauveterre. لتفادي المتابعات.

شعر الأمير بالألم الذي كان يعتصر في عيني مونسينيور ديبوش، الذي كلّما تحدَّث عن وضعه، فقدتا صفاءهما المعهود وبدتا منكسرتين مع انشداد كبير في علامات الوجه التي لم تكف اللحيَّة المنسدلة لتغطيتها وطمسها

ـ الظلم صعب والجحود أكثر مرارة!

ـ تصور؟ خرجت كالسارق من بيتي في يوم الأربعاء ١٣ أوت ١٨٥١ كنت في بوردو عندما تلقيت الإهانة الأولى. وقيل لي إنَّ المتعاملين معي يطلبون مستحقاتهم في مدة لا تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة أو التوقيف والسجن. في الحقيقة كنت أنوي الذهاب إلى السجن وتسليم أمري للّه. وحده كان يعرف ما في القلب. لكن بعض الذين أثق فيهم نصحوني بغير ذلك. صلَّيت مع أهلي والناس القريبين ثم خرجت نحو إسبانيا في الطريق، قرأت القدّاس على امرأة كانت تحتضر، رأيت في عينيها البحريتين رغبة قصوى للحياة، ولكنِّي لم أكن أملك إلاَّ ما يملكه رجل دين في مثل هذه الحالات. غادرت أراضي مدينة بوردو وقطعت البيداسوا Bidassoa لأصل بعد ذلك إلى سان ـ سيباستيان. تخيّل بلداً لا تعرف لغته ولا عوائده؟ أليست كارثة؟

لم يصعب على الأمير تخيل حالة الشطط التي كان فيها مونسينيور هو يعرف جيداً أنَّ إنسانا بدون لغة هو إنسان مقطوع اللسان، أو هو شخص يسمع بأذن الآخرين كما كان يكرِّر ذلك دائماً

ـ أعرف جيّداً مونسينيور شططك وقسوة التحوُّل فجأة إلى إنسان أبكم.

ـ بقيت هناك شهرا ونصف الشهر. واقتربت من الحدود الفرنسيَّة في إيرون Irun ، قريبًا من نهر البيداسوا. كل يوم كان جون يقطع النهر لاستلام رسائلي لتوزيعها أو بعثها ويترك في الوقت نفسه كل ما يكون قد وصلني من مراسلات. إيرون ليست بعيدة عن البحر، وأرضها أرض خير كبير وزراعة وافرة.

ـ طيِّب، لكنَّ الديون؟ كيف حللت المشكل؟ ديون ثقيلة ذهبت في خدمة اللّه. لو كان ذوو الشأن يفكّرون ولو قليلاً لما فعلوا معك ما فعلوه. عندما جاءني جون الطيب برسائلك، فرحت كثيراً أنَّك لم تكن مريضا ولا أستطيع عيادتك، ولكنِّي حزنت أنِّي لم أكن أملك حلاً يخفِّف الوطء عنك. جمعنا لك نحن سكان أمبواز بما في ذلك الجنرال دوما وبواسوني وزوارنا الطيّبون ونساء المساجين القدامى، شيئًا رمزيًّا لم يكن مهمًّا ولكن عربون وفاء لك ولطيبتك. صحيح أنَّه لا يحلّ مشكل الديون ولكنَّه يخفِّف من ثقل المأساة. نعرف جيِّداً أنَّ تفانيك الكبير في خدمة الدين والخير الإنساني لا يُضاهى، ولكنَّنا نعرف أيضًا أن خادم اللّه يحتاج إلى سقف وإلى أكل. ربما أفادتك هذه النقود في تسيير حياتك في انتظار حلّ حقيقي ونهائي. أو على الأقل هكذا كانت نيتنا الطيِّبة.

التفت الأمير نحو ابن التهامي الذي لا يغيب عن أيَّة جلسة، فجاءه بكيس صغير، وضعه الأمير في حضن مونسينيور الذي تردَّد في قبوله قبل أن يلتفت نحو الحائط البارد والفارغ ليخبئ دمعات سبقته إلى النزول، ثم عانق الأمير بحرارة كبيرة.

ـ قد لا يحلّ ذلك كربتك ولكنّ الإحساس بوجود يد الخير بجانبنا يخفِّف كثيراً ثقل الفواجع. أنت كنت معنا بقلبك وخيرك وفعلك، ودَيْنُك علينا كبير.

ـ لم أفعل إلاّ ما يوصيني به قلبي وديني.

ـ ونحن لم نفعل أكثر من ذلك. ولهذا نطلب منك أن تقبل هذا الحدّ الأدنى. لكن قل لي، عودتك تعني أنّ مشكلتك حُلَّت نهائيًّا

ـ رجال الخير موجودون. واحد من الناس الطيِّبين دفع للمتعامل المالي الدائن عشرة آلاف فرنك سمحت لي بالعودة والدفاع عن حقّي في الوجود على هذه الأرض. المنفى ليس فقط إحساساً بالفقدان بل إحساس كذلك بالإهانة والتضاؤل والموت البطيء.

صمت الأمير قليلاً، شعر كأنَّه لامس الجرح العميق الذي كان يحاول أن يخفيه عبثاً عن الأعين الكثيرة التي كانت معه.

ـ المنفى؟ الموت البطيء. أكثر من ذلك. التلاشي.

ـ لكنَّه كذلك مقاومة لكي لا ينهار الإنسان على وجهه. سأذهب قريباً إلى باريس لحلّ المشكل بصفة نهائيَّة. وُعدتُ بأنَّ ملفي الذي يبرئني سيقدّم إلى البرنس ـ الرئيس لويس بونابرت في ٢ فبراير ١٨٥٢ وعليَّ أن أكون قريبا لتسيير هذه الوضعيَّة. أيام إسبانيا أهلكتني وعملي مع المصابين بالكوليرا وحمى الملاريا يقتضي مني تواجداً دائما بالمكان عينه والجسد لم يعد يطاوعني أبداً. وإذا تمكنت من رؤية لويس بونابرت، سألحّ على ما قلته في رسالتي عنك

التي تكون قد وصلته وقرأها أنا على يقين من أنَّ الحلّ قريب جداً وأملي أن أجدك بخير وخارج هذه الأسوار.

ـ كلامك يصل. صوتك قريب من اللّه.

ـ إنِّي أدعو يوميًّا لك بالخير. حتى وأنا غارق في أزمتي، لا أتوقف عن فعل ذلك أبداً.

استمتع مونسينيور طويلاً برائحة الشاي قبل أن يرشف الرشفة الأولى:

ـ هذا شاي لالة الزهراء. يدها فيها سحر

ـ أحيانًا أجدها أكثر تحمُّلاً منِّي على الرغم من سنّها ومع ذلك للعمر أحكامه. لقد بدأت تتعب من ثقل الانغلاق والسماء الرماديَّة.

عندما خرج مونسينيور للمرة الأخيرة، صار القصر فجأة فارغًا من كل حياة بعد أن انسحب بواسوني إلى مكتبه ومصطفى بن التهامي إلى حجرة أخرى والطبيب إلى الطابق الأرضي حيث مكتبه. صار المكان موحشاً ولا شيء فيه إلاَّ الممرات الواسعة والفراغات العالية التي تجعل الإنسان صغيراً أمام جبروتها

أعاد فتح كتابه الذي كان بين يديه، ولم تكن الصفحة تهمه وبدأ يقرأ

* * *

- ٣ -

١٦ أكتوبر ١٨٥٢ لم يدخل الخريف فقط ولكنَّه استقر واحتلّ الساحات والبيوت والحدائق والأنفس. خارج القصر، كانت الرياح تعوي كالذئب الجائع. أوراق الأشجار العملاقة تتطاير في كل الجهات، صفراء منكسرة، تعلو ثم تنزل متدحرجة بهدوء لتستقر على الأسطح وعلى حافات نهر اللوار وعلى مياهه التي تخترق أطراف المدينة وجنبات قصر أمبواز.

لأول مرَّة، ومنذ مدة طويلة، تُفتح أبواب القصر عن آخرها شرِّعت وكأنَّها تستعد لاستقبال حدث خاص وغير معهود. نوع من العصبيَّة يظهر على الساهرين على تسيير القصر. لم يكن أحد يعرف سر ما كان يحدث. الكل ينفَذ الأوامر الموجَّهة له ويكتم أسئلته الخاصَّة.

منذ أن تلقى الكومندان بواسوني، مدير قصر أمبواز، نبأ زيارة البرنس ـ الرئيس للأمير والتحضيرات الخفيَّة تسير بسرعة كبيرة. طُلب منه أن يكتم السر حتى يعلن البرنس ـ الرئيس الذي كان في زيارة تفقديَّة لمدينتي بلوا وبوردو، بنفسه عن المفاجأة للأمير.

توقف بواسوني برفقة كتيبة عسكريَّة صغيرة، في محطة أمبواز في انتظار وصول البرنس ـ الرئيس لويس نابليون الذي أدخل في برنامجه سرًّا، زيارة الأمير الذي ظلَّ منكفئًا على نفسه منذ انقلاب ٢ ديسمبر ١٨٥١ حين حل نابليون الجمعيَّة الانتخابيَّة وأصبح سيِّد قراراته. وبدأ يفكِّر في إعادة فتح ملف الأمير وإطلاق سراحه والوفاء بتعهدات فرنسا حتى عندما حذَّره سانت ـ آرنو ناصحًا إيَّاه من مغبة إطلاق سراح الأمير، لم يعر ذلك اهتمامًا كبيرًا كان قد اتخذ قراره نهائيًّا.

عندما نزل البرنس ـ الرئيس لويس نابليون من القاطرة استقبله الكومندان بواسوني عند حافة الدرج الأول للقاطرة الرئاسيَّة. ثم تبعه ضبّاطه الذين صحبوه في رحلته التفقديَّة: الجنرال سانت آرنو[١]، والجنرال روكي[٢]، والكولونيل فلوري[٣] وضبَّاط آخرون.

تحدَّث البرنس ـ الرئيس لويس نابليون طويلاً مع الكومندان بواسوني ثم ركبا معًا السيارة الرئاسيَّة وسارا باتجاه القصر. كانت علامات الرضا تبدو واضحة على وجه نابليون ويشعر بسعادة كبيرة.

---

١ ـ Le général Saint-Arnault

٢ ـ Le général Roquet

٣ ـ Le colonel Fleury

ـ كيف حال عبد القادر الآن؟

ـ كان قلقًا، ولكنّي أعتقد أنّه سيكون أسعد إنسان بزيارتكم له.

ـ لقد ظُلم كثيراً وآن الأوان لكي يسترجع حقّه. اعطني قلماً أريد أن أخط شيئًا يُسعده. لا أريد فقط أن أزوره ولكن أن أطلق سراحه، ليشعر بدءاً من اليوم أنّه حر طليق. بقاؤه في السجن إهانة لدولة بعظمة فرنسا.

ـ تفضّل يا سيدي، قلم رصاص.

ـ لا يهم.

في السيارة خطّ كلمات كان قد فكّر فيها طويلاً حتى قبل أن يبدأ زيارته لبوردو ولمدينة بلوا:

«Je suis venu vous annoncer votre mise en liberté. Vous serez conduit à Brousse, dans les états du Sultan, dès que les préparatifs nécessaires seront faits, et vous y recevrez du gouvernement français un traitement digne de votre ancien rang.
Depuis longtemps, vous le savez, votre captivité me causait une peine véritable, car cela me rappelait sans cesse que le gouvernement qui m'a précédé n'avait pas tenu les engagements pris envers un ennemi malheureux; et rien à mes yeux de plus humiliant pour le gouvernement d'une grande nation, que de méconnaitre sa force au point de manquer à sa promesse. La générosité est toujours la meilleure conseillère, et je suis convaincu que votre séjour en Turquie ne nuira pas à la tranquilité de nos possessions d'Afrique.»

وعلى الرغم من اهتزازات السيارة في الطريق إلاَّ أنَّه لم يتوقَّف عن الكتابة حتى دخلت السيَّارة إلى باحة القصر. كانت الكلمات تتسابق على الورقة بسرعة كأنَّه تدرَّب عليها أو حفظها، تتكاتف برشاقة وسهولة كبيرتين. عندما انتهى من الكتابة، قدَّم الورقة لبواسوني وعيناه لا تستطيعان أن تُخفيا سعادة غامرة.

نزل الجميع من السيَّارات وساروا وراء البرنس ـ الرئيس وبواسوني باتجاه القاعة الكبرى للقصر في انتظار إخبار الأمير بالضيف الكبير.

كان الأمير كعادته في الزاوية الاعتياديَّة في مثل هذا الوقت، يقرأ أو يردّ على الرسائل التي كانت تصله يوميًّا لم ينتبه للحركة التي غيَّرت قليلاً من نظام القصر على الرغم من إحساسه الداخلي بأنَّ شيئًا ما كان بصدد الحدوث. لم يفكِّر في زيارة الرئيس ولكنَّه فكَّر أكثر في نقل جديد باتجاه مكان آخر.

عندما سمع الخطوات الكثيرة التي لم يتعوَّد عليها بهذه الكثافة، أدرك بحاسّته أنَّها خطوات غير عاديَّة وأنَّها لأناس كثيرين. كانت الأرجل التي اقتحمت عزلته تشبه المارشات العسكريَّة بانتظامها هذه المرة لم تأت وفق موعد مسبق كما جرت العادة. قام الأمير من مكانه ومن عزلته وهو يحاول أن يعرف سرّ كل هذه الفوضى التي سبقتها رائحة خاصة، هي نفسها رائحة الخطر أو رائحة السعادة الفجائيَّة التي كثيراً ما تدخل القصر بدون استئذان

وهو يستعد للقيام، دخل عليه أولاً الكومندان بواسوني الذي كانت زوجته ترافق أم الأمير وزوجاته، ليعلن له عن زيارة شخص يريد رؤيته إذا سمح بذلك.

ـ في عينيك سعادة كبيرة يا عزيزي بواسوني، لم أعهدها من قبل.

ـ معي ضيف عزيز يريد رؤيتك يا سيدي الأمير.

ـ يجب أن لا أسألك عن هذا الضيف، فهو منذ أن تخطّى العتبة بصحبتك فقد صار من أهل الدار. مرحبًا به، ليتفضل. اعذرني فقط، أجمع هذه الرسائل وأصلح هذه الفوضى التي أنا فيها

ـ لا داعي لذلك يا سيدي. ليس مهمًا. فهو هنا.

استقام الأمير من مكانه، فقد أحسّ أنّ في لهجة بواسوني شيئًا غير عاديّ. ثم تقدّم حتى الطاولة التي كانت تفصله عن بواسوني الذي التفت صوب البرنس ـ الرئيس، ليفسح له المجال نحو الأمير.

ـ سيدي البرنس ـ الرئيس لويس نابليون يشرّفك بزيارته.

هزّ الأمير رأسه قليلاً وفتح عينيه ليتأكّد أنّه لم يكن يحلم، وليس ما يحدث أمامه مزحة من مزحات بواسوني الكثيرة. استقام جيّدًا في مكانه. تقدّم نحوه لويس نابليون خطوات قليلة ليقف على يمين الكومندان بواسوني قبل أن يمدّ يده لتحيّة الأمير الذي مدّ يده وانحنى قليلاً احترامًا للشخصيّة التي كلّفت نفسها عناء زيارته. كانت كل الكلمات قد انسحبت من فم الأمير ولم يجد لغته التي تعود عليها.

- Je suis venu vous annoncer votre Liberté.

قال البرنس ـ الرئيس مشدّدًا على الكلمة الأخيرة. لم يفهم الأمير من الجملة إلاّ لفظة حرّيّة التي برزت بشكل واضح في الجملة.

هزّ الأمير رأسه ولم تستطع عيناه أن تخبئا السعادة التي ارتسمت فيهما. ارتعشتا طويلاً وانزلقتا في المحجرين بحيرة قبل أن

تستقرّا على وضعهما الأول، الأكثر هدوءاً وتأمُّلاً تماسك قليلاً وتحكَّم في أنفاسه التي بدت متقطِّعة قليلاً:

ـ سيدي الكبير، قد يكون السجن قد قلَّل من حساسيتي تجاه الأشياء ولكن لا يمكنني أن أخطئ في كلمة حرِّية. هذه الكلمة أعرفها جيِّداً في لغتكم.

سلَّم البرنس ـ الرئيس الورقة التي كتبها في العربة الرئاسيَّة للكومندان بواسوني وطلب منه أن يتمّ قراءة النص في لغته الأصليَّة وأن يترجمه للأمير

اعتدل الكومندان في وقفته باستقامة عسكريَّة وانضباط ظاهرين، وشرع في القراءة. وعندما انتهى، قرأ الترجمة حرفيًّا:

«جئت لأخبرك بحريتك. ستقاد إلى بروسة في دولة السلطان، وعندما ننتهي من الترتيبات الضروريَّة، ستتلقَّى من الحكومة الفرنسية معاملة كريمة تليق بمقامك العالي. منذ مدة طويلة ووضعكم يؤرقني لأنَّه يذكِّرني بالتزامات تمَّ اتخاذها ولم تُنفَّذ. ولا شيء أذل من حكومة دولة كبيرة لا تفي بوعدها... لقد كنت خصما عنيداً لفرنسا ولكن هذا لا يمنعني من الاعتراف بشجاعتك وقوّتك وتواضعك في مأساتك، ولهذا فأنا سألتزم بشرف إنهاء حبسك وثقتي كاملة في كلمتك».

التفت الأمير صوب البرنس ـ الرئيس. هذه المرة وجد كلماته التي جاءته مثل الماء، صافية، تنزلق في حلقه بلذة كبيرة:

ـ إنِّي أعدك يا سيدي أن لا أمس هذا البلد بسوء. على كل حال، فأنا توقفت منذ زمن بعيد عن كل شيء. ويمكنني حتى أن ألتزم كتابيًّا.

ـ كلمتك تكفيني يا عبد القادر

ـ إذا كانت كلمتي كافية فأنا أزنها بروحي. شكراً كثيراً ولا أعرف من أين آتي بالكلمات التي تليق بمقامكم العالي. إذا سمح سيدي، سأنادي لجماعتي لكي يشكروكم على ما فعلتموه من أجلهم.

هزّ الكومندان بواسوني رأسه بالموافقة بعد أن أشار له البرنس بعينيه. نادى الأمير كلَّ حاشيته، لينحني الجميع أمام منقذهم بما فيهم أمه لكن البرنس ـ الرئيس مدّ يده نحوها ورفع رأسها، وقارة بن محمد رئيس الخيَّالة وقدور بن علال والآخرون بينما بقي ابن التهامي قليلاً في الخلفيَّة، قبل أن يشكر هو بدوره لويس نابليون.

على الرغم من ارتباكه الداخلي، فقد بقي الأمير واقفًا في مكانه، مسمّرًا كالحجرة، حتى أمره بواسوني بالجلوس لتجلس البقية وراءه. لم يغادر لويس بونابرت القصر إلاّ عندما قاسم الجميع الكسكسي الذي حضرته نساء القصر ولالة الزهراء بيديها النحيفتين. طلب بعد ذلك الإذن بالانسحاب هو مرافقوه إذ كانت تنتظرهم مسافة طويلة نحو باريس. انحنى الجميع احترامًا للخطوة الكبيرة التي قام بها الرئيس تجاههم ثم علت فجأة الزغاريد الكثيرة في القصر. كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي امتلأت فيها أرجاء المكان بالأصوات التي كانت تشبه إلى حدّ بعيد عواء ذئاب تتدرَّب بصعوبة على الصراخ من كثرة الكتمان ثم أعقبها بكاء يشبه النحيب والعويل.

التفت الأمير صوب حاشيته التي لم تكن لتصدِّق ما كان يحدث أمام عينيها.

ـ الحمد للّه يا رب على نعمك. الآخرون سمموا حياتي، وهذا الرجل هو الوحيد الذي استولى على قلبي وهزني بعمق من داخلي.

ثم تدحرج الأمير نحو النافذة التي شرعها عن آخرها لأول مرة منذ أن عبر أبهاء هذا المكان وحجره ومغالقه. ولأول مرة يستنشق هواء لا شيء فيه إلاّ رائحة الشجر والزهر، لأول مرة يرى الحديقة الإنجليزيَّة الواسعة ودقة صيانتها، وخضرة الأشجار بعين أخرى. ولأول مرة يسمع خرير نهر اللوار والعوَّامات التي كانت تشقّه في العمق، وحركة المرور والقطارات التي تقطع المنطقة جيئة وذهاباً لأول مرة يتلذذ للآذان الذي انبعث من قلعة قارسوني[1]، في القصر. لأول مرة يشم رائحة أحياء اسطنبول وبروسة ودمشق التي بدت له أقرب إلى قلبه من نفسه. ثم طوى الورقة الصغيرة التي سلَّمها له بواسوني، بخط البرنس ـ الرئيس ووضعها عميقًا في كفه وشدّ عليها بقوة مخافة أن تهرب منه.

عند حافة النافذة المطلة على الحديقة الإنجليزيَّة فكر في أناس كثيرين. ثم شيئًا فشيئًا انزلقت كل الوجوه لتطغى عليها قسمات مونسينيور ديبوش. أغمض عينيه قليلاً وعندما فتحهما كان قد خطَّ الجملة الأولى في رسالته لمونسينيور ديبوش الذي كان ما يزال في باريس:

«صاحب الغبطة العالي، أستطيع اليوم أن أقول لكم إنَّ خيركم قد تمَّ وإنَّ اللّه قد سدَّد خطاكم وإنَّ ما زرعتموه قد نبت...»

*

١ ـ La tour Garçonnet

- ٤ -

عندما رأى الأمير النور، أحس بنفاذه وقوته.

لم يخرج منذ أن دخل هذه المدينة، وعندما فعل كان ذلك من أجل زيارة المقبرة الإسلاميَّة التي نبتت على جنبات القصر. شعر بأنَّ عدد الموتى قد تضاعف في السنتين الأخيرتين وأنَّ المقبرة كانت تكبر باستمرار. قرأ الفاتحة على أرواحهم ثم رمى بصره بعيداً قبل أن يتوجَّه هو ومرافقوه نحو محطة القطار في أمبواز

وصل الأمير إلى باريس في قطار الثانية وأربعين دقيقة. عندما فتح بواسوني ستائر العربة، رأى الناس وهم ينادون بأعلى أصواتهم بحياته. كانت الجموع المصطفَّة على طول الشارع، تتدافع لرؤية الأمير الذي سمعوا عنه الكثير وصوَّرته الجرائد اليوميَّة في كل الأوضاع، تارة مقاوماً شرساً، ملاكاً، روحانيًّا، وتارة مارداً قاتلاً ودمويًّا يتلذذ بدماء خصومه الذين يذيقهم كل ألوان التعذيب قبل أن يجهز عليهم مثلما حدث له أثناء نقله من بو إلى أمبواز.

فوجئ الأمير بالاهتمام الكبير وتغير الذهنيات وهو ينزل من القطار ويتوجَّه نحو العربة الحريريَّة التي كانت تنتظره هو ومرافقيه لتقودهم نحو القصر مصحوبين بفرقة من الخيَّالة جاءت لتحيَّتهم بالمناسبة.

شعر الأمير بأنَّ ما كان يحدث أمام عينيه كان مذهلاً وكبيراً. عرف لماذا خسر حربه الأخيرة. العالم كان يتغير بعمق وبسرعة. لم يعد السيف والشجاعة يكفيان. فالمدافع الضخمة والآلات السريعة والسفن والعوَّامات البخاريَّة التي تجوب الوديان والبحار وتنقل آلاف الناس والجيوش المجهَّزة والمنظمة، غيرت كل الموازين. الناس يشبهون عصورهم.

التفت الأمير نحو قدور بن علال وقارة محمد الذي كان على جانبه الأيمن:

ـ الخميس ٢٨ أكتوبر ١٨٥٢ هذا اليوم يجب أن يُحفظ في الذاكرة.

ـ معك حقّ يا سيدي. ليس يومًا عاديًّا

ـ شفت يا قدور كيف تتغير الأقدار؟ الدنيا ليست دائمًا ظالمة. رحمة اللّه واسعة، قلوبنا هي الضيِّقة. عندي رغبة واحدة وهي عندما ننتهي من رؤية الرئيس نابليون أن أركض في شوارع المدينة مثل المهبول وأسأل عن مونسينيور ديبوش لشكره على كل ما فعله من أجلنا فقد كان كبيراً وأعتقد أنَّ رسالته فعلت فعلها في الرئيس وفي غيره.

ـ كان سيِّداً كريمًا ما دام يقيم في باريس سنجده حتما شخصية مثله لا تخفى على من سنلتقي بهم بعد قليل. سنسأل عنه وسيرشدوننا عن مكانه.

ـ لا تهتموا سأكلِّف من يصلنا به. هذا ليس مشكلاً على الإطلاق. المهمّ الانتهاء من لقاء لويس نابليون أولاً الزيارة رسميَّة ويجب أن تتم في ظروف حسنة وتترك وراءها أثرًا طيِّبًا. لا أريدها أن تكون مجرد زيارة بروتوكوليَّة.

قال بواسوني مذكِّرًا الأمير بالهدف من زيارته.

ـ المهمة إذن موكولة لك. مونسينيور يستأهل كل خير.

ردّ الأمير وهو يرمي بصره بعيداً بين البنايات الباريسيَّة الضخمة والسيَّارات التي كانت تملأ الشوارع النظيفة بحركتها وضجيجها والناس وهم يسيرون بانتظام في الحدائق المحيطة بالمدينة. العالم كان يتغير بسرعة كبيرة. حكَّ قنة رأسه بحركة آليَّة ولم يستطع أن يكتم تمتمته: غلبونا بهذا ولم يزد كلمة أخرى، فقد أدرك أنَّ شيئًا ما كان يسير بسرعة غير اعتياديَّة وأنَّ البشر هم الذين بقوا ثابتين في أمكنتهم. رأى أحصنته التي سرقها السجن منه وهي تسلك الحفر والوديان بمشقة في فوضى كبيرة قبل أن تصل القمة منقوصة بأكثر من ربعها. رأى سيوفه البرَّاقة التي لم تكن كافية لمقاومة زمن لم تعد البطولة والقصائد تنفع فيه كثيراً. أغمض عينيه قليلاً تحت وقع نقرات حدوات الأحصنة وهي تقطع الشوارع الخلفيَّة، وحاول أن يمحو من ذهنه كل هذه الصور القلقة.

اتجه الموكب نحو نزل الشرفة La Terrasse الواقع ب ٥٠ شارع ريفولي Rivoli حيث خُصِّص للوفد جناح كامل للإقامة والراحة.

بعد راحة قصيرة، طلب الأمير من بواسوني أن يقوده لزيارة كنيسة المجدليَّة La Madeleine. عندما عاد إلى النزل كان مندهشاً من رشاقة البنايات وأماكن العبادة وقوة حضورها ثم التفت نحو بواسوني مرة أخرى ليذكِّره بوعده بلباقة وبشكل غير مباشر:

ـ سمعت أنَّ مونسينيور يوجد في هذه الفترة بباريس.

ـ فهمت يا سيدي وقد اتخذت كل الإجراءات للقائه. لا يوجد أيّ مشكل. سنزوره حيث هو إذا لم يستطع المجيء.

ـ كم اشتقت إلى هذا الرجل وكم أشتهي أن أساعده في مأساته التي لحقت به وأنهكته. رجل في قمة انكساره ولا ينسى أن يفكِّر في الآخرين، شيء كبير.

ـ يجب أن ترتاح قليلاً وأن تفكر في نفسك. بتدخل من البرنس ـ الرئيس نابليون، حُلَّتْ مشاكل مونسينيور ولم تبق إلاَّ بعض الترتيبات الشكليَّة هو منشغل الآن بتصفيتها بنفسه قبل عودته إلى بوردو

ـ أريد أن أراه إذا أمكن.

ـ طبعاً هناك من يقودنا إليه، غداً.

و قبل أن يتخطى الأمير العتبات الأولى التي تقوده نحو جناحه للاستراحة والتمتع من النوافذ المشرعة عن آخرها بشوارع باريس التي بدأت فوانيسها تشتعل الواحد بعد الآخر، كان

مونسينيور ديبوش ينفض لباسه الفضفاض من الأغبرة التي علقت به، عند عتبات الباب الخارجي للنزل مصحوباً بمساعدين له. عندما التقى الرجلان لم يقولا شيئاً ولكنّهما تركا العنان للصمت والعناق الذي استمر طويلاً. لم يجد الأمير الكلام الذي يطلب به مونسينيور للجلوس فأشار بيده لهذا الأخير لكي يجلس بجانبه. كان مونسينيور هو أول من بادر بالكلام:

ـ منذ مدّة وأنا أمني النفس برؤيتك والفرح معك بحريتك. لقد صليت كثيراً من أجل أن ترجع لك. وإنّي أبوس وأبارك اليد التي كسرت قيدك.

ـ أنت أول فرنسي فهمني من بين الكل. صلاتك وصلت إلى اللّه الذي نور الأذهان ومسّ قلب البرنس الكبير الذي فكّ قيدي. كلماتي عاجزة عن شكرك.

ـ سعيد لك بهذه النهاية، يمكنك الآن أن ترتاح وتتفقد كتبك التي طالما حرمت منها قلب اللّه واسع وطيِّب. الناس الصغار هم الذين يضيّقون السبل.

ـ حمدت اللّه أنّ مصاعبك الماليَّة انتهت، أو هي في طريقها إلى ذلك.

ـ مساعدتكم لي كانت كبيرة.

ـ حاشا. ما فعلناه لا يوازي قطرة مما فعلتَه أنت من أجلنا

ـ بمجرد عودتي إلى بوردو، سأزوركم في القصر الذي لم يعد اليوم سجناً. يمكنك أن تستمتع بهوائه وطيوره وحدائقه الإنجليزيَّة.

ـ منذ أن فُتحت كل أبوابه وأنا أشتهي أن أخرج نحو المدينة ولا أعود إلاّ ليلاً

ـ يمكنك اليوم أن تفعل ذلك بكل حريَّة، فقد صرت سيِّد نفسك. أيام قليلة وتعود إلى الأرض التي تتشوَّق لها.

عند الساعة السابعة مساء دخل عليه مساعد المعسكر الكومندان هنري مبعوثًا من طرف وزير الحربيَّة، كان ما يزال منهمكًا في حديثه مع مونسينيور بعد التحيَّة العسكريَّة والاستقامة الصارمة، سلَّمه دعوة خاصة لحضور أوبرا موسى لروسيني Rossini. سأله بواسوني بعد أن استمع لمساعد المعسكر:

ـ هل يريد سيدي الأمير أن يرتاح أم تريد أن تحضر سهرة اليوم في دار الأوبرا؟ ربما سمح لك ذلك باكتشاف جزء من ثقافتنا

وجد الأمير المسلك مناسبًا لتفادي حضور الدعوة بأدب والبقاء مدة أطول مع ضيفه، مونسينيور ديبوش:

ـ معك حقّ أنا اليوم متعب ويستحسن أن أرتاح قليلاً

لم يلحّ بواسوني كثيراً، ولكنَّه قبل خروجه نحو البوابة لتوديع العسكري الذي جاء بالرسالة نبه الأمير بأدب:

ـ خسارة. فرصة. البرنس ـ الرئيس لويس نابليون سيحضر السهرة، فهو جد مولع بالأوبرا.

تردَّد الأمير قليلاً في مكانه مرتبكًا، فقد فهم جيداً كلام الكومندان بواسوني، قبل أن يعدل عن رأيه:

ـ ليكن، مادام الرئيس سيكون حاضراً، سأذهب.

التفت نحو مونسينيور ديبوش الذي ظلّ ينظر إليه بعينين طيبتين كأنَّه يستجديه لقول شيء ما، ولكن مونسينيور اعتذر من الأمير وانسحب في انتظار العودة له وربما السفر معه إلى بوردو

ـ يجب أن أعود، أعمال كثيرة تنتظرني. عليَّ أن أنتهي منها. ربما سمحت هذه الزيارة بمناقشة البرنس ـ الرئيس فيما يشغلك. رجل طيِّب ويستمع إلى كل ما يصله من شكاوى. جيِّد أن تقاسمه سهرة الأوبرا أتمنَّى أن تعجبك.

لم يصرّ الأمير كثيراً على مونسينيور، ولكنَّه قام وعانقه بحرارة كبيرة قبل أن يخرج من بين ذراعيه أكثر سعادة. كان الأمير تحت ضغط ضيافة كبيرة لم يستطع تجنبها ومونسينيور تفادى إحراجه ولهذا فضَّل الانسحاب بهدوء. حتى أنَّ الأمير عندما التفت نحوه لتوديعه للمرة الأخيرة بيده، كان قد خرج واندفن بسرعة في شارع ريفولي الغارق في الأنوار. كان الأمير وحيداً بين مترجميه ومرافقيه نحو الأوبرا.

كان الرئيس في الأدوار العليا، في القمرة الخلفيَّة داخل الأوبرا اقتاده بواسوني نحوه. عندما رآه هذا الأخير، قام من مكانه وعانقه بحرارة كبيرة وطلب منه أن يشاركه الجلسة، فانصاع الأمير تحت تصفيقات القاعة التي كانت مندهشة في الأمير الذي لم تعرفه إلاَّ من خلال الصحف التي تحدَّثت عنه كثيراً.

فيما بعد، عندما بدأ العرض، عرف الأمير لماذا تفادى مونسينيور أوبرا موسى. فقد شعر بخجل كبير من رؤية الأجساد العارية وهي تتقاطع على منصة الأوبرا، ولكنَّه لم يعلِّق كثيراً حتى

وهو في جناحه في النزل يستعيد ما رآه لحظة لحظة ويستغفر اللّه على المشاهد التي رآها

في اليوم التالي دُعي الأمير لحضور حفل رسمي يليق بمقامه، في قصر سان كلو، في بيت البرنس ـ الرئيس. كان بواسوني منكفئًا على كتابة نص من النصوص لتقديمه في الحفل عندما فاجأه الأمير بنص آخر كتبه هو وطلب من بواسوني أن يقوم بترجمته:

ـ لم أفهم يا سيِّدي، قال بواسوني بعد أن قرأ ما كتبه الأمير، لقد جهَّزت شيئًا آخر بروتوكوليًّا خاصًا بالمقام؟

ـ أشرح لك أولاً قصدي. الصحف تحدَّثت أنَّ الرئيس عندما زارني في أمبواز قدّمت له تعهُّداً مكتوبًا بعدم مس فرنسا وهذا غير صحيح. لم أفعله من أجله ومن أجلي. من أجله لأنَّ ذلك سينقص من كرمه، وعظمته، ثم إنَّه لم يطلب منِّي شيئًا، ومن أجلي لأنِّي لم أرد أن أكون مثل اليهوديِّ الجشع الذي رهن حريِّته بورقة. وأريد اليوم وأنا في باريس أن أضع بين يديه التزامًا مكتوبًا، سجَّلته بمحض إرادتي ولم يلزمني به أحد

ـ ألا تخشى أن يؤذي ذلك البرنس ـ الرئيس، كما كنت تقول؟

ـ لا، ما دام الفعل حراًّ. أنا متأكِّد من أنَّ ذلك سيسعده ويؤكِّد له حسن النوايا

ـ لن تكون للورقة قيمة حقيقيَّة إلاَّ إذا كانت نابعة من روحك وفكرك. بهذا سيكون البرنس ـ الرئيس متأثِّرًا بصدقها.

ـ هذا ما أريده ولا شك لديّ في ردّ فعل الرئيس إيجاباً.

بعدها بقليل انكفأ بواسوني على الطاولة القريبة منه وبدأ يترجم الورقة المكتوبة بيد الأمير ويجد الكلمات الأكثر حساسيَّة، ولهذا كثيراً ما كان يسأله للتدقيق في جملة أو كلمة.

كان الأمير بصحبة الخليفة قارة محمد رئيس الخيَّالة وقدور بن علال وفيلق من الضبَّاط الفرنسيين الذين أدُّوا له التحية. وكان الجنرال أوجين دوما[1] هو المكلَّف بتقديم الأمير إلى البرنس. عندما انتهت مراسم الاستقبال، طُلب من الأمير أن يقول كلمته، فسمح له بذلك. قام من مكانه ثم اعتدل قليلاً. رأى في مقابله البرنس ـ الرئيس وقد انعكست أنوار القصر على وجهه فغيبت قليلاً منه. بدأ القراءة بصوت منشرح لم توقفه إلاّ الترجمات المتواترة لبواسوني:

ـ صاحب المقام العالي، لست متعوِّداً على تقاليدكم، ربما كنت بصدد ارتكاب حماقة بهذا الشأن، فأنا أعتذر سلفاً ولكنِّي أريد أن أعبِّر لكم وللشخصيات الكبيرة التي تحيط بكم، عن شعوري الكبير بالامتنان والعرفان. آخرون أعطوا وعوداً أخلُّوا بها، لكن سموُّكم وفيتم بالتزامات لم تقطعوها على نفسكم. بفضل كرمكم أصبح اليوم بإمكاني الذهاب إلى أرض الإسلام للعيش هناك. الكلمات تذهب مع الريح ولكنَّ الأبجديّات والكتابات تبقى. أقدِّم لكم هذه الوثيقة عربون وفاء وتعهد، وبها ضمانات مكتوبة نبعت مني ولم يملها عليَّ أحد

---

١ ـ Le général Eugène Daumas

«الحمد للّه وحده. إلى صاحب المعالي البرنس ـ الرئيس لويس نابليون حفظه اللّه ورعاه وسدّد خطاه. من عبد القادر بن محيي الدين. جئت إليكم لشكركم على حسن صنيعكم تجاهي وأسعدتم روحي بحضوركم. فأنتم بهذا، أغلى من أي صديق. فما قمتم به يستعصي عن كل شكر يليق بمقامكم العالي، نصركم اللّه... أجيئكم اليوم لأقسم لكم بعهد أقطعه على نفسي أمام اللّه، وأمام أنبيائه وكل خلفائه بأن لا أفعل ما يهزّ ثقتكم في وسأحفظ عهدي بأن لا أعود إلى الجزائر. لما ساعدني اللّه على حمل السلاح والبارود فعلت ذلك إلى أقصاه بحسب قوّتي وإمكاناتي ولكن عندما شاء بمشيئته أن أتوقف، فعلت ذلك وتخليّت عن السلطان وسلّمت نفسي. ديني وشرفي يجبرانني اليوم على احترام تعهدي وشجب الخيانة فأنا من الشرفاء ولا أحد يستطيع أن يتهمني بالتلاعب». عندما انتهى الأمير من كلامه، ردّ البرنس ـ الرئيس نابليون:

ـ أيُّها الأمير، ثقتي فيك كبيرة ولم تهتز أبداً ولم أكن في حاجة إلى تعهّد مكتوب، ولم أطلب ذلك أبداً كما تعرف. ومع ذلك فأنا أقبل بالوثيقة التي تقدِّمها لي كتعبير عفوي عن عواطفك التي تؤكِّد لي أنِّي كنت محقًّا عندما وضعت ثقتي فيك بدون حدود

بعد جولة كبيرة في حدائق القصر، اقتيد الأمير بصحبة البرنس لزيارة القصر نفسه وما يحويه من كنوز وآثار، ثم إلى الإسطبل لرؤية الأحصنة الملكيَّة. وقف قليلاً على حصان أبيض كثير الرشاقة والنحافة والرقّة مما أثار الأمير والجنرال أوجين دوما الذي كان محاذياً للأمير. عندما رآه البرنس يحاول أن يمسّد على شعره ووجهه، تدخل:

ـ هو لك يا عبد القادر من الآن، هدية مني أتمنّى أن ينسيك كل سنوات الفقدان. إذا أردت أن تجرِّبه معي في ضيعتي غداً في تدريب للخيَّالة حضرته خصيصاً لك، سأكون سعيداً

ـ يسعدني يا صاحب السمو ويشرِّفني كثيراً ذلك.

في الغد ركبه الأمير شعر بخفّته من تحته. تمنّى أن يرمي كل أثقال الرسميات التي كانت على ظهره ويترك الحصان يركض بدون توقف في هذه الرياض الخضراء على مرمى البصر، ويستعيد سهول معسكر والمتيجة والطريفة التي لا تحدّها إلاّ الجبال، لكنَّ المقام كان يجبره بأن يظل محاذياً للرئيس الذي كان يتحرَّك على حصانه بهدوء.

ـ كيف وجدته، تساءل لويس ـ نابليون.

ـ حصان رشيق، به فقط بعض الدلع كما لاحظ ابن قارة محمد عندما رآه ولمسه الأحصنة مثل البشر، عندما تتعوَّد على الحياة السهلة تصاب بالخمول لكن رشاقته كبيرة وأصله عريق.

ـ أتمنّى أن يسعدك في مقامك الجديد وأن يقلِّل من غربتك هناك. كيف حال أمك الطيِّبة. السن ومتاعب الغربة؟

ـ طوال أيام الحجز، كانت أمي لا تحرِّك جسدها إلاّ بالاتكاء على عصاها، ولكن منذ أن أصبحنا أحراراً بفضل كرمكم، رمت ثقل السنين وصارت تتحرَّك بدون عصا كالشاب.

ابتسم لويس ـ نابليون ظنًّا منه أنَّ الأمير كان يسخر.

ـ هذا دليل عنفوان

ـ أنا جادّ يا سيدي فيما أقوله. لقد رمت كل شيء وصارت تتحرَّك بدون عصا قلت في أعماقي، سبحان الله، ماذا تفعل الحرِّية في الناس؟

وهو في قصر الضيافة، استغلَّ الكثير من الضبّاط من السجناء السابقين فرصة وجود الأمير بباريس لزيارته وشكره على كل ما فعله من أجلهم. كان على رأس هؤلاء الجنرال كوربي دو كونيور[1]، سجين من سجناء موقعة سيدي إبراهيم الذي أصبح جنرالاً، ولم ينج من موت مؤكَّد إلاَّ بمساعدة لالة الزهراء، أم الأمير

عندما دخل الجنرال كوربي أول مرَّة على الأمير، حيَّاه بحرارة ثم ضغط على يده لمدة طويلة، وقال بعد أن استيقظت في قلبه حمم لم يستطع كتمها:

ـ جنرال كوربي. ما دمتَ أمامي، وقد لا يكون المقام مناسبًا، فأنا أحتج في حضرتك ضدّ كل الاتهامات التي ألصقت بي على ظهري. منذ أن وصلت إلى هذه الأرض وأنا لا أسمع إلاَّ حديث سجناء سيدي إبراهيم. يقولون بأنِّي كنت وراء مجزرة السجناء الفرنسيِّين والتي حدثت بدون دراية منِّي لأنِّي، كما تعرف، كنت غائبًا عن الدائرة وقتها، بعيداً كل البعد عن الأراضي المغربيَّة. لماذا صمتم يا جنرال أمام حقيقة سممت العلاقات بيننا؟

ـ متأسف على كل ما حصل لك يا سيدي. أوضاع الحروب قاسية دائمًا ولا سلطان لنا عليها أبداً ما حدث حدث ويجب أن تُقلب الصفحات نهائيًّا وأن لا نظلّ عبيداً لظروف لسنا دائما

١ ـ Le général Courbet de Cognord

مسؤولين عنها. ولكن الذي يحاسبك عليه الأصدقاء قبل الأعداء، هو لماذا لم تعاقب المسؤولين؟ لماذا تستّرت عليهم وأنت تعرفهم جيِّداً.

ـ وهل كنت قادراً على فعل ذلك وقتها وعلى معرفة كل ملابسات القضية؟ ما تبقى من الزمالة كان على الأراضي المغربيَّة، والخلافات بين خلفائي وصلت أوجها خصوصاً بين البوحميدي والسي مصطفى. وبدأ الجوع والأمراض واليأس يأكلون عسكري واحداً واحداً، فلا تطلب منِّي أكثر من هذا. لا أريد أن أتَّهم غيري ولكنِّي أعرف جيِّداً أنِّي لو كنت هناك لوجدت حلاً آخر

ـ ألم يكن من الممكن إصدار أمر بتسريحهم من بعد؟

ـ وهل تمَّ تسريح الجنرال بلّيسييه الذي أحرق عُزَّل جبال الظاهرة؟ إنَّها مآسي الحروب يا جنرال كما كنت تقول قبل قليل. كنت محاصراً بالموت من كل الجهات. كان يمكن أن يكونوا بيننا اليوم لو استطاع الماريشال بيجو اللّه يرحمه، أن يقلِّل من أنانيَّته العسكريَّة وأن يذهب نحو حسابات أوسع. كان يظنّ أنَّ سلطان المغرب قادر على إنقاذهم بدون اللجوء إلى مبادلتهم معنا كما جرت العادة. خسارة. للحرب سلطانها، لحظاتها القويَّة ولحظاتها الأكثر قسوة وغباوة.

أحنى الجنرال كوربي رأسه ولم يضف شيئا مهما باستثناء التمتمات القليلة التي لم يفهم عمقها إلاَّ هو والأمير:

ـ معك حقّ يا سيدي عبد القادر، معك حقّ. للحرب سلطانها نعم. . للحرب سلطانها وأخطاؤها وحماقاتها.

وأثناء غياب البرنس في مهمة الصيد لمدة يومين، استغلَّ الأمير وقته لزيارة معالم باريسيَّة مهمة. من بينها المتحف الذي وقف عنده طويلاً كان دائمًا برفقة أوجين دوما وبواسوني. عندما وقف في فرساي أمام لوحة: الاستيلاء على الزمالة من طرف الدوق دومال، اندهش من ضخامتها ودقَّة تفاصيلها لوحة كبيرة، أكبر لوحة في التاريخ، أكثر من ٢١ متر طولاً، وحوالى مئة متر مُربع. تأمَّلها الأمير بدون أن يخفي الآلام التي اشتعلت في بؤبؤي عينيه اللذين تحركت فيهما مواجع الانهيارات والانتصارات وصهيل الخيول الجامحة. عرف بعض الشخصيات مباشرة من الصورة بينما البعض الآخر بقي غامضًا لولا الشروحات التي قدمت له.

لم يقل شيئًا ولكنَّه عندما وقف في مواجهة اللَّوحة: **معركة الهبرة لهوراس فرني**، شعر بامتعاض كبير قلَّص كل شيء في جسده:

ـ لماذا لا تصورون إلاَّ الانتصارات وتنسون تصوير المواقع التي انهزمت فيها قواتكم. كم يكون الأمر رائعًا عندما يكون مشفوعًا بالعقل وتقدِّمون كل شيء في توازنه. ليس هناك أمَّة تنتصر دائمًا ولا قادة لا ينهزمون أبداً.

ـ أنت تعرف يا سيدي، المنتصر هو الذي يحدِّد دائمًا شكل الأشياء، قال بواسوني بصوت يكاد لا يسمع. الآن كل شيء انتهى ولن تصير هذه الصور إلاَّ جزءاً من التاريخ. من بقي من الذين صنعوا ذلك التاريخ القاسي؟ بيجو مات، ولي العهد الدوق دوما نفي، الأمير سجن على الرغم من الوعود التي أعطيت له، البعض الآخر تقاعد كما لاحظت ومن كان ضابطًا صغيراً صار جنرالاً ومن كان جنرالاً

صار ماريشالاً ومن كان ماريشالاً صار متقاعداً ومن كان متقاعداً لم يعد اليوم بيننا الدنيا تتغير والناس كذلك. الطرقات التي كانت تملأها الأحصنة، صارت اليوم تملأها السيارات والمركبات البخاريَّة وغيرها. العالم يسير بسرعة، إما أن نلحق به أو نتركه يطحننا

ـ بواسوني تفاجئني دائماً بسماحتك وحكمتك.

ـ مثلما تعلمت منِّي، تعلمتُ من لطفك وسماحتك وصبرك الكبير.

ثم زار المطبعة الأميريَّة. لقد شغلته قوتها وذكاؤها ورأى بعينيه كيف تنجز الكتب والجرائد وكيف تصفّ الكلمات لتركب الجملة ثم السطر ثم الصفحة. تقدَّم منه أحد العمال وبدأ يشرح له باختصار ذكاء الآلة تحت ضجيج الماكنات:

ـ أيُّها الأمير نحن في زمن آخر أكثر تعقيداً مما نتصور فائدة هذه الآلات أنَّها سريعة جداً في ظرف ساعة واحدة تستطيع أن تنجز ما يقوم به البشر في ثلاث عشرة سنة. مع افتراض أنَّ العمَّال يشتغلون اثنتي عشرة ساعة في اليوم وبدون توقف. وهذه الأوراق وهذه الكتب تعبر في يوم أو أقل كل الأراضي الفرنسيَّة وتصل إلى أيدي قرائها بفضل القطارات والعبّارات المائيَّة والسيَّارات البخاريَّة.

فوجئ الأمير بما كان يراه ويلمسه.

ـ عظيم! رأيت البارحة دار المدافع التي يتم بها نسف أعقد التحصينات، وأرى اليوم الآلة التي تمَّ بها قلب أقوى الملوك ما يخرج عنها يشبه قطرة الماء التي تنزل من السماء، إذا مست محارة تحوَّلت إلى جوهرة، وإذا مست لسان أفعى تحوَّلت إلى سم.

وقبل أن يعود إلى أمبواز مر على لويس نابليون للمرة الأخيرة في ٩ نوفمبر. تجوَّلا مع بعض على متن حصانين عربيين رشيقين في فضاء البارك الواسع سان ـ كلو كان الأمير على ظهر الحصان الأبيض الذي أهداه له لويس ـ نابليون.

قال لويس ـ نابليون بعد لحظات من الصمت، كان فيها الأمير غارقًا في الطبيعة الممتدة على مرمى العين:

ـ أملي أن يكون مقامك طيِّبًا أملك سيفا عربيًّا قديمًا، سنَّه خلفاء الشرق القدماء. أرجو أن تقبله مني كهدية. ولكنِّي أريد تعشيقه بمقبض وغمد يليقان بمقامك. للأسف لم ينته الحرفي من إنجازه ولكنَّه سيصلك في بروسة. سأكون سعيداً بإهدائك هذا السيف وأنا أعرف سلفًا أنَّك لن تستلَّه في وجه فرنسا

ـ لم أعد اليوم ممن يلتجئون إلى الأسلحة. سأدعو في صلواتي لسموكم ولبلادكم العظيمة خيراً وهداية، أما ما يحدث هناك، في تلك الأرض الطيِّبة، اللّه وحده يعرف سر عواقب الأشياء. أتمنَّى فقط خيراً للكل.

في اليوم التالي ركب قطار العودة باتجاه أمبواز برفقة مفرزة من الخيَّالة والقادة الذين رافقوه وبواسوني الذي ظلَّ ملازماً للأمير، حتى أنَّ هذا الأخير سأله:

ـ أعرف أنَّ صبرك كبير، ولكن أتمنَّى أن لا أكون قد أرهقتك وتجاوزت المعقول. فلولاك لظلت هذه الزيارة خرساء.

ـ أنا في غاية الراحة للقيام بواجبي معكم يا سيدي. سعادتي كبيرة في مساعدتكم وخدمتكم. وأتمنّى أن تقبلوني مرافقًا لكم في رحلتكم إلى بروسة.

فوجئ الأمير بمقترح بواسوني الذي يدلي به لأول مرة:

ـ هل أنت جادّ أم تسخر من سذاجتي؟ من يترك كل هذا النعيم ويذهب نحو أرض لا يعرفها؟

ـ منذ زمن بعيد يا سيدي وأنا أفكّر أنا وزوجتي في ذلك اليوم الذي نرحل فيه بصحبتكم إذا قبلتم بنا لا شيء يجبركم على فعل ذلك. مجرد أمنية.

ـ وماذا سيقول رؤساؤك؟

ـ لا شيء. لقد طلبت تسريحي بعد سنوات الخدمة وقد قُبل منّي ذلك. بل إنّ الكثير منهم استحسن مرافقتي لك حتى أساعدك عند الضرورة، من يدري؟

عانقه الأمير طويلاً ولم يقل كلمة واحدة.

كان القطار قد تحرَّك من محطته وبدأ ينفث أدخنته التي غطّت سماء باريس والشوارع الأماميّة فجأة.

* * *

ـ ٥ ـ

ـ وضعك الآن أفضل، يمكنك أن تخرج قليلاً في الحديقة.

تململ مصطفى بن التهامي في فراشه ثم التفت نحو بياض الحائط وكأنَّه لم يسمع نصيحة الطبيب. أغمض عينيه ثم حاول عبثًا أن ينام.

كان الجو في أمبواز جميلاً، عندما وصل موكب الأمير. الكل كانوا عند الأبواب بما في ذلك لالة الزهراء، أم الأمير إلاَّ السي مصطفى الذي أنهكته الحمى منذ سفر الأمير وأقعدته في الفراش مدَّة طويلة على الرغم من زيارة طبيب القصر له عدَّة مرَّات. دفن رأسه تحت الوسادة لكي لا يسمع الضجيج الذي كان يطنُّ في رأسه مثل دقّ المهاريس. كانت الزغاريد تأتي خفيفة قبل أن تتشابك وتتحوَّل إلى أصداء تشبه الرصاص وهو يخترق الأشجار والأجساد. مسك مرة أخرى على رأسه، وضعه بين يديه ثم ضغط بقوَّة. بدا له ثقيلاً ومشقوقًا في وسطه.

دخلت عليه زوجته. ثم لفّت جزءاً من رأسه بكتّانة بيضاء بعد أن غطّستها في ماء بارد وعصرتها ووضعت أمامه كأس الشيح. إنّها المرة الثالثة التي يعاينه فيها طبيب القصر منذ سفر الأمير إلى باريس.

ـ مجرد وجع للرأس، ربما من كثرة الفرحة. مولاي عبد القادر وصل. تقدر تنزل تشوفو كلُّهم ينتظرونك في الصالون.

لم يقل شيئًا ولكنَّه اكتفى من جديد بشرب الماء كما نصحه الطبيب، منقوعًا بماء الزهر وقشور البرتقال ثم شرب كأس الشيح دفعة واحدة على الرغم من حرارتها

ـ هل تحتاج إلى شيء آخر يا سيدي مصطفى، سألته زوجته مرة أخرى. كلُّهم يستنّوك تحت، في الصالة.

ـ أريد أن أنام قليلاً. مانيش قادر الآن على القيام.

ـ لا يمكنك أن تفعل هذا. الأمير وصل من مدينة باريس. البارحة لم تنم أبداً. طوال الليل وأنا أهزّك وأنت تصرخ وتتململ في فراشك.

ـ ربما لأنَّ فعل الحريَّة المفاجئة أيقظ كل الجروح، بعد أن سلّمنا أمرنا للّه.

ـ طوال الليل وأنت تصرخ بكلام واضح: المحابسية. المحابسية. واش كنت قادر ندير يا ربي سيدي؟ العقون من جهة. ولاموريسيير قبائل الريافة. واش كنت قادر ندير؟؟؟

ـ ربما المتاعب الكثيرة فتحت الجروح النائمة.

ـ اللّه يسترك.   البس كسوتك وانزل معنا لاستقبال الأمير، سأساعدك على القيام.

تململ في فراشه في محاولة للقيام ولكن جسده لم يسعفه. تمدَّد مرة أخرى وهو يتأمَّل سقف الغرفة الجديدة التي مُنحت له منذ أن فُتحت أبواب القصر. شيء واحد لم يستطع أن يتخلَّص منه ولم يغفره له: صمت الأمير وهو يتَّجه إلى باريس؟ لماذا لم يسأله إذا ما كان يريد الذهاب معه إلى باريس. هو يعرف الأسباب ولكنَّ الأمير لأول مرة لم يأخذ رأيه في مسألة تخصُّه مباشرة.

زاد دويّ الزغاريد عند الباب. كان الموكب قد تخطَّى نهر اللوار وبدأ يسير نحو مداخل القصر. كانت لالة الزهراء قد رمت عصاها ووقفت عند باب العربة التي كانت تقلّ الأمير. عندما نزل، كان وجهه منوَّراً. احتضنته طويلاً ثم نظرت إلى عينيه وهي تتمتم:

ـ الحمد للّه، لقد أفرج كربتك وكربتنا جميعاً

تعرفه من عينيه الصافيتين الخضراوين. لونهما يتغير كلَّما تغيَّرت حالته الداخليَّة تأكَّدت أنَّه كان في حالة راحة عالية مع نفسه.

عاودت زوجة السي مصطفى الكرَّة مرة أخرى لتخبر زوجها بضرورة الإسراع بالقيام، فالأمير قد دخل إلى صالة القصر:

ـ السي مصطفى، يا اللّه، بركة من الرقاد. يكفي من الكسل، لقد وصل سيدي عبد القادر ويجب أن تقوم الآن.

ـ إن شاء اللّه، عندما ينعم علينا اللّه بالحرية كل شيء ما يزال على الأوراق ما دمنا هنا، على هذه الأرض التي أجبرنا على القيام بها.

ـ لقد أنعم علينا اللّه بالحريَّة، ولم يبق الشيء الكثير. أيام ونسافر إلى تركيا إن شاء اللّه. يا اللّه قم، الأمير قد عاد ووجهه منوّر على غير العادة.

قام السي مصطفى بصعوبة، متجاوزاً المرض الذي أقعده والتفكير الحارق. عندما دخل إلى الصالة، كانت ممتلئة بكل الناس الذين جاؤوا إلى الأمير لرؤيته. حيا الأمير ثم ذهب ليتهالك بين بقية الناس على غير عادته. لم يقل شيئًا. فهم الأمير بسرعة حركته. واصل الأمير سرد تفاصيل زيارته وجديَّة الرئيس البرنس ـ لويس نابليون في وعده. وعندما خفَّت الحركة في البيت، قام الأمير من مكانه وذهب نحو السي مصطفى وجلس بالقرب منه بينما كان بقية الناس منهمكين في التعليقات الصغيرة عن رحلة الأمير.

ـ السي المصطفى تبدو لي حزينًا ومنهكًا عرفت من أختي ولالة الزهراء أنَّ الحمّى ما خلاتكش ترتاح.

ـ مريض. الحمّى يا سيدي في هذه البلاد مهلكة.

ـ وهل نمرض عندما ينعم علينا اللّه بخيره؟

ـ لا يا مولاي، ولكنِّي بالفعل مريض ولم أقم إلاَّ بصعوبة.

ـ وممتلئ القلب بالمرارة. أفهم خيبتك الكبيرة. أنت تعرف قصة سجناء سيدي إبراهيم ولا يمكن أن نستفز من أكرمنا إلى هذا الحدّ. خزرتك تذكرني باليوم نفسه الذي عدت فيه من جبال زواوة بعد أن قطعت صحراء فيقيق ووجدتك منكسراً مع قصة المساجين. سبحان اللّه، الحالة نفسها! المرض نفسه! بل ردّة الفعل نفسها كل ذلك انتهى ونحن الآن نواجه مصيراً آخر. لقد يئسنا وعندما انفتحت

علينا أبواب اللّه بدأنا نركض نحو غلقها   أنت تعرف جيداً أنّي ذهبت هناك لا لشيء يخصني وإلاّ لكنت قبلت بمقترحات بيجو منذ البداية وغسّلت يدي نهائيًا من مسؤولياتي تجاه الآخرين.

ـ حاشا أن يكون سيدي بهذه الصفة القبيحة. ولكني شعرت بظلم قاس، أنا عاجز عن ردّه. أنا لم أطلب الذهاب معكم، هذا كثير. ولكنّي يا سيدي لا أريد أن أوضع في خانة من أجرم. إنّها الحرب يا سيدي. أليس من حقّنا أن نرفض نحن كذلك مسّ أيدي من أحرقوا الناس أحياء في جبال الظاهرة وغيرها أو قطعوا رأس سيدي مبارك وغيره؟ مجرد سؤال يا سيدي لا أكثر، فأنا أعرف الإجابات.

ـ كنت بعيداً ولا حكم لي في ذلك   التفاصيل أعرفها كما رويت لي وكما تعرفها أنت. ما في القلب في القلب وللحرب قوانينها   الشيء الذي يجب أن لا تنساه يا السي مصطفى، لم نعد اليوم في الوضع نفسه الذي كنّا فيه سابقًا، نحن سجناء وكل ما بنيناه عن فرنسا وأوروبا كان في جوهره غير صحيح. كنّا نظنّ أنفسنا أنّنا الوحيدون الذين ينظر اللّه إلى وجوههم يوم القيامة وأنّ الجنة حكر لنا وأنّ اللّه ملك للمسلم، وكلما تعلّق الأمر بالآخرين أنزلنا عليهم السخط والمظالم. العالم يا السي مصطفى تغير، وتغيّر كثيراً ونحن على حافة عصر كل شيء فيه تبدى لنا على حقيقته. عندما كان الناس يحفرون الأرض ويستخرجون التربة ويحوّلونها إلى قطارات بخاريّة وسفن حربيّة وسيّارات وقوانين لتسيير البلاد كنّا نحن غارقين في البقينيّات التي ظهر لنا فيما بعد ضعفها، وأنّنا كنّا نعيش عصراً انسحب وانتهى. هل نملك اليوم القدرة لفتح أعيننا على هذه الحقائق وتعليم أبنائنا من أخطائنا القاتلة؟ لا أدري. الوقت يسير بسرعة

ساحقة وأخاف أن لا يترك لنا الفرصة للملمة أشلائنا من الصعب على إنسان يأتي في مفترق عصر يذهب وآخر يجيء أن يسير بشكل صحيح إذا لم يكن يملك قدرة على فهم الاثنين في الوقت نفسه.

ـ ولكن يا سيدي السلطان، هناك أرض بعيدة هي اليوم دين على ظهورنا قد لا نحارب ولكنّنا نحاسب عليها أمام اللّه. أحياناً أتساءل إذا لم يكن من الأفضل القتال حتى الموت. التعهد سرق منّا ليس فقط خمس سنوات من أعمارنا، ولكنّه أبعد الشقّة بيننا وبين تلك الأرض وناسها

صمت الأمير قليلاً التفت نحو الحائط، لم ير إلاّ البياض والفراغ.

ـآلامك هي آلامي. هذا خيار لم نختره. ومع ذلك، المعتقل لم يكن سيئا كليًّا لقد تعلّمنا الشيء الكثير وعرفنا أنّ لا شيء يصيبنا إلاّ ما كتب اللّه لنا كان يمكن أن أموت في معركة من المعارك أو بكل بساطة في الخيمة عندما بعث العقون بأحد أعوانه الذي كان يمكن أن يحز رأسي لولا أنّي رفعت رأسي باتجاهه والتقت عيناي بعينيه في اللحظة التي كان يستعدّ لإنزال السيف على رقبتي. لقد خسرنا الكثير من أحبابنا على هذه الأرض. ولكن اليوم أشياء كثيرة تغيرت كذلك. لا يمكنك أن تحمي أرضًا وأنت بعيد عنها بآلاف الأقدام. أقدار اللّه كبيرة وللأرض هناك من يعرف كيف يحميها ويزيل المظالم عنها. أما نحن، فمنذ اليوم الذي قبلنا إنزال السلاح وكتم صوت البارود، متنا ودخلنا برجل أولى نحو القبر لم يبق أمامنا إلاّ لقاء اللّه، لا العمر عاد يسعفنا ولا القوّة ولا المعرفة العسكريّة. ينقصنا يا السي مصطفى قليل من العقل والكثير من تأمُّل الأشياء، لا كما نريدها أن تكون ولكن

مثلما هي في واقع الأمر انهزمنا نعم، عدونا كان أقوى منّا، نعم. ولكنَّ اللّه أقوى دومًا

ـ ولكن يا سيدي في القلب شعلة لا أستطيع أن أكتمها إلاَّ بالطي والكتمان والصمت. كنت حزينًا ولم أملك غير ذلك، لأني شعرت بنفسي مذنبًا

ـ يا السي مصطفى أقدر حرائقك ولكن ألا تظن بأنَّها الحرائق نفسها التي تشتعل فيَّ أنا كذلك. الفرق بيني وبينك أنِّي سلّمت أمري للّه ولم يعد هناك ما يمنع من اللقاء بيني وبين نفسي. وهذا ما أنوي التفرُّغ له. لكنَّك ما تزال مشدودًا لعالم صنعناه ولكنَّه أصبح لغيرنا، ربما كان أقدر منَّا على الرؤية

هذه المرة صمت ابن التهامي بينما عاد الأمير إلى الجمع واسترسل في التفصيل عن لقائه بلويس ـ نابليون وعن كل ما رآه من أنماط الحياة الثقافيَّة والمعالم الحضاريَّة. كان الحضور مندهشين من تصويره الذي لم يتوقف أبدًا وأمه لالة الزهراء تشدّ على يده منذ أن دخل مثل الطفل الصغير ولا تريد أن تتركه، ومن حين لآخر تنظر إلى وجهه لتقرأ ملامحه.

سأله مصطفى بن التهامي بعد صمت طويل:

ـ وأين الحصان الأبيض الذي أهدي لسيدي؟

ـ هو في الإسطبل مع محمد بن قارة يحاول أن يعوده على عاداتنا سيسافر إلى أرض الإسلام وعليه أن يعرف ماذا نأكل وكيف نتحرَّك حتى لا يُرهق ويُغبن. الغبن مثلما هو الحال عند البشر، يقتل الأحصنة.

ـ هل يمكنني أن أجربه.

ـ هو عربي خفيف، لا يشبه كثيراً في دلعه أحصنة احميان. احذر، يمكن أن يسقطك أرضا إذا لم تتشبَّث به جيداً لقد كبرنا على الفروسيَّة يا السي المصطفى والحجز والمنفى أضعفا من حواسنا

ـ نجرب. ربما كانت أحصنتهم أكثر رحمة منهم.

هزّ الأمير رأسه ولم يعلِّق عمَّا سمعه وفهمه.

لبس السي مصطفى، على غير عادته منذ يوم حجزه، ألبسة الفرسان تحت دهشة الجميع. كان لباسه مرقَّطًا بالسفائف الذهبيَّة والجلد المعشَّق بالألوان الآجوريَّة. الأحصنة لا تتحمَّل الناس العاديين. ضحك بواسوني والأمير اللذان ظلا مشدودين إلى المشهد ثم حمل عصاه في مكان بندقيَّة اليطقان Le Yatagan ذات الماسورة الطويلة. قبل أن يخرج، اقترب منه بواسوني الذي خرج وعاد بسرعة وقدَّم له حذائين طويلين من الجلد الآجوري. انتعلهما بسرعة ثم استقام أمام الأمير كالعسكريّ قبل أن يخرج. كان فارسًا ممتلئًا بالحياة. نزل نحو الإسطبل وركب الحصان الذي كان محمد بن قارة قد هيَّأه. أخرجه إلى ساحة القصر وتركه يركض وهو فوقه يحاول أن يستعيد بصعوبة حركاته القديمة. كان الجميع يتأمَّلونه من النوافذ المطلّة على الساحة. لم يتوقَّف حتى تعب الحصان الذي لم يكن متعوِّداً على الدوران في مكان مغلق. عندما غربت الشمس عاد السي مصطفى إلى البيت ليواجهه الأمير مازحًا

ـ كيف حال الحمى الآن يا السي المصطفى، الظاهر أنَّ هواء الخارج كان شافيًا.

ـ آه يا أمير المؤمنين، أشعر بلذة غريبة. كل المرض الذي يفسد راحة البال انسحب بقدرة قادر. لقد ذهب مع الريح. أحس بنفسي أفضل ولو أنّي أشعر بثقل كبير في جسدي. المنفى لا يحزن فقط بل يهلك صحة الناس.

ـ لقد فقدنا بعض اللياقة، ربما العمر كذلك، يجب أن لا تنسى هذا.

ـ العمر لا يفقد اللياقة ولكنَّ اليأس ينخر. الآن يمكنني، إذا سمح سيدي، أن أركب الحصان الأبيض من حين لآخر لكي لا يثقل.

ـ اسأل السي محمد بن قارة، هو يعرف جيِّداً عوائد الأحصنة، منذ أن رآه وهو مبتل به وبرشاقة جسده. يقول إنَّ الفارق بينه وبين الحصان الحمياني، الدلع فقط. ما عدا ذلك فهو حصان رائع.

ـ ومتى نسافر إن شاء اللّه إلى تركيا، سأل مصطفى بن التهامي على غير انتظار، لقد زاد شوقي إلى تلك الأرض يا سيدي ولم أعد قادراً على التحمل. عندما ينفتح النور نتشوّق إلى الخلاص.

ـ إذا سار كل شيء على ما يرام مثلما هو مخطَّط له، سنرحل في ١١ ديسمبر ١٨٥٢ إن شاء اللّه. على كل الصبر. ما بقاش قد ما فات. الانكسار تركناه وراءنا. لقد فتح اللّه علينا بعد أن انغلقت كل السبل في أوجهنا.

ـ إن شاء اللّه.

*

- ٦ -

الفجر الأول. شمس صفراء تقاوم كداسة الغيوم الرماديَّة.

فجأة امّحى كل شيء، وحلّ محلّه بياض مفاجئ ورغبة عارمة للصمت والتأمُّل. حتى الكتب التي كان يفتتح بها الأمير جلساته العلميَّة في أمبواز أمام ذويه ومرافقيه، **كالصغرى في علم الكلام** للسنوسي، **ورسالة الإمام ابن أبي زيد القيرواني في الفقه**، ومصنَّفات **البخاري وكتاب الشفاء** للإمام عياض وجلسات بواسوني وغيرها، ذابت كلُّها في الهزّة العنيفة التي انتابته وسحبته نحو نور لم يكن مهيَّأ له. لم ير إلاَّ البياض وهو يحاول عبثًا أن يضع يده على الحدّ الفاصل بين الحلم والكابوس ويستمع إلى صرير أبواب القصر وهي تنغلق للمرة الأخيرة والنوافذ وهي تُسدّ هل كان وراءها؟ أمامها؟ أم فيها؟ أم في الأماكن كلُّها مثل الذرَّة الضائعة في الفراغات؟

ـ «ياه؟ هكذا بكل بساطة؟ خمس سنوات مثل الريح، وكأنَّ شيئًا لم يكن؟ خمس سنوات فقط؟ ٨٧٦٠ يومًا، ٤٣٨٠٠ ساعة، ٢٦٢٨٠٠٠ دقيقة، ١٥٧٦٨٠٠٠ ثانية فقط؟ هل يعلمون أنَّ في كل ثانية حياة بكاملها تنشأ وأخرى تندثر؟»

عندما أغلقت الأبواب من وراء الجالية التي خرجت بكاملها، مستقلة السيارات والكاليشات باتجاه محطَّة القطار، صمت الآذان فجاة في قصر أمبواز وغاب صوت محمد بن قاره الجهوري الذي كان يخترق المدينة خمس مرّات في اليوم. وسكنت الحركة وعاد القصر إلى حالته الأولى الخالية من كل حياة كما كان قبل أن تدخله الجالية.

صار قصراً فقط.

سقوط الأمطار الذي صاحب عمليَّة الخروج، لم يستمر طويلاً، فقد توقف تاركًا وراءه رائحة طيِّبة للتربة والنباتات وأوراق الأشجار المنداة، التي ملأت الأرجاء.

أغلق الأمير حجاب نافذة العربة ليغطي نهائيًّا مشهد القصر، والتفت نحو لالة الزهراء وهو يحاول أن ينسى لحظة البياض التي انتابته:

ـ شفت يا لالة الزهراء، غمض عينيك يصبح الحال. رحمة ربي واسعة.

ـ سبحانه. شكون كان يقول؟ بدأنا نيأس. شيء واحد بقي في خاطري.

ثم صمتت قليلاً

ـ أعرف يا يما. الحي اللّه يطول في عمره والميت اللّه يرحمه. هم ذاكرتنا في هذه المقبرة وهذه المدينة. لم يكن بإمكاننا نقلهم معنا، إنَّهم اليوم تحت رعاية أهل هذه المدينة الطيِّبين لزيارتهم. تركت لهم بعض الذهب والفضة والنقود لرعاية المقبرة الإسلاميَّة. أنا كذلك تركت ورائي زوجتي الطيِّبة مباركة وعبد اللّه، ابني، على هذه الأرض. لهم اللّه. لا شيء يليق بالميّت إلاَّ قبره، وأينما كنَّا فالأرض للّه. التربة واحدة والجسد المتفاني واحد

ـ أنت تعرف يا وليدي قلب ابن آدم مش حجرة بل من لحم ودم. اللّه غالب، ما يزالون كلُّهم بين عينيَّ كأنَّهم لم يموتوا أبداً

ـ هذه هي الدنيا يا يما الزهراء. يضايقني كثيراً وأنا أغادر هذه الأرض أن لا أرى الرجل الطيِّب الذي ضحَّى بكلّ شيء من أجلنا، مونسينيور ديبوش. في المرّة الأخيرة لم يكن سعيداً وهو يغادرني

ـ اللّه لن يتخلَّى عنَّا أبداً. سيمنحك فرصة أخرى لرؤيته. أنا متأكِّدة من ذلك. لا تكلِّف نفسك عناء التفكير، لديك أناس كثيرون ينتظرونك قبل المغادرة.

منذ الفجر الأول، انطلقت العربات الواحدة بعد الأخرى محمَّلة بالأغراض وبسكان سجن أمبواز. كان الرتل المتوجه إلى محطة القطار طويلاً يُرى من بعيد وهو يقطع الوادي أو يصعد الهضبة الصغيرة المؤدية إلى محطة القطار.

ـ الحمد للّه أنَّ اللّه منحك فرصة أخرى للحياة وفعل الخير.

قالت لالة الزهراء وهي تطبع قبلة هادئة على جبين ابنها.

ـ أعتقد يا يما أنَّ الخير لا يموت أبداً، والله يمنحنا دائماً قوة لا نستطيع إدراكها إلاّ بالعمل الدائم. كان سيدي الأعظم ابن عربي يقول دائماً إنَّ الناس يموتون ولكنَّ الفضائل خالدة دومًا أتمنّى اليوم أن أجد وقتًا كافيًا لقراءته والإقامة في ملكوته اللُّغوي.

ـ سيمنحك اللّه كل الوقت للعودة إلى كتبك. لقد أديت ما عليك.

ـ كنت أتمنى نهاية أفضل لتلك الأرض ولكنِّي متأكِّد أنَّها ستجد من يضعها في قلبه ويحفظها في عينيه. لم نستطع مقاومة أقدار اللّه.

ثم صمت الأمير قليلاً التفت نحو أمِّه التي ظلَّت تتَّكئ على كتفه الأيمن. فتح الستارة الخفيفة أكثر. تتبع بعينين صافيتين، مفتوحتين على آخرهما، الغيوم التي قطعت السماء في نصفها، بدأت صغيرة لتتكتل وتسودّ وتتحوَّل إلى ظلّ كبير على أمبواز بكاملها بينما ظلَّت أطراف السماء الأخرى على حالها، وسط بياض يشبه رغوة حليبيَّة فائضة. كانت هذه الغيوم تنذر بجو قلق وبأمطار غزيرة. تحرَّكت بتثاقل حتى غطَّت الجزء العلوي من قلعة قارسوني Garçonnet التي كانت تُستعمل كمئذنة في قصرأمبواز. موسيقى حارَّة تعوّد عليها سكان أمبواز على مدار الخمس سنوات الماضية.

كان القصر قد انسحب نهائيًا من وراء جسر اللوار والبنايات المقابلة التي غطَّته جزئيًّا بينما كان هواء الميسترال البارد قد بدأ يهبّ قويًا من جهة الشمال، ثلجيًّا، حادًّا ومخترقًا الأجساد المتعبة.

عند الساعة الواحدة بعد الزوال، نفخ القطار البخاريّ دخّانه للمرة الأخيرة تاركًا وراءه المدينة وبعض الناس الذين خرجوا يودّعون سكان هذا القصر الذي شهد خمس سنوات من الحركة غير العادية. في محطة ليون استُقبل الجميع من طرف الجنرال أوجين دوما وإسماعيل أوربان[١] والرسام تيتييه[٢] وكذلك أوجين دو سيفري[٣] الذي أهدى الأمير كتابه عن الجيش الفرنسي وعلى وجهه بعض التردُّد.

ـ إذا قبل سيدي مني هذه الهدية المتواضعة سأكون ممنونًا.

ـ كنت أظنّ أنّي لا أستحقّ منكم كل هذا التكريم أنا الذي كنت ولمدة طويلة خصمًا عنيدًا لجيوشكم وقادتكم. أقبل بهذه الهدية لأنّ الإعجاب الذي أشعر به اليوم والصداقة الكبيرة منحاني فرصة اكتشاف عن قرب تاريخها الزاهر

ـ كل الشرف لي. شكرًا يا سيدي.

ثم التفت الأمير نحو أوجين دوما الذي ظلّ مشدودًا إلى حركة الأمير وإلى كلامه وملاحظاته، وكأنّه كان يريد أن يحفظ نهائيًّا قسمات تعوَّد عليها منذ أن كان قنصلاً بمدينة معسكر وسيفقدها بعد قليل. شعر الأمير بحزنه العميق وبحيرته:

ـ أما أنت يا دوما فلا أملك حيالك أيّة قوة للكلام. لن أنسى صداقتك أبدًا وأطلب من اللّه أن يحفظك من أيّ مكروه. لا تبخل علينا برسائلك ونصائحك وتأكّد أنّي لن أنساها أبدًا ما دمت حيًّا.

---

١ ـ Ismail Urban

٢ ـ Le peintre Titier

٣ ـ Eugène de Civry

ـ أيُّها السلطان رفقتك علَّمتني الشيء الكثير وفتحت عيني على تفاصيل لم أكن أعرفها أبداً عن الأحصنة، عن رؤية العربي للمرأة وعن عاداتكم وتقاليدكم الكبيرة.

ـ كم أتمنَّى أن تزوّدني بجريدتي المبشر والمونيتور لتتبع أخبار البلاد عن قرب.

ـ هذا بسيط جدًّا. سأتكفَّل به شخصيًّا وستصلك باستمرار سأجد القناة المناسبة لتوصيلها إليك. لا تهتم بهذا الأمر.

ـ جازاك اللّه خيراً

ثم التحق الجميع بالقطار المتَّجه إلى شالون Chalon حتى نهاية الخطوط الحديديَّة على مشارف نهر الصون Le Saone ليركبوا بعدها الباخرة Le Parisien N 1 التي قادت الجميع إلى ليون حيث تعشَّى مع الماريشال المسن كاستولان[١] الذي سلكت عبره كل فيالق إفريقيا الشماليَّة، والذي حرَّك على شرف الأمير مفرزة بكاملها لتأدية التحيَّة، وكذلك المصرفي، رجل المال السويسري شارل آينار[٢] الذي دافع عن الأمير باستماتة واتَّصل بكل الذين كان لهم تأثير في السياسة الفرنسيَّة لإطلاق سراحه.

ـ عندما خرجت من السجن، قال الأمير كمن يسدّ دينًا قديمًا، كنت من الأوائل الذين فكرت في لقائهم. وكنت ممن كاتبتهم لأعلن لك عن قرار تحريري وكنت سعيداً لرؤيتك من جديد. الأصدقاء

١ ـ Le maréchal Castellane

٢ ـ Le banquier Charles Aynard

يُعرفون في اللحظات القاسية حيث ينسحب الكثيرون نحو الحلول السهلة.

في اليوم التالي نزلت السفينة نحو أفينيون Avignon. توقَّف الأمير قليلاً لشكر حاكمها الذي كان بانتظاره بصحبة العديد من سكان المنطقة قبل أن يسير باتجاه مارسيليا، حيث تنتظره سفينة لابرادور Labrador التي تنقله إلى بروسة.

* * *

ـ ٧ ـ

في نزل الأباطرة[١] حيث استُقْبِل الأمير وحاشيته، كل شيء كان منظَّماً ومعداً سلفاً عندما وصل الوفد كان مرهقاً فاتَّجه الجميع نحو الغرف لأخذ قسط من الراحة قبل الاستعداد للسفر، بينما الأغراض والأثاث والممتلكات الشخصيَّة الثقيلة أُنزلت مباشرة نحو الميناء القديم لشحنها في اليوم نفسه.

وقف الأمير قليلاً في الزاوية المواجهة للنافذة الكبيرة التي تنفتح على الفراغ. تأمَّل المكان طويلاً أعجبته الهندسة المعقَّدة للمكان والتي توحي بقدامة عريقة ولكنَّه لم يستوعب أبداً كيف يستطيع الإنسان أن يعيش في أمكنة مغلقة بدون أن يرى الشمس. لم يكن يتخيَّل أن هناك دوراً بدون أحواش ولا مراحات ولا زيتون ولا

١ ـ Hôtel Les Empereurs

تين ولا هندية. الحوش هو رئة الدار التي منها يتنفس البشر والطير والحجارة.

كان وجه الأمير بارداً ومنكسراً على الرغم من سعادته العميقة. لم يشعر بالحاجة إلى شيء وهو يتهاوى على الصوفة من شدّة التعب إلاّ لكأس قهوة تركيّة مرّة. بدت له ثمينة جدًّا حتى أنّه شم رائحتها تأتيه من بعيد وتدخل أعماق أنفه بدون استئذان. لاحظ بواسوني تعبه وثقل جسده:

ـ الأفضل لسيدي أن يخلد للراحة قليلاً الكل الآن التحق بمكانه ويمكنك أن تنزوي قليلاً في غرفتك في انتظار السفر

ـ تعرف يا عزيزي بواسوني، ربما لم أعد قادراً على تسيير كل هذه السعادة الغامرة، ومع ذلك فأنا أشعر بحزن عميق وبصعوبة كبيرة في ترك المكان. لي أحباب هنا خبرتهم وخبروني في أرض المعركة وعرفت الشجاع والمقاوم والصبور وعرفت كذلك الجبان والخائن. إنِّي كلّما لامست وجه أحدهم أو يده قاومت البكاء والانهيار صعب يا صديقي أن ترحل بدون الذين تحبهم. ربما يعودنا غيابهم على عيش حياة شبه عادية، لكنَّهم يبقون في الذاكرة ويستيقظون فينا كلّما حاولنا أن ننساهم.

ـ أعرف ذلك وأحسّه ومع ذلك يوم صممت على مرافقتك أنا وعائلتي لم يكن في ذهني إلاّ شيء واحد هو أن أبقى وفيًّا لمثل أعلى في الحياة أنتم تمثِّلونه أحسن تمثيل. لا أريد من الحرب التي خضناها أن تجعل الحياة باردة في أعيننا

ـ ومع ذلك فهي تقتل شيئًا مهما فينا: رؤية الأشياء في معناها البسيط والأول والبدائي. الحرب أفقدتنا هذه الملكة. اليوم، كل شيء يمر عبر الحساب والتأويل، حتى أبسط الحركات.

التفت الأمير مرة أخرى وبحركة لاشعوريَّة نحو النافذة الواسعة والمشرَّعة على حديقة النزل. عاودته رائحة القهوة القويَّة المنبعثة من مكان ما:

ــ ياه؟ منذ زمن لم أشم هذه الرائحة وهذا النوع من القهوة.

ـ هذه قهوة التركي سليمان يشار. محلّه ليس بعيداً عن نزل الأباطرة. سأبعث من يأتينا بركوة بكاملها من عنده.

عندما تحسس برأس لسانه الرشفة الأولى، شعر بلذة استثنائيَّة تعبر كامل جسده وتمنحه حرارة كبيرة. تمدَّد أكثر وارتخى وهو يرشف الجغمة الثانية التي كانت أقل سخونة ولكن أكثر سلاسة من الأولى بدأ التعب يتضاءل شيئا فشيئًا وتحلّ محلّه حالة من الصفاء الكبير رأى نفسه يعبر شوارع بروسة، متوجِّهًا إلى أكبر مساجدها أو منتدياتها الثقافيَّة. رأى نفسه في الجامع الأموي بدمشق يمتشق كتابًا ضخما أو مخطوطة من مخطوطات المعلم الأكبر، محيي الدين بن عربي ويحاول أن يفكّ أسرار الحروف الصغيرة التي تجر وراءها ثقلاً لا يدركه إلاَّ الذين تجاوزوا القوس الأول في بحر العلوم مرت الأشياء بسرعة في ذهنه. لم تدهشه بنايات مارسيليا ومحطاتها التي اتسعت أكثر والقطارات التي تشقّها كل يوم، بقدر ما أدهشته روائحها وموقعها فهي على العكس من باريس. مدينة تنام عند أقدام البحر

كالجزائر. شعر الأمير بأنَّ شيئًا ما فيها أعاده إلى البلاد، بأنَّ الأرض والبحر يبعثان رائحة هي مزيج من شيء غامض يأتي من بعيد ويخترق صميم القلب ليستقر فيه طويلاً كان في المدينة شيء من الشرق. شعر بجوع عميق إلى مفقوداته الصغيرة. شم رائحة تراب آخر غير التراب الذي كانت تغوص فيه رجلاه كلّما خرج عن الطرقات التي صنعت من الحجارة الزرقاء المنحوتة بإتقان. التراب والروائح والشمس والأمطار،توقظ أحيانًا أوجاعا طفوليَّة عميقة. فجأة رأى نفسه في مرتفعات وادي تليلات، ليس بعيداً عن مداخل وهران، أيام الحجّ، يدفع الحصان ويصرخ في وجهه والحصان ينظر إليه بعيون مدورة وكأنَّه كان يكلِّم الفراغ، ثم شاهد الوالد الشيخ محيي الدين الذي اختلط وجهه بوجه المعلم الأكبر وهو ينزل من سرجه ويحكّ على وجه الحصان المتعنِّت وعلى شعر ه الأملس، يوشوش في أذنيه قليلاً ثم يدفعه بهدوء إلى الأمام فيقفز الحصان فجأة ليخرج من الطمي والوحل ويندفع إلى الأمام وكأنَّ شيئا لم يكن، ثم تمتم في أذن ابنه اليمني: **عبد القادر يا وليدي، الأحصنة مثل البشر تحرن وتحرن عندما نهينها. الحصان ليس حماراً، عندما تريد منه أن يتحرَّك، وشوش في أذنه، ساعفه ثم ساعده بهدوء فسيندفع أكثر إلى الأمام ويتحرَّك بسرعة. الإهانة تقوِّي التعنُّت والأحقاد. العنف والشتائم يقلّلان من همة الأحصنة. الأحصنة حسّاسة، ويخطئ من يظنّ أنَّ العنف وجراحات الركاب تساعدها على السير الركاب تجرح الخيول وتؤذيها وتجعلها أكثر جموحا وفوضى. تفاد ذلك كلّه يا ابني.**

ـ الأفضل أن ترتاح قليلاً يا سيدي.

لم يسمع الصوت جيِّداً. بدا له بعيداً يشبه كثيراً صوت سيدي محيي الدين.

ـ أنت متعب يا سيدي والرحلة طويلة.

ـ بواسوني حبيبي، لست متعباً أبداً. أنا أستمتع وأملأ عيني بعالم قد لا أراه ثانية. هل تظنّ أنَّه بقي في العمر أكثر مما مضى؟

ـ أنت ولدت من جديد يا سيدي.

ـ صحيح. ولكن هناك جزء آخر دفنته هنا، على هذه الأرض.

لم يردّ بواسوني ولكنَّه التفت نحو حركة جسد بدا كشبح يعبر الطريق من وراء الزجاج، يعرفه جيِّداً لم يقل شيئًا ولكنَّه قفز من مكانه ليفتح الباب. مونسينيور ديبوش ملفلفًا في ألبسة خشنة، تسبقه لحيته الكثَّة بسبب الانحناءة الأماميَّة لظهره. كانت علامات التعب بادية على وجهه. قام الأمير من مكانه وكأنَّه طوال هذه المدة لم يكن إلاَّ في انتظار عبور مونسينيور عتبات النزل. لم يجد اللغة المناسبة التي يواجهه بها في المرة الأخيرة عندما رآه كان مريضا ومرهقًا ويشعر بثقل كبير في جسده. عندما سأله عن الأمر وقتها، قال إنَّه لا يفهم كثيراً حالات الحمى التي تنتابه وفقرات الرقبة التي صارت تؤلمه كثيراً فضَّل أن لا يقول شيئا وأن يستمتع فقط بحضوره.

شعر بدفئه وهو يضمّه إلى صدره.

ـ أرأيت أيُّها السلطان الطيِّب، بدأنا نشيخ ولم نعد نطيق البرد أبداً؟

ـ مونسينيور، لم يكن من الضروري تنقلك إلى هذا المكان البعيد. أعرف متاعبك الصحيَّة وأدرك جيداً ما كابدته للوصول إلى هذا المكان. لقد تعوَّدنا عليك ومن الصعب جداً أن نتركك. كل ما يحدث لنا اليوم من سعادات كبيرة فضلك فيها كبير. تذكَّر دائمًا أنَّ لك أصدقاء في أرض الإسلام يحبونك ويدافعون عن مثلك باستماتة. سأسافر ولكنِّي سأنقل معي آلام فقدانك وتركك ورائي.

ـ لن أدخر جهداً للقيام بالشيء نفسه. أعذرني، نصير مثل الأطفال عندما نفقد عزيزاً لم أستطع تحمُّل تركك تسافر لوحدك نحو أرض أتمنَّى أن تجد فيها غايتك وما تشتاق إليه. لن أنسى كل الليالي التي قضيناها مع بعض في مدينة بو أو أمبواز نقاوم المظالم والبرد القاسي. قد تبدو الدنيا مجحفة في حقِّنا ولكنَّها ليست ظالمة البشر هم الذين يجعلونها لا تُطاق.

ـ مونسينيور أنت تعرف أنَّ المسترال الذي يدخل العظام الآن أقلّ قسوة من ظلم البشر وأكثر تحمُّلاً لكنَّ اللّه لا يهمل الناس الطيِّبين الذين يتفانون في خدمة الخير وأنت أحدهم.

كان الميسترال القادم من الشمال يهبّ عنيفًا منذ يومين ولا تُسمع في الخارج أو تُرى من النوافذ إلاَّ الأشجار وهي تقاوم للبقاء مستقيمة وواقفة على الرغم من الجلْد المستمر وحدها لم تتأثر لضرباته القويَّة أشجار الصفصاف السامقة.

في الميناء القديم كان الصيَّادون والبحّارة يحاولون عبثًا ترقيع الأشرعة. فالميسترال رفع منسوب المياه مما جعل الإبحار مستحيلاً.

ولم يهدأ إلاَّ في ٢١ ديسمبر حيث سمح للجميع بركوب سفينة لابرادور التي كانت تحمل راية فرنسيَّة.

التفت الأمير نحو مونسينيور ديبوش الذي كان يتَّكئ على كتفه الأيمن. كان وجهه مرتبكًا ومنكسرًا عبر الجميع باتجاه عمق السفينة ولم يبق إلاَّ الأمير:

ـ خمس سنوات يا مونسينيور وكأنَّ الأمور حدثت البارحة فقط. كأنَّ كل ما حدث كان مجرد كابوس سرعان ما انطفأ صدق الذي قال: في الدنيا حركة عميقة للأشياء، عندما نعرفها تنتفي الأحزان وحالات اليأس. ماذا بقي اليوم من البارحة؟ يكاد الزمن أن يمحو كلّ شيء، بشراً ووقائع.

ـ صحيح، ولكنَّ الجسد والذاكرة يحفظان العلامات الصعبة. أتساءل في خلوتي، أيَّة قوة داخليَّة سمحت لك بتحمُّل كل المظالم؟

ـ ننسى كل شيء عندما يؤازرنا الذين نحبهم هذا اليوم وهذه الأمطار تذكرني باليوم القاسي الذي عبرت فيه وادي الملويَّة في حالة تكاد تكون يائسة. خمس سنوات بالتمام والكمال مضت ولا شيء مات في الذاكرة. إنِّي أرى الآن المياه التي كانت تمنعنا من المرور وقوة الرجال الذين قاوموا المطر والجيوش السلطانية وقطعوا الملويَّة بانتصار كبير وبمرارة في الحلق. خديعة القريب يا صديقي أصعب بكثير من قسوة البعيد الآن، كل شيء هدأ، وتوقف الهدير وحلَّت محلَّه الأسئلة المستعصية. نذهب نحو أراض لا ندري ماذا ينتظرنا فيها مزيتنا الوحيدة أنَّنا نحن من اختارها ولم يخترها غيرنا.

ـ الدنيا هكذا أيُّها السلطان الكريم. ذهبتُ إلى إيطاليا ثم إلى إسبانيا ولكنِّي في كلّ الأحوال لم أختر أبداً مساراتي، لقد حدَّدها اللّه سلفاً وهو الذي أهداني نحو المسالك التي قادتني إليك عندما استمعتُ إلى نداءات قلب تلك المرأة العارية الصدر وسط العاصفة لا نصير لها إلاّ اللّه وأنا وأنت.

ثم عانقه طويلاً ولم يستطع الرجلان أن يكفكفا الدمعات التي سالت غزيرة.

ـ القسطنطينة ليست بعيدة ويمكنك أن تزورنا فيها أو في بروسة. إذا عدت إلى هذه الأرض الطيِّبة بناسها الكبار، سأزورك وأراك

ـ إذا بقينا أحياء، الجسد بدأ يتعب.

ـ الأعمار بيد اللّه مونسينيور. كم أشتهي أن أمنح قلبي لكلّ الذين ساعدوني، لسكان بوردو الذين منحوني المحبَّة والحنان. خجل جدًّا أنِّي لم أترك لفقرائها شيئًا يدفئهم ويعوِّض حرمانهم، وآلامهم، كرم الضيافة عند أهل بوردو كان شامخًا. عذري أنِّي لا أملك شيئًا ثميناً أهديه لك سوى هذا البرنس. لكن ما في القلب أكبر بكثير مما ترى.

توقف بواسوني عن الترجمة والتحق ببقية الركَّاب على متن السفينة، لأنَّه شعر في لحظة من اللحظات أنَّ اللُّغة لم تعد عائقًا بين الرجلين. فقد كانا يتواصلان بدونه لا شيء بينهما إلاَّ لغة القلب التي لم تكن غريبة على أيّ منهما.

ثم نزع الأمير برنسه الأبيض الحريري الذي كان يرتديه والذي طرزته أياد نسائيَّة كثيرة من بينها أنامل لالة الزهراء، في قصر أمبواز، وأمضين وقتًا كبيراً لنسجه في ظروف الوحدة والعزلة والخوف من المستقبل الذي بدا غامضًا إلى أقصى الحدود. ثم وضعه على ظهر مونسينيور ديبوش.

ـ هذا البرنس عزيز علي ولا أملك أثمن منه يستحقّ أن أهديه لك.

ـ صداقتك تكفيني وأنا سعيد بذلك.

ثم أحنى الأمير رأسه والتحق ببقيَّة الركَّاب الذين كانوا ينتظرون وصوله.

انطفأ عواء السفينة للمرة الأخيرة الذي تجلّى بقوة تردَّدت أصداؤها عميقًا في كل القلوب وبين دروب المدينة التي تنام عند أقدام البحر ،كما كان يقول الأمير لتعريف المدينة التي مر عبرها. شعر مونسينيور بألم في رقبته مرة أخرى وكان عليه أن يتناساه وبحرارة الحمى تزداد أكثر توغلاً فيه. شعر برجفة عميقة تشبه تلك الرجفات العديدة التي رآها في الناس الذين دخل الموت وجوههم وهو يحاول أن يدفئهم بكلماته الطيِّبة قبل أن يغمض عيونهم للمرة الأخيرة. لفلف جسده أكثر في البرنس الأبيض واحتمى به. شعر بقليل من الدفء. لوَّح الأمير بيديه الاثنتين هو والرجال بينما اندفنت النساء في عمق السفينة باستثناء لالة الزهراء التي ظلَّت تقبِّل بيدها اليمنى وتقبض على مقابض الشرفة الحديديَّة باليد اليسرى.

ظلّ مونسينيور يلوّح بيديه متفاديًا لفحات الميسترال الذي هبّ عنيفاً مع الموجات التي بدأت تتكسر وتتمزّق بقوة.

اختبأت السفينة ولم تبق إلاّ بقايا أدخنتها الكثيفة المتصاعدة إلى أن غابت هي بدورها وسط كتلة الضباب والأمطار التي بدأت تنزل خفيفة قبل أن تزداد كثافتها وقوتها. أدخل مونسينيور يده اليمنى في صدره كعاداته ثم عبر الطريق الذي يصعد من الميناء إلى الخارج قبل أن يجد نفسه في الشرفة الكبيرة المطلّة من بعيد على كل الميناء القديم. التفت للمرة الأخيرة نحو البحر، لم ير إلاّ لونًا نيليًّا انسحب بسرعة نحو بياض أقرب إلى الضباب، إلى الكفن، ثم لم ير شيئًا ليندفن بعصاه الصغيرة بين البنايات العالية المؤدّية إلى المسلك الضيّق، الذي يقود مباشرة إلى كنيسة نوتر دام دو لاغارد Notre Dame-de-Lagarde على رأس الجبل، ويتحوّل إلى مجرد ظلّ يتسلّق الجدران العتيقة ومرتفعات المدينة.

لم أستطع أن أجاريه، فقد كان يعرف وجهته جيّداً

كان ريحًا لا تقاوم.

* * *

- ٨ -

- أووووف . . . نوتر دام دو لاغارد[١] أخيراً.

توقف مونسينيور قليلاً

تنفس طويلاً ثم التفت نحو مدينة مارسيليا التي كانت تنام تحت قدميه على حافة البحر بضجيجها وحركة سفنها. بدا له كل شيء عادياً من أعالي الجبل الذي تنام عليه الكنيسة.

- هاه؟ هذه أقوى مني. هذه الأدراج تحتاج إلى قوة أخرى لم تعد موجودة لديَّ يا جون أنت مازلت قادراً على المقاومة والتحمل.

- مازلت شابًّا يا مونسينيور وإلاَّ لما توصلت إلى قطع كل هذه المرتفعات التي لا يسلكها إلاَّ شاب في مقتبل العمر.

- كلام جميل ولكن قانون الحياة صعب.

---

١ - Notre Dame de-la-garde

ثم مدّ مونسينيور ديبوش كفّه ليقبض على كتفي ويتّكئ عليّ قليلاً لم يكن جسده ثقيلاً ولكنّي كنت منهكًا ومتعبًا لم تبق إلاّ خطوات للوصول إلى كنيسة نوتر دام دو لاغارد، على رأس المرتفع.

ـ جون يا حبيبي، أعتقد أنّ العمر وصل إلى حدوده القصوى. هذه العقبة كنت أصعدها قبل سنوات مغمض العينين، في دقائق، مثل الشاب الصغير، وها أنت ترى اليوم، كل شيء تغير. أشعر بالوهن في الرأس والقلب والتنفس وكأنّ الموت يركض بسرعة غير السرعة التي توقعتها له. عندما أتذكر مرتفع فاليريان[1] وكيف كنّا نصعد أكثر من ٨٠٠ متراً لملاقاة المتصوفين والمنعزلين بزهو كبير؟ وكنّا نصلي لباريس الغارقة في مآزقها، أحزن كثيراً في ١٤٠، في عهد شارل السادس[2] لم يكن بهذا المكان إلاّ دير صغير قبل أن يساعد لويس الثامن عشر[3] على تحسينه، وهناك تم رفع ثلاث كنائس قبل أن تأتي ثورة جويليه وتقضي على كل شيء وطرد سكان الدير مثلما تطرد عصابة سرّاق احتلّت مكانًا بلا شرع ولا قانون. اليوم كل شيء تغير، وعليّ أن أجهد النفس لأصعد ما تبقى من هذا المرتفع الكبير والخلود إلى الراحة.

ـ ما يزال سيدي قادراً على صعود عقبات أقوى من هذه. التعب كلّنا نعاني منه وليس مسألة عمر ولكنّها طاقة الإنسان ثم إنّك في الآونة الأخيرة تحرّكت كثيراً.

---

١ ـ Le mont Valérien

٢ ـ Charles VI

٣ ـ Louis XVIII

خطا مونسينيور ديبوش خطوات معدودات ثم توقف قليلاً في مواجهة البحر الذي بدا بكل اتساعه وجبروته.

ـ أنظر كيف تنطفئ الدنيا وينسحب الذين نحبهم ونضع لهم في القلب معبداً لا يدخله أحد تعرف يا جون، كلّما صعدت إلى هذا الجبل شعرت بسعادة غامرة. من هنا خرج الرجل الذي دوّخ الدنيا بحكمته وكرمه. وسعيد أنّي كنت قليلاً وراء فرج كربته. تعرف ما معنى المنفى؟ ما معنى أن يفقد الإنسان أرضًا أحبّها لابدَّ أنّك تعرف ذلك. تراجيديا الأمير ليست الهزيمة، في الهزيمة يمكننا أن نقبل بقوة الآخر ويكفيه فخراً أنّه قاوم قرابة العشرين سنة، ليس هذا هو المهمّ. التراجيديا هي عندما تستيقظ فجراً وتدرك فجأةً أنَّ الأرض التي نبتَّ فيها ونبت فيها الذين تحبهم لم تعد قادرة على تحملك وأنّك ستموت بعيداً عنها وأنَّ تربتها ستظلّ جائعة إليك وتظلّ أنت كذلك جائعًا إليها هناك جاذبية بين الأجساد والأرض الأولى. لا أحد يستطيع أن يشعر بمأساة الأمير مثلما أشعر بها أنت تعرف ذلك جيِّداً، المنفي كائن بدون وضع اعتباري، C'est l'être sans statut. Je ne dis pas homme parce qu'il ne l'est pas. C'est difficile, mais c'est comme ça. La vie est des fois très injuste envers les plus nobles. أعتقد أنّي كلّما تذكرت الأمير، سآتي إلى هذا المكان للحج. كنت أريده مسيحيًّا يخدم رسالة المسيح العالية، وكنت مستعداً أن أرحل بصحبته إلى البابا لتعميده ليصير واحداً منّا ولكنّه كان أقوى من أن يكون رجل دين واحد، فقد كان مسلما في قلب كل المعارك الكبرى لمصلحة الإنسان.

ـ أنا سعيد أنَّ سيدي أدى واجبه.

ـ وحزين أنَّ البحر الذي يفصلنا زادت شقته وهوته.

صعد مونسينيور أكثر وهذه المرة بدون أن يتَّكئ على شيء. توقف مرة أخرى بعد أن تنفس طويلاً هواء البحر.

ـ ثلاث مدن تتشابه في جمالها ومواقعها وبشرها، مارسيليا من هذا العلو، بونة من أعالي كاتدرائيَّة القديس أوغسطين والجزائر من أعالي القصبة والملك كوكو. كلُّها أمكنة تطلّ على البحر ونوافذ الكاتدرائيَّات بها لا تفضي إلاّ إلى الماء والنور وشهوة التلاشي. كم أحلم عندما أموت أن تخرج يا حبيبي جون وأن تزرع تربتي في البحر فجراً، فقد غادرت تلك البلاد في حالة جوع منها. وأنت تعرف جوع المحب لا يشفيه إلاّ الموت أو اللقاء المستحيل.

ـ مونسينيور، البركة في حياتك.

ـ لا يا جون، الحياة والموت هما مجرد مسافات وهميَّة لشيء خالد هو الأبديَّة. نأتي عراة ونعود عراة، نخرج بصرخة ولادة ونعود مكتومي الأنفاس بعدما تأكَّدنا من صغرنا، محمَّلين بأسئلة معقَّدة كنَّا نظنّ أنَّنا وجدنا لها إجابات، ولكنَّنا كلَّما اقتربنا، انسحبت الإجابات مخلِّفة تحتها فيضاً من الأسئلة. هذا هو الإنسان يا جون. لا نستطيع أن نقاوم الأقدار المسطورة، ولكنَّنا نستطيع أن نغيِّر في حركة الأشياء بالشكل الذي يجعلها متوازنة مع العقل فقط بدون أن يعني ذلك أنَّنا حولّنا الأقدار عن مداراتها الكبرى التي لا قوة لنا عليها يا اللّه، خذ يدي.

ـ حاضر يا سيدي.

رددت بجملة مقتضبة لأنّي أنا كذلك، كان التعب قد أنهكني. من الصعب جداً مجاراة مشية مونسينيور ديبوش عندما يعرف مسلكه.

ـ أعتقد أنّ اللّه يحبني ولهذا وضعك في مسالكي الوعرة، ولا أدري إذا كنت محظوظاً بلقائك معي، فقد أنهكتك بما فيه الكفاية.

ـ لا تقل هذا يا مونسينيور، وجودي معك هو وحده تكريم لي.

عندما التفتُ للمرة الأخيرة نحو البحر، قبل أن يندفن في عمق الكنيسة، لم أر ما كان يراه، ولكنّي رأيت مونسينيور وهو يتهاوى من هذا العلو الشاهق، صحته لم تعد على ما كانت عليه. لقد صار يقوم كثيراً في الليل ولا ينام إلاّ قليلاً، ظهره يؤلمه وقفاه عندما تشتدّ عليه الآلام، ينام وهو يشدّ على رأسه بكل قوة ولا تخرج من فمه أيّة صرخة أو أيّ تأوه. يكزّ على أسنانه ثم ينام في وضع جنيني ولا أستطيع حتى إيقاظه مخافة أن أوقظ مرضه القاسي.

لم أر البحر الذي كان يراه ولكنّي رأيته وهو يموت بين يدي.

* * *



الوقفة الثانية عشرة

قاب قوسين أو أدنى



الأميرالية (٤)

اصطف الناس على الحافّة في شكل سلسلة بلا حدود من شارع الامبراطورة حتى الأميراليَّة مروراً من شارع البحريَّة المكمل الذي ينفتح على البحر وعلى قصر الرياس. شيء من الحزن ممزوج بسعادة غامضة. بعد سنوات عديدة من تعيينه كأول قس للجزائر من طرف البابا غريغوار السادس عشر سنة ١٨٣٨، واستقالته بعد ثماني سنوات، يعود مونسينيور ديبوش الذي سخَّر كل حياته للآخرين ولم يتلق إلاَّ المنفى والمتابعة. لكنَّ امرأة تجاوزت الأربعين قليلاً كانت تركض بين الجموع تجرّ في يدها شابّة يافعة العمر تبحث عن مونسينيور بافي المتوجّه بين الجموع نحو سفينة الطاميز الراسية في الميناء. على الرغم من دفعها بعيداً العديد من المرات كي لا تقترب من مونسينيور بافي[١] إلاَّ أنَّها وصلت إليه وانحنت عند رجليه:

١- Monseigneur Pavis, évêque d'Alger

ـ مونسينيور، أنت لا تعرفني لكنّي أنا أعرفكم، وكم كنت أودّ أن أنحني أمام هذه العظام لأشكرها لأنّها أنقذت زوجي الذي لا يعرف كيف يشكر مونسينيور ولا الأمير الذي بقي بجانبه حتى سفره إلى بروسة. جئته في البروق والعواصف، كنت مقطّعة اللباس، في يدي رضيعي الذي لم يكن يأبه بشيء، لم تبق فيه إلاّ العينان. عندما أخبرت مونسينيور ديبوش عن زوجي السجين، نسي نفسه وذهب حتى الأمير وأنقذ زوجي من موت محتوم. أريد فقط أن أمدّ يدي نحو نعشه وألمسه وأطلب الصفح منه. كنت أتمنّى أن أرحل إلى بوردو وفعل ذلك، ولكن الأقدار منحتني هذه الفرصة، هنا، في المكان نفسه الذي دخلت عليه ذات شتاء. أرجوك يا سيدي لا تخيب رجائي.

تردّد مونسينيور بافي قليلاً قبل أن يسمح لها بمرافقته.

ـ تفضّلي.

ـ اللّه يكرمك مثلما أكرمتني. هذا الرجل يستحقّ أكثر من هذه الوقفة. منحنا لحمه ودمه ولم نمنحه إلاّ النسيان والمنفى القاسي

كانت الساعة الخامسة مساء عندما أطلقت سفينة الطاميز زمورها الثقيل، توقف الميناء عن كل حركة، وتوغل مونسينيور بافي ومرافقوه في المراكب التي قادتهم نحو عمق السفينة. احتضنت المرأة التابوت طويلاً بينما اكتفى مونسينيور بافي بلمسه والتمتمة وتسجيل إشارة الصليب عليه. التفت بعد ذلك نحو الوفد المرافق للرفاة الأب سوشي[1] وبورجيس، خوري فلواراك وابن أخيه

١ ـ L'abbé Suchet

البارون دو سانت ـ سوران[1] والراهب روسي[2] ليخرج الجميع تحت هتافات الحاضرين في الميناء، يتقدَّمهم فيلق من قناصي إفريقيا وفوج من الجندرمة وفرقة الفونفار والطبول التابعة للفرقة ٣٦ كانت سفينة الطاميز تطلق زمورها إلى أقصاه ليسمعه القريب والبعيد عن البحر. انطلق الركب بمجموعته الصغيرة باتجاه الأميراليَّة متبوعًا بكليرجي المدينة وأعيان كنائس الجزائر والأطفال اليتامى، وأخوات السان ـ فانسون دو بول[3]، نساء وتلاميذ كاتدرائيَّة العاصمة والسمناريست والناس الطيِّبين وهتافات الآلاف من الحاضرين الذين ملأوا حوافي شارع الإمبراطورة الممتدّ على طول البحر والمطلّ على الميناء، ومن أعالي الشرفات المزيَّنة بالأقحوان، ليلقوا النظرة الأخيرة على رفاة مونسينيور أنطوان ديبوش المحمولة على عربة عسكريَّة. على غير عادته، امتلأ شارع الإمبراطورة في طرفيه بالأعلام الملوَّنة.

سار الموكب تحت الألوان في صمت وخشوع كبيرين باتجاه الأميراليَّة، حيث منحهم القائد الأعلى للبحريَّة فضاء مؤقتًا في انتظار إتمام المكان الذي يليق بمونسينيور.

تحت ظلال الأميراليَّة تمَّ تحضير قداس جنائزي كبير كان أول المتدخلين الراهب روسي الذي قدم الرفاة إلى مونسينيور بافي باسم عائلة الفقيد وسماحة الكاردينال دوني[4] وسكان مدينة بوردو

---

١ ـ Le Baron de Saint-Surrin

٢ ـ Le channoine Rousset

٣ ـ Les soeurs de Saint-vincent de Paul

٤ ـ Le cardinal Donnet

«لقد انصتنا يا سيدي إلى صوت قلبك وأنت تطالب بضرورة عودة رفاة مونسينيور ديبوش. أصدقاؤه كانوا يودونه قريبًا منهم لزيارة قبره ولكنَّه كما قلتم وعلى الرغم من العناية الفائقة، فقد كان مونسينيور أنطوان ديبوش ينام في عمق المنفى. صحيح أنَّه كان بين ذويه ولكن الجزائر كان من حقّها أن تطالب بعودته لها. وأشعر به الآن يغط في سعادة عميقة وهو يرى من أعالي المجد، الأرض الطيِّبة التي تنام عليها رفاته التي عادت إلى تربتها الإفريقيَّة التي أفنى عمره في حبها... ها هي ذي بقايا مونسينيور الثمينة نضعها بين أيديكم باسم سماحة الكاردينال دوني، كبير أساقفة بوردو الذي كان ابنه المفضّل، باسم عائلته وباسم أصدقائه الذي يبكون غيابه، والذين يشكرونكم على هذا الكرم وهذا التكريم الكبيرين»

كان الهواء البحري قد بدأ يلفح الوجوه الواقفة بصمت كبير بقي جون موبي في الخلف يحاول أن لا يعيق حركة مونسينيور بافي ومرافقيه، بدون أن يتجرّأ على اختراق الحلقة التي كانت تطوِّق الموكب.

تردَّد مونسينيور بافي، خليفة مونسينيور ديبوش في الجزائر كثيراً وهو يحاول أن يعدل من هندامه ويقف باستقامة، قبل أن يأخذ الكلمة بدوه:

«إنِّي أشكر عميقًا مدينة بوردو التي منحتنا كنزها الكبير وأشكر سماحة الكاردينال الذي أرجع لنا ما كان بإمكانه أن يحتفظ به كملكيَّة للكنيسة ما دام المتوفى ابنها البار وأداتها النشطة لنصرة الحقّ والخير أشكر بالخصوص عائلة مونسينيور ديبوش، البارون دو سانت ـ سوران، حفيده الحاضر معنا والذي قبل بألم أن يفارق الرفاة التي هي ملك لعائلته الطيِّبة. ولكن ليتأكَّد الجميع أنَّ هذا الرجل الطيِّب ملكهم وملكنا جميعا في الوقت نفسه. فلا مسافات بين الأرواح الطيِّبة».

ثم أُنزِلَ التابوت إلى تحت، في مكان مؤقت في انتظار نقله إلى الكاتدرائيَّة بعد ثلاثين يومًا بسبب عدم إتمام مكان الاستقبال. بعد اهتزازات عديدة استقر التابوت باستقامة متناهية في ظلمة لم تكن تخترقها إلاَّ الشمعات التي كانت تشتعل بسخاء وتتآكل في صمت. كتب على الحائط البحري الخشن الذي أسند عليه التابوت شعار مونسينيور ديبوش الذي شغله طوال حياته: Ita et nos faciamus[1]

عندما افترق الجميع، حكّ مونسينيور بافي على رأس جون موبي قبل أن يخرج وهو يردِّد على مسمعه بشيء قريب من التمتمة:

ـ وفاؤك عظيم يا جون موبي. اللّه لا ينسى تفانيك في خدمة الآخرين. يحقّ لك اليوم أن تفخر بصحبة هذا الرجل الكبير.

ـ مونسنيور، لم أفعل أكثر من واجبي. أتمنى.

ـ لا تشغل بالك يا جون. مكانه في الكاتدرائيَّة. سنحتفل بترحيله الأخير وسيكون في صحبة الناس الأتقياء الذين عرفهم أو الذين عرفوه من أعماله الخيريَّة. لن يزعجه أحد، سيخلد إلى الراحة الأبديَّة في مدفن الكنيسة الواقع في الجهة الخلفيَّة من الكاتدرائيَّة. مسألة وقت، لا تشغل بالك. لقد أديت واجبك باكتمال كبير

ـ شكرًا يا سيدي.

ثم غادر مونسينيور بافي المكان مصحوبًا بمن كان معه. كانت ترتسم على وجهه النحيف وفي عينيه الحادَّتين، علامات سعادة غامرة التبست بخيوط النور المتسربة من شقوق الأبواب القديمة.

* *

---

١ ـ إفعلوا مثلي.

- ١ -

أشعل جون موبي سبع شمعات إضافيَّة لإنارة المكان المظلم أكثر، ولم يستطع أن يكتم تمتماته التي راحت تخرج بسرعة برقيَّة وكأنَّه كان يحفظها عن ظهر قلب: «هذه الشمعات لك وللرجل الطيِّب الذي قضيت العمر كلّه تدافع عنه باستماتة واضعًا على ظهرك حقد الكثيرين، أملاً أن يمنحه اللّه ما منحك إياه، فرصة العودة إلى التربة الأولى التي عجنت لحمك وعطفك. أعرف أنَّك ستكون سعيداً عندما تسمع أنَّه هو كذلك عاد إلى تربته الأولى. هكذا البشر مثل الطيور، لا تهجع أرواحهم إلاَّ في الأمكنة الأولى التي عجنت أحلامهم وطفولاتهم».

ثم أحنى جون رأسه للخروج من البوابة الصغيرة وغادر مخازن الأميرالية.

كانت النوارس تتوجَّه أسرابًا أسرابًا باتجاه مخابئها، وراء المنارة الكبرى التي توجِّه ليلاً عابري البحر، إلاَّ زوجًا ظلاَّ يحلِّقان على

ارتفاع منخفض من بناية الأميراليَّة حيث ينام مونسنيور قبل أن ينزلقا بين فجوات الأبواب المغلقة ويتوغّلا عميقًا

كان البحر مثل المرآة، عكس جسده بكل انعكافاته وانكساراته وخيباته. نظر إليه مليًّا، لم ير شيئًا ولكنَّه توغل أكثر نحو الميناء، عندما اقترب من سفينة الطاميز، تأمَّلها جيِّدًا من بعيد، لم ير إلاَّ وجه مونسينيور ديبوش وهو يرفع رأسه ويعدِّل من برنسه ويرفع يده عاليًا لتوديع الأمير للمرة الأخيرة في مرسيليا ليغيب بعدها وسط أدخنة الميناء الكثيفة. لاحظ أنَّ لون البحر يتغير بعمق كلَّما بدأت إشراقات القمر الصيفي، من زرقة حادّة في مثل هذا الموسم إلى لون نيلي يميل نحو البنفسجيّ الغارق في بياض ناصع رغم حمرة الفجر في الخريف.

عندما التفت نحو المدينة الأندلسية التي كانت تتسلَّق مرتفعات القصبة، شعر بشيء نادر لا يحدث إلاَّ في أيام الصيف، حيث تخبو العواصف وتفتح المدينة صدرها لشمس دافئة ثم حادّة، ثم في المساء عندما تخف يبدأ سكان القصبة في رش حدائقهم وأحواشهم بالماء الممزوج بماء الزهر والحبق والنوار والتمدُّد تحت الليمونة التي تعرَش في المراح على وقع هواء خفيف ينبعث من البحر الذي لا ينام أبدًا

شعر بثقل ما في رجليه وهو يبتعد عن المرفأ غدًا، عليه أن يحضر نفسه لركوب السفينة التي نقلت رفاة مونسينيور ديبوش. هل سيمنحه اللّه الشجاعة الكافية لمغادرة هذا المكان الصعب الذي يلتصق بالذاكرة بسرعة؟

عندما التفت للمرة الأخيرة نحو المنارة، لم ير شيئًا إلاّ بقايا النوارس التي ضيعت حركة الميناء أعشاشها، وهي تذهب جماعات جماعات باتجاه مباني شارع البحريَّة التي تدخل في عمق البحر حتى رأس البنيون[1]، حيث لا شيء إلاّ الماء والصفاء البدائي الأول. لا أثر لأقدام البشر الحفاة أو العراة أو الذين ينتعلون الأحذية الخشنة، وذاكرة ما تزال حبيسة لا تتكلم إلاّ قليلاً، وعندما يخونها لسانها وتنزل أكتافها تعوي مثل الذئب الجائع وتأتي على حافة البحر وهناك تنتحر جوعًا وعطشًا

لا شيء أبداً سوى الماء وطيور أصيبت بالرعشة والخرس فجأة. وعندما تصمت الطيور والنوارس التي تبحث باستماتة عن أعشاشها عميقًا في مداخل منارة الميناء القديمة، وتُهزم عيونها الصغيرة وسط الظلمة وأشعة الشمس المنكسرة، هذا يعني أنَّ شيئًا جسيما قد حدث، أو ربما هو بصدد الحدوث.

باريس ـ الجزائر، خريف ٢٠٠٤

١ - Le Pénion

صدر للكاتب / الروايات

البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل). دمشق / الجزائر ١٩٨٠

وقع الأحذية الخشنة. بيروت ١٩٨١

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ ٢٠٠٢ Libre Poche)

ما تبقّى من سيرة لخضر حمروش. دمشق ١٩٨٢

ـ نوار اللوز. بيروت ١٩٨٣ – باريس للترجمة الفرنسية ١ ٢

ـ مصرع أحلام مريم الوديعة. بيروت ١٩٨٤

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ ١ ٢٠ Libre Poche)

ضمير الغائب. دمشق ١٩٩٠

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ ٢٠٠١ Libre Poche)

ـ الليلة السابعة بعد الألف: رمل الماية. دمشق / الجزائر ١٩٩٣

- **الليلة السابعة بعد الألف**: : المخطوطة الشرقية. دمشق– ٢٠٠٢
- **سيدة المقام**. دار الجمل– ألمانيا/الجزائر ١٩٩٥
  (سلسلة الجيب: الفضاء الحر–٢٠٠١ **Libre Poche**)
- **حارسة الظلال**. الطبعة الفرنسية. ١٩٩٦– الطبعة العربية ١٩٩٩
  (سلسلة الجيب: الفضاء الحر–٢٠٠١ **Libre Poche**)
  ذاكرة الماء. دار الجمل– ألمانيا ١٩٩٧
  (سلسلة الجيب: الفضاء الحر–٢٠٠١ **Libre Poche**)
- **مرايا الضّرير**. باريس للطبعة الفرنسية. ١٩٩٨
  شرفات بحر الشمال. دار الآداب. بيروت ٢٠٠١

المحتويات

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ، ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد هو أول رواية عن الأمير عبد القادر. لا تقول التاريخ لأنّه ليس هاجسها؛ ولا تتقصّى الأحداث والوقائع لاختبارها، فليس ذلك من مهامها الأساسية. تستند فقط على المادة التاريخية، وتدفع بها إلى قولِ ما لا يستطيع التاريخ قوله. تستمع إلى أنين الناس وأفراحهم وانكساراتهم، إلى وقع خطى مونسينيور ديبوش، قسّ الجزائر الكبير، وهو يركض باستماتة بين غرفة الشعب بباريس وبيته للدفاع عن الأمير السجين بأمبواز. رواية كتاب الأمير، فوق كل هذا، درس في حوار الحضارات، ومحاورة كبيرة بين المسيحية والإسلام، بين الأمير من جهة ومونسنيور ديبوش من جهة ثانية.

فازت هذه الرواية بجائزة «الشيخ زايد» لأفضل عمل روائي لعام ٢٠٠٧.

ووفاءً لوعدٍ قطعه الروائي واسيني الأعرج للشاعرة نور قحطاني، فإنّه يتنازل عن حقوقه في هذا الكتاب والكتاب الذي سبقه لجمعيات الأطفال المرضى بالسرطان.

ISBN: 978-9953-89-059-3
9 789953 890593